المجلّد الرّابع والعشرون

الأَدَبُ والنَّقْدُ -١-

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الرابع والعشرون

الأدب والنقد -١-

يحتوي على

خلاصة اليومية والشذور

الفصول

الديوان في النقد والأدب

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة

رقم الإيداع
١٩٩٠ / ٤٥٦٨
I.S.B.N. 977 - 238 - 107 - 9

دار الكتاب المصرى
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج م ع
ت [illegible] ٣٩٢٢٠٠ - ٣٩٢٤٦٥٧ فاكسميلي ٢٠٢
ص ب [illegible] - برقيا كتامصر
TELEX No 23081 - 23381 22181
ATT MR HASSAN EL - ZEIN
FAX (202) 3924657

دار الكتاب اللبنانى
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦٠٧٩٢ فاكسميلي: ٩٦١١١٣٥١٤٣٣
ص.ب ٨٣٣٠ ١١ أو ١٢٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
برقيا: الكتاب
TELEX DKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX (9611) 351433

الطبعة الثانية
١٤١١هـ - ١٩٩١م

Second Edition
1991 A.D — H 1411

عباس محمود
العقاد

خلاصة اليومية والشذور

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

يعرف قارىء العقاد أن كلام العقاد في أبسط الأمور وأهونها لا يقل شأناً عن كلام العقاد في أعظم الأمور وأكثرها خطراً ، فالعقاد هو العقاد في أبسط كتاباته وفي أكبرها شأناً وذلك لأن العقاد عاهد نفسه منذ أمسك بالقلم أن يكون كاتباً مفيداً نافعاً وأن تكون حياته كلها التزاماً للقلم ولخدمته ولرعاية قضاياه ، فالعقاد لا يلتزم في كتابته كما قد نقول في لغة هذه الأيام ولكنه يجعل حياته كلها التزاماً للقلم ورسالته .

لهذا لا نكاد نشرع في قراءة هذه الفصول الأولى التي دبجها قلمه والتي رعاها بفكره في أول عهده بالقلم حتى نحس بأننا إزاء فصول تعبر عن مكنون فكره وجوهر مشاغله الفكرية والأدبية ، وحتى ندرك أبعاد روحه في تطلعها نحو اكتشاف الطريق الذي يليق بشخصه والذي يجدر به أن يتابعه وأن يحقق من ورائه مهمة الكاتب الحريص على كرامته وعلى أسلوبه .

ولا نملك بعد استعراض فصوله الأولى إلا أن نعترف بأن العقاد لم يكن يتحسس طريقه وحسب في هذه الفصول وإنما كان يرسم معالم خط طويل من التفكير والجهد والتدبير والعناء فقد زج العقاد بنفسه منذ أول كلماته في خضم تيارات الفكر العالمية على نحو لم يسبق إليه مناقش

مبادىء الفلسفة العويصة بأسلوبه المباشر الجميل وبعباراته العقلية الثمينة وتحدث عن جملة فلاسفة غربيين أبرزهم شوبنهور ونيتشه وعالج موضوعات تمس الاشتراكية وتمس كيان المجتمع واللغة والأدب والشعر والفن وتحدث كثيراً عن الأساطير اليونانية وحاول أن يصل بين الفكر العربي والفكر الغربي بأسباب ووشائج وحض النشء على أن يغترفوا من مناهل العلوم الاوربية المستحدثة وأساليبها الثمينة .

ولم يأت ذلك كله عرضاً في حياة العقاد لأنه توسم في نفسه منذ البداية أنه قادر على أن يخلق شيئاً جديراً باهتمام الأجيال كلها وأن يضع اللبنات الأولى في بناء فكرمدعم بالعقيدة وبالإخلاص وبالقدرة النفاذة مما لم يعهده المجتمع من حوله فكان الكتاب الأسلوبيون يملؤون الصحف والمجلات والكتب في ذلك الوقت بأبحاثهم الإنشائية البحتة وبمقالاتهم الأدبية الخالية من الاهتمام الجاد ومن التركيز الفعال السليم ويقضون كافة وقتهم في إنشاء العبارات إنشاءاًوفي تحرير الأبواب على سنةالقدماء فانبرى العقاد لهم يكره التقليد ويأنف من التعبير المرتجل وتستهويه العبارة الذهنية الهادفة ويحاول أن ينير الطريق أمام شباب الجيل بأثره ليجد من وراء كلماته النموذج الحقيقي لأسلوب الكاتب الذي يكره التقليد ويحارب التعبيرات المحفوظة وينأى بأسلوبه عن متابعة السلف وينفر من التكرار وتقصيع الجمل وترديد المترادفات وبطء التفكير ورتابة الفقرات . . يفعل العقاد ذلك كله من أجل ترسم خطى جديدة ومن أجل ابتعاث دماء شابة ومن اجل بث النضارة في الأفهام والعقول وفي الأقلام والكلمات .

ومن بداية الطريق يشعر القارىء بأن الكاتب نشأ ليعاني وخلق ليشق عباب تيارضخم وليحمل أعباء التبعات والمسؤوليات في التوجيه

والرأي فهو لا يكتب شأن غيره من كتاب ذلك الوقت ليرصّ الكلمات بعضها إلى جانب بعض وإنما لينفذ إلى العقول وليبني خطة المستقبل وليهزّ المشاعر والقلوب .

ونحن إذ نقدم هذه الباقة من فكر العقاد وأدبه إلى جمهور القراء في اللغة العربية نهدف إلى إظهار بشائر فكره في أول عهده بالكتابة حتى يتبينوا الجذور والبراعم الأولى التي أينعت فوق قلم العقاد وحتى يعرفوا أين وجد العقاد بداياته وأولى خطاه وسنعمل دائبين على إظهار كل مؤلفات العقاد التي لم يعد يعرفها القارىء الحديث خدمة لفكره وحرصاً على أن تتم صورة العقاد في أذهان محبيه من أول عهده بالقلم إلى آخر حياته .

محمود أحمد العقاد

خلاصة اليوميّة

كلمة

« من أراد أن يقرأ عن الناس »
« والعالم ما يسره فيخلق للكتاب »
« ناساً جدداً في عالم جديد »

تدور هذه النبذ على نقط ثلاث :

أولا : إن كل ظواهر هذا الكون ، علويها وسفليها ، ظاهرها وباطنها - نتيجة تفاعل « القوى » المختلفة . وكذلك الأمر في الاجتماع البشري .

ثانياً : إن اللذة والألم . وبعبارة أعم . المنفعة والضرر هما الدعامتان اللتان عليهما تقوم كافة الأخلاق البشرية .

ثالثاً : إن الإنسان حيوان راق ولكنه لا يزال حيواناً . فمن كان فخوراً بعالمه شديد الاعتداد بإنسانيته فهي لا تروقه وربما نفر منها طبعه . ومن كان يقرأ ليقتنع أكثر مما يقرأ ليرضى فإياه عنيت بنشر هذه اليوميات .

عباس محمود العقاد

الجامعة الإنسانية :

إن انفراد كل صقع بخصوصية تميزه عن سواه وتقدم الناس إلى الاشتراك جميعاً في الحاجة إلى تلك الخصوصيات بنسبة اتساع مطالبهم تبعاً لتقدم العمران مما يدل على أن كل الناس مرتبطون بكل الأرض وأن حواجز الأوطان ستطمس معالمها لتصير الأرض الوطن العام لنوع الإنسان .

وهذه الحركة الاقتصادية التي جاذبت بين أبعد الشعوب لتبادل المنفعة ستؤدي حتماً الى أن توحد المصالح العامة بين الأمم بحيث تتضامن كلها في الانفعال بالعوامل الاقتصادية التي تؤثر على بعضها وهو ما يؤذن بانقضاء الحروب وسيادة السكينة والسلام .

وما زالت العوامل الاجتماعية منذ القدم تقذف بالإنسان في دائرة أشبه بزرد الماء يتسع محيطها شيئاً فشيئاً فيشمل في كل دور ما كان خارجاً عنه في الدور الذي تقدمه ، فأن تكون القبيلة من العائلة والشعب من القبيلة والأمة من الشعب والجامعة من الأمة يؤذن بأن الخطوة التالية ستتقدم بنا إلى الغاية التي طالما اشتغل كبار المصلحين لتحقيقها . وهي دخول أمم الأرض جمعاء تحت لواء جامعة واحدة . هي الجامعة الإنسانية .

الفضيلة والرذيلة :

الفضيلة والرذيلة كلمتان لما اصطلح جماعات الناس على الاعتراف به أو انكاره باعتبار نفعه أو ضرره . والمعروف والمنكر وهما من مرادفاتهما في العربية تؤديان هذا المعنى تمام الأداء . فما كان يعد فضيلة عند قوم يعد

رذيلة عند قوم آخرين تبعاً لما ينجم عنه من النفع أو الضرر عند كل منهما . وربما كان العمل الواحد في الأمة الواحدة يعتبر فضيلة في هذا الزمن أو ذاك ورذيلة في زمن آخر .

انحطاط الشرق :

علة انحطاط الشرقيين أنهم جعلوا لتنازع البقاء ميدانين فلم يبالوا أن يخسروا الصفقة في هذا العالم ليغنموها في العالم الآخر . وساعدهم على ترك الاشتغال بشؤون هذا العالم أن خصب الطبيعة في الشرق قد جعل طلب الضرورات المعيشية مما لا يلجي إلى التدافع والزحام كما هي الحالة في الأصقاع التي لا يتأتى فيها استثمار الرزق وتوفير أسباب الحياة إلا بوسائط الكد والاستنباط . فكانت الدعة والرخاء من أكبر العوامل التي صرفتهم عن عالمهم إلى تطلب السعادة الكمالية في سواه .

جنون النبوغ :

إذا كان الجنون بنوع ما عبارة عن مخالفة ما جرى عليه العرف بين الناس فالنبوغ نوع من الجنون . فان النابغة يستهين بالتقاليد المرعية بين الجمهور لانه لا يعرف وجهاً للتمسك بها إما لأنها عقيمة في ذاتها أو لأنها كانت صالحة أو ضرورية في زمن من الأزمان ثم عادت غير ضرورية في الوقت الحاضر .

التشبيه الشعري :

ملكة التشبيه تقوى حيث تضيق دائرة الأشياء فإن المتكلم يحاول أن يقرب إلى سامعه مالا يعرفه وهو كثير بتشبيهه بشيء مما يعرفه وهو قليل . ومن ثم كان أهل البدو والريف أقدر على التشبيه من الحضريين وسكان

الأمصار . ولقد كان الشاعر دائماً أسبق من العالم في التاريخ ، فإن الإنسان يحس أولاً ثم يفتكر . فتسحو القرائح في عهد البداوة وينبغ الشعراء في الأنحاء التي لم يستبحر فيها العمران أكثر مما ينبغون في غيرها .

إرادة المصري :

المصريون لم يشعروا بافتقارهم إلى الإرادة إلا بعد أن قسرتهم المزاحمة الأجنبية على الأعمال التي للإرادة دخل فيها . فأما قبل ذلك فكانت أعمالهم من أغنى الأعمال عنها . فلا اعتدال الجو ولا ارتفاع النيل ولا امتناع الآفات ولا جودة المحصول مما يترتب على توجيه إرادة الزارع . بل كل ما يحتاج إليه في صناعته شغل آلي شاق بعيد عن إشراف القوى العقلية .

بقايا الحيوانية في الإنسان :

العواطف عبارة عن انفعالات جسدانية لا سلطان لأعمال العقل عليها . وهي في الإنسان راجعة إلى أقدم عهده بالهمجية بل بالحيوانية الأولى أيام كانت كل أمياله وأطواره أفعالاً تقوم بها وظائف جسده من تلقاء نفسها حسب مطالبها من سد جوعة أو قضاء شهوة أو ري ظمأ أو دفع أذى . فالرجل الهمجي ومثله الجاهل الفطري ليست مدركته إلا مجموعة إحساسات عالية أو خسيسة ليس للنظر والتروي مجال بينها . وما كان في جميع حالاته إلا آلة تقذف بها طبيعته حيث شاءت . ولكنه في المجتمعات الواقيةحيث يرتبط الرجل مع بقيةالأفراد بواجبات وأصول جبريةولا يعود حيواناً مرسلاً مع أهوائه وشهواته ، يضطر بحكم البيئة إلى الضغط على

عواطفه انصياعاً لأحكام المصلحة والعقل ويزداد ذلك كلما ازداد الإنسان حاجة إلى التعقل والاستغناء عن قوة الساعد في حفظ ذاته .

فالقليل الذي بقي من عواطفنا وأميالنا اللدنية التي لا تجيبنا إذا سألناها لماذا ، مصيره إلى التواري والاختفاء حتى يسود حكم العقل على جميع أعمال الإنسان .

العمل والأمل :

الغربي والشرقي يتشابهان في أن لكل منهما غرضاً من حياته ولكنهما يتفاوتان في التوفيق بين الأمل والقدرة على تحقيقه . فالغربي إذا طمح إلى أمر عمد إليه من طريقه فالجندي يحاول أن يكون قائداً والمدروز تاجراً والصانع صاحب معمل وهلم جرّاً . أما الشرقي فأمله مبهم غامض لا تتميز له وسيلة ولا تتضح إليه سبيل . يحب كل إنسان أن يكون أحسن إنسان كما لو كان يحب ذلك لإنسان سواه . أي من غير أن يأخذ للأمر أهبته أو يدبر له عدته . فكثر في أقاصيصنا ذكر أمثال قص شبيك لبيك وبساط الريح وطاقية الإخفاء وقضيب السحر ومسحوق الكيمياء وغيرها مما يرد في ألف ليلة والأحاجي التي يقصها عجائزنا على أسماع صغارنا قبل أن تفتح لهم أبواب الآمال ، فينشأون على التراخي والتواكل وترك تحقيق أمانيهم إلى الصدفة والاتفاق .

الفيلسوف :

ـ ليس الفيلسوف صاحب المذهب الشاذ أو المبدأ الغريب ولا هو بالرجل الواسع الاطلاع أو المتفوق على غيره في ملكاته ومواهبه . الفيلسوف الحقيقي هو الباحث الذي لا ينشد إلا الحقيقة . ينشدها لا

ليراها في شكل منتظر أو هيئة مرموقة أو ينظر إليها في ظل مبدإ من المبادىء فيكيفها كما ترسم مخيلته وتوحي إليه موروثاته ومعتقداته وأغراضه . ولكن لتظهر أمامه كما هي بالوجه الذي تظهر به في كل آن . عارية عن غواشي البراقش والزركشات ، هو المفكر الذي لا يتسلط عليه رأي من الآراء أو يملك ذهنه غرض من الأغراض بل يأخذ في البحث سواء لديه على أي نتيجة طلع منه . فليس فيلسوفاً ذلك الباحث الذي يقدم على موضوعه برأي مبدئي يتشيع إليه فيما هو بصدده أو ذلك السفسطائي الذي لا هم له من أبحاثه إلا أن يجد له برهاناً يسند إليه ما تلقاه من غيره عن طريق الوراثة أو التلقين .

الحسد :

ليس الحاسد هو الذي يطمع أن يساويك بأن يرقى إليك . بل هو الذي يريد أن تساويه بأن تنزل إليه . ومن هذا القبيل الرجل العياب الذي يتبع عورات الناس وسقطاتهم لينزل بهم إلى مستواه ويتغافل عن حسناتهم عمدا لأنه يعلم من نفسه العجز عن الإتيان بمثلها .

المطالعة والتجارب :

التجارب لا تقرأ في الكتب ولكن الكتب تساعد على الانتفاع بالتجارب .

الشعر والألفاظ :

الشعر صناعة توليد العواطف بواسطة الكلام . والشاعر هو كل عارف بأساليب توليدها بهذه الواسطة ، يستخدم الألفاظ والقوالب

والاستعارات التي تبعث توّاً في نفس القارىء ما يقوم بخاطره - أي الشاعر - من الصور الذهنية . والألفاظ نوع من اختزال المعاني تشير إلى ما لا يمكن وروده منها على اللسان أو هي رموز يقترن كل منها بخواطر وملابسات تتيقظ في الذهن متى طرقه ذلك اللفظ ولا يشترك فيها معه لفظ آخر وإن ترادفا في ظاهر المعنى فالمترادفات لا تتشابه في المدلول تماماً . والكلمة في لغة لا تفيد معنى مقابلتها في لغة أخرى . فليست المعاني منطوية في أحرف كلماتها ولكنها ترمز إليها ولا مجرد النطق بكلمة يكفي لاستحضار معناها عند كل من يسمعها على السواء . فتختلف الكلمة الواحدة في قوة استحضار المعنى باختلاف مدلولاتها وملابساتها عند السامعين والتفطن إلى هذا الفرق الدقيق بين معاني الألفاظ والتلطف في أداء كل منها في موضعه يدخلان في الملكة التي يحتاجها الشاعر ليكون شاعراً مجيداً ولا بدَّ لها من أن يكون للشاعر استعداد فطري لتلقي العوارض والمؤثرات التي تقع تحت شواعره حتى يلم بأسرار النفس وكيفية تطرق الاحساسات المختلفة إليها . وأن يكون قد انطبع في ذهنه نخبة من صور تلك الاحساسات ممثلة في قوالب جماعة من فحول الشعراء ليعلم بالمقارنة بينها أيها أحكم تمثيلاً وأبلغ وقعاً وأسرع توجهاً إلى العاطفة المخاطبة به حتى يتسنى له أن ينقل ما يشاء منها إلى نفس غيره . ولا يحتاج الأمر في الشعر إلى الجلاء والإبانة كما هو في النثر فإنه كما تقدم يقصد به التأثير ولا يقصد به الاقناع . والعواطف قد تتأثر بالعبارة المفاجئة أشد من تأثرها بالعبارة ذات القضايا المرتبة والمعاني الجلية . فقلَّ أن ترى كبار الشعراء يتكلفون الشرح والتفصيل فيما يريدون الإعراب عنه كما يتكلفهما المبتدئون منهم لأنهم أخبر بوسائل التأثير وأعرف بالألفاظ التي لها وقع أبلغ من غيرها على الاحساس .

حب الظهور :

الشغف باستلفات الأنظار عام بين جميع الناس ولكن منهم قوماً يظهر كأنهم يطلبونه بألسنتهم وقوماً كأنهم يحرزونه بالرغم منهم ومن الناس .

التعصب الديني في المستقبل :

طبيعة الدين ليست عدائية وإن ظهر لأول وهلة كأن في هذا القول شيئاً من المخالفة للواقع .

حفظ الذات أقوى غرائز النفس الإنسانية . والعواطف المتفرعة عنه أقوى العواطف . تحرك الإنسان المؤثرات أو لاتحركه بقدر ما تمس هذه الغريزة . والإنسان بطبيعته في حالة سلم مع بقية الناس ، فالنزاع عارض طرأ من اشتراك إنسانين فأكثر في الحاجة إلى العروض الخارجية ، وإن مجرد وجود تلك العروض بحالة لا يظفر بها إلا من غلب ، بين فريقين متساويين في الحاجة إليها وعدم الاستغناء عنها ، يحسب في ذاته إعلاناً من كل منهما صريحاً بإشهار الحرب إلى أن يظفر أحدهما بحاجته .

فالدين باعتباره عقيدة مجردة لا يقتضي نزاعاً بين الناس . إلا إذا تجاوز حيز العقائد إلى الأشياء الخارجية التي تدخل في معاملات الإنسان . كما يشاهد في الأمم المتأخرة التي تجهل العلاقة الحقيقية بين الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات . وأكثر ما يشاهد ذلك في أمم القرون الوسطى وما تقدمها من عصور الكهانة والسحر .

فقد مر عهد ليس بالبعيد كانت الصلة بين العاطفة الدينية وغريزة حفظ الذات من أحكم الصلات . لا بالنظر إلى مستقبل الإنسان في

العالم الآخر فقط بل بالنظر إلى حياتنا في هذا العالم أيضاً . فكان فرعون وشعبه يشربون دماً أحمر من نيلنا العذب لأنهم لم يشأوا أن يدخلوا في دين بني إسرائيل .

كان كل شيء في ذلك العهد إنما يحدث بإشراف القوى الخفية مباشرة . فكان للسحاب عمال يسوقونه من بلد إلى بلد ، وللرياح والبحار خزنة يصرفونها بتقدير ويمسكونها بتقدير ، وكانت العوارض السماوية من كسوف وخسوف وهالات ومذنبات ورجوم ترصد من الأرض تارة كأنها إنذار السخط وتارة كأنها علامة الرضى ، وكانت الطواعين والأوبئة والمجاعات والصواعق والزلازل والطوفانات وغيرها من الجوائح الطبيعية تفسر كأنها نقمة الله حاقت الجنس البشري عقاباً له على طغيانه وعصيانه . أما استنزال هذه البلايا ـ فمع كونه كان مترتباً على مخالفة الإرادة الإلهية ، فإنه من حق طائفة اصطفاها الله من بين خلقه واختصها بعلم ما يرضيه وما يسخطه فلا ترد لها كلمة عنده ففي ذلك العهد الحافل بكل هذه الجهالات ما كان من الغريب أن يندفع الناس إلى الشقاق بسبب الدين ، بل في الحقيقة بسبب كل شيء ومن أجل كل شيء يمكن أن يكون باعثاً على الشقاق . لأن هذا كان معنى الدين في تلك العصور .

الحروب الصليبية :

ويظهر في مبدأ الأمر كأن العقل الإنساني استتر وكأن الضمير العام تنحى عن عمله ردحاً من الزمن ثارت في اثنائه الحروب الصليبية بكل غرائبها التي أغرب ما فيها أن يمر بها الإنسان قرناً ولا يدرك مقدار فظاعتها وشناعتها .

والعقل الإنساني لم يستتر ولا تخدر بل كان على أتم ما يكون عليه عقل المجاميع في مثل تلك الأيام . فكان الصليبيون يعاودون الكرة في كل حملة بعزم متجدد وأسف على فوات الفرصة منهم في الحملة التي تقدمتها لا شائبة فيه للندم . فلم تكن تلك الحروب ثورات حنق أو اندفاعات حماسة دينية وإنما هي حروب أصولية لم يفتها شيء مما يسبق حروب اليوم من التدبر وأعمال الروية في جوهرية الأسباب وقيمتها من الأهمية . ونحن نغالي في تزكية أنفسنا إذا ظننا أننا نصنع غير ما صنعوا لو أننا كنا في موضعهم محاطين بمثل الظروف التي كانوا محاطين بها .

فهذا العالم الذي نراه أمامنا كان في نظر آبائنا عالماً مسحوراً، الباطن فيه أكثر من الظاهر . فكان مقسوماً إلى منطقتين . استولى الله على إحداهما وتنازل للشيطان عن الأخرى . والناس مختلفون في رقم خريطته فما كان عند هذا الفريق من منطقة الله يعده الفريق الآخر من منطقة الشيطان .

فالصليبيون أغاروا على المشرق ليستخلصوا علم الله المقدس من حوزة أعدائه . ولو سكتوا عنه لما كانوا أهلاً لأن يختارهم الله ويجعلهم شعبه ، ولا يرضون ذلك لأنفسهم إلا إذا رضوا لها أن يجردوها من كل صفات النخوة والشهامة وهي كل ذخر الرجل وفخره في ذلك الزمان .

ومع ذلك فالخيار بين الرضاء بهذه المسبة وبين فظائع الحروب الصليبية لم يكن بالأمر العسير لولا خشية العقاب . فأي بلاءٍ وأي شقاءٍ لا ينزله الله بهذا الذي ينفض من حول علمه ويتركه لأعدائه ؟؟ إن إحباط المسعى وإمحال الزرع وتفشي الوباء أقل ما يتوقع من الجزاء على هذا النكوص المعيب !

وقد كانت العداوات تستقر وتهدأ بعد الوقائع الأولى لولا أن انقسم العدوان المتقاتلان بطبيعة الإقليم إلى شطرين ـ شرق وغرب . متقدم ومتأخر . ضعيف وقوي . طامع ومطموع فيه . شطرين بطبيعة موقعهما لا يمكن إلا أن يتجدد العداء بينهما كلما عرضت أسباب الخلاف . وهي كثيرة لا تخلو منها معاملة من معاملاتهما المتبادلة .

التعصب في العصر الحاضر :

هل يخشى أن تعود الإنسانية إلى مثل هذه المواقف في الأجيال المستقبلة ؟؟

كلا ! فالدين قد نصلت صبغته عن العروض الخارجية . تقدمت العلوم الطبيعية فعرف الإنسان علل الأشياء وكيف ولماذا تحدث وأيقن أنها لا تحدث من أجله ولا من أجل عمله . لم يعد رجال الدين وكلاء أشغال الله على الأرض يبيعون الرحمة والرزق لعباده بالمال ، في وكالاتهم وحوانيتهم التي يسمونها المساجد والكنائس . ولكنهم انقلبوا رجالا كبقية الرجال ليس فيهم من السر إلا ما في كل إنسان . عرف الإنسان من أين تأتيه المنفعة ومن أين تأتيه الخسارة وأدرك أن تلك الطائفة لا يد لها لا على هذه ولا على تلك . وأنه لا يحق له أن يبحث عن السبب في كلتيهما إلا في عنايته أو تقصيره فيما هو آخذ فيه . عرف أيضاً أن الأديان لا تجعل الإنسان نجساً بطبيعته ولا طاهراً بطبيعته فهو لا يطلب من الإنسان كيفما كان معتقده الديني إلا ما تقتضيه إنسانيته وهي لا تستلزم أن يكون مسلماً أو مسيحيّاً أو يهوديّاً ولكن كل ما تستلزمه أن يكون عضواً عاملاً في بنية الهيئة الاجتماعية . وبعد أن كان كله في قبضة ما وراء المادة أصبح للمادة كله . وارتدت الدينيات من العقل إلى زاوية ضيقة بعيدة عن مشاغل

الحياة وعلائق الإنسان بالإنسان ، ومن الأرض إلى بقاع مقصورة على المعابد والمساجد والبيع . وهكذا كلما انحسر الدين عن بقعة عادت مجال وفاق ووئام بعد أن كانت ميدان نضال وخصام .

تقليد النساء :

النساء أسرع تقليداً لأنهن أشد غيرة . وهن أشد غيرة لأن المشاكلة بينهن في المناقب والمفاخر أقرب مما هي بين الرجال .

دلالة القصص على درجة الأفكار في الأمم :

من العلامات على انحطاط الفكر ولوعه بالإغراق والإغراب ، فإن ذلك ليس معناه في الحقيقة إلا الجهل بحقائق الأمور . ولذلك يعمد القصاص والرحالون في الشعوب المتأخرة إلى تجسيم الحوادث والمبالغة في وصف أبطالهم والتهويل في الأخطار التي يفلتون منها وتكبير المغانم التي يصادفونها على غير انتظار والمشقات التي يلاقونها في السياحات والأسفار لعلمهم أنهم لا يتمكنون من استفزاز استغراب قرائهم بغير ذلك . فيتوهم القارىء وهو يتصفح إحدى تلك الأقاصيص أن صاحبها يتكلم عن أناس من غير هؤلاء الناس وأنهم يقطنون بلاداً ليست كهذه البلاد بخلاف قصص العصريين فإنها لا تتضمن إلا وقائع يكاد يشاهدها كل إنسان في البيوت وعلى قوارع الطرقات .

وعلى هذا القياس مبالغات الشعراء والمؤرخين فإنها تقل بقدر انتشار المعارف في الأمة وتقدم أبنائها في الوقوف على الحقائق والاهتمام بالجواهر دون الأعراض .

أخلاق الفرد والجماعة :

الخلال الشخصية المستحبة لا يمكن أن تستمد أصولها من مصدر أشرف من كونها صالحة لحفظ الحياة . وكذلك الأخلاق الاجتماعية فإنها لا ترد إلى أكبر من كونها لازمة لصيانة كيان الجمعيات البشرية . والجماهير تقدم رجل العموميات وإن كانت تنقصه الخلال الشخصية على رجل الخصوصيات وإن كان مستكملاً من هذه الوجهة لأنها تستفيد من الأول بأكثر مما تستفيد من الثاني .

الجماعات والأغنام :

طالما تذكرت أغنام السودان وأنا أقرأ نظرية جوستاف لوبون في كتابه روح الاجتماع : « أن الجماعات أسلس قياداً من الأفراد » فإن قيادة شاة واحدة من تلك الأغنام عمل شاق يعيى به أشداء الرجال مع أن سوق قطيع كبير منها لا يحتاج إلى أكثر من ثلاثة أطفال صغار .

جوقة العالم :

العالم بأسره يشترك في تمثيل رواية مضحكة وادعى مناظرها إلى الضحك أنهم لا يضحكون من أنفسهم وهم يمثلون كأنهم جادون فيما يعملون .

المضحكات :

المضحكات ليست بالقليلة ولكن الذين يحسنون صناعة الضحك هم القليلون . فليس من الضروري أن نفتش عن رجل من أمثال أبطال موليير لنغرب في الضحك . فإن في كل رجل من الذين نراهم ونعاشرهم موطناً للنقص وفي كل عمل موضعاً للكلفة والتصنع ـ والوادع الناعم

البال ولو كان مغموراً بالشقاء ، ذلك الرجل الذي يعرف كيف يفطن إلى مواطن الغرور والرياء من أعمال الإنسان فإنه لا يطبق فمه ما دام يفتح عينيه .

الجمال والجلال :

النفس الإنسانية يتنازعها عاملان قويان هما حب الحياة والخوف من الموت وبهذين العاملين يتعلق الشعور بالجميل والجليل . فالجميل كل ما حبب الحياة إلى النفس وأظهرها لها في المظهر الذي يبسط لها الرجاء فيها ويبعث على الاغتباط بها . والجليل كل ما حرك فيها الوحشة وحجب عنها رونق الحياة . فالربيع والصباح والنور والصحة والشباب والحركة والمناظر الرائقة والخضرة والأبنية المزخرفة . كلها جميلة لأنها تنعش الحواس وتذكرها بالحياة . والشتاء والليل والظلمة والمرض والهرم والسكون والقفار المخيفة والأطلال الدارسة والصروح القوية المتينة التي تنبىء بتعاقب السكان عليها والمعابد والهياكل والقوى الطبيعية الهائلة ، كلها جليلة لأنها تقبض الحواس وتميل بالنفس إلى التضاؤل والضعة أمام رهبة الفناء وعظمة الطبيعة وضخامتها . الجميل مظهر القدرة والجليل مظهر القوة . والنفس تقابل القدرة بالإعجاب والقوة بالخشوع .

الاعتراف بالنقص :

لا يعترف الإنسان بشيء مما يشعر بنقصه إلا إذا كان يريد أن يتوصل من ذلك إلى الاشتهار بنوع ما من الكمال . فروسو والقديس أوغسطين وهيني لم يذيعوا كل تلك الأسرار الخفية التي سردوها في اعترافاتهم ـ من غير أن يخشوا أن ينقلها سواهم على غير حقيقتها أو تكون

هناك ضرورة ماسة لإذاعتها ـ إلا طمعاً في الاتصاف بمزية الصراحة الفلسفية أو الدينية وهي أكبر في نظرهم من جميع تلك المزايا التي جردوا أنفسهم عنها بمحض اختيارهم .

الأطفال رجال صغار :

نفوس الأطفال أصدق معرض تدرس فيه أخلاق الرجال فإن جميع ما يضحكنا من طباعهم كالأنانية والغرور الشديد والغيرة الحادة وحبهم المفرط لاستجلاب المدح والإعجاب يظل كامناً في نفوس الرجال . تتغير أشكاله وموضوعاته من الألاعيب إلى العروض الحقيقية وهو باق لا يتغير وإنما يضطرون إلى مداراته لأنهم لا يجدون من يحتمله منهم كما كان يحتمله آباؤهم وأمهاتهم .

المساومة في التجارة :

كثرة اللجاج والمساومة في بيوعنا تدل على أن تجارنا لا يحسبون حسابهم ولا يعنون بتقدير أرباحهم كما يوافق رؤوس أموالهم بل يدعونها عرضة لتقلبات الصدف إما إلى المكسب أو إلى الخسارة وربما رجع إلى هذا الإهمال معظم السر في اضطراب السوق المصرية وتذبذب الأسعار بين الهبوط والصعود .

حماية العرض :

لا يمتدح الرجل بأكبر من نسبة القوة إليه كيفما كان مذهبه في تفسيرها . ولا يعير بكثر من اتهامه بالضعف كيفما كان مذهبه في تفسيره . والرجل يشتد حنقه للاعتداء على عرضه لأنه دليل على استضعافه ووهن جانبه . فقد كان الرجل يحمي النساء من قديم الزمن

لأنه أقوى منهن . وكان المنتصر في عهد القبائل لا يعتز بقوته ويؤيد ظفره وتمام غلبته بأقهر من سبي نساء القبيلة المغلوبة وقد كان النساء يعجبن بالرجل بقدر حظه من الصفات اللازمة لحمايتهن كالنخوة والبسالة والفروسية والبطش والقوة فكان ميل المرأة إلى غير رجلها أو إغواء امرأة في حوزة رجل اتهاماً له في ذات رجوليته ، ولذلك تشتد الغيرة على العرض في الأقوام الذين تنحصر صفات الرجولية بينهم في هذه المزايا الجسدانية . ولذلك أيضا كانت الأم أكثر إغضاء عن زلة فتاتها من أبيها . وبعض قبائل البجاة تغض عن المعتدي على عرضها متى خرج من غير باب الخص لأنهم يعتبرون ذلك إقراراً منه بالعجز عن مواجهتهم بالعدوان .

ثمرات اليراع :

ألا لا تعدن اليراعة آلة تسوق لك الرزق الذي بت راجيا
يراع الفتى عود تعرّى لحاؤه ولا يثمر العود الذي عاد عاريا

منظر على غير مرسح :

كان صاحب هذه اليوميات في فندق (كتراكت) بأسوان حينما شاهد المنظر المحكي في هذه القطعة : نزلت بذلك الفندق بين السائحات في الشتاء الماضي فتاة كانت موضع إعجاب كل من رآها . وامتازت بشعرها الضافي الطويل على غير المألوف في نساء الغرب . وكأنها أرادت أن تداعب عشاق جمالها الكثيرين . فبرزت يوماً في شرفة غرفتها بإزار النوم وهي تمشط شعرها وقد جلل ظهرها وجانباً من صدرها ونادت بالغلام فأعطته مظلة تظاهرت كأنها تريد أن توصلها إلى أمها وأشارت له إلى سيدة في ردهة الفندق فجعل الغلام يغدو ويروح ويعرض المظلة على سيدة بعد أخرى وهو ناظر إلى جهتها وهي تشير اليه فاستلفتت هذه الحركة إليها

الجالسين فما كادت تتحول إليها أنظارهم حتى انفتلت إلى داخل الغرفة وأومأت إليهم برأسها من وراء الستار كما يفعل الممثلون وتركتهم يضحكون ويصفقون كأنهم يستعيدون هذا المنظر الشائق :

أشرقت من جوانب القصر كالز ... هرة لاحت من جانب الأفق سرّا
في إزار يضم جسماً من البلو ... ر أصفى ومن جنى الورد أطرى
وتمشت فألقت الريح منها ... كشعاع الأصيل في الصيف شعرا
ثم نادت بناعم يشبه القيثا ... ر جرّاً ويشبه العود نبرا
زودت أمها بمسجاة[1] خز ... ما تقي كالهواء للشمس حرا
أرسلتها لها ولو علقتها ... فوق أهداب شعرها كان أحرى
ووقتها شمساً ولو نشرته ... في ذرى القصر أصبح الظهر فجرا
أم تراها لو خاطبت أختها الشمس ... أكانت تعصي لها الشمس أمرا

تربية المرأة :

لا ينبغي أن يقتصر الغرض من تربية البنت على تعليمها كيف تكون زوجة ، إلا إذا كنا نعلم الفتى في المدارس ليكون زوجا . والواجب أن نعنى أولاً بتعليمها ما تنشأ به امرأة قادرة على النهوض بنصف أعباء الهيئة الاجتماعية ، فإن العشرة الزوجية ليست حرفة يتلقى الطالب أسرارها في دور التعليم ولكنها عمل كسائر أعمال الحياة يحسنه الإنسان أو لا يحسنه بمقدار ما له من الحذق والاختيار .

مذهب نيتشه :

نيتشه عدو الضعف يريد أن يجعل العالم قويا لا بتطهيره من الضعف ، ولا بأن يهتم بترقية علم الطب ولكن بما هو أيسر عليه من جميع ذلك باستئصال الضعفاء منه . يصيح بأشياعه . انبذو الضعيف ولا

(١) المسجاة كلمة رأيت أن أعرب بها الـ (Parasol) وهي مظلة للسيدات .

تأخذكم فيه رحمة لأن الرحمة تعاكس ناموس بقاء الأصلح في مهمته ، وتبقي على من لا يستحق البقاء .

ولكن من هو القوي ومن هو الأصلح للبقاء ؟؟.
هذا ما لا يمكن أن تعرفه من نيتشه ولا من أشياعه .

إن القوة البدنية لم تعد ذات شأن في تمييز الصالح من غير الصالح فالضعيف والقوي يدرآن عن نفسيهما بسلاح واحد . وأضعف الضعفاء الذي لا يقوى على رفع أخف حمل عن الأرض في وسعه أن يقتل ستة من جبابرة المصارعين بتحريك أنملته . ومع ذلك ففي أي وقت نبدأ بحصر الضعفاء والأقوياء ؟؟ ومن أدرانا أن هذا السقيم الفاني الذي نقتله اليوم لا يصبح صحيحاً معافى غداً خصوصاً إذا نظرنا إلى ما يرجى من تقدم وسائل العلاج عاماً بعد عام ، وأن هذا الغليظ الشديد الذي نبقي عليه لا يصبح مثله سقيماً في يوم من الأيام .

ثم من هو الأصلح وكيف نعرفه وبأي معيار نقيس صلاحه ؟؟ وإلى من نكل فرز الصالح من سواه ؟؟ وفي أي عمل نجربه . أفي عمل واحد أم نتركه حتى نردده على كافة الأعمال . وهل نعتبر صلاحيته بالنسبة إلى فترة محدودة أو بلد معين أم يكون ذلك بالنسبة إلى جميع الأزمات والبلدان .

ومن أدرى هؤلاء الجراحين الذين لا يحسون غير البتر علاجا لعل الرحمة لا تكون من مقتضيات الرقي الإنساني ولوازم الاجتماع البشري إذا كان أصلها غير مشاهد في الحيوان ؟؟

إن نيتشه وأشياعه هم الذين يعاكسون بهذا التداخل ناموس بقاء الأصلح فإنهم بدلاً من أن يتركوه مكباً على عمله ينفي الضار ويبقي النافع يعترضونه في وظيفته ويتحكمون فيما من شأنه وحده الفصل فيه .

تغيير المألوف

أصعب ما على النفوس تغيير المألوف . فلو كان هناك نازلة تلم بالإنسان من دون أن تغير شيئاً من مألوفاته لما أحس لها بألم . ولذلك تخف وطأة الحوادث ويهون وقعها على من تتوالى عليهم المصائب ويمارسون تقلبات الأيام .

ولو أم الرجل ينظر إلى غير الدهر نظره إلى العوارض التي يستهدف لها كل إنسان ولا يبعد أن تباغته في كل آن ومكان لتلطفت عنه لذعتها التي يتلوى من قوارص آلامها الذين تداهمهم على غرة واطمئنان . وكذلك آلام الشيوخ . حزن ساكن لا يخالطه ذلك الوجع الحاد الذي يمتزج بآلام الشباب .

الموت :

الموت أعم المصائب وقوعاً ولا يزال أشدها إيلاماً وأقلها قبولاً للعزاء . على أن ذلك لا يفيد أنه غير مألوف ولكنه يدل على أن الانسان لا يجزع لمصاب غيره كما يجزع لمصاب نفسه .

تواضع الملوك :

الرعايا تحتسب للملوك تواضعاً ما ليس يتواضع في الواقع . فلو

علم الملك الذي يتنزل إلى مخاطبة السوقة ان في ذلك ما يغض من قدره بل لو علم أنه لا يرفع مكانته عندهم لما فعله .

الأثرة :

الرجل الإيثاري في الحقيقة يتحرى مصلحته أكثر من الرجل الأناني . فإن الأول يحسب حساب مصالحه في الحاضر والمستقبل والثاني يقصر نظره على المصلحة الحاضرة .

على أن الأثرة الممقوتة ليست هي التي نفسرها بأن يحب الإنسان الخير لنفسه . ولكنها الأثرة التي أساسها جهل حقوق الغير أو تجاهلها وهي أثرة عتاة المستبدين والأطفال ومن على شاكلتهم من الجهل بعواطف الناس أو عدم الاضطرار للاعتراف بها . وهي أيضاً أثرة من يطلق له العنان لحب نفسه وارضاء مطامعه ، وشر هؤلاء ضررا على الاجتماع في وقتنا الحاضر فئة الرأسماليين الذين تتركهم الحكومات يجمعون الأموال ويتمتعون ويتلذذون ويبذخون بما يسرقونه من أتعاب العمال وأرزاقهم وهذا هو الخلق الذي لا يحسن أن يكون في شخص يعيش بين الملايين من أمثاله ويجب أن تطارده الهيئات الاجتماعية بكل وسيلة لأنه آفة الاجتماع .

الحاجات والتقدم :

حاجات السواد الأعظم منا لا تزال حيوانية صرفة . أكبر علامات المرض عندنا الحمية عن الطعام . فلان لا يأكل ولا يشرب أي أنه بلغ أشد الداء أو أشد الغم . يبكي الطفل فلا يخطر لأمه أن أمرا يبكيه غير الجوع : يحرم أكثرنا أكل الفاكهة وشم الزهور وشهود الحفلات وغشيان الملاعب والمتنزهات لانها كما يقولون لا تسمن ولا تغني من جوع . يكد فلاحنا طول يومه بل قل طول عمره ليجد ما يمسك رمقه ثم لا تسمعه

يتذمر أو يشكو كما يفعل الفلاحون في الأقطار الأجنبية لا لأنه يزهد كسقراط أو يتقشف كديوجنس ولكن لأنه يجهل ما يطلبه بعد حشو معدته ودفء جلده ، وإذا سمعته يشكو فقل أن تسمعه يتظلم لأنه لا يحدث نفسه بأن هناك أحداً يظلمه حقّاً من حقوقه . حاجات ما أخسها لا يمكن أن تقنع العجماوات بما هو أخس منها . فإذا صح أن رقي الأمة إنما يحسب بقدر تعدد مطالب الفرد ، فما أبعدنا عن الرقي الحقيقي وما أبعد الرقي الحقيقي عنا .

الرياء :

ما رأيت مرائياً إلا وجدته مغتاباً نماماً . والجراءة على الناس في غيبتهم كالتزلف إليهم في حضرتهم . كلاهما علامة الجبن والصغار .

الكلام والأوزان :

يظهر أن قوالب الجمل وأوزان الكلمات أثبت انتقاشاً في الذهن من حروفها فربما نسي الإنسان معنى الكلمة أو حروفها ثم ذكرها بوزنها وقد يسبقه لسانه فيخلط بين الحروف مع حفظ الأوزان . فإذا كان يريد أن يقول مثلاً وطفقا يخصفان نطق بها وخصفا يطفقان كما نسمعه أحيانا من بعض الحفاظ . ولعل سرعة استظهار الأشعار والكلام المقفى سببه مثل هذا .

العالم في نظر أكمه :

حاولت أن أقف على صورة العالم في مخيلة غلام أكمه فقال لي إنه يراه كأنه هيولى مضطربة في ظلمة قاتمة لا أول له ولا آخر . قلت لا تأس يا بني . إن أنفذ الناس بصراً أو بصيرة لا يرى منه أكثر من ذلك .

الموسيقى :

ـ التلازم متين بين الأصوات والانفعالات الباطنية وهو أمتن بين

الانفعالات والحركات البـدنية . فإن الحيوانـات والوحـوش والهمجيين والأطفال والنساء أحياناً ، تترجـم عن شعوراتهـا بالصياح على كيفيات مختلفة مقروناً في الغالب ببعض الحركات البدنية . ثم إن لكل من حالاتنا النفسانية لهجة خاصة وكل لهجة هيئة تناسبها . فلهجة المسرور والظافر والشـاكي والحـزين والمتألـم والغضبـان تتبـاين تباينـاً يشعـر باختـلاف مصادرها . وإنك لتسمع الخطيب الذي لا تفهم لغته فتعلـم من تغـير لهجته وارتفاع صوته أو انخفاضه إن كان راضياً أو ساخطاً حاثّاً أو محـذرا مبشراً أو منذراً .

فإذا وقع الموسيقار صوتاً تنبه الإحساس الذي يناسبه على الأثر في نفوسنا . كأنهما فيها متلازمان لا ينفكان . وفي الأصوات التي يشتد لها طرب السامع يتنبه مع ذلك الاحساس حركة بدنية مطاوعة للنغم الذي يسمعه . فيهز رأسه أو يحرك عضواً من أعضائه . وهذا أول درجـات الرقص ثم يرقص . وقد لا يملك نفسه مع الرقص من الترنم بالصوت الذي يسمعه أو الغناء بما على وزنه من الكلام المفهوم .

فنحن في قبضة انفعالاتنا تتلاعب بنا كما تلعب الأم بوليدها بـين ذراعيها . نرقص ونثب ونصيح بالرغم منا كما يفعل الهمج والعجماوات . وترانا في ألطف مظاهر أنسنا نحنّ إلى همجيات أولئك الجدود .

نهاية الرقي :

الرقي العصري كفيل بأن يصل بالإنسـان إلى درجـة تكون فيهـا أرادته قانونه وترفع عنه كثيراً من سلطة الحكومات عليه .

الميراث :

ليس للإنسان حق أن يحتجز من الثروة العامة إلا بقدر ما يقوم لها من العمل . فالرجل يسقط حقه في التصرف بثروته متى انقطعت أعماله

بموته . وعلى الهيئة الاجتماعية الإنفاق من ريعه على من يهمه أمرهم من بعده .

يترك الرجل لابنه ضيعة . والضيعة قبل عشرة أعوام لا تكلف صاحبها إلا سعياً طفيفاً ولكنها لا تنال بعد عشرة أعوام إلا بتكبد المشاق والصعاب . فيتمتع ذلك الابن الكسول بجزء من الثروة العامة من غير أن يقدم لها عملاً في نظيره وإلى جانبه رجل مجد نشيط يقطع عمره كدّاً وكدحاً دون الوصول إلى اقتناء ضيعة مثل ضيعته . وهو خلل متشعب في تقسيم ثروة الأمة لا يستقيم حال الجمعية البشرية إلا بتلافيه .

فراسة المرأة :

المرأة ألطف زكانة وأفطن إلى تشابه الملامح من الرجل . فقد رأيت بعض النساء يرين الطفل الصغير قبل أن تتشخص ملامحه فيحكمن بأنه من آل فلان وأن فيه شبه العائلة الفلانية . وقد لا يبدو لغير المتأمل أن بينهما أدنى شبه . والظاهر أن كثرة اشتغالهن بتجميل الملامح قد أكسبهن هذه الخبرة فيها .

التاريخ القديم :

كتب التاريخ القديم أقرب إلى الإحصائيات أو سجلات المواليد والوفيات منها إلى التاريخ . فإذا قرأت فصلاً عن رجل عظيم ذكروا لك اسم أبيه وأمه ويوم ميلاده ويوم وفاته والبلد الذي نشأ به والبقعة التي قبر فيها . فعرفت اسماً ولقباً ويوماً وبلداً وقبراً ولكنك لم تعرف رجلاً .

الطلاق :

إن أكثرنا يظن أن المرأة من متممات زينة البيت فكما أن في البيت متاعاً وأثاثاً من كل صنف . كذلك يحسن أن تكون فيه واحدة أو أكثر من صنف النساء وأن بعضهم ليغير زوجته مراراً ولا يغير ملاءة سريره .

تعدد الزوجات :

لا أعلم لماذا يسوغ للرجل أن يستحوذ على أكثر من أربع نساء ولا يسوغ للمرأة أن تطمع في أكثر من ربع رجل إن لم يكن أقل ؟؟

أقذار المجد :

من حسن حظ العظماء أنهم وحدهم الذين يطلعون على الدنايا التي يتلطخ بها طلاب المجد الكاذب .

التغرير :

التغرير بالعقول عمل يسير ولكن نزع الغرور منها من أصعب الأمور ولأن تمني الإنسان بالباطل أحب إليه من أن تيئسه بالحق .

أحاديث الشبان :

من شبان العصر من إذا جلست إليهم لتنصت إلى محادثاتهم حرت في تحديد موضوعها . يبدأ أحدهم بالكلام ولا يتمه ويسأل السؤال ولا ينتظر جوابه . يغني ثم يقتضب الغناء ثم يضحك . ينتقل من كلام تافه إلى كلام أتفه بلا مناسبة أو صلة بين الكلامين . بحيث يسأل الإنسان نفسه أما كان يمكن أن يستغني هذا عن لسانه ؟ يشير بيديه ويهز رأسه وقدميه . يدور هنا وهناك بغير غرض ولا موجب . كأنما عليه أن ينطق بقدر معين من الكلمات ويأتي بعدد معين من الحركات فهو لا يقصد من كل إشاراته وعباراته إلا أن يصيب العدد المطلوب .

الحرب :

من أقوال فتزجر الد على ما أذكر ـ « إن الحرب تجر إلى الفقر

والفقر يحث على العمل والعمل يورث الغنى والغنى يسبب الشقاق والشقاق يفضي إلى الحرب . . . »

ولا أظن أن هذه السلسلة ستحفظ نسقها في هذا الزمان . بل أرى على العكس من ذلك أن السلم سوف يكون في المستقبل مسيجا بسور من الذهب والفضة فإن انتشار المعاملات واشتباك المرافق الاقتصادية بين الأمم سيكون أول باعث على اتقاء مواقف القتال .

فقد ضعفت الخلافات التي تفضي إلى الحرب بمقدار ما عظمت خسائرها . وكلما تقدم الزمن زادت هذه فداحة وتلك ضعفاً .

فالحرب لا ترتكز على شيء من الطبائع البشرية . بل هي تنافرها كل المنافرة . فالرجل لا يخوض غمراتها إلا فراراً من عار الناس أو عقاب الحكومة أو سخط الله أو دفعاً لخطر على حريته . فهو يقدم على موت مشكوك فيه فراراً من موت محقق أو ما هو بمنزلة الموت المحقق .

فالشجاعة العسكرية عادة اصطناعية . والناس جبناء بطبيعتهم أي انهم سواء في الخوف من الموت حتى الجنود . على أن هؤلاء يتظاهرون أنهم لا يسوون فقط بين الموت والحياة . بل إنهم يعشقون الموت ويبغضون الحياة . فيقول[1] أحدهم متهكماً كلما انحنى جندي في ساحة الوغى من طريق رصاصة توشك أن تثقب صدره : أهي صديق تنحني

---

(١) اعتمدت في وصف احوال الجند وهواجس نفوسهم على رسالة صغيرة للكونت تولستوي عنوانها « سفساستيول » وعلى مقالة كتبها مقدمة لكتاب ضابط روسي عن الحرب التي وقعت في تلك المدينة أحسن فيهما وصف حركات الجنود وأطوارهم ومثل أهوال الحروب ومنكراتها أحسن تمثيل .

له ؟؟ . كأنه ليس في نفوسهم من كراهة الموت ما يتجشمون من أجل اتقائه إحناء الرأس !

قال تولستوي وهو قائد قديم : (إن شجاعة الجنود من جنس شجاعة البغال التي تقف إلى جانبهم مشدودة إلى مدافعها . تحاول الإفلات وما تستطيع انفلاتاً) فمهما أوتي المرء من الشجاعة فلا تصدق أنه يقتحم الحرب وله مندوحة عن اقتحامها ، كذلك مطمئنة لا تصدق أن إنساناً يواجه الحرب بطبيعة ساكنة لأن الطبيعة البشرية تأبى التعرض للخطر وتنفر من دواعي الهلاك . فالهمجيون يهيجون طبائعهم قبل الحرب إلى حد الجنون بدق الطبول وقرع الدفوف والولولة والصياح والمتمدنون يتشاغلون عنها ويتحاشون ذكر القتلى والإصابات والخسائر وكل ما يخلق فيهم الشعور بحقيقة موقفهم . فيصرفون خواطرهم عن هذه الهواجس بسفساف القول وتوافه الأحاديث فلا تسمع بينهم لحوادث الحرب ذكراً أو خبراً كأنما ليس فيها ما يستحق المبالاة . بينما تكون الحوادث سمر أخلاط الناس على بعد مئات الفراسخ والأميال . هذا على أن تعرض مئات الألوف من الناس في صعيد واحد لخطر واحد من شأنه أن يهون الأمر على كل منهم ويشدد عزيمته على اقتحامه .

وإنه ليس أسخف من أن تسمع ضابطاً يشكو ويتأفف من حصن تنهمر عليه المقذوفات من كل جانب وتنفجر حوله وعلى جدرانه القنابل بين كل دقيقة ودقيقة . وتسأله فيقول لك . إن الطريق إلى الحصن موحلة فهو يعاني صعوبة في السير عليها .

قال بعض قواد الألمان حديثاً إن الحرب تنمي في النفس كثيرا من الصفات الممدوحة وأهمها تضحية النفس في سبيل الواجب . على أن

هذه هي الفضيلة الوحيدة التي لا تنميها الحرب وتنمي ما يناقضها تماماً .

فكل جندي وكل ضابط نابليون صغير ـ كما يقول تولستوي ـ يزهو بقدر ما يمكنه من النفوس وييتم بقدر ما يمكنة من الأطفال ويدمر بقدر ما يمكنه من الدور ليلصق بذراعه شريطاً أو يحلي صدره بنيشان يخطف به أبصار البسطاء .

ومع هذا فمهما كان نصيب رأي ذلك القائد من الصواب ، فالإنسانية يجب أن لا تعول في إكتساب هذه الفضائل على مثل هذا البرنامج الصعب . فإنه برنامج يكلفها من النفوس والأموال ما هي في غنى عن احتماله .

فالأمم الآن لا تلجأ الى الحرب إلاَّ كآخر وسيلة لحل الخلاف . وأين هو الخلاف الذي يربو الضرر فيه على ضرر الحرب المرتبة عليه ؟؟ وهل يبلغ تنازع البقاء بين أمتين في عصرنا هذا أن تسحق إحداهما الأخرى لتتخلص من مزاحمتها ويخلو الجو لمتاجرها ؟؟

إن أقوى بوادر الخلاف قائمة الآن بين انكلترا وألمانيا وهذا الخلاف لا حقيقة له ، فهو مبني على توهم كل من الأمتين أنها قد تتعرض لمهاجمة الأخرى في المستقبل . فاذا سألت : هل مصلحة ألمانيا تقضي عليها بغزو انكلترا أو إحدى مستعمراتها وهل تقضي مصلحة انكلترا بغزو ألمانيا أو إحدى مستعمراتها وهل الفوز في المنافسة التجارية يتوقف في المستقبل على مثل هذه الوسائل العنيفة ؟؟ أجابتك كل شواهد الأحوال سلباً .

والأمم لا تترك اليوم لكل أمة تمام الحرية في الموازنة بين مقتضيات الحرب وموانعها بالنسبة لها وحدها فإن أكثر الأمم تشترك في تحمل

خسائرها وإن لم تشترك في حشد الجنود وجمع الذخائر . فقد بلغ من استحكام الروابط الاقتصادية بينها أن أقل إشاعة بوقوع الحرب في أقصى المعمور توقع الارتباك في السوق المالية فتنخفض الأسعار وتهبط الأسهم وتتزعزع الشركات عدة أيام .

والذي يشاهد من انتشار نفوذ أحزاب الاشتراكيين والعمال وهم الفريق الذي لا مصلحة له في الحرب ، ذلك كله مما يقوي الأمل في أن يوم إبطال الحرب أقرب مما ينتظر بكثير .

الاستخدام :

موظفنا الصغير يبيع حريته ووقته وعمله بخمسة جنيهات في الشهر . يناط تقدير كفاءته بإرادة غيره وربما أريد منه فوق الكفاءة في العمل كفاءة أخرى في الملق والدهان . ينقل من بلد إلى بلد بغير اختياره ويجبر في كل مرة على ربط صلاته بقوم وقطعها من آخرين ثم تحظر عليه الحكومة اقتناء الأرض والعقار في الجهة التي يشتغل بها كأنها تركت له ما يقتني به ـ وهو معرض في أية ساعة للنقل إلى أية جهة فأين يباح له الاقتناء ؟؟ وتحرم عليه الاشتغال بأمور البلد الذي هو فيه كأنما هي اقتلعته من العالم الخارجي من جذوره . وهو مع ذلك يحسب أنه الرابح في هذه الصفقة وأنه لا يمكن أن يجد أهنأ من هذه العيشة . يصل إليها بعد أن يتخطى عشرات المزاحمين عليها .

(مباراة في الخيال ، بين حسن الإنسان وحسن البستان) :

الموضوع

أخجلت يا ورد خدود الحسان   فاحمرّ منها ناضر كالدهان

ورعت يا فل عيون المهى فأطرقت تطلب منك الأمان
وزمت الغيد شفاهاً لها لما انجلى ثغرك يا أقحوان
ومالت القامات غضبانة لما انثنى في روضه غصن بان
وأين شدو الطير في مزهر من مزهر تشدو عليه القيان

الأسباب

فالورد ما احمرت له وجنة من ريبة حاشا لورد الجنان
والأقحوان الغض لم يبتسم خبا ولم يدنس بمين اللسان
وقامة الأغصان لم يثنها كبر ولم يعطف بهن افتتان
وذاك صداح أهازيجه لا تشترى بالتبر أو بالجمان
لا يحرم الماهن من لحنه ما يسمع العاهل ذو الصولجان

الحكم

ما أحسن الحسن وأحسن به من زينة للناس لولا الحسان

العشق :

لا أرى العشق إلا نزوة من نزوات الشهوة البهيمية يخصصها في الإنسان بامرأة ـ دون سواها ـ تفاوت الملامح في إناثه . وتعم في البهائم لأن تماثل إناثها في الخلقة لا يدع ما يحتم الانجذاب إلى انثى بعينها من بقية الإناث .

والحب الشريف والحب الخسيس معدنهما واحد وغرضهما واحد وطبيعتهما واحدة . والذين يتوهمون أنهم إنما يعشقون لمحض التفرج على الجمال الصوري يخدعون أنفسهم فإن من التماثيل المنحوتة ما هو أجمل صورة من أجمل امرأة في العالم . ومع هذا فنحن لا نشغف به ولا نتدله في

حبه . وغاية الفرق بين الحبين الشريف والخسيس أن الأول حب العقلاء الذين يسوءهم تضحية أحبائهم لشهواتهم وأن الثاني حب الحمقى الذين لا يفكرون في غير قضاء الشهوة .

وهو ـ أي العشق ـ أحد الشهوات لأنه الشهوة الوحيدة التي لا تتم إلا بتراضي شخصين يحتاج كل منهما إلى الشمائل والأوصاف التي يصبو إليها الآخر ليقترب كل منهما إلى صاحبه من بين ألوف الرجال النساء . فالخيبة في العشق ـ اليأس من الذات التي لم يستحوذ على إعجابنا سواها من كل هذا الملأ والتي لا يهمنا من كل هذا الملأ أن يعجب بنا سواها ـ هذه الخيبة أو هذا اليأس ليس معناه فقط عدم التمكن من قضاء شهوة . بل معناه أيضاً أن العاشق ناقص فيما يسترعي إليه قلب المعشوق الوحيد الذي لا يبالي ان كان كاملاً من هذه الوجهة في نظر غيره . أي ناقص فيما هو به رجل يستحق إعجاب المرأة التي وقع عليها اختياره من النساء أو فيما هي به امرأة تستحق إعجاب الرجل الذي وقع عليه اختيارها من الرجال . بغض النظر في جميع ذلك عن فوارق الدرجة والمقام فان هذه مميزات تميز رجلا على رجل أو امرأة على امرأة ولكنها لا تميز ذكراً على ذكر أو أنثى على أنثى .

قطرتا ندى على فسيلة قبر :

أعام عيبت في الدنيا جهادا قضيت وما قضيت بها مرادا
وما أبلاك إلا الهم داء وشر الداء ما نال الفؤادا

ما كنت اقرأ مناعي الجرائد لأنها بكاء مأجور كبكاء النائحات . لا تصادف فيها عين القارىء إلا ما تصادفه على ألواح الأضرحة عند النحات من اعلام مجردة لا تتبين وراءها وجهاً ولا تستشف لها معنى .

ما كنت اقرأها من قبل ولكني في ذلك اليوم قرأتها . فقد كانت تبدو عليها كباوة الحزن وتعلوها غبرة الكمد . فقرأتها ثم قرأتها فإذا هي تنعى إماماً العبد . فأعدت قراءتها فإذا هو بعينه إمام . صاحبي إمام الذي ما تعودت أن اقرأ اسمه في الصحف إلا مقروناً بملحة من ملحه الرقيقة أو طرفة من طرفه المستظرفة .

أبيت أن أصدق الخبر . والنفس البشرية إذا أبت الموت لأحد . لا تشاء أن أصدق نعيه . فما أكذب تعلاتك أيتها النفس . كان ذلك لو كان كل أمر إنما يجري على هواك ووفق مرادك . ولكن ما هذه التعلات منك والأمور كأنما تجيء عمداً على خلاف ما ترومين وبضد ما تشتهين .

فسقطت من عيني دمعتان ما أردت لهما إرسالاً ولم أحاول لهما كتماً . دمعتان ليستا بالحارتين فقد أطفأت الأسقام جذوة قلبي وتركته جلدة ميتة ما تحس ولا تألم . دمعتان لا تتقد فيهما حرارة اللهف ولكنهما مشبعتان بكل ما في دموع الأصدقاء على الأصدقاء من مرارة الشجو وغضاضة الأسى .

فذكرت لإمام الأمس المدرج اليوم في وحشته ، ساعات طيبات ما كنا نحتسبها للزمن ولكنها الآن حسنة من أجمل حسناته لو أنها تعاد . وضحكات مغتصبة في غفلة الأشجان والأكدار ، هي الآن عبرات تشرق بها عيون أصدقائه والعارفين بظرفه وأدبه .

وذكرت له جلساتنا في قهوة استانبول التي كان يختلف إليها كثيراً . نأوي إليها في قيلولة الظهيرة نستنشق هواء الحديقة ونسمع منه أخف من نسماته فكاهة وأشفى منه للنفوس نكات يفرج عن الصدور كربها وهو أشد الناس كرباً ويزيح عن القلوب غمها وهو أفعمهم بالغم قلبا .

لكن الآن ؟

الآن قد مات !

مات قبل أن يداوي الدهر القاسي طعنة من طعناته التي اثخن بها جسده النحيل . مات قبل أن تبسم الدنيا لفؤادم الكسير مرة بعد ذلك العبوس الطويل . مات في عنفوان الصبا ومقتبل الشباب .

فالوداع أيها الصفي الوفي وداعاً أبدياً ليس يعقبه سلام . والفراق أيها الصاحب الودود فراقاً سرمدياً لا مطمع بعده في لقاء .

الالعاب غير الرياضية :

إذا انتشرت الألعاب غير الرياضية كالورق والدومينو والنرد والشطرنج والسيجة وأمثالها كان ذلك دليلاً على كثرة البطالة أو نضوب مادة الحديث في الوسط الذي تنتشر فيه . وكلاهما دليل التأخر .

النقود والسخاء :

يهون البذل في الجهات التي تتعامل بالمقايضة أكثر من الجهات التي تتعامل بالنقود . فإن الدرهم قد تقضى به عدة أصناف مما يشرى بقيمته . على حين أن مقداراً بقيمته من الحنطة أو الاثمار أو الخبز لا يؤدى بعينه في غير ما ينستعمل له عادة . والمتكففون وأبناء السبيل يطوفون على الفلاحين في أيام الحصاد فينفحونهم بجفان الغلال والحبوب عن طيب نفس ، وقد يسألونهم مليأ فلا يسمحون به وهو أقل قيمة مما يعطون .

بقايا الميثولوجي :

في الميثولوجي القديمة ـ والحديثة أيضاً ـ كثير من الأبطال الذين

ولدوا من آباء آلهة أو أصناف آلهة وأمهات من عذارى البشر .

وفي أيامنا هذه من يعتقد إمكان التزاوج بين رجال الأنس ونساء الجن وإن لبعضهم أولاداً من بنات البحر يدعون آباءهم بالمعاشرين .

الفضيلة المأجورة :

إذا كنا نعد المرابي الذي يقرض بسعر خمسين في المئة رجلاً طماعاً مغتالاً فليس من الزهد ولا من حب الخير أن يقرض الرجل ربه بسعر ألف في المئة مؤجلة إلى يوم الحساب .

وإذا كان الرجل الذي إنما يمتنع عن السكر والمقامرة خوفاً من محاضر البوليس لا نراه ، في نظرنا رجلاً تقياً نزيهاً . فليس من الاستقامة والفضيلة أن يتركهما الرجل خوفاً من نار الجحيم .

وإذا كنا لا نستعظم من الطفل الصغير أن يحفظ درسه لأنك وعدته بتصويره أو يتجنب اللعب لأنك أحفته من الغول . فالرجل الكبير الذي يفعل الخير طمعاً في الثواب ويبتعد عن الشر خوفاً من العقاب لا يأتي ما يستحق عليه الإطراء والإكبار .

إن كل إنسان يعمل عملاً فإنما يترقب من ورائه نفعاً لشخصه ولكن يجب أن يكون ذلك النفع نتيجة محتمة تستلزمها طبيعة عمله ويرتبط بها العمل ارتباط النتيجة بالمقدمة وليس مكافأة أو أجراً ينتظره من سواه .

المبادىء :

الرجل الذي لا يتقيد بمبادىء عامة يطبق عليها آراءه الخاصة ، إما رجل سطحي يجهل سر العلاقة التي تماثل بين الحوادث . لذلك يجهل كيف يحكم عليها حكماً عامّاً يوحدها في نظره . أو رجل محنك يدرك سر

علاقاتها فيحكم على كل عمل على حدته لأنه علم بالاختبار أنه لا يحدث عمل يماثل الآخر من جميع الوجوه . ويغلب أن يكون صاحب المبدأ شخصاً نظر ّياً ناقص الاختبار .

الاعتماد على الذات :

إن الذي يكل إلى الناس تقدير قيمته يجعلونه سلعة يتراوح سعرها بتراوحهم بين الحاجة إليها أو الاستغناء عنها .

والطريقة المثلى أن يقوّم كل إنسان لنفسه قيمتها . فإن المرء كما يقول بعضهم يساوي القيمة التي يضعها لنفسه . ذلك خير من أن يطرحها في المزاد على ألسنة الناس .

شرف المهنة :

صاحب المهنة يباهي بمهنته كأنه لم يرغب فيها إلا بعد أن تبين مزاياها . وهو يضجر منها كأنه سيق إليها قسراً ـ وذلك لأنه حباً بنفسه يود لها بما في وسعه أن يكون أقل الناس تعباً وأكثرهم اعتباراً .

بماذا يشقى الشعراء :

أصحاب القرائح الشعرية لا يتمتعون بالحياة الحقيقية كبقية الناس ، فإن حياتهم كلها ذاهبة بين أمل في المستقبل أو ذكرى للماضي . وقل أن تستقر بهم نفوسهم في الحاضر الراهن لأنه دائماً على غير ما يشتهون . والشاعر مكتوب عليه الشقاء ما دام مطبوعاً على مواهب الشعراء . فهو حاد الخيال تصور له قريحته العالم حافلاً باللذة والنعيم مترعا بالصفو ودواعي الهناء مما لا يصدقه الواقع . وتريه الناس على صورة من خلوص الضمائر وصفاء السرائر وطهارة الأخلاق تبرهن

المعاشرة على خلافها . وهو لطيف الإحساس دقيق الشعور يوجعه ما لا يكاد يحس به غيره وتفعل في نفسه الوخزة الهينة مالا تفعله الطعنة القاسية في نفس غيره وهو فاتر الهمة ، ميال بطبيعته إلى الدعة والاستسلام محروم من العزيمة الصارمة التي تمكنه من تحقيق أحلامه العديدة وإدراك آماله البعيدة وهذا من أشد ضروب الشقاء كما قال شاعر منهم :

وأتعب خلق الله من بات آملاً وأقصر عما تشتهي النفس نائله

وهو سليم الطوية طيب القلب ينطلي عليه خداع الناس وختلهم وتغره تمويهاتهم فيركن إليهم ثم لا يلبث أن تكشف منهم الأيام ما يخلف ظنه ويخيب ثقته . وهو عجول كالصبي تتحكم فيه إحساساته الوقتية كأنه الصائم بانتظار الافطار ، سرعان ما تبدو له النعمة بعد ضنك فينغمس فيها غير حاسب للعاقبة حساباً أو مبق لغده بقية . فإذا ولت أيام الرخاء وجاءت بعدها أيام الشدة كان ذلك أدعى إلى طول حسرته وتنغيص عيشه . وهو سريع التقلب كثير الضجر لا يألف البقاء على حال واحد فلا يصبر على الشظف وهو يعرف الترف ولا يرتاح للفقر وهو يفهم ما هو الغنى ـ فبغير هذه الأطوار ـ التي هي من مستلزمات سرعة الخاطر وهو من مستلزمات سليقة الشعر ـ لا يكون شاعراً مطبوعاً . وبها لا يكون سعيداً . إلا أن الطبيعة التي سلطت عليه كل هذا الشقاء لم تحرمه مما يعينه عليه . فكما أن خياله يمنيه باللذة الوهمية كذلك يخفف عنه الألم الواقع وكما أنه شديد الإحساس بالحزن كذلك هو شديد الإحساس بالسرور . ولئن كان محروماً من جمع الأموال وتأثل العقار واقتناء القصور والضياع فان له نوعاً من الارتفاق في كل شيء يراه . قال اديسون في رسالته عن الخيال :

« ربما أحس مثل هذا الرجل في مشاهدة المروج والبساتين بارتياح أكبر مما يجده بعض الناس لامتلاكها فكأن ذوقه الدقيق يخوله نوعاً من الامتلاك في كل ما يقع تحت نظره ويجعل أبسط ما في الطبيعة وأبعد مناظرها عن الصقل والتهذيب تشترك في ترويح نفسه وتطييب خاطره . وكأنه ينظر إلى هذا العالم على نور غير نور الشمس فيكشف منه غير ما يكشف ذلك النور من ذخائر تحجب نفسها عن أكثر من تراهم من الناظرين » .

داء الحياة :

لقد ثقلت على نفسي حياتي وأشفق عائدي وشكت أساتي
سئمت فما أريد اليوم إلا دواء الموت من داء الحياة
إذا كانت حياة المرء سجناً فشق اللحد باب للنجاة

القول والقائل :

« انظر إلى ما قيل لا إلى من قال » قاعدة لا يصح إطلاقها في كل حال فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها . فإن كلمة مثل قول المعري مثلاً :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

يؤخذ منها مالا يؤخذ مما تسمعه في كل حين بين عامة الناس من التذمر من الحياة وتمني الخلاص منها . فإننا نثق بأن المعري مارس الأمور الجوهرية في الحياة ودرس الشئون التي تكون منها عذبة أو مرة ، نكداً أو رغداً . ولم يسبر منها أولئك العامة إلا ما يقع لهم من الأمور التي لا تكفي للحكم على ماهية الحياة .

الآداب القديمة :

الآداب القديمة مبنية على جهل فاضح بالغرائز الرئيسية في الإنسان ، فهي تقول له : من نظر إلى امرأة أجنبية واشتهاها (فقط) فكأنما زنى . من أحب الحياة ورغب في حطام الدنيا فمحال أن يكون صالحاً . من عمل حسنة يريد بها الجاه بين الناس فقد انتكس عمله . الحزن لفقد البنين والأصدقاء إثم وكنود إلخ . . . . ويزيدها جهلا على جهل أنها لا تعد هذه الأميال من دواعي فطرته ولكنها تراها وساوس من روح خارجية توسوس له بالشر وتبعده عن الخير .

الاصلاح الاجتماعي :

قد نعرف ما هو الفاسد من نظامات الاجتماع ولكننا لا نعرف ما سيكون صالحا منها . نقدر أن نهدم بناءً متصدعاً ولكن لا نقدر أن نقيم في موضعه بناء جديداً : جهد ما يطلب من المصلح الاجتماعي أن ينبه إلى العيوب والأغلاط التي في مجتمعنا فنتلافاها أما أولئك المصلحون الذين يخرجون كل يوم للناس بنظامات وشرائع ودساتير ومذاهب يدعونهم إليها بزعم أنها كافلة بصلاح الاجتماع فلا يمكن أن يقال انهم يتجاوزون حيز التخمين إلى التحقيق . ذلك عمل انفرد به الزمن ولم يشرك فيه أحداً .

الضحك :

للضحك عدة أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الاغتباط بأنفسنا . اغتباطنا إما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذي نكشفه في سوانا .

ولما كان الإنسان لا يضحك إلا سروراً برجحانه فهو لا يضحك في الأحوال التي رجحانه فيها معروف غير مجحود . فالرجل المعروف

المكانة ليس يسخر من تصرف الصعلوك الوضيع وإن كان مضحكاً في ذاته . إلا إذا كان يسخر من أهل طبقة ليباهي بطبقته . أو من أهل بلاد ليباهي ببلاده .

وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لا يناله وحده . فلما كان ملوك أوروبا وأباطرتها وأمراؤها وسواسها وقوادها مجتمعين في سنة ١٨٥١ في فينا . وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة على يونابرت . وقد جلسوا يصلحون ما أفسده ويعيدون ما درسه من معالم أوربا أعلن في المجلس في ١١ مارس من تلك السنة أن الرجل قد أفلت من جزيرة إلبا وأنه قد عاد ثانية امبراطوراً على فرنسا . فوجموا هنيهة ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأن كلاً منهم يقول ـ إن هذا الكورسيكي لم يعبث بي وحدي بل عبث بنا جميعاً .

البكاء :

يبكي الإنسان لغير ما يضحك له . يبكي حين يظهر به النقص والعجز ظهوراً لا سبيل للمداجاة فيه . يبكي في المواضع التي يشعر لديها بالقهر التام ويتحقق له تجرده عن الحول والقوة حيالها . في تلك المواضع يقول المسلم متمثلاً « لا حول ولا قوة إلا بالله » كأنه لا يريد أن يكون ضعيفاً إلا أمام الله الذي يتساوى الناس عزيزهم وذليلهم في الضعف أمام حوله وطوله . والأطفال والمستضعفون أكثر الناس بكاء لأنهم أقلهم اقتداراً . على أن عدم البكاء لا يفيد في أكثر الأحيان القدرة على دفع المصاب . فان من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن البكاء ويتكلف الجلد والسكون حتى في الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الإقرار بالانقهار على كل حال .

الغنى والسعادة :

لا تحسدن غنياً في تنعمه   قد يكثر المال مقروناً به الكدر
تصفو العيون إذا قلت مواردها   والماء عند ازدياد النيل يعتكر

الحرية الشخصية وتقدم الحركة الاقتصادية :

في البلاد التي تشتبك فيها المصالح وتتوشج الأعمال تجد الناس ينساق بعضهم إلى معاملة بعض قسراً ، وكثيراً ما لا يكون للرجل اختيار في معامليه أكثر من اختياره في أقربائه وذويه . فلا ينظر منهم ولا يقدر أن ينظر إلى غير الغرض الذي يقصدهم من قبله . فمن ثم كان كل عامل لا يعنى بغير تجويد عمله ، وليكن بعد ذلك سكيراً أو مقامراً ، نصرانيّا أو يهوديّاً ، ملحداً أو مؤمناً ، محافظاً أو حرّاً ، فذلك ما لا يسأله عنه أحد . فاحترام الحرية الشخصية ـ الذي معناه سقوط رقابة البيئة عن الفرد ـ يكون في مثل هذه الأقطار على أتمه ، بل يكون من الآداب الاضطرارية التي لا يحض عليها بالرسائل أو المقالات .

القوة والأخلاق :

إذا كانت الحياة صراعا بين القوة والضعف يبقى فيه الظافر ويتوارى المهزوم فالقوة باختلاف معانيها محبوبة إلى كل إنسان والضعف باختلاف معانيه مكروه عند كل إنسان . وكذلك كل ما أفاد القوة فانه محترم محبوب وكل ما أفاد الضعف فانه محتقر مرذول . ومن الأعمال ما يكون مستحسناً ومستقبحاً باختلاف عمل القوة فيه وهذاالسطو كان مدعاة الإعجاب فاصبح مدعاة الاحتقار ، وما تغير فيه إلا أداته فقد كان يستعان له في العهد الماضي بالشجاعة والإقدام فأصبح اليوم يستعان له بالجبن

والنذالة . فلو حللنا أسمح الخلال وأنبل السجايا لما ألفيناها إلا اشارات تلمع إلى القوة من قريب أو بعيد . يبتسم الانسان مضطرّاً ليحمي بها نفسه ويمكن لها في الحياة .

فالصبر قوة . لأنه تغلب على الأمر الذي يفرق منه غير الصابر وعدة يتدرع بها الصابر في الملمات .

والرحمة ـ وهي هنا ضد القسوة ـ قوة لأنها لا تكون إلا من الأقوياء على الضعفاء ومن الوادعين على المبتلين .

والكرم قوة . لأنه علامة استغناء الرجل عن الناس بقدر احتياجهم إليه ـ كما أن بذل علامة القدرة اكتسابه في كل آن .

والقناعة قوة . لانها تدل أيضا على استغناء الإنسان بنفسه عن الناس .

والتواضع قوة . لأن المتوضع يرى أن قدره أظهر من أن يتكلف إظهاره بنفسه .

والعفة قوة .. لأن العفيف يزجر نفسه فيصونها عن زجر الغير لها ويراعي حقوق الناس طوعاً فيوفرها عن إكراههم له على مراعاتها .

والحلم قوة . لأن الحليم بالحلم لا يستفزه تطاول الناس كأنه أقل من أن يؤثر على مكانته .

والحياء قوة . لانه ينزل صاحبه منزلة الوقار ويعصمه عن المهانة التي يلقاها أهل الوقاحة والابتذال .

والتبصر قوة . لأن المتبصر يسلم بالأمر الذي لا بد منه كأنه يفعله

مختارا قبل أن يرغم عليه .

والصفح قوة . لأنه عنوان القدرة الدائمة التي لا تمسها إساءات الناس وعدوانهم ، والتي إذا أبقت خصمها اليوم فلأنها قادرة على الاقتصاص منه في أي وقت تشاء .

وسلامة الضمير قوة . لأن عدم الاحتراس من الناس يشير إلى عدم الخوف منهم كأنهم لا يستطيعون أن يصلوا بسوء إلى صاحبه .

والعدل قوة . لأنه مساواة بين من يخشى بأسه ويطمع في مساعدته ، وبين من لا يرجى له نفع أو يخشى منه ضرر .

والصدق قوة . لأن الصادق لا يضطر كالكاذب إلى اخفاء الحقيقة رهبة من أناس أو رغبة فيهم . ويقرب من الصدق في هذا المعنى الوفاء .

والزهد قوة لأنه غنى سلبي عما ينكب الناس على طلبه .

والورع قوة لأنه اعتصام بقوة الخالق ترفعاً عن قوة المخلوقات .

واحترام الضعف قوة ـ لأن احترام الضعفاء كاحترام الأقوياء يدل على أن خوف القوة ليس هو الحامل على الاحترام .

وجميع هذه الفضائل تشترك في فضيلة أخرى وهي أنها تستجاب ثقة الناس إلى أربابها وتوقيهم الصغار الذي يتلبس به الذين يشتهرون بأضدادها .

على أنك إذا حللت الرذيلة من وجهة أخرى لما وجدت إلا أنها اختصار الطريق إلى الغرض تهافتاً من النفس وعجزاً عن الصبر على تنكب المحظورات . ووجدت الفضيلة عبارة عن الوصول إلى ذلك

الغرض من طريق كثيرة العوائق والتعاريج يدل التزامها على الجلد والاضطلاع . فيظهر مما تقدم أن الإنسان لا يستطيع أن يفخر بأمر ليس للقوة نصيب منه . ولا يرغب في الاتصاف بوصف إلا إذا كان فيه إظهار لقوته أو مداراة لضعفه وأنه لا يوجد إنسان مهما بلغ من الورع والتجرد ينفر من العزة ويرتاح للضعة . وإنما يختلفون في فهم معناهما كل بما يصلح له .

إلى المجلس الحسبي :

أيهما أحق بالحجر ؟؟ ذلك المسرف الذي يدفع دنانيره أولاً فأولاً إلى من هو أعرف باستعمالها ، أو هذا الشحيح الذي يلتقط من الثروة العامة درهماً بعد درهم ثم يحرمها من الانتفاع بها طول حياته .

الغاية واللاغاية :

من الناس من يرى أن الثمرة نبتت حلوة ليأكلها الإنسان ومنهم من يرى أن الإنسان أكل الثمرة لأنها حلوة . منهم من يقول ان الإنسان خلق أولاً ثم صنع العالم من أجله . ومنهم من يقول إن العالم صنع أولاً ثم خلق الإنسان منه . الأولون يعتقدون أن النجوم مصابيح الإنسان والشمس روزنامته والهواء مروحته والبحر صهريجه والأرض سماطه ومناجم باطنها خزانته . وهؤلاء يعتقدون أنه من أرض العالم ومائه وهوائه وعناصره تركيب جسم الإنسان ـ وعلى هذا الخلاف الظاهر يدور الحجاج واللجاج بين أصحاب القصد وأصحاب الاضطرار من قديم الزمان .

الطب والشعوذة :

المرض ، ألا قوتل المرض من عدو لدود العداء للإنسان .

عرفنا السلاح للسباع وعرفنا كل فتاك مثلـه لكل عادية مثلهـا إلا المرض . . . .

نعـم تقـول الطـب والأطبـاء . ولـكن هؤلاء لا يسعفـون إلا في الانحرافات التي نبالغ بتسميتها أمراضاً . أما في العلل المتمكنة التي إنما يدعى الطبيب لمثلها فهؤلاء الذين تقول عنهم ـ ولست أعمم ـ يقفـون حيارى لا يمدون يداً إلا إلى قبض الريال بعد الريال إلى أن يكلّ المريض من العطاء أو يملون من الأخذ وقد يموت أقصرهما عمراً قبـل أن يسـأم الآخر .

كنت أظن كل داء من المرض له دواء من الطب . وأن الطبيب إذا فاته علاج الداء فلما أقل من أن يضبط تشخيص أعراضه .

أحوجتني الضرورة إلى الأطباء وكنت أحسبني أغنى الناس عنهم فطرقت أبـواب عدة عيادات . وكنـت إذا دخلـت العيـادات اطمأنـت جوانحي وسري عني ما بنفسي فأشعر بين جدرانها كأني قد لذت بحرم الطب المقدس من أعدائي وما أعدائي إلا الآلام التي تطاردني في الليل والنهار .

ثم أخرج منها مزوداً بنصائح في الطعام ونظام المعيشة لا أحيد عن حرف منها . وفي يدي زجاجة أحسب أن فيها السم القـاضي على تلك الآلام . ثم لا تلبث أن تمر بضعة أيام فأراني كأني لم أستشر طبيباً ولم أتناول دواء . فأدعو الى طبيب آخر يفحصني فحص زميله مع تنويعات

وزوائد عرضية ولكنها كانت تبعث عندي الرجاء في طبيب بعد طبيب . ثم أنصرف منه بدواء في لونه مغاير لدواء الأمس ، وآخذ في طعام غير ذلك الطعام ، ونظام في المعيشة غير ذلك النظام . ولكن على غير جدوى .

كنت أسمع من الواحد منهم بعد الآخر بهيئة تليق بمن كان يبيع الصحة بل الحياة بالمقدار :

أتريد أن تعرف الحقيقة ؟

إن بك ضعفاً في المعدة والأمعاء يزول بقليل من العلاج .

يقول ثان : إن معدتك كأحسن ما يكون ولكن الذي تشكو منه في الحقيقة هو فقر الدم .

ويقول ثالث : ان جسمك ليس يفتقر إلى نقطة من الدم وأنت لا يحق لك أن تشكو إلا من السوداء .

ويقول رابع : لولا اختلال الكبد وهياج الصفراء لما كنت تتألم من شيء الآن .

ويقول خامس : إن كل ما بك أن كليتيك لا تؤديان وظيفتهما تمام الأداء وليس ما عدا ذلك الا أثر يزول بزوال ذلك المؤثر البسيط .

ويقول سادس : لا تصدق شيئاً مما يقال لك . فكل أعضائك سليمة صحيحة وليس هذا الذي تشعر به إلا من مخلفات ضعف في جهاز التنفس يرجى أن يزول .

وكان هذا الطبيب يقول لي : عليك بالدسم والنشويات وذاك يقول : إياك والدسم والنشويات . أسمع من هذا أن إدمان استعمال

الأدوية مؤذ بالجوف وأن الأفضل الامتناع عن تعاطيها . وأسمع من ذلك أن ترك الداء بلا دواء قد يتخلف عنه خطر جسيم . هذا يقول : استلق على ظهرك طول يومك وابتعد عن كل ما ينبه أعضاءك . ويقول لي الآخر : يجب ان تعين لك وقتاً تشغله يومياً بالفلاحة أو تمشَّ على قدميك بعد كل ساعتين نصف ساعة .

طبيب ينهى عن الاستكثار من السوائل وطبيب يأمر بأن لا أتناول إلا اللبن وأن لا أتناوله إلا ممزوجاً بضعفيه من ماء فيشي ، إلى مثل ذلك من الوصايا المتناقضة . ولو كانت هذه الوصايا موجهة إلى عشرين شخصاً لما كان في الأمر ما يدعو إلى الحيرة ولكنها موجهة لشخص واحد وهذا الشخص ليس له مع الأسف قدرة الجن على التطور بعدة أشكال في وقت واحد .

فرأيت أني لو عملت بجميع تلك الوصايا لما ذقت طعاماً وحرت في الأمر فإما أن أكون مصاباً بكل تلك الأمراض في آن واحد ، أو لا أكون مصاباً بواحد منها . ووجدت اني لو تركت ونفسي لما خرجت عن تلك التجارب والتخمينات مهما تعسفت في التوصيف والتشخيص إلا إذا افترضت الداء حالاً بعضو غير تلك الأعضاء التي ذكروها ولا أعلم أن جسم الإنسان يشتمل على غيرها .

وبعد أن أفرغت في جوفي صيدلية من الأجزاء والعقاقير نقطة بعد نقطة رأيت أن صناعة الصيادلة ليستِ أنفع بالنسبة إليَّ من صناعة السقائين وأنه لا توجد صناعة لم يتقنها أربابها كصناعة الأطباء وعلمت أن التحسن البطيء الذي شعرت به لا يمكن أن يدعي علم الطب أي فضل فيه . بل ربما لم أحصل عليه إلا خلسة من الطب والأطباء .

إن هذا الخلط داء مزمن بعلم الطب ـ وأقصد منه على الخصوص طب العقاقير ـ يجب أن يعنى الأطباء بمعالجته قبل أن يجعلوا أجسام المرضى جثثاً يجربون بها أصناف الأدوية والعلاجات .

عدم الاكتراث :

عدم الاكتراث لازمة من لوازم النوابغ العبقريين ، فالرجل العبقري عالمه في نفسه . له بدوات وأطوار غير التي يألفها الناس ولكنه لا يتخلى عنها . وللناس شعائر وتقاليد يقدسونها ولكنه لا يلتفت إليها . مثله في ذلك مثل السائح الاوربي أو الأفريقي يهبط الصين ، فإنه ينظر إلى أزياء القوم وأحوالهم بعين الاستغراب وإن كانت مألوفة عند كل فرد غيره في الصين . ويظل متمسكاً بعاداته وطباعه وإن هزىء منها كل رجل وامرأة من أولئك الأربعمئة مليون الذين يدور عليهم سور تلك البلاد كأنما العبقرية تجعل الرجل من جنس غير الذي منه بقية البشر .

على أن عدم الاكتراث قد ينقلب إلى هنة من أخس الهنات ، يتخلق بها من لا خلاق لهم من الأراذل والسفلة . أولئك الذين ينزلون أنفسهم في منزلة لا يمكن أن ينزلهم الناس في أحط منها أو يخدعون الناس بظواهرهم وبواطنهم على خلاف ما يظهرون .

مناقشة مع الاستاذ وجدي :

الأستاذ فريد أفندي وجدي أكبر داع من دعاة الدين في مصر يخاطب بلسان العقل في الدينيات . وبهذا الاعتقاد ألقي إليه هذه المسائل التي رأيت مناقشته فيها لازمة بعد أن تصفحت من دائرته الجزء السابع الذي خصصه للبحث في اثبات وجود الله ـ وها هي ألقيها إليه مسألة بعد أخرى :

« أولا » انتظام العالم لا يصلح أن يتخذ دليلاً على حدوثه كما لا يصلح أن يتخذ اختلاله دليلاً على قدمه . والإنسان باعتباره زبدة الكائنات سواء في قول الخلقيين أو النشوئيين لا يعقل أن يظهر في العالم إلا بعد أن يترتب كل ما دونه في مراتب الخلق . وسواء حدث هذا النظام بعد اختلال أو كان على هذا الوضع من أزل الآزال فما كان ليأخذ مقره من العالم إلا وهو على درجة من النظام كافلة على الأقل بنشوئه فيه . فمن أعلمه أن العالم الذي يضمه الآن لم يكن في القدم « كاؤسا » كما تخيله شعراء اليونان وليت شعري إذا كان قد وجد في ذلك الكاؤس سائل مثلي ومسؤول مثل الأستاذ وجدي وجلسا يتناقشان في وسط تلك الهيولى كما أناقشه الآن عن آية الخلق في العالمين فبماذا عساه كان مجيباً .

« ثانياً » لا يمكننا أن نحكم على الشيء أنه متقن إلا إذا وقفنا على الغاية منه . فنحن نعرف الساعة أنها متقنة إذا علمنا أولاً أنها آلة تستعمل في قياس الوقت ثم علمنا ثانياً أنها تؤدي هذا الغرض بالضبط .

نعرف أن المنزل مقسم تقسيماً حسناً إذا علمنا أولاً أنه محل معد للمأوى . ثم علمنا ثانياً أنه صالح تماماً لهذا الاستعمال .

قال فلتير فيما نقله عنه الأستاذ في صفحة ٤٩٩ من هذا الجزء « إني إذا رأيت ساعة يشير عقربها إلى الأوقات المختلفة استنتج من ذلك بأن لا بد من أن يكون عقلاً « هكذا » قد رتب لوالب هذه الآلة حتى استطاع العقرب أن يدل على الساعات دلالة حقيقية وكذلك أراني إن تأملت في آلات الجسم الإنساني استنتج أن لا بد أن يكون عقلاً « هكذا » قد نظم

جزاءه و جهزته وجعله قابلا لأن يغتذي في الرحم تسعة أشهر متوالية وأنه قد متع باعين لينظر بها وبأيد ليتناول بها . إلخ » .

وأذكر أني قرأت مثل هذا الكلام لروسو . ولكن روسو عكس المثل فاستدل من تركيب لوالب الساعة على أنه لا بد أن تكون وراءها غاية مقصودة . وهو استدلال مردود إذ يجب أن تعلم الغاية أولاً ثم يستنتج النظام أو عدم النظام بالنسبة إليها . ولكن دعنا الآن في كلام فلتير .

ففلتير جزم بأن الساعة صنعة عاقل لأنه تحقق أنها مقصودة لقياس الوقت . فما هي إذن تلك الغاية التي تبين له أنها مقصودة بخلق العالم ؟؟ وهل يعقل أن نحكم على شيء بأنه محكم أي أنه يؤدي الغاية منه تمام الأداء من غير أن نعرف ما هي تلك الغاية ؟؟

ثم لماذا لا نقول مثلاً إن الجنين لو لم يستقر في الرحم مدة الحمل لما تمتع بالحياة وانه لو لم تتولد له أجهزة لما كان حيواناً ، وان العين لو لم تكن بهذه الدقة لما أبصرت واليد لو لم تكن بهذا الوضع لما تناولت إلخ بدلاً من أن نفترض افتراض فلتير :

« ثالثاً » الإحكام الشامل والتطابق التام اللذان لا بد يشيران إلى القصد مفقودان من الكون . فأين هو ذلك الشيء الذي نراه ولا نود أن يصير أكمل مما هو . فالأجرام السماوية تتصادم في كل فترة فتتساقط في الفراغ ، وهذه الأرض التي نحن عليها لا شيء يمنع أن تصطدم الساعة بمذنب أو سيار تائه في الفضاء فتلحق بالأجرام التي اندثرت من قبلها . ونواميس الطبيعة تثير نكباتها وطوفاناتها وأوبئتها وحرائقها فتدمر ما

عملت فيه نواميس أخرى ملايين السنين ، ولا يتلف ما بدأ في صنعه إلا من يعمل مضطرّاً في الحالتين وهم يقولون : أكذلك تكون أعمال المدبر المريد ؟؟ وهذا الكون ليس في الحاضر وما كان في وقت مضى محكماً حتى لا موضع فيه للخلل أو كاملاً حتى لا شائبة فيه للنقص ، فهو يتدرج في الرقي فيسد نقصاً قديماً ويأخذ في تكمل جديد . ونحن نعلم العوامل التي تدفعه إلى الرقي فكلها منه وإليه . فنظامه هذا البديع قد استفاده بذاته أي بعوامله ونواميسه من اختلاله ذاك . وما هذا النظام بأدل على الإعجاز من ذلك الاختلال لانهما كلاهما أثر لتلك العوامل والنواميس القسرية . وما قال أحد ان الكون انتظم اليوم لأن الله موجود وإنه كان مختلاً بالأمس لأنه لم يكن موجوداً .

« رابعاً » إذا قيل إن الإنسان غاية الوجود كما يفهم من اعتقادهم أن أعمال الإنسان وحدها هي كل ما ينظر إليه من هذا الوجود بعد انقضائه فلماذا لم يرتب هذا العالم بحيث يوافقه كل الموافقة ؟ وإذا كان الإنسان أحقر من أن يوضع الكون حسب ما يلائمه فلماذا إذن خلقت من أجله كل هذه العوالم التي لا نهاية لها . وكيف لا يكون ذلك الشأن لمن خلق من أجله العالم الأول والعالم الأخير .

« خامساً » ان حوادث الكون كلها تطبق على عوامل ونواميس مطردة وأنه حتى الطوارىء التي تغم علينا أسبابها لا تلجئنا إلى استمداد سبب لها من خارج الكون . بل إن تعليلها بعلة طبيعية أقرب دائماً من تعليلها بعلة من وراء الطبيعة .

« سادساً » ليس في وسعنا أن نقرر أن الكون لا يكون إلا حادثاً ، إلا إذا كنا قد رأينا أكواناً أخرى مثله ثم أيقنا من حدوثها فنحن نحكم

عليه بالحدوث بالقياس إلى تلك الأكوان . أما وهذا كوننا لم نر قبله ولا بعده . ومنه دون سواه نستمد أحكامنا على المادة والوجود فلماذا لا يكون إلا حادثاً ولماذا لا يكون قديماً ؟ وللمعترض أن يسأل من يقول : « إن الأكوان لا تقبل القدم من طبعها » كم كوناً رأى وفي كم منها تحقق الحدوث ؟ كما له أن يسأل من يقول : « إن المادة لا تصدر عنها الحركات والأعمال » في أي موضع غير هذا الوجود رأى المادة محرومة من هذه الخواص ؟ فإذا كان لم ير ولن يرى فكأنه يقول إن مادة هذا الوجود لا تصدر عنها الحركات والأعمال لأن مادة هذا الوجود لا تصدر عنها الحركات والأعمال .

« سابعاً » إننا إذا أردنا أن نسكت عن النظر والاستدلال أمام الغوامض الكونية فلنسكت عنهما بين يدي العالم والرسول على حد سواء . فلا نلحف في سؤال العالم إلحاف المتعنت : كيف انفصلت الأرض عن الشمس ؟ ومتى انفصلت ؟ كأنه كان من شهود ذلك الحدث البعيد ، ونحن نسكت عما هو أغمض من ذلك وأشد منه إشكالاً أمام النبي والرسول .

« ثامناً » إن العدم تصور فاسد من تصورات الإنسان . فلا وجود إلا للوجود ولا حقيقة إلا له . فنحن لم نَرَ عدماً ولا يمكن أن نرى عدماً ، فمن أين لنا أن نتوهم غير الوجود ؟ فلا مقتضى مطلقاً لتصور الوجود كائناً بعد عدم أو صائراً إلى عدم . كما أنه لا مقتضى لتصور الوجود منفصلاً عن الأزلية والأبدية . وما ألم بوهم الإنسان خيال العدم إلا من هذه الاستحالات التي كانت تظهر له في بادىء عهده تارة كأنها خلق وإنشاء وتارة كأنها تلاش وفناء . وما هي في الحقيقة إلا انتقال من

صورة إلى صورة الوجود ولولا ذلك لما خطر العدم في عقل ولا ورد على بال . ولولاه لما سمعت إنسانا يسأل : « من أين جاء الوجود ولا إلى أين يصير . لأنه لا يتصور غيره ولا يبدو له سواه » .

« تاسعاً » إن الإلهيين هم المطالبون أولاً بالإثبات لأنهم هم المدعون ولا يطالب الملحدون به لأنهم منكرون ليس إلا ، ولا يصح أن يطلب الدليل ممن ينكر قضية لم يقم على إثباتها دليل .

كذلك دحض حجة الخصم لا يفيد صحة حجة المدعي . بل كل ما يفيده أن الدعوى لم يقم برهان على بطلانها كما أنه لم يقم برهان على تأييدها .

هذه هي المسائل التي طافت بذهني وأنا أقلب صفحات الجزء السابع من دائرة معارف القرن العشرين وربما طافت كذلك بأذهان الكثيرين فوجهتها الى صاحب الدائرة لعله إذ يدفع هذا الالتباس يرفع خرطوم الوسواس الخناس عن صدور كثير من الناس .

شح البحر :

أيا بحر لو كنت الكريم كما ادعوا ... قديماً لألقيت الجواهر للناس
وحليت منها العاطلات على الحلى ... من اللاء لم يسعدن بالتبر والماس
ولم تدخرها كالشحيح لسارق ... تدلى بأمراس إليها ونبراس

فاكهة النعام :

تين الصبير وقيت فا ... كهة الأوابد والنعام
يحلو إذا كانت جلا ... ميد الصخور هي الطعام

فنون الجنون :

الجنون فنون . وفنون الجنون كثيرة لمن يريد أن يحصيها . لا أقصد جنون السراي الصفراء ولا ذلك الجنون الأحمق الذي يعلن عن نفسه في الشوارع والأسواق ويستلفت من لا يلتفت إليه بالحجارة والصياح . كلا ! بل اقصد هذا الجنون الخلفي الذي لا يسلم إنسان تحت قبة السماء من شعبة منه . هذا الجنون الذي يقول عنه المثل الإنكليزي « لو كان الجنون مرضاً يؤلم لسمعت الصراخ من كل بيت » فما أكثر المجانين الذين يذهبون ويجيئون بغير جوامع في أيديهم ولا أغلال في أرجلهم في هذا البيمارستان العظيم .

الناموس الأخلاقي :

الأصل في الأصل الأخلاقي أنه الحالة التي يتمنى كل إنسان أن يكون الناس عليها ، حسب ما يبدو له أنه أضمن لعلاقاته معهم . فليست الأصول الأخلاقية بالقواعد التي تقضي المصلحة بالتمسك بها . بل كثيراً ما يجيء الأمر على عكس ذلك ولكنها القواعد التي لو جرى عليها كل إنسان لأصبح الناس كما يزعم واضعوها أسعد حالاً في مجموعهم مما هم الآن

ولكن أليس هناك فاصل بين المطلوب والحاصل ؟ ألا يجب أن تقدر درجة حكم الإنسان على نفسه فيما يتعلق بمعاملاته مع الناس ؟ إن أولئك الدعاة والوعاظ لا يرون من داع إلى بحث هذه الاعتبارات . يظنون أنه ليس بين المخطىء وبين العصمة إلا أن يعرف خطأه . كأن كل هؤلاء البغاة والأشرار ما كانوا بغاة وأشراراً إلا لأنهم لم يجدوا من يقول لهم إن ما هم فيه بغي وشر .

فمن قديم الزمان تكلم هؤلاء الناس عن الصدق والأمانة والفضيلة وقالوا لهم قوموا اصدقوا قوموا استقيموا. ولكن حتى الآن لم يوجد ذلك الرجل الصادق الذي لا يكذب والأمين الذي لا يخون والفاضل الذي لا يعرف ما يؤنبه عليه ضميره ـ وليس بحي الضمير من لا يسمع صوته مرة ـ على أنه لو وجد ذلك الرجل بين ظهرانينا لكان كمن يعامل الناس بصك يتقيد به من جانبه ولكنهم هم من جانبهم لا يتقيدون به .

وليس أولئك الدعاة والوعاظ وحدهم أصحاب مبادىء أخلاقية بل إن لكل رجل تراه مبدأ أو مبادىء من هذا القبيل . فكل رجل لا تروقه حالة الناس . وليس من رجل تروقه حالتهم ، يتمنى لو يكونون على غير ما هم عليه . فتسمع منهم من يقول : آه لو كان الناس أوفياء ! ليتهم لا يخافون ، ليت قويهم لا يقسو على ضعيفهم . ليتهم لا يبخل عنياؤهم على فقرائهم : ليتهم لا يتباغضون . إلى غير ذلك من الأماني التي ربما لم تكن أبعد تحقيقاً من سنن أولئك الأخلاقيين .

يقولون ذلك كلما مسهم أذى من تلك النقائص التي ينقمونها من بعضهم . على أن كلاً منهم ينتظر حتى يبدأ الناس بالإقلاع عنها ليقتدي بهم . وما من أحد يرضى أن يجعل نفسه مثلة لغيره . وما من أحد يضع يديه في الأنشوطة وهو يرى الأيدي كلها ممدودة إليه . فالناس الآن وفي كل زمان يكذبون ويمارون ويتساهلون في الواجبات . ولا مندوحة لهم عن ذلك ما بقي بينهم هذا التدافع والتجاذب على وسائل الحياة .

الحكومة في الشرق والغرب :

من المسائل الحرية بالنظر أن شكل الحكومة لم يكتسب شيئا من تعديلاته وأدواره في الشرق كله . لا قديماً كما كان يقع مرارا في روما

واليونان ، ولا حديثا كما وقع في فرنسا وانكلترا من التجارب المتتابعة وراء تكوين الحكومة الصالحة . ذلك بالرغم من أن الارتباط والضغط اللذين كانا يثيرانهم إلى قلب الحكومات قد نزل أضعافه بالشرقيين . ولكن مع هذا الفرق اليسير ـ وربما كان فيه كل السبب ـ أن الاستبداد لا يؤثر هنا على الأحوال المعيشية تأثيره هناك لتيسر الأرزاق وقلة ما للقوانين وكيفيات الحكم من المداخلة في تحصيلها .

وقد يكون هذا الجمود على شكل واحد من اشكال الحكومة ناشئاً من انطباع الشرقيين على قلة الاهتمام بالعموميات لتمهد الوسائل الخصوصية . فإذا استولى أحدهم على الملك استقر له الأمر وانقاد له الجميع . وكثيراً ما يتفق أن خادماً من خدم البلاط يبسط نفوذه في المملكة فيغتصب الملك لنفسه ، ويبقى الحاكم المتصرف إلى أن يزحزحه عن مكانه متعصب آخر يأنس من نفسه الصولة والنفوذ . والناس بمعزل عن هذه الانقلابات ، يسلمون بها ولا يشتركون فيها ، فهي ـ أي حكومة الشرق ـ لا ترتكز على الشعب فلا تتحول باختلاف مصالحه ولا الشعب يعتمد على اختلاف هيئاتها . فقد أنشأت نفسها بقوة ساعدها ولم ينشئها الشعب كما هو شأن الحكومات في الغرب . وقد شدت أزرها في كثير من المواقف بالسلطة الدينية التي رأت من مصلحتها أن تتبادل وإياها المعاضدة والتناصر ، فجمدت جمود عقائد الأديان في وهم الانسان .

في سالون حلاق :

ما بالها تطفر كالغزال	ساحرة بالتيه والجمال
هيفاء من أوانس الأندلس	ذات جبين كالنهار المشمس
قد أسفرت حالية بالنور	في وجنة ومقلة وثغر
من كل زهر ناضر الرواء	والزهر لا ينضر في الشتاء

ثم استوت في مجلس هناكا تمد للخلائق الشباكا
أمامها المرآة فيها يظهر ما ليس في غير المرائي تنظر
تمثالها في صفحة البلور مرتسماً بريشة من نور

***

وكان يرعاها أريب كيس فقر في موضعه لا ينبس
وصوب الطرف إلى الوذيلة يرمق تلك الصورة الجميلة
كمن يهاب الشمس في السماء فيرتضي بقرصها في الماء
فساءها حتى إلى لطف النظر أهكذا تبخل ربات الخفر
الحسن ان ضن به المليح كالمال إذ يدفنه الشحيح
الزهر إذ يزكو لغير ناشق والبدر إذ يبدو لغير رامق

***

فأقبلت تضحك للقرين عن لؤلؤ في ثغرها مكنون
قالت الا تنظر للمغرور يحدق في المرآة كالمسحور
ما زال يرنو نحوها بالطرف حتى لقد آخجل فيها طيفي
فأومأ القرين للحلاق يبتسم ابتسامة الاشفاق
وقال قل للحاجب الصديق لا يكسر المرآة بالتحديق
من يكثر اللمح لها في الليل قد يعتريه خبل في العقل

***

فقال « عفوا يا قرين الشمس » ذاك الأريب منغضاً بالرأس
« ما في المرايا ثم من شيطان يخاف منه المس للانسان
بل إن فيها ملكاً مكملا يوحى لنا الحسن كما تنزلا
ملكت منه اللذات واستأثرتا ففز بها مغتبطا هنئتا

ودع لنـا هذا الخيال مغنيا فانـه ليس لزوج حرما »[١]

الارتقاء ودلال النساء :

لا يرغب الرجل في المرأة في الشعوب المنحطة إلا للعلاقة التي بين كل ذكر وأنثى . فالمرأة في تلك الشعوب يهمها أن تكون مرغوبة من هذه الوجهة . والدلال ومنه الخفر والخيلاء وترطيب الكلام والتخنث والزهو باستكمال المحسنات الأنثوية من قرائن تلك الرغبة والمحركات لها أيضاً . أما حيث تكون للمرأة مزايا تحبب فيها غير هذه المزية كسلامة الذوق ورقة الحديث ودقة النظر ومشاركة الرجل في تدبير شئونه ، فالدلال من هذا النوع لا يحس إلا بقدر ما يكون طبيعياً في المرأة . فالعربيات والسودانيات أكثر دلالاً من المصريات والسوريات ، والمصريات والسوريات أكثر دلالاً من النمسويات والإيطاليات والفرنسويات ؛ وهنّ أكثر دلالاً من الألمانيات والانكليزيات ، والأوروبيات بوجه عام أكثر دلالاً من الأميركيات .

وربما جاءت السوبرمان التي يمنوننا بها مجردة من كل أثر من هذا الدلال .

طمأنينة اليأس :

ماذا أصنع ؟

سؤال إذا ألقاه المصاب على نفسه فعجزت عن الجواب هان عليه المصاب . يقوله المحتضر والمقضي عليه بالإعدام . ويقوله المفجوع

---

(١) وقعت هذه النادرة مجردة عن ثوبها الشعري لصاحب لي في الشتاء الماضي باسوان وقد حكاها الصاحب لي فأعجبتني لطافة موضوعها .

بعظائم الرزايا وفوادح الآلام . يقوله فتطرق نفسه أطراق الرضى والاقتناع . بهذا السؤال « الاسفنكسي » يرقد ساكن الروع جان سيساق غداً إلى ساحة القتل . بل بهذا السؤال يترقب ذلك الجاني ساعة القضاء عليه كمن يرتقب ساعة العرس ، كي يتخلص من وساوس لعل وربما . إلا أن من النفوس طائفة لا تسكت عن هذا السؤال في حال من الأحوال فتجيب عليه بالصدق والكذب . وبالممكن والمحال . فالويل لأمثال هذه النفوس الحمقاء ! .

الحنان للعمة :

الخال اشد عطفاً من العم لأن الرجل ينافس أخاه بأبنائه ولا ينافس أخته بهم . والعمة أشد عطفاً من الخالة لأن المرأة تنافس أختها بأبنائها ولا تنافس أخاها .

الرأي العام :

لو استطعت أن أتمثل الرأي العام في صورة شخص واحد لرأيته فيلما نيّاً غاشماً . هائل الجثة صعب المراس ضعيف الذاكرة . سريع التقلب . قريب التهيج . سهل القياد . متناقض الأفكار يقبل كل ما يقال له من غير تدبر ولا إمعان . والساسة والزعماء وجماعة الصحف والأحزاب محتفون بذلك العملاق الغمر يملقونه ويصادونه فلا يكاد يصدقهم بهذه الأذن حتى يكذبهم بتلك ، وهو تارة يهم بالبطش بهم وتارة يضحك لهم بملء شدقيه . ولا بد أن يكون كذلك مجموع أفكار خليط من الناس لا يحتمل أيهم تبعة رأيه شخصيّاً .

هواجس ما بين القبور :

كلفنا بالحياة فما الذي أغرانا بحبها . وكرهنا الموت فلماذا كرهناه ؟ « سؤال فيلسوف الفلاسفة وأغبى الأغبياء سيان في العي عنه » . بل إن ذلك الفيلسوف ـ ولست أهينه ـ كالحيوان الأبكم والجماد الأصم سواءً في الصمت أمام هذا السؤال .

سل حجراً : لماذا يأتلف بذراته ويحتفظ بشكله . سله عن هذين وهما مبلغ ما لديه من حياة ، ثم سل من تشاء من جهابذة العلم وأساطين المعرفة : علام آثر الحياة وكيف بدا له أن يتمسك بهذا البقاء ؟ إنك لا تسمع منه صوتاً أوضح من سكوت ذلك الجماد .

***

ألا أخلق بهذا الذي يدعونه تنازعاً على البقاء أن يدعى سباقاً إلى الفناء . سباقاً من العفاء مبتلؤه ومنتهاه إلى العفاء . نحن كلنا في ذلك المضمار متلاحقون . السابق منا كالمسبوق والأول والآخر سواء .

فهذا المالك المطاع . الذي لا يفرض على عباده أكثر من الايمان إلى الغبراء برهاناً على التذلل أمام عزته . والتصاغر لدى عظمته . دعه اليوم في عزة السلطان وأبهة المقام . ثم عد إليه بعد أيام . الا ينتشر على تلك الغبراء تراباً تمشي عليه الدواب وتطأ فوقه الأنعام ؟ .

وهذا الألمعي اللبيب : الذي تتلألأ كلماته في ظلمة الجهل تلألأ النور في حلك الليل . ننافس يتيمات الدرر بأقواله تنزيهاً لها عن لفظ هذا الأنام ونحاكي بنفائس الأعلاق معانيه إغلاء لها عن سائر الكلام أنظره إلى أيام . . فما أقرب معدن ذلك الجوهر إلى معدن هذا الرغام عند كيمياء الحمام .

وهذا التياه بجماله . الفتان بدلاله . الذي تتهافت الأبصار على لمحة إليه . وتتلهب الشفاه إلى قبلة منه ـ أمهله أيضاً إلى أيام . . ثم انظر أين منه تحت الثرى لحاظه الساحرة . وطلعته الباهرة ووجنته الناضرة ومراشفه العذبة الطاهرة . ألا ترى أحسن محاسنه غباراً ينفض عن الأحذية وتصان عنه الأقدام ؟

وذاك الكمي المغوار الذي حرم على الأسود لحمه . وسمم في ملاغم النمور دمه . ما باله يسرح الدود منه في مكامن الشدة والعرام . وتتمكن الهوام من بدنه حيث لا يبلغ لا نصل ولا حسام ؟

فما هذه الحياة لا كانت الحياة ! حيينا على الكره منا . ونعيش على الكره منا . ونتسل فنهب أبناءنا الحياة على الكره منا ونحبها ونحن على ذلك مكرهون .

ما هذه الحياة لا كانت الحياة ! كلام يعجم على عقولنا ويرن صداه في أعماق ضمائرنا والموت من فوق منابر النعوش ينادينا ، بلسان يسمعه الأعجمي كالعربي ، والأصم كالسميع ، والبعيد كالقريب قائلاً : « أيها الناس إن حياتكم هذه إلا احتضار طويل . تعالجون له كلما استطعتم إطالة ومدّا . ولأن تعجلوه أليم قبل غدو الساعة قبل الساعة التي بعدها أحرى بكم لو كنتم تعقلون » .

نقص اللغات :

كم من كلمات على ألسنة الناس بلا معنى وكم من معان في أفكارهم بلا كلمات .

اقتراح :

لست أدري لماذا لا تفتح حديقة الحيوانات أبوابها سحراً في أيام من فصل الصيف والربيع . فيشاهد الزائر الطبيعة تفرك جفنيها من النعاس

وهي في ثياب النوم . ويرى كيف تنهض من فراشها بين جمادها ونباتها وحيوانها . ويسمع ذلك اللحن المؤلف من زئير السباع وصياح الدواب وتغريد الطيور وزقاء العصافير وعزيف الصبا وحفيف الأشجار . أيظن مدير الحديقة أنه يحبو زواره بمشهد أبدع من هذا في النهار ؟؟

عشاء المدينة :

إن هذه الظواهر المدنية ليست عميقة الأثر في نفس الإنسان فإن البواعث التي تخرجه عن هذا الطور السطحي مثل الغضب الشديد والجنون والدفاع عن الحياة تعيده إلى استعمال أبشع وسائل العراك الوحشي كالنهش والعض والتخديش بالأظافر لا سيما في الصغار والنساء . والوقائع متعددة عن المجانين الذين أكلوا جوارح الأحياء ، والمقتولين الذين أنشبوا أنيابهم في أجسام قاتليهم وقضموا من أعضائهم ما وصل إلى افواههم ، طمعاً في الخلاص .

وحش :

الإنسان أشد الحيوان ضراوة . يفترس من البر والبحر والهواء وما هو بمضطر كاضطرار الوحوش إذ ترد عنها قوارص السغب ولكن ليتلذذ ويتفكه بتنوع الألوان واختلاف الطعام . وكما أن السبع قد يغتال فريسته من أجل نهشة من اللحم . كذلك إنساننا قد يسطو على شرف أخيه وطمأنينته فيسلبهما منه من أجل لذة فارغة لا يضيره الاستغناء عنها . فالوحشية ليست هي في الفتك والاغتيال بأقبح منها في الافك والاحتيال .

وما في الغول والسعلاة طبع وهذا المرء من شرواه خال

وكم في النـاس إن تنظـر إليهم   طبائـع ما تراهـا في السعالي[1]

تربيتنا الدستورية :

إلى الآن يخيفون الأطفال في الأرياف البعيدة بالعسكري . يخافون من كل لابس الطربوش كخوفهم من العفاريت والغيلان .

التنافس سلم الرقي :

يضيق مجال التنافس في الأقطار الزراعية البحتة التي لا تعمل فيها الصناعة فتبطىء حركة التقدم . لأن المجانسة الطبيعية في نتاج الزراعة قد أوقفت التحسينات الصناعية عند حد محدود . ولذلك بقي فلاح اليوم نموذجاً لا يفوته شيء من فلاح طيبة وممفيس . فالأكواخ الطينية والمحراث الخشبي وسراج الزيت وأثواب الصوف بلونه الطبيعي على جلود الغنم . ومنسوج الكتان الغليظ والخبز الاسمر والسمك المملح والجبن والبصل والكراث لا تزال على حالها في عهد بناة الأهرام . وستبقى كذلك إلى أن تنشأ لنا صناعة وطنية نزاحم بها في سوق الصناعات . هنالك نضع أقدامنا على قاعدة ثابتة مستقرة ونأخذ في الرقي المتواصل المطرد .

يا ليل :

.. شمل الظلام أعاليَ الآكام   والنـور غادر طاويَ الأعلام
وطغى على الأكوان بحر طام

نامت عوالمها ورنّقها الكرى   والنجم نام ونـام ما فوق الثرى
والخلق بين مهوّم ونيام

والليل ارحب ما يتاح لنائم   ضاقت مذاهبه بهذا العالم
وطوى على كشح من الأيام

---

(١) من نظم المؤلف .

يا ليل عفيت الفوارق والمدى سويت ما بين الملوك ومن غدا
في حكمهم كسوائم الأنعام
يا ليل أنسيت الحزين مصابه وسللت من صدر العليل عذابه
وحبوته بروائع الأحلام
كم فاز فيك المعتفون بما ارتضوا وأذقتهم طيب الرجاء وقد قضوا
عهد الرجاء وما حظوا بمرام
وجمعت أهل العشق لم يتجمعوا في غفلة ممن يلوم ويمنع
بالروح دون تواصل الأجسام
لا يكتمون من الحياة ودادهم أو يعرضون وقد أذاب فؤادهم
مثل الغضى من لوعة وهيام
أحييت من أردى الحمام وقتلا وبعثتهم من بعد أن صاروا إلى
رمم بوالي في الثرى وعظام
يا ليل أنت أبر ما يدعو الورى رفرف على أهل المدائن والقرى
وابسط ظلالك فوقهم بسلام
آليت أظلم من ظلامك حالكا نور يضيء إلى الشرور مسالكا
ويرى العيون خوافي الآثام
واعف من إنسان سوء يفسد شيطان جن في ظلامك أسود
ماقط فارق عالم الأوهام
يا ليل فاحلل في العوالم سرمدا إني لأفرق للنهار إذا بدا
أشباح خلق في النهار لئام

السعادة في وهم الناس :

يعتقد بعضهم أن السعادة أن تتوفر لدى الإنسان جميع مبتغياته حتى

لا تعـود له بغية في الحياة . وأن التعاسـة بأن يصفـر الإنسـان من جميع حاجاته حتى لا يكون شيء من مستلزمات الحياة إلا وهو محتاج إليه . على أني لا أحسب هذا التعيس أحق بالانتحار من ذلك السعيد .

احترام الضعف :

تغلب آداب احترام الشيوخ والنساء في الشعوب التي من دأبها أو كان من دأبها الغزو وشن الغارات ـ وراقب ذلك في الأتـراك ـ كأنهـم يأنفون من إظهار البأس على من لا ينتظر أن يفاخرهم ببأسه .

الانخفاض أساس الرفعة :

أعـلا المراتـب ما أقيم بناؤه فوق النقـائص من بنـي الإنسان
وإذا بدا لك أن تشيد عاليا فاجعـل أساسـك غائـر الأركان
يشفـى المماكس والمخاتـل والأولى سادوا الخلائـق من ذوي التيجان
لولا الغـرارة في الأنـام ومـا بهم من ذلـة مرذولـة وهوان

فضل الفقراء على مدنية الإنسان :

أكثر الانقلابات العظيمة تمت على أيدي الفقراء لأنهم الفئة التـي ترغب دائماً في تبديل ما هي عليه .

الحجاب ـ خير للرجل الذي يخشى أن تصادفه امـرأة في الطـريق فيفتتن بها ، أن يرجع إلى نفسه فيقوّم طباعها ويلطف من شبقها . ذلك خير له وللعالم من أن يحكم بالسجن المؤبد على نساء العالم كله .

والمصلح الذي يتذرع بفصل الجنسـين إلى منـع الأضرار التـي تنجم عن اختلاطهما كالحكومة التي توكل بكل فرد حارساً أو تحبس الناس جميعاً لتمنعهم من ارتكاب الجرائم . كلاهما يضيع الغاية في سبيل الواسطة .

أين موضع العجب :

في جزيرة منعزلة من جزر النيل رجل إنـكليزي وامرأتـه يقضيان

الشتاء في تلك الجزيرة ثم يبرحانها عند ظهور الصيف . وقد وضعا في خدمتهما نحو الأربعين خادماً بين رجل وامرأة فكانوا يقصرون في تأدية أعمالهم غالباً . فتصيح بهم السيدة غضبى « عجباً أربعون شخصاً يعجزون عن خدمة اثنين ! » .

نعم عجيب أن ينفق رجل وامرأة على ما لا يكاد يفي بتهيئة معدات أكلهما وسكناهما في المشتى ، ما يكفي للانفاق على أربعين عائلة في كافة لوازمها ! » .

آداب المجاملة :

الصراحة ـ أي إظهار شعور النفس على حقيقته ـ خلق فطري في الإنسان . ولكن الرياء والمواربة والنفاق والمجاملة مستحدثات متصنعة أوجدها تداول الحاجة بين الناس . ففي القرى حيث تقتصر حاجة كل إنسان على ساعده ترى الغلاظة والخشونة في الكلام وتراهم أبعد ما يكون في حديثهم عن الكياسة والتزويق وكذلك بين النساء الجاهلات بالحاجات المعنوية في العشرة والمسامرة وتبادل العواطف . فإن الصراحة عندهن على أتمها لأنه قل أن توجد بينهن امرأة تحتاج في مؤنتها إلى امرأة أخرى . لاعتمادهن جميعاً من هذه الوجهة على الرجال .

ومتى ازدحمت الأعمال بتقدم العمران واعتمد كل عامل في عمله على ذاته ، قلّت كذلك المجاملات الفارغة واقتصر الناس من الكلام على الضروري المفيد ونبذوا اللغو والهذر .

وربما كانت هذه الجفوة التي عرف بها العنصر السكسوني في ألمانيا وأميركا وإنكلترا من لزائم الاعتماد على النفس واستقلال الفكر ، وهما الخلقان اللذان امتاز بهما أبناء هذا العنصر بين عناصر البشر كما يمكن أن نرجع بهذه المجاملة المستسمجة بيننا إلى عدم استقلالنا والتعويل على غيرنا

قبل أنفسنا في قضاء حوائجنا .

***

محك المعجزات :

للفيلسوف الإنكليزي دافيد هيوم ميزان دقيق يزن به المعجزات . قال في بعض فصوله ما معناه : إذا أخبرك رجل عن معجزة فانظر إن كان تكذيب ذلك الرجل مستحيلاً أبعد من استحالة وقوع تلك المعجزة فصدّقه » .

فمثلا إذا جاءك رجل وقال إنه رأى الشمس تطلع من الغرب بعد نصف الليل . فإذا كان وقوع ذلك الأمر الخارق أقرب إلى الاحتمال من كذب رجل أو مئة رجل مثله أو ألف أو مليون فصدق المعجزة وإلا فاقطع بأنها ملفقة .

حقيقة الشعور بجمال التصوير :

في استحساننا للصور[1] شيء من الإعجاب الخفي بإتقان المصور . فيتفاوت إعجاب الناظر على حسب الدرجة التي يقدرها للإتقان في نظره . فصاحب الذوق الساذج يكتفي بتخطيط « كروكي » عن مجمل الشكل المرسوم . فلا يطالب الرسام إذا رسم رجلاً بأكثر من أن يأتي به كاملاً لا ينقص عضوا من أعضائه . فيبحث عن الرأس والعين والأنف والأذن إلخ هل لها علامة ظاهرة في الرسم أم لا ؟ ثم لا يعنى بمضاهاتها على الأصل . يطلب منه رجلا لا يلتبس عليه بالقرد أو جملا لا يلتبس بالزرافة .

---

(١) عنيت بالصور هنا . الصور مجردة عما تمثله من احساس صحابها لان هذا في الحقيقة غير ذات التصوير . وقدمت الاتقان في العمل على معراه لانه الامر المطلوب ولا وبدونه لا نعد العمل تاما . فالأخرس الذي يفهمنا آلامه بإشاراته لا نعده خطيبا مؤثرا . وكذلك المصور الذي نفهم معنى صورته بالرغم من خلل تصويره لا نعده مصوراً .

ذلك أننا تعودنا أن نعجب دائماً بالصانع في صنعته على قدر ما استلزمته من الحذق والقدرة . وعلى قدر ما لدينا من إدراك ذلك الحذق وتلك القدرة . فنحن تروقنا صورة اليد أكثر من الصورة الشمسية وإن كانت هذه في الواقع أضبط من الأولى وأدق منها انطباقاً على الأصل . الا أن استخراجها ليس فيه ما يشبع حاسة الغرابة ، لأنه لا يشف عن البراعة التي يشف عنها استخراج الأولى . ولو كان للإعجاب بالصور سبب غير هذا السبب لكانت الثانية أولى بإعجابنا .

اعمار الموتى :

قلت هذه الأبيات على قبر صديق زرته بعد عام وقد مات في التاسعة عشرة .

قد مرَّ عامٌ وانتا من القبور حسبتا
اليوم عشرين عاماً تحت التراب بلغتا
سيان يوم وجيل في عمر من بات ميتا

بنات أوربا على الأيل[1] :

قل للحسان على المطي رواكضاً رفقاً بأعناق المطي قليلا
لا يرتكضن فهن في اقصى المدى ادنى لأعماق النفوس مثولا
حسب الحسان من القلوب رواقلاً إما خفقن وحسبهن ذميلا

تقسيم التركات :

إذا مات رجل عن مئة ألف جنيه وخلف وراءه ابناً . فكيف يحق لهذا الابن الاستيلاء على جميع هذا المبلغ ؟ وبأي مسوغ يستحل ذلك الولد هذا المقدار من ثروة الأمة ؟

---

(١) قيلت في سباق لسيدات على الجمال .

نعم أن على الوالد ان يربي ولده . وله أيضاً أن يعينه على إنشاء مستقبل له في الحياة . فليكن الأمر كذلك فليس في هذا نزاع . فإذا مات ذلك الأب فلتقم الحكومة مقامه فتتولى تربية ولده وتمده متى حان له أن يعمل لنفسه بما يبدأ به عملاً من الأعمال . ولتتركه بعد ذلك يلاقي ما يستحقه بجدارته من نجاح أو فشل وتنفق الباقي في تحسين حال المجموع بما لا يمكن أن يأتي على يد فرد من الأفراد .

محادثة مع أخي الصغير . أمام البنك المصري :

قرأ الغلام على لوحة المصرف الكبير « ا ل ب ن ك . ا ل م ص ر ي » فصاح بي : أهذا محل البنك ؟؟

قلت : نعم ، إنه هو محله .

قال : أين هو إذن ؟؟

قلت : هذا البيت الذي تراه أمامك .

قال : لقد كنت أسمع الناس يقولون ـ أخذت من البنك ـ البنك أعطاني ـ البنك يطلب من فلان ـ فأحسب أنه رجل كبير كثير الأموال ـ يجلس في محله وينفح الناس بالنقود كما يطلبون .

قلت : إنه لكذلك ، رجل أو رجال كبيرون . لا بالجسم الضخم ولا بالشعر الأبيض ولكن بالذهب . وهم كما حسبت . ينفحون من تسمعهم من التجار وأصحاب المزارع والعقار بالنقود إلا أنهم لا يطيقون كلفة الجلوس ومد اليد بالفلوس ، فهم ينامون هناك على أسرتهم ويبعثون جنيهاتهم تدور وتنحدر من يد إلى يد ومن كيس إلى كيس . ثم تعود أيديهم وأكياسهم في آخر الدورة أضعافاً مضاعفة .

قال : وإني أراهم يزنون الجنيهات والريالات في الموازين فبكم يا ترى يبيعون الأقة ؟؟

قلت : إنهم يبيعون الدرهم بدرهمين .

قال : وهؤلاء الصيارفة والبوابون الذين يزنونها ويصفونها ويحملونها . إني أحسبهم أسعد العمال حالاً وأكثرهم مرتبات وأجوراً .

قلت : كلا ! بل هم في ذلك عمال كبقية العمال .

قال : فكم أجرة هذا البواب .

قلت : كأجرة ذلك البواب .

قال : وهذا العامل .

قلت : كذلك العامل .

قال : عجباً ! أعامل البنك وهو لا يقلب يديه إلا في الذهب والفضة يأخذ ما يأخذه عامل الأوراق والمحابر والأقلام ؟؟

قلت : إي نعم : كذلك قضى الناس : أن يكون أقلهم حظاً من المال أكثرهم اشتغالاً فيه .

قال : إننا نحن الأطفال لا نرضى بمثل ذلك في ألعابنا .

قلت : ولكننا نحن الرجال ذوي الشوارب واللحى نرضاه في شرائعنا وأعمالنا فماذا تقول ؟؟

فبهت الغلام وألقى بكرته أمامه ثم عدا في أثرها !! . .

أين الحقيقة :

أين الحقيقة ؟؟ لا حقيـ ـقـة كل ما زعموا كلام
النـاس غرقـى في الهوى لم ينـج غر أو امام

إن الحقيقة غادة كالغيد يضمرها اللثام
كل يهيم بها فإن لاحت لهم صدوا وهاموا
كم أشرق الحق الصراح فاعرضت عنه الأنام
والناس لو تدري خفا فيش يروق لها الظلام
لا حق إلا أنه لا حق في الدنيا يرام

(*) ولما نشرت هذه الأبيات في الجريدة نشر كاتب في العدد ٣٣٦٠ من اللواء مقالاً افتتاحيّاً تحت عنوان « يرون الحقيقة ويمارون فيها » قال منه « إن الذين ينحرفون عن طريق الحقيقة لم يضلوه ولو شاؤوا لاستقاموا فيه . ولكنهم لا يشاؤون فالحيلة فيهم قليلة » .

مثلهم مثل من يجعل بينك وبين الشمس يده إذا تعالت في السماء ليحجب عنك نورها وهو يدري بأنه لا يحتجب فالويل لهم من أنفسهم والويل لطلاب الحقيقة منهم .

نعم إن الحقيقة لا تدرك بين الذين أشربوا في نفوسهم هذه الطباع ولكنها غير مجهولة ، ولا خافية . وهل يخفى النور على بصير وقد ضمن مقالته أبياتاً بهذا المعنى .

فقد ظن الكاتب أني أنكرت الحقيقة مطلقاً . وليس هذا مرادي ، فالحقائق من صنف (٢ × ٢ = ٤) كثيرة لا تحصر ولا تنكر . ولكن الحقيقة التي عنيتها ليست من طراز هذه الحقائق . فهي الحقيقة الكبرى . الحقيقة الشاملة التي ينضوي تحتها كل ما عداها من حقائق ، فمن هو ذاك الذي يحسب الكاتب أنه يعرف هذه الحقيقة ويماري فيها ؟ تلك أكبر من أن يعرفها أحد فيكتمها . بل تلك أسطع من أن يقابلها بصر إنسان .

خلود الفنون :

تساوى الآن أرباب القرائح والفنون . فلم يعد الشاعر ينفرد بتخليد ثمرات قريحته عن زميليه المصور والمغني - فبواسطة التصوير الشمسي الملون أصبحت الصورة تنقل من قرن إلى قرن من غير أن يذهب تقادم العهد برونقها . وبالفونوغراف والأنواط الموسيقية أصبح في الإمكان حفظ أصوات المغنين وألحان الموسيقيين مئات السنين بعد أن كانت تخرج من بين شفاههم فيلاشيها الهواء .

نقد الكتب :

يحسن بالقارىء أن يعيد تصفح الكتب التي يقرأها مرة في كل ثلاث سنين على الأكثر . فإنه يضاعف انتفاعه بها ولا تفوته طلاوة الجديد فإنها تتغير في نظره حتى لقد يظهر له كأنه يقرأها للمرة الأولى فيرى في معانيها ودقائقها ما كان لا ينتبه إليه من قبل كما يبدو له من مآخذها وأغلاطها ما كان يخفى عليه . وربما تغير حكمه عليها إلى نقيضه فيروقه ما كان يرفضه ويرفض ما كان يروقه مترقياً مع ارتقاء معلوماته .

وباعادة تلاوة الكتاب في ظروف مختلفة يتجرد القارىء عن تأثير الظروف عليه في قراءته ويتخلص إلى المعنى المقصود .

اسحار أيار :

نشرت هذه الارجوزة في العدد ٩٧٦ من الجريدة الصادرة في يوم ٢٦ مايو سنة ١٩١٠ :

قد أقبل الربيع بنشره يضوع
ففاحت الزهور وصاحت الطيور

حديثهـــا تلحين ولحنهـــا شجون
سجية فطرية من قدرة سرية
ما ركبـــت مزماراً أو هذبـــت أوتاراً

❊❊❊

الـــورد في البستان يميل بالأغصان
يسطـــو بلـــون الأفق عنـــد احمـــرار الشفق
كأنـــه الخدود تهفـــو بهـــا القدود

❊❊❊

والفـــل في الرياض كالحـــدق المراض
يرنـــو بلحـــظ فاتر لكل وجـــه زائر
مختلف الاوراق مزدوج الطباق
كنجمـــة الصباح تهـــم بالرواح
يا من جفـــاه الوسن وحالفتـــه المحن
أزرت به العيون وملـــه القرين
الفـــل طرف أحور لكل وجـــه ينظر
لا يغمض الدلال منـــهُ ولا الملال
يرمـــز للعفاف بلونـــه الشفاف

❊❊❊

والنـــرجس الجميل أقـــعـــده النحول
ما بالـــه قد أطرقا لا يســـتقيم مطلقا
كالتابـــع المطيع في حضرة المتبوع
أم أبصر الزهورا فارتـــد مستطيراً

وعـاذ بالرحمن من فتنـة الحسان
كالناسـك المعتزل عن دهـره في شغل
ما جال قط بالبصر في حسن ربات الخفر
قد أنـكر الجمالا يحسبـه ضلالا
كأن من سواه ليس هو الاله

***

وفـاح مثـل المندل من جانـب القرنفل
يا سيد البهار وحلية الأبكار
أدميت في التقليد أنيمـلات الغيد
طيات ثوب الغانية ما عنـك إلا راوية
مسنـن الحوافي في ورق لطاف
تخـالهـا في الشكـل مثـل ثنـايـا الطفـل
ضـاحـكـة لـلأم ناغتـه بعـد ضـم

***

ودارت الأقاحي مبيضـة النواحي
كأنهـا الملاح دارت عليهـا الراح
فاهتـزت الخصور وافتـرت الثغور
يا ألف ثغـر يبسم جذلانـة لا تسأم
الشهـد منهـا يرشف والـطيب عنهـا يعرف
كيف يرى الحزين أو يعبس الجبين
في محضر صبوح بوجهـك المليح

***

وأشرق النيلوفر[1] كالبــدر حــين يسفر
يحنــو إلى ذكاء في الصبــح والمساء
كالراهــب الحبيس في هيكل المجوس
أتلفــه القيام والنســك والصيام
فاصفــر كالمفؤود من خشية المعبود

❊❊❊

وانتشر المنثور كأنــه الذرور
طرازه مؤتلف ووشيه مختلف
كأنــه قوس قزح أو خيط نور في قدح
أو لعــب الأزاهر في موســم المساخر
بالــورق الملون من كل صبــغ متقن
فالأحمــر الخضيب والأصفــر المشوب
والواضــح المحمر كالثغــر إذ يفتر
شفاهــه لا تطبق يا حسنهــا لو تنطق

❊❊❊

والنيل يجــري ساكناً كالشيخ يسري واهنا
يحــدث النجوما حديثــه القديما
قد أقبلــت عليه وحملقــت إليه
وراق للنسيم ما راق للنجوم
فأمســك الأنفاسا وأنصتت اختلاساً

❊❊❊

(١) عباد الشمس .

والبـدر في السماء يسبـح في السناء
مجـرد الاهاب في ذلك العباب
ولاح نجـم هالي مشمـر الأذيال
يعمـل في الديجور كالخنجـر المشهور
فانقض زنجـي الدجى في دمـه مضرجا
وأقبـل النهار يحفـه الإكبار

❋❋❋

يا أيهـا النيام قد أدبـر الظلام
الماء والهواء والأرض والسماء
والعشـب والنوار والطـير والأشجار
والحـوت في البحار والـوحش في القفار
تنهض للبكور قبـل انبثـاق النور
فما لهـذا النائم من عنصر ابـن آدم
قد خالف الطبيعة في هذه الشريعة
مذ جعـل القنديلا عن شمسـه بديلا

❋❋❋

لو أنصف الزمان وأسـعف الإمكان
ما أشرق النهار أو دارت الأدوار
إلا على الربيع وزهـره البديع

الانعطاف :

السر كل انعطـاف استحضـار العـاطف حال المعطـوف عليه استحضاراً تتنبه معه في النفس حاستها في مثل تلك الحال .

فالمرأة أعطف على المرأة من الرجل لأنها أخبر بخبايا نفسها واختلاجات قلبها .

والمرزوء يرثي للمرزوء أكثر من الخلي لأنه أقرب منه إلى فهم حاله والاستشعار برزئه .

وسرعة الخاطر ملازمة لشدة التأثر لأن سريع الخاطر أسرع من غيره إلى لحظ المشابهات البعيدة بين شكايات الناس وشكايته . ومن أهل هذا الخاطر السريع من تبلغ به قوة الاستحضار أن يستحضر أمراً مضى فيضحك أو يبكي كما لو كان الأمر قد وقع له فعلاً في ذلك الحين . وأصحاب هذا المزاج هم الذين ينسون أنفسهم في غمار الناس ويتسلبون عن ذواتهم في وسط الجماعة ، فيغلب عليهم ضعف الإرادة لأنهم لا يملكون اطمئنانهم الداخلي أمام المؤثرات المتناقضة . ولا تأتي أعمال هؤلاء إلا إذا كانوا فيها ملاحظين أو منفذين لا مدبرين ولا مديرين . أما الأعمال التي تحتاج إلى حضور الذهن واستقلال الحكم وعدم الانقياد إلى مؤثرات الوسط . كالقضاء والسياسة وإدارة الأشغال فهم لا يبرزون فيها بتاتاً .

والشفقة عند القبائل المتبربرة مرادفة تقريباً لمعنى الجبن لأنها بهذه المثابة عبارة عن خوف على النفس من طريق الخوف على الغير وكذلك الغلاظة عندهم مرادفة لمعنى البأس والصلابة .

هذا باعث الرحمة ، وهذا أيضاً باعث الضمير .

فالرحمة ليست إذن حيلة اخترعها الضعفاء لمصلحتهم كما افترض النيتشيون . ولكنها طبيعة من طبائع الإنسان ، والفرق فيها بينه وبين

الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الإنسان لارتقاء تركيبه يأخذ الشبيه بالشبيه وذلك ما لم يصل إليه الحيوان .

شعر حافظ :

يعجبني من حافظ جلاله في شعره . يعجبني منه ذاك الجلال وإن كنت أعتقد أن الجلال الظاهر لا يتطلب من شعرائه سمواً في المشاعر أو أفضلية لها على شعراء الجمال . فعندي أن إدرك الجمال ينبغي له تهذيب في النفس ودقة في الذوق لا تكتسبان إلا مع العلم ومعاينة ثمرات الفنون ، ذلك إلى استقامة الفطرة وسلامة الطبع . وليس كذلك الجلال فإنه لقوته الضاغطة على الحواس يضطر النفس إلى الشعور به قسراً ما دامت على استعداد له ، ويندر أن تعرى نفس عن استعداد للشعور بالجلال .

وتعجبني منه موسيقيته في شعره يوقع لك النغم ثم يتركك تغني على ليلاك . ومن الشعراء من تجدهم كأحداث الرسامين يرسم لك الشجرة فلا يترك ورقة من أوراقها . ويلقي إليك القصة فيقررها كما يقرر الشاهد شهادته أمام القاضي . أولئك ككتاب الهيروجليفي يصورون لك شكلا ما هم عاجزون عن تصويره معنى . والأمي يتراءى له كأن تلك التصاوير أحكم من الحروف تمثيلاً وأوضح منها مدلولاً .

وأما فيما عدا ذلك فشعر حافظ كما قال فيه الدكتور شميل ولم يرد أن يطريه « كالبنيان المرصوص متين لا نجد فيه متهدماً » فهو يعتمد في تعبيره على متانة التركيب وجودة الأسلوب أكثر مما يعتمد على الابتداع او الخيال .

نوبة الخفقان :

إذا كان قلبي بين جنبي مضمرا لي الغدر لم أرهب لقلب امرىء غدرا
إذا دق لا ادري أتتبع بعدها له دقة أم أنها الدقة الأخرى

الإلياذة :

أضاع البستاني أعواماً في تعريب الإلياذة لو قضاها أو بعضاً منها في تعريب نخبة من أسفار الحكمة الغربية لكان ذلك خيراً للعربية وقرائها من نقل كل ملاحم الأقدمين إليها . نقل إلينا تلك الملحمة الضخمة التي تشتم عنجهيات البدو وجلافات القبائل في كل قصيدة من قصائدها ! على حين بدأ الأوروبيون أنفسهم يمجونها ويزهدون فيها . وما كانت تطرب إليها نفوسهم في عهد من العهود ولكنهم يقلدون في الإعجاب بها بعضهم بعضاً . فيكتب النقاد في تقريظها ويترنم القراء بوقائعها وأناشيدها وكلهم يظن أن غيره أعلم منه بسر ذلك الإعجاب المستولي على الجميع وكلهم في الحقيقة سواءً في جهل ذلك السر وما جعل للإلياذة هذه القيمة بين كتب الأدب المعدودة في لغات الغربيين إلا أنها الكتاب الوحيد الذي بقي لجامعات أوربا جيلاً بعد جيل تدرس فيه بلاغة اليونانية وقواعد شعرها القديم . فكان يتلوها منهم كل كاتب قبل أن يكتب وكل شاعر قبل أن يشعر ويعتبرونها كما يعتبرون سفراً يدرس في الجامعات ثم يتشدقون ويتفيهقون بها تفيهق عارف اللسان المجهول وقارىء الكتاب النادر .

ولقد فقدت هذه القيمة بترجمتها إلى اللغة العربية ، فلم يبق فيها إلا تلك السخافات والحماسيات التي لا أشبهها الا بوقائع سيف بن ذي

يزن وأبي زيد الهلالي مما يقرأه كل منا في حداثته ولكن الوهم قد صيرنا لانجرأ على النطق بأسمائها كما صيرهم الوهم يشيدون بذكر إلياذتهم وينصبون ناظمها المسترفد ملكاً على الشعراء .

الرشوة :.

فشت الرشوة والصنيعة في الشرق لأن الشرق عش الاستبداد والرشوة والصنيعة تفشوان حيث تنطلق يد الحاكم بلا مراجعة ولا تعقيب فلا مناص للشاكين والطالبين من استرضائه والاحتماء به . أما حيث تنحصر سلطة الحاكم في تطبيق أحكام القانون فانهما يمتنعان إلا بقدر ما يفضل بعد تنفيذ السلطة العمومية من سلطة يكتسبها الموظف لشخصه .

الطريقة الانشائية :

العناية بتنميق الألفاظ عيب الطريقة الإنشائية وحسنتها في آن واحد ، هي عيبها لأن المبالغة في العناية بالألفاظ من طبيعتها أن تصرف صاحبها عن تحري المعاني والتثبت من الحقائق . وهي حسنتها لأن هذه العناية من طبيعتها أن تغزر مادة الكاتب اللفظية فتتوارد الكلمات على سن قلمه بلا تعمل أو كلفة فيجري قلمه في الكتابة جري لسانه بالكلام . وحقق ذلك العيب وهذه الحسنة في كتابات جماعة الإنشائيين من كتاب الجيل الماضي وأعني بهم أمثال الطويراني وعبد الله نديم والشدياق واللقاني وأديب إسحاق وإبراهيم المويلحي وأضرابهم من زعماء الطريقة الإنشائية .

وحدة الحكومة :

لا أدري لماذا يخطر للأكثرين أن الجامعة الإنسانية تقتضي وحدة

الحكومة . فليس ما يساعد على هذا الخاطر اليوم ، وربما كانت الحكومات المستقلة غداً أكثر منها اليوم عدداً . فلا أهمية البتة لوحدة الحكومة في تكون الجامعة الإنسانية. ويكفي أن الأمم سوف تساس في المستقبل طبقاً لنظريات مشتركة في الحكم وتجري على وتيرة واحدة في أوضاع العمران . ذلك أدعى إلى التقارب والتآخي من اشتراكها في أشخاص الرؤساء الذين يحكمونها . ومتى وصلت الأمم الى مستوى واحد في الأفكار والنظامات فما أغناها إذ ذاك عن الانضمام تحت قطعة واحدة من القماش .

القضاء والقدر في الطبيعة :

ليس لنا في أعمالنا اختيار حقيقي بالمعنى المراد من الاختيار بل إن اختيارنا نفسه نتيجة أعمال اضطرارية تقوم بها وظائف الجسم . ومن ذلك يتبين مقدار ما في قول القائلين برفع القصاص عن فاقد الاختيار من الوجاهة أو عدم الوجاهة في بعض الظروف .

كلنا ننطوي :

أينعي يا زهور واهتفي يا طيور
والعبي واطربي يا بنات الغدير
وانشري يا صبا نافحات العبير
واخطري سحرة بين نور ونور
واسبحي في الدجى ساعة يا بدور
ساعة تنقضي في دهور تدور
كلنا للردى والبرايا غرور
كلنا ينطوي في ظلام القبور

السعادة :

السعيد من لا يفتكر بالسعادة .

حرم الأوهام :

الخيالات الشعرية والأساطير الدينية ، مستطابة في موضعها محترمة ما دامت في كسر دارها ، ولكنها متى تعدت مرة منطقة وخاطرت بنفسها إلى منطقة الحقائق ، فعقابها هناك الإعدام ودمها هدر . كذلك حمام الحرم . فمن أرادها فليطلبها في موطنها ولا يخرج بها منه فيجني عليها وعلى نفسه بهذه الغربة المميتة .

عرض الحياة :

ترى من سيرة الجانب الأكبر من الناس في حياتهم كأنهم يخالون أنهم دعوا في العالم إلى وليمة يأكلون فيها ويشربون ويقصفون ويطربون ثم ينصرفون في آخر الليلليناموا : لعمري إذا كان هذا هو الغرض من كل حياتنا هذه فما أحقر ما يفوتنا بالموت من حياتنا . وما أشد ما ظلمنا الموت بهذه البغضاء !

سائلو بطرس باشا :

ليت شعري ماذا كان يعني شوقي بك بقوله على قبر بطرس باشا :

القوم حولك يا ابن غالي خشع ... يقضون حقّاً واجباً وذماما
يتسابقون إلى ثراك كأنهُ ... ناديك في عهد الحياة زحاما
يبكون موئلهم وكهف رجائهم ... والأريحي المفضل المقداما

أكان يزيد أن يقول إن زائري قبر الرجل وفيهم ساداته الأمراء

والوزراء والعظماء والعلماء . وفيهم نائب مولاه الأمير ووكلاء الدول وأكابر السراة والوجهاء ، أكان يريد أن يقول إن هؤلاء كلهم من كانوا يقصدون من نادي ابن غالي موئلاً وكهف رجاء يستعطون من أريحية ساكنه الجواد ويستدرون من أفضاله ؟ أم أراد أن يقول كما قال الناس في هذا المعنى فأخطأ التقليد ؟ أم لعله كان لا يريد أن يقول شيئاً ؟ أم تراه يحسب أنهم ملكوا عليه حتى دموع عينيه وأنه نائحة المعية أعد لبرثي كل من يموت من خدامها بلا مقابل ؟

الحر والخصب ينميان الأديان كما ينميان الأغصان :

الحر والخصب كلاهما طبعا الشرقي على الكسل وقلة العمل . وكلا هذين من دأبه أن يطلق للفكر عنان التصور والخيال ، ويغري النفس بالاسترسال في الأماني والآمال . فالشرق من قديم الأزمان مهد الأديان ومهبط وحي الوجدان . وليت شعري إذا لم تكن العقائد من نتاج الخيال . فعلام لا ينشأ إلا في الشرق أمثال برهما وبوذا وكونفشيوس وزردشت وموسى وعيسى ومحمد وسواهم من الأنبياء وواضعي الديانات ؟

ابن حمديس :

شاعر صدت عنه الشهرة بعد أن أقبلت عليه ، وطواه الخمول بعد أن طبق ذكره الآفاق .

فلقد نسي الرجل بعد أن ذاع اسمه في العالم العربي ، فكان ينشد له في قرطبة ومراكش وصقلية ومسيني وبغداد . استدعاه المعتمد بن عباد من قرطبة إلى أشبيلية وكان قد اجتباه فلم يزل صديقه ملكاً وأسيراً ،

وذكره أكثر أصحاب التراجم والسير فأشار اليه ابن الخطيب في نفح الطيب ، وشهاب الدين العمري في مسالك الأبصار ، وعماد الدين الأصفهاني في خريدة القصر وجريدة العصر ، وابن القطاع في الدرة الخطيرة والمختار من شعراء الجزيرة وذكره هذا أيضاً في طبقات الشعراء ، وأبو الصلت ابن أمية الأندلسي في الحديقة ، وحاجي خليفة في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، وابن بشرون الصقلي في المختار في النظم والنثر ، وابن بسام ولا أذكر أين ونقله ابن خلكان في وفيات الأعيان . ونقل له بعض هؤلاء عن بعض ، وأطنبوا الثناء عليه بما عرفوا من قدره . ولكن وافق بعده أن اضمحلت دولة العرب في المغرب وانقرضت لغتهم من تلك الأمصار فضرب النسيان على اسمه مع ما ضرب عليه من معالم مدنيتهم هناك .

ولكن هذا الشاعر المجهول قد زاد بديوانه على ثروة اللغة العربية ذخيرة أضاعها التفريط وأودع ألفاظها من المعاني ما لم يضمنها إياها شاعر عربي آخر . ولقد كان ينبغي أن لا نذكر المتنبي والبحتري وابن أبي حفصة وابن هانىء وغير هؤلاء من محترفي الشعر ، كان ينبغي أن لا نذكرهم مرة إلا ذكرنا ابن حمديس مراراً . هذا الذي لا يذكره قراء العربية إلا كما يذكرون شعراء الفرس والصين ولولا « ابن » قبل حمديس لما درى أكثرنا ان كان اسم رجل أو اسم مكان .

ولم يأت واحد ممن أشاروا إليه ولا على طرف من سيرته ولا بينوا مسقط رأسه وتفصيل نشأته ولعلهم كانوا يجهلون ذلك أو لعلهم لم يستقصوه كعادتهم في إيراد التراجم . فكل ما عرفته من أمره بعد أن تصفحت ما عثرت عليه من المصنفات التي ورد فيها اسمه أنه وفد على

المعتمد بن عباد سنة احدى وسبعين وأربعمئة وفي تلك السنة رحل إلى أفريقية وصحب العرب وأن له كتاب الجزيرة الخضراء من بلد أندلس ، وقال ابن بشرون إن والده عبد الجبار كان شاعراً وفضله على أبيه . وقد اتفق أكثر من واحد على أنه قضى نحبه في سنة سبع وعشرين وخمسمئة ، وقال بعضهم كان ذلك في شهر رمضان من تلك السنة وأنه توفي في جزيرة ميورقة وقيل ببجاية ودفن إلى جنب ابن اللبانة الشاعر المشهور وزعم أنه قد عمي في أواخر أيامه . ويظهر من قصيدته في العصا التي يقول فيها :

كأنما وهي في كفي أهش بها ... على الثمانين عاماً لا على غنمي

ومن قوله في موضع آخر :

ثمانون عاماً عشتها ووجدتها ... تهدم ما تبني وتخفض ما تعلي

أنه قد بلغ الثمانين أو أناف عليها فيكون قد ولد حوالى سنة سبع وأربعين وأربعمائة وأنه قد صار شاعراً تقربه الخلفاء في نحو العشرين من عمره .

طبع ديوانه بروما طبعة غالية من نسخة نقلها « زكريا بن خضر بن علي بن طاهر البقاعي ثم اللبناني ثم الدمشقي » وفرغ من كتابتها في شهر ذي القعدة سنة ست بعد الألف . واسمه في نسخة من ديوانه عبد الجبار ابن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلي السرقوسي ، ويدعوه بعض الرواة أبا محمد عبد الجبار ولعلها كنية ومنهم من ينسبه إلى الأزد .

أما الديوان فجيد أكثره لا سيما ما كان منه وصفاً أو نسيباً ، صانه الإهمال عن الابتذال فلم تبهت له من القدم طلية ، وله سرقات عن بعض شعراء المشارقة ولكنها سرقات ظاهرة أو هي سرقات أمام العين كما

يقولون . أما فهمه للشعر فيختلف عما كان يفهمه منه قدماء الشعراء فقد تذوق كنه الشعر ونفذ إلى روح الإلهام ، فمن قوله في الشعر :

ووجدت علم الشعر أخفى من هوى　　لم تفشه عين لعين رقيب

وقال في معرض آخر :

وإذا أردت بأن تصور للمنى　　صوراً فسلمها لفكرة شاعر

شعره وجداني لا صناعي ، فهو براء من المديح المتكلف والوصف المدعي ، ولذلك تعرف من الشعر من هو الشاعر ، فكان الرجل عفيف اللسان يترفع عن الفحش والمقال القبيح كما قال :

اني امرؤ لا ترى لساني　　منتظماً ما حييت هجوا

وكان سليم الطبع جليل القدر ، فكان يرتاح المعتمد بن عباد إلى بث شكايته إليه ويجد سلوة في مراسلته بعد أن نفي إلى أغمات فيجيبه الشاعر بما يفعل بنفسه فعل المرهم بالجرح النغار .

***

انظر كيف يمدح عن سرور قلبي بالعمل وإعجاب صحيح بالممدوح . قال يمدح أبا الحسن علي بن يحيى ويذكر رده أهل سفاقس إلى أوطانهم :

يا يوم مرجعهم إلى أوطانهم　　أرجعت أرواحاً إلى أبدان
نزلت بك الأفراح في عرصاتهم　　وبها يكون ترحل الأحزان
فلذا القلوب إلى القلوب تراجعت　　في ملتقى الآباء بالولدان
والأمهات على البنات عواطف　　والمشفقات على اللدات حوان

سُرَّ القرابــة بالقرابــة منهم ... وتـأنّس الجــيران بالجيران
وتــزاور الأحبــاب بعــد قطيعة ... دخلــت بذكر الــود في النسيان
في كل بيت نغمــة ومسرة ... شربــوا سلافتهــا بلا كيسان
ودعاؤهــم لك في السماء محلق ... حتــى لضــاق بعرضــه الأفقان
كحجيج مكة في ارتفاع عجيجهم ... وطوافهــم بالبيت ذي الأركان
صـيرت في الـدنيا حديثــك فيهم ... مثــلاً يمــر بأهــل كل زمان
فخــر يقيم إلى القيامــة ذكره ... مثــل الشنــوف تنــاط بالآذان

وقال يرثي جارية له غرقت :

وواحشتــا من فراق مؤنسة ... يميتنــي ذكرهــا ويحييها
أذكرهــا والدمــوع تسبقني ... كأننــي للاسى أجاريها
جوهــرة كان خاطــري صدفاً ... لهــا أقيهــا به وأحميها
يا بحــر أرخصــت غــير مكترث ... من كنــت لا للبياع أغليها
أبتّهــا في حشــاك مغرقة ... وبــت في ساحليك أبكيها
ونفحــة الــطيب في ذوائبها ... وصبغــة الكحــل في مآقيها
عانقهــا الموت ثم فارقها ... عن ضمــة فاض روحهــا فيها
ويلي من الماء والتــراب ومن ... أحــكام ندّين حكّما فيها
أماتهــا ذا ، وذاك غــيّرها ... كيف من العنصرين أفديها

فهل سمعت أهدأ من هذا تفجعاً ؟؟ لو كانت هذه الجارية لسيف الدولة أما كان المتنبي يكسف الشمس ويخسف القمر وينثر الكواكب شذر مذر .

وهل فات واضعو الأناشيد الوطنية قائلاً يقول قبل ثمانية قرون .

ولــو أن أرضي حرة لأتيتها بعـزم يعـد السـير ضربـة لازب
ولــكن ارضي كيف لي بفكاكها من الأسر في أيدي العلوج الغواصب

وكيف يقول في الفونوجراف من هذا قوله في العود :

في حجـره أجوف له عنق نيطـت بظهـر نخالـة حدبه
يمـد كفـاً إليه ضاربه أعنـاق أحزاننـا إذا ضربه
قلـت ألا فانظـروا إلى عجب جاء بسحـر فأنطـق الخشبه

وماذا أبقى لمصورة الفلكي بعد هذا الوصف .

والبـدر قد ذهـب الخسوف بنوره في ليلـة خسرت أواخـر مدها
فكأنـه مرآة قـين أحميت فمشى احمـرار النـار في مسودها

وما ألطف قوله :

يطيب أفـواههـن الحديث بحمـر الشفـاه وبيض الثغور
كما مر بالـورد والأقحوا ن نسيم مشـوب بريا العبير

ألا يترشف من بيتيه هذين رضاب الحسان ، وتتنسم ريح الورد والأقحوان .

وما أغزر دموع هذين البيتين :

ويا ريح إمـا مَريت الحيا ورويت منـه الربـوع الظماء
فسوقـي إلي جهـام السحاب لأملأهـن من الدمـع ماء

وهل قال شلي في قصيدة القنبرة أحدث من هذا :

أصبـاً هبـت بريحـان الصبا أو شمال أسكرتنـي بالشمول

حيث غنتني شوادي روضة　　مطربات بخفيف وثقيل
في أعاريص قصار خفيت　　دقة في الوزن عن فهم الخليل
ولحون حار فيها معبد　　ولـه علم بموسيقى الهديل
والدجى يرنو إلى أصباحه　　بعيون من نجوم الجو حول

وما أبلغ وأصدق ما قال :

واشراك الردى في الغيب تخفى　　كما يخفين في ترب الحضيض
عجبت لجمعه فيهن صيداً　　حوى بين القشاعم والبعوض

وأين بيتا صبري أو شوقي في تنزيه صاحبتهما من هذا البيت :

لا تنكري أنك حورية　　روائح الجنة نمت عليك

فعسى أن يوفق إلى نشر ديوان هذا الشاعر طابع يعرف فائدته وفائدة القارىء حتى لا ينفرد بين أبياته الصادقة هذا البيت :

اني امرؤ أبني القريض ولا أرى　　زمناً يحاول هدم ما أنا بان

الشتاء في أسوان[1]

ألــق الــربيع على البشير ... كانــون آذن بالظهور
أســوان تزهــو حــين يذ ... بل كل مخضر نضير
في كل مربــأة بها ... نور تألــق فوق نور
بلــد تجــود له الطبيـ ... ـعــة بالصغــير وبالكبير[2]
لا تستجــن شموسه ... إلا على غــير البصير
فهــراؤه برء العليـ ... ـل ومــاؤه عذب نمير
ما طب جالينــوس قيس ... بطبــه إلا غرور
أبــدأ تحــوط به ودا ... ئعهــا بســور خلف سور
من كل شاهقــة كأن ... قلالهــا عمــد الدهور
حصــن تهــاب طروقه ... الآفــات طرا والشرور

***

---

(١) هذه أسوان في الشتاء . وأما في الصيف فلها حال آخر ولكم وددت أن أشير على من يتشوف إلى استطلاع أسرار العالم الأخير بأن يقيم عاما في أسوان . فيعلم بين شتائها وصيفها كيف تكون الجنة والنار والنعيم والعذاب .

(٢) أما الصغير فما يشاهد فيها من شتى المناظر الجامعة . وآيات الطبيعة الرائعة . واما الكبير فمناجم الذهب التي كشفها ذلك القنصل الأميركي كما أذاع روتر منذ شهور . وطينة الصيني التي رفع عنها المسيو وليم دى موزجن تقريره الى ناظر المعارف في سنة ١٨٩٥ وتابعه في ذلك الفنيون ممن فحصوا تربة المدينة ، وستظهر غير هذا ما سيجعل لهذه المدينة المهملة شأنا بين مدن القطر إن لم نقل بين مدن المعمور .

يولـون أقفـر غابها من كل مختـال فخور
سرحـت صوادحهـا واطلق ورقـه الأيك الغضير
يلقـن حبـات القلوب من الجوانـح والصدور
الفاتنـات تكاد إحداهن من حسـن تنير
الناهـدات كما ترى الأ هرام في الرسـم الصغير
العبهـريات الشذى الكوثـريات الثغور
الـورد في وجناتهن يضـوع في كل الشهور
المرسـلات الشعـر كالذ رياب مصفـرّا غزير
متمنطقـات بالدمقس مؤزّرات بـالحـريـر
من كل قاع جؤذر تلقـاه أو ظبـي غرير
مثـل الشمـوس برزن للأ كوان من فجـر الشعور
داراتهـن مطـالـع لم تدر ما نور البدور
فيهـن معتـرك الغرا م ومعـرض الحسـن الطرير
الحـور هن خلقـن للـ ـفـردوس لا للزمهرير

***

الماء فاض على الجنا دل والسواحـل والجسور
خلجانـه تنسـاب كالـ ـحيات ما بـين الصخور
متسابقـات كالسوا بق في مجـال مستدير
والنيل مصطفـق كمن قد هزه فرط السرور
متدفـع الأمـواج تر قص وفـق توقيع الخرير
وتـرى الـزوارق كالبوا شق حومـا أو كالنسور

قد حار فيها العنصرا ن الريح والماء القدير.
والشمس شاخصة تكاد تنوء من جهد المسير
فضفاضة الاذيال تخطر كالعروس إلى السرير
وكأنها فوق الذرى فوق الجزائر والبرور
حسناءُ ترقب قادماً في النيل من أعلى القصور
وعلى الروابي والهياكل مسحة الشفق الأخير
تبدو كما نصل الخضاب بعارض الشيخ الوقور
ما كان أول مغرب شهدت على مر العصور

***

كم آية في الكون أخفى من خفيات الضمير
من لا يرى إلا العيا ن فما يرى إلا يسير

مساوىء المدنية ومحاسنها :

التقدم الاقتصادي مصحوب دائماً بشرور وقساوات تنكر وجه المدنية وتدنيها في السحنة من ضرتها الهمجية . ومع ذلك فهذه الشرور ضرورية لا بد منها . بل هي شرور إذا لم تظهر بذاتها وجب علينا أن نعمل لإيجادها . فإن كل شر منها يسبق دائماً إصلاحاً اجتماعياً يعم جميع الجنس البشري . وإليك مثلاً أو أمثالاً . فلولا ازدحام أوربا لما عمرت أميركا . ولولا طمع أرباب المعامل لما كان تضامن العمال . ولولا استبداد الرأسماليين لما وضعت مبادىء الاشتراكية التي ستغير أصول الشرائع والآداب في العالم قريبا . ولولا جشع المرابي لما تأسست نقابات الزراع . وهكذا كل داء يحمل ترياقه في جراثيمه . وكل سيئة طارئة

يتبعها حسنة دائمة مما لا تكفله لنا الطبيعة ولا الطبيعيون .

أما ساداتنا الفلاسفة الذين يهشون على الجنس البشري كما يهش الراعي على غنمه ، صائحين : ارجعوا إلى الطبيعة ! عودوا إلى المروج والحقول ! فلا أعلم أهم يظنون العالم يعيش الآن فيما وراء الطبيعة ، أم لعل الطبيعة لا تأوي إلا بين الأشجار والظلال والأودية والجبال ! .

الغرام بالفلسفة القديمة :

شاهدت بعض الأدباء ينهمكون في مطالعة كتب الفلسفة اليونانية . وينكبون على تطبيق قضايا علم المنطق . ويسهرون الليالي في مذاكرة ألغاز علم الكلام وما هو لو أصابوا إلا علم الكلام الفارغ إن كان للكلام الفارغ علم يدرس . يتحملون كل هذا النصب في الاشتغال بتلك المغالطات والتخمينات ولو بذلوا بعضه في تحصيل العلم الحديث لأوعبوا منه القسط الأوفر .

لا أنكر أن مراجعة الفلسفة القديمة مما لا بأس به للوقوف على حركة الأفكار . ولكن لا إلى الحد الذي يشغلنا عن فلسفتنا . كما أن زيارة الأطلال والآثار مطلوبة للنظر والاعتبار ولكن لا يصح أن تنسينا بيوتنا .

البغاء :

سل كتاب الفضلاء الذين يدهشون لانتشار البغاء بين الرجال والنساء : ما الذي يدهش من الأمر ؟

أمن طبيعة الزوج أن يقتصر على امرأة واحدة أم من طبيعة الزوجة أن تقتصر على رجل واحد ؟

لا هذا ولا ذاك .

فـالقيود الأدبية هي التـي قسرت كلا من الزوجـين على الاكتفـاء بالآخر . وكان البغاء يكثر أو يقل حسب إشتداد تلك القيود أو ارتخائها تبعاً لاعتداد الرجل بقوته البدنية أو قلة قيمتها عنده .

فاذا بحثنا عن علة لهذا البغاء فلا نبحث عنها في الرجل والمرأة.فإنهما لم يتغيرا في طبيعتيهما عن ذي قبل . إنما نبحث فيما تغير من تلك القيود والحدود . وها نحن نراها كلها قد تبدلت دينية كانت أو أدبية لأنهـا لا تلائم عصرنا . والذي علينا أن ننتظر حتى يهيىء المجتمع نفسه كما يلائم هذه الحال أو يحدث لنا قيوداً جديدة في موضع تلك القيود المنحلة .

وإلا فإذا كنا لا نعلم إلا اشمئزاز النفوس منفراً من البغاء العقيم ، فبأي حق نحظر فعله على من لا تشمئز نفسه منه ؟

جناية الصناع على الصناعة :

لو كان لا يتوخى الصانع غير المقصود من صناعته لرأيت الصنائع أبعد في طريق الكمال والاتقان مما تراها الآن .

تقول للمغني : هذا صوت شجي . فيقول لك إي نعم ولكنه على غير ألحان الغناء .

وتقول للخطاط : هذا خط حسن . فيقـول لك حقّـاً ولكنـه لا ينطبق على قواعد الكتابـة . وتسمـع مثـل ذلك من الكاتـب والـطبيب والنجار والحداد .

فيا ذلك المغني ويا هذا الخطاط ، ما طلب الناس منكما إلا صوتاً مطرباً أو خطّاً معجباً . فاطويا قواعدكما أو فألقياها في اليم ما دام الصوت يطرب ، والخط يعجب بغير تلك القواعد .

الكاتب والشاعر :

الكاتب من تتشخص له في كتابته روح يتجلى فيها نهجه ومذهبه وسياق أفكاره . وهذه الروح هي السمة التي تميز بين قلم وقلم . فاذا كانت تتضاهى أنساق الأيدي . فأنساق العقول لا تتضاهى إلا إذا كان منحاها فيها التقليد لا الابتكار . أما غير هذا الكاتب ممن يستمدون ويخططون . فأولئك نساخ يستعيرون أساليب غيرهم لمعاني غيرهم . فليس لهم من كتاباتهم إلا الإمضاء . أو هم توائم لا يعرفون إلا بالأسماء .

وكتابات هذه الزمرة أقرب إلى مواضيع إنشاء التلاميذ منها إلى ثمار القرائح ومبتكرات الأفكار . فالترجمة أليق ما ينتسب به هؤلاء إلى حرفة الكتابة . هذا إذا كانوا يجيدون لغة من اللغات وإلا ففي غير الكتابة من الحرف ما يغنيهم عن تلويث أصابعهم بالمداد .

أما الشاعر فاسمه بلغتنا يشير إلى تعريفه ولعل معجماً من معاجم اللغات لا يتضمن اسماً للشاعر أدل على مسماه من اسمه في اللغة العربية .

قد عرفنا أن وزن الأعاريض غير قرض الشعر ، ولكن من هو الشاعر ؟

أهو المقصد الذي لا يعجز عن ترصيع قصائده بما يبهر ويخلب من الخواطر البراقة والمعاني الخطابية المتلألئة ؟

كلا ! هذا شاعر يذكرني بصاحب ذوق مبهرج يريد أن يزين غرفته بالرسوم فيرصص سجوفها وحوائطها بالإطارات والكفافات حتى لا يبرز منها قرن أو تظهر فيها زاوية . أو بذاك المصور الذي يصبغ رسمه ببهي النقوش وبهيج الألوان ليبهر بها أبصار الناظرين . أو بتلك القروية التي تحلي يديها فتدس عشرة أصابعها في أنابيب من مختلف الخواتم والفصوص .

فليس الشاعر من يزن التفاعيل ، ذلك ناظم أو غير ناثر . وليس الشاعر بصاحب الكلام الفخم واللفظ الجزل . ذلك ليس بشاعر أكثر مما هو كاتب أو خطيب . وليس الشاعر من يأتي برائع المجازات وبعيد التصورات . ذلك رجل ثاقب **الذهن** حديد الخيال .

إنما الشاعر من يشعر ويُشعر .

ولقد ضاع الشعر العربي بين قوم صرفوه في تجنيس الألفاظ وقوم صرفوه في تزويق المعاني ، فما كان شعراً بالمعنى الحقيقي إلا في أيام الجاهليين والمخضرمين على ضيق دائرة المعاني عندهم وسيعود كذلك في هذه الأيام على يد أفاضل شعراء العصر .

قاسم أمين :

إن اسم قاسم لحقيق من فتياتنا وآنساتنا بأن يرقمنه في الشنوف

ويطرزنه على المناديل . فإن ذلك عنوان عرفان الجميل ، وأنه لأحيا أثراً من رفع النصب وإقامة التماثيل .

تحرير المرأة ليس من الأعمال الطنانة التي أكثر ما فيها دوي ورنين . ولكنه عمل هادىء رصين ينزوي في البيوت والخدور . لا يبرز إلا قليلاً على قوارع الطرقات ولا يصرخ إلا نادراً على منابر المنتديات .

فالمرأة المصرية مدينة لقاسم لأنها كانت سجينة فأطلقها وكانت أمة فأعتقها . والأمة المصرية مدينة لقاسم لأنها كانت شلاء فأبرأها من ذاك الشلل الذي أمسك شقها عن الحركة دهوراً وأعواماً . والإنسانية مدينة لقاسم لأنه أنقذها من رق لا تجرأ مصلحة الرقيق على مطاردته . والفخر في تحرير المرأة لا يزال الآن من نصيب قاسم . أما من قفوه في هذا المقصد فهم إنما درجوا على طريق بينة الآثار وسلكوا في منهج مأبور .

الحقول العامة والاستعمار :

إباحة الحقوق العامة لكافة الأفراد في كافة الأوطان مرهونة على زوال الاستعمار .

ومتى يزول الاستعمار .

متى عولت الدول على جودة البضاعة لا على قوة الأساطيل . وأخذ كل أهل إقليم في استغلال أقليمهم واستخراج ذخائره فتسقط حجة المستعمرين الذين يقولون ـ وهم صادقون فيما يقولون ـ إن الأحق بالأرض هو الأقدر على الانتفاع بخيراتها والنفع بها .

يومئذ يبطل الاستعمار . يومئذ ترشد الأمم من ضلال الوطنية فلا يطلب الوطن من الفرد إلا عضواً عاملاً ولا يطلب الفرد من الوطن إلا محلاً

للعمل . يومئذ تتحد وجهة الإنسانية فتتكاتف وتتآزر بعد أن كانت تتقاطع وتتدابر .

اللغة العربية :

قد لا تقل اللغة العربية عن أوسع اللغات في كثرة المفردات ولكنها لا تزال من أفقرهن في المعاني . وقد لا تنقص مواد المعجم العربي عن بضع مئات من الألوف ولكنها مع ذلك تظل أفقر من لغة أخرى لا تشتمل على أكثر من ثلاثين أو أربعين ألف مادة . ذلك أن اللغة العربية ليست لغة واحدة وإنما هي مجموعة لغات شتى . فربما كان للشيء الواحد عشرة أسماء تدعوه كل قبيلة باسم منها لا تدعوه به أخرى مما أكثر فيها المترادفات بلا جدوى فبينما نستغني في معنى من المعاني عن ستة أو سبعة أسماء نحتاج في معاني أخرى إلى اسم واحد . وقد شعر العربي بهذا الافتقار في المرتين اللتين اضطر فيهما إلى الخروج من الدائرة الضيقة التي كان فيها بين المناخ والبيداء ومضارب الخيام . الأولى لما نقل الفلسفة اليونانية فدخل في اللغة العربية كثير من مصطلحات اليونان وحدثت فيها أوزان واشتقاقات لم تكن تمس الحاجة إلى استعمالها من قبل . والثانية في عصرنا هذا عند انتشار العلم الحديث باكتشافاته واختراعاته التي لم تكن تخطر لسكان البدو أو الحضر على بال .

أقول ذلك توصلاً إلى القول بوجوب توسع اللغة العربية الفصحى بنحت جملة من كلمات اللغة الدارجة في بنيتها . ونقل المصطلحات العلمية والفنية إليها كما هي في لغاتها الأصلية لئلا نجشم الطالب العربي مراعاة اصطلاحين عوضاً عن اصطلاح واحد ولئلا ننفصل عن الحركة

العلمية العامة فننشق بين أمم العالم بعلم عربي لا قبل له بمساوقة علم الأمم جمعاء .

فالعلم العصري علم الانسان وليس علم العربي أو الانكليزي أو الفرنسي . فالاهتمام بتعريبه عبث واشتغال بما لا يفيد .

مستقبل الشعر :

الشعر يخالف العلم ولكنه لا يناقضه . إلا كما يناقض الطب الهندسة وتناقض الكيمياء الطبيعة .

والرجل الراقي يفترق عن المنحط بكيفية التخيل لا بكميته . فالأول مرتب الخيال لطيفه والثاني مشوش الخيال كثيفه . فالعالم لا ينقص خيالاً كلما ازداد علماً .

فاذا تنبأ علماء العصر فليتنبأوا بتحسن الشعر وارتقائه لا بحؤوله وامحائه .

***

يا راحلاً صدع الحمام شبابه ... فعلمت كيف تصدع الأكباد
إني لأحسبني أراك مجاهداً ... والنيل حولك دائم الإزباد
وأراك ترمقني وقد غلب الردى ... وأقام جند الموت بالمرصاد
في ساعة ما كان أغفل خاطري ... عما عراك وفت في الأعضاد
أمسيت رسماً في التراب معطلاً ... وغدوت نصب روائح وغواد
ويحي ! أترقد تحت أطباق الثرى ... وأقيم بعدك هانئاً برقاد
أتبيت رهن صفائح وجنادل ... وأبيت بين وسائد ومهاد
لو أنصفت أيامنا لبكيتني ... لكنها تجري بغير مرادي

❊❊❊

سقياً لأطهر موجتين أقلتا ... بين الجوانح أطهر الأجساد
حنتا عليك وضمتاك كأنها ... ضمات صدر أخيك بعد بعاد
فمضيت بينهما كأنك هاجع ... واها لذاك الهاجع المتهادي !

❊❊❊

يا زهرة شرقت بما تحيا به ... فذوت أأورق شوكها بفؤادي
إن الحياة - وما حييت لكي ترى ... سر الحياة - كثيرة الأضداد
فلئن عدوت من الحياة نعيمها ... فلقد عداك شقاؤها المتمادي[1]

عزاء الى ضيف الشارع :

أيها أرفع في حكمكم ... يا أمة ديدنها البخس
منعم توقظه غادة ... أو بائس توقظه الشمس
غطاء هذا ريطة رضعت ... نجماً وذاك الخبز والبرس

إلى ساكنة الدور الخامس :

يا طلعة في العلا تراءت ... تحفها هالة البهاء
أكوكب أنت في الدراري ... أم ملك لاح في العلاء
أم أنت حورية أطلت ... للناس من شرفة السماء
إن تحقري الأرض فارفعينا ... إليك يا ربة السناء

أيها البدر :

أنا في الأرض ساهر أيها البد ... ر وفي الأفق أنت يا بدر ساهر

---

(١) رثاء اخ لي مات غريقا وقد ضاعت أكثر أبيات القصيدة كما ضاع غيرها من الأبيات والقصائد بين الذاكرة والاوراق .

ناظـري وحـده يراك وقــد أغفـ ـى من النـــاس موهنــاً كل ناظر
فأعنـــي على السهـــاد كلانا حائـــم في الظـــلام يا بدر حائر

عباس محمود

العقاد

الشذور

دار الكتاب اللبناني - بيروت

الغرور

دخلت على صديق لي أديب فسمعته يجادل رجلاً أمّياً لم يغادر مسقط رأسه قط . وكأنه كان يهمه أن يقنعه بضلاله ويؤنبه عليه فكان يخاطبه بلهجة بين الغضب والسخرية ويقول : أي شيء زين لك أنك تفقه من هذه الشئون مالا أفقه وأن لك فيها رأياً تعتد به فترجحه على الآراء كافة ؟؟

أبأن الله منحك من ذكاء القريحة ونفاذ البصيرة ما قد حُرمتُه وما ادعيتَ من قبل ولا ادعى لك أحد أنك من أرباب المواهب النادرة والأفكار الخارقة ؟؟

أم بسعة اطلاع وغزارة علم وقد علم الناس وعلمت أنت أنني تقلبت في مجالس التربية من لدن نطقت بأولى كلماتي إلى أن استغنى عن المسح شاربي[1] وطالعت من الكتب أضعاف زِنَتك ورقاً وأنت لم تقرأ حرفاً في صحيفة ولا تفرق إلى اليوم بين الألف والعصا ؟؟

أم باختبار الناس وممارسة الأيام وأنت في عقر دارك منذ ولدت لم

---

(١) قال احد الاعراب في ولد له عقه

وربيته حتى إذا ما تركته — فتى الحرب واستغنى عن المسح شاربه
تغمد حقي ظالماً ولوى يدي — لوى يده الله الذي هو غالبه

تبرحها صباحاً إلا لتنكفىء اليها مساء ، وأنا قد سايرت الدهر وسايرت النجم فقاسيت الغربة وكابدت المحنة وصحبت علية الناس وغوغاءهم ، وبلوت كُبراءهم وصغراءهم ، وزاولت كل عمل ، وطرقت كل باب فانكشف لي من ظواهر الناس وبواطنهم مالو أنني لم أقرأ بعده كلمة لكان حسبي ، ومالو أنه لم ينكشف لي لما كنتُ قد قصرتُ عن شأو أنت أدركته ولا جهلت أمراً أنت حصلته ولم تجهله ؟؟

أم بالسن وأنت نِدّي ، أم بالوحي والالهام وقد انقضى عهد النبوة ، أم بالصدفة ولا حجة للصدفة ؟؟

قلت لعلي أجيبك عما يزين له ذلك . يزينه له الغرور الذي تمتلىء منه كل جانحة وتنبض به كل جارحة . ولولاه لمات أكثر الناس غماً بقصورهم وحزناً وأسفاً على عجزهم وتخلفهم . وإذا كان لا بد لكل إنسان من أن يحب نفسه فلا بد له من أن يغتبط بها وإلا فقد عجز الإنسان حتى عن حب نفسه لغير سبب ، كما قدر الغرور على أن يخلق لكل إنسان سبباً يرضيه عن نفسه .

وأنت لو أمكنك أن توقف إنسانا ثم أمررت أمامه الثقلين جميعا يقولون له انه أجهل الناس وأحقر الناس وشر الناس وأضعف الناس ، ثم خلا ذلك الإنسان بنفسه لأمكنه أن يوهمها أنه أعلم الناس وأجمل الناس وخير الناس وأقوى الناس . يكذب الناس كلهم ويصدق الغرور لأن الغرور يقدر على أن يواسيه فيما يسلبه منه الناس ، ولا يقدر الناس على أن يعوضوه عما يسلبه منه الغرور .

فإن كان فقيراً علل نفسه بأنه سليم الجسد موفور العرض أو بأنه لو أحصيت ديون الغني وأمواله لكان هو أثرى منه مع الراحة من عنت

الغرماء ، أو أنه يدبر ماله القليل بما يجعله أغنى من صاحب المال الكثير ، أو أن الله أخلف له في ذريته ما أنقص من رزقه ، وأنه يكسب قوته بعرق جبينه وكد يمينه ، وذاك يكسبه من السحت والحرام ، ويبدده في البذخ والآثام .

وإن كان جاهلاً زعم أنه ليس بالغبي ، ولو كان تعلم ما تعلمه العلماء لبذهم في العقل ، وتقدمهم في الفضل ، وأنه على جهله يفهم بالبداهة مالا يفهمه العلماء إلا بالدرس واللجاجة .

وإن كان مهيناً ذليلاً قال ما لي وللرفعة والثناء ، والعزة القعساء ، أضيم الأبرياء واعتو على الضعفاء ، وأروي بهما الحقد والبغضاء ، وما يتبعهما من سوء الثناء ، وأنصب[1] لما ليس يعنيني من الأشياء ، وأخدم المرؤوسين وأنا أحسبني من الرؤساء ألست أنا في هذه الدعة والرخاء ، أولى بالغبطة والخيلاء ، وأعز في ذلتي وضرعي من الأعزاء ؟؟

وإن كان ناشئاً حدثاً والمنافسوه من الكهول والشيوخ قال أجل ولكنني أغلق في اليوم مالا يغلقونه في الشهر وأفيد في الشباب مالا يفيدونه في الهرم وأعي وأنا في الدار مالا يعيه غيري بغير الرحلات والأسفار ، والتجوال في شواسع الأقطار .

وإن كان دمياً اتهم المرآة ، أو مجرماً سب القضاة ، أو بذيئاً قال ما هذا بذاء . هذا مضاء . أو بخيلاً أو جباناً أو منافقاً قال هذا عين الحكمة والدهاء ، ولب الفطنة والذكاء .

وهكذا يعين الغرور كل امرىء على أن لا يسلم لمن هو أعلى منه

---

(١) أتعب .

بالسبق والأفضلية . ويدخل عليه أن ما عنده خير مما عند غيره . ومن حسن حظ المغرورين أن النعم والنقم والمناقب والمثالب توائم تتشابه في السمات ، وتتباين في الصفات ، ولكل نعمة توأم من النقمة ، ولكل فضيلة صنو من الرذيلة . فالسعادة أخت البلادة والدعة أخت التواني والإرادة أخت العناد والزمانة أخت الحياء والأنفة أخت العجرفة والقحة أخت الجرأة والاحتيال أخو الذكاء والجود أخو السرف والبخل أخو القصد والمجد أخو الجبروت والحلم أخو الجبن والفصاحة أخت الثرثرة والكآبة أخت الوقار والحدة أخت الضجر وهلم جرّا . فيسهل على المغرور أن يمسخ كل فضيلة رذيلة ، ويمثل كل نقمة في زي النعمة . ويكون هو أسعد الناس بمثالبه ونقمه ، ويكون غيره أشقى الناس بمناقبه ونعمه .

ومما يحكى ويناسب ما نحن بصدده أن عجوزاً شوهاء قرعاء عوراء بخراء وقفت أمام المرآة مرة وجعلت تقول :

عجوز ! نعم ولكنني شبت على صلاح . . .

شوهاء ! بلى ولكنني لم أتحال ولم أزور على الناس بالطلاء كما يصنع سمجات النساء . . .

قرعاء ! أجل ولكنني لم أدنس رأسي بوساد الخنا والفجور .

عوراء ! إي ولكنني لم أنظر لريبة قط . . .

بخراء ! صدقوا ولكنني طهرت فمي أن ألوثه برائحة الهُجر والمهاترة ونتن السفه والمشاتمة فوفرت بعلي وأمن جلسائي من لساني . . . قالوا وكان إبليس واقفاً يسمعها فقال يا فاجرة ! لقد عرضتك على الزناة والفسقة في مشارق الأرض ومغاربها فكلهم عافوك وصدوا عنك ،

وأقسم لو كان فيك مطمع لغير القبر لما أبيت أن تضمي إلى عيوبك التي فيك هذه المخازي التي تعيرينها[1] النساء ، وتُدلّين عليهن بالطهارة منها .

***

والى هنا لا نعد الغرور شرّاً محضاً . فكم أرضى ساخطاً وكم خفض من جأش محروب وكم طلبة ذابت عليها أنفس الناس حسراتٍ فأعطاهم منها في الوهم ما لم ينالوه ولن ينالوه في الحقيقة . والغرور قد يقعد المرء عن طلاب الكمالات بما يخيل إليه من حصولها عنده واستحواذه عليها ولكنه طالما استفز نفوس الطامحين إلى العلى بما أكبر من أخطارهم[2] في أنظارهم فالتزموا حقوق المنزلة التي فرضوها لأنفسهم ثم أفضى الأمر إلى أن تبوأوها فاستحقوها بالتطبع بها والمواظبة عليها . فهو خير وشر ، وحق وبهتان . وما أخطأ كارليل حين قال « هو حاسة سادسة لا تشبع » وكما أننا لا نصلم الأذنْ إذا اسمعتنا ما نحب وما نكره ، ولا نفقأ العين إذا أرتنا ما يسر وما يسوء ، ولا نجدع الأنف إذا أنشقنا ما ينعش وما يؤذي ، ولا نقطع اللسان إذا أذاقنا ما يحلو وما يمر ، كذلك لا نستأصل الغرور إذا كان فيه مع الصدق الآجل كذب راهن ، وكان الكنز لديه لا يخلو من المارد .

---

(١) عيره كذا وعيره به سواء .

(٢) الأخطار هي الأقدار .

نادي العجول[1]

نبئت أن العجول اجتمعت مرة لتنشىء لها نادياً تأوي إليه ، ولا تعلم ماذا ساقها إلى هذا الخاطر الغريب : أقلة العلف ، أم ضيق المذاود ، أم ذاك مرض النوادي الذي سرى من النبهاء إلى الأغمار ، قد فشا حتى سرى من الأناسي إلى الأبقار ؟؟ هذا سر في صدور العجول .

فلما تكامل عددها ، وانتظم عقدها ، وقف منها عجل يظهر من كبر دماغه أنه ملم بالتاريخ والأخبار ، وقال :

« أيها السادة !! إن العجل مدني بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بني آدم بضخامة الأجسام وصلابة القرون . ولقد عبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون لنا بأسنا ويتمسحون بأذيالنا حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا ، فألهونا من فرط الإجلال ، وسبحوا لنا بالغدو والآصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم وأشدهم بأساً وأرفعهم ذكراً أعني الإسكندر المقدوني بذي القرنين . وما إسكندرهم هذا وما قرناه ؟؟ إن أصغر عجل فينا ليهشم رأسه إذا ناطحه ويجند له إذا واثبه أو صارعه . . . . فالعجب لك أيتها

(١) كتبت هذا المقالة في ناد اتفق أن أكثر أعضائه كانوا من ضخام الأبدان وقد تأسس النادي لأسباب تجعل لذكر القرون في المقالة مناسبة ظاهرة !!.

العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد ، فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادي والمعابد ؟؟؟ ألما تنتبهي لما يجب عليك لبني جنسك ، وما هو فرض معين عليك لنفسك . . .

قال محدثي : ولما بلغ الخطيب إلى قوله هذا بان الحماس على أوجه العجول قاطبةفهزت رؤوسها استحساناً ، وفحصت الأرض بأظلافها طرباً ، وضربت جنوبها بأذنابها مرحاً . وخشي عاقبة هذا الحماس عجل هرم فقام وقال : الآن قد عرفنا ما يوجب علينا إنشاء هذا النادي ، وسمعنا في بيان ذلك ما سمعنا ، فخذوا بنا في انتخاب الزعيم ، ومن رأيي أن لا يزيد وزنه عن عشرة قناطير ليكون خفيف الحركة في أعمال النادي . . .

وكان يتكلم ويتمهل ليلحس شفتيه ويجتر مُضغ الغلف التي ترد إلى فكيه فلم يمهله الخطيب الأول بعد جملته الأخيرة فوثب كالمنخوس وصاح وهو يرتعد من الغضب « لا ! لا ! لا ! وكلا وألف مرة كلا ومعاذ النعرة الجنسية أن نرضى بهذا الاقتراح . أفتقبل علينا زعيماً لا يزيد وزنه عن عشرة قناطير ؟؟ فماذا أبقينا إذن لهؤلاء الآدميين العجاف الضآل ؟؟ هذا وربي ما يزري بشرف العجول ويحط أسعارنا في الأسواق حطة لا قائمة لنا بعدها أبد الدهر » .

قال محدثي : فماج النادي واضطرب ثم كثر الزئاط واللجب وكاد ينفضّ الجمع بلا طائل . لولا أن تلافى الأمر ذلك العجل الهرم فوقف متبسماً وقال :

« يا إخواني : ما أردت أن أغض من شرفكم بما اقترحت

عليكم ، ولكن معنا هنا أبقاراً حلب الدهر أشطرها ، وأكل نير السواقي فرائصها . فهي ما زالت ترى أن السمان الفواره منا عرضة لظلم بني آدم ، وأنه خير للنادي أن يكون زعيمه معتدل الضخامة لا بالجسيم الهائل ولا بالنحيف الناحل . فإن كان ذلك لا يرضيكم ، فشأنكم وما تريدون ، ودونكم وما ترتضون فإنا لكم أيها الاخوان لموافقون » .

قال هذا وبرك فهدأ الاضطراب وجالت رقاع الانتخاب .

***

جالت الرقاع فانتخبت العجول زعيماً شنيع الوجه ، منفرج البطن ، منحوس الطلعة ، نكير الصوت ، ثم اختارت الرئيس فالوكيل فالناموس فالمفتش فالأمين ـ خمسة عجول تتفاوت في الجسامة حسب تفاوتها في الدرجة ، فاصطفت صفّاً ، ثم أقبلت وأدبرت ، ثم دارت في الندي تدبدب بأرجلها ، وتشول بأذيالها وتنفخ التراب بمناخرها ، ثم خورت خواراً رج الفضاء ، وطبق الأرجاء ، وأصبح في الدنيا منذ ذلك اليوم ناد للعجول . . .

جمجمة الانسان

أذكر فيما قرأت من حكايات الفرس حكاية يروونها عن النبي عليه السلام . زعموا أنه أصحر[1] ذات يوم قائظ ومعه الصحابة فنزل في ظل شجرة باسقة وإلى جانبها غدير ماء مصطفق رقراق يشوقك النظر إليه إلى الشرب منه . فلما اشتد أوار الظهيرة عطش النبي فقام إلى الغدير فتناول منه بجمع كفيه وشرب فوجد أبرد ماء وأعذبه ، وأصفى ورد وأطيبه ، ثم عطش مرة ثانية فعاد إليه فترشف منه رشفات روته من غلة العطش ولم تروه من عذوبة الماء وحلاوته . وذهب في المرة الثالثة فوجد على الشاطىء إناءً فأخذه وملأه من الغدير واجترع منه جرعة فاذا تلك العذوبة ملح زعاق ، وإذا صفاؤه الضاحك البشوش قذر لا يطاق ، فمج الماء من فمه ونظر في الإناء فألفاه نظيفاً ولم يتبين فيه ما عساه أن يكون منشأ هذه الملوحة والقذارة . فرفع بصره إلى السماء متعجباً وكأنه يسأل الله عن سر هذه المعجزة وماذا أراد جلت قدرته بهذه العبرة ، ويقول كيف ينقلب الماء في لحظة من طعم إلى طعم والغدير واحد والشارب واحد . فما ارتد طرفه حتى أنطق الله الإناء في يده فقال لا تعجب يا نبي الله فإن في التراب الذي

---

(١) خرج إلى الصحراء .

صنعت منه ذرة من جمجمة إنسان ، فهذه الذرة هي سبب هذا التغيير ، ولو عللت يا نبي الله من الماء براحتك كما نهلت[1] لما أنكرت من طعمه ما أنكرت .

***

ما أراد واضع هذه القصة أن يقول ان في جمجمة الإنسان مرارة كمرارة الحنظل ترشح في طعم الماء كما يرشح الحنظل فيما يخالطه من الأشياء ، ولكنه يقول فيما ورى به أن في رؤوس الناس سمّاً حاضراً يرد الطيب خبيثاً ، ويحيل السائغ المريء كريهاً مستقماً ، وأن هذا الجانب المسموم من رؤوسهم يضيع عليهم كل ما يدأبون له ويضبون عليه[2] ببقية جوانب رؤوسهم التي بها يعملون على رفاهة العيش ، ويرغبون في هناوة البال .

إن هذا السم الذي في رأس الإنسان يضني صاحبه قبل أن يضني البعيدين عنه ، وكلما كان الرأس قريباً إليه وكثير الاشتغال به كان سمه أفتك وأسرع فعلاً . وهذا هو المشاهد المحقق . فأول من يلدغ الإنسان نفسُه ثم عترته الأدنون ، ثم خلصاؤه المقربون ثم أهل وطنه المعاشرون ، ثم الأعداء الحاقدون ، ثم من لا يعرفهم ولا يعرفونه من الناس : أبعدهم عنه أسلمهم ، وألزمهم له أظلمهم ولو تسنى لامرىء أن لا يعيش إلا مع من لا يكترث لهم ولا وصلة بينه وبينهم ، لما عز على أحد أن يستبدل أقصى الناس عنه بألصقهم به . ولقد جُعل السم في ناب

(١) نهل شرب للمرة الأولى وعلّ شرب للمرة الثانية و الثالثة .
(٢) يضب على الشيء بمعنى يشتد حرصه عليه .

الأفعى وقايةً لها فصار هو مدعاة هلاكها ، حتى أن ما يقتل منها لأجله أضعاف ما ينجو بسببه ، وهكذا صار السم الآدمي مقتلاً وسلاحاً لصاحبه ، وداء ودواء له .

أنا لا أصدق إلا أن الإنسان أقدر على إشقاء نفسه وغيره منه على إسعاد نفسه وغيره . فلماذا هذا ؟ ألأن السعادة ليست ضرورية للإنسان كالشقاء ؟؟ نعم نحن أرغب في السعادة ونحن أطلب لها . ويخيل إلينا أننا لا نحيا بغيرها. ولكن لماذا لم نعطِمن وسائل السعادةما أعطيناه من وسائل الشقاء ، وما معنى هذه الرغبة يا صاح ؟؟ هل تأتلف الرغبة والحاجة دائماً ، أم هل ترتبط الكراهية بالاستغناء في كل حين ؟؟ أللهم لا .

فيا أيها الظامىء الجاد وراء السراب : إن كان ظمؤك إلى السعادة وليس إلى شيء آخر فلا ترجُ أن تشربها في جمجمة إنسان ولا سيما الجديدة التي لم تعتق والمقفلة التي لم تكسر . . وإنك قد يحلو لك سلسبيل الحياة إذا تجرعت منه بكفيك ، ولكنك حيثما عمدت إلى إناء غير يدك ، أو أداة خارجة عن جسدك فهنالك لا بد من ذرة من جمجمة إنسان . .

الصدى ونرجس

الصدى في أساطير القدماء جنية من بنات الغاب والأودية ونرجس فتى سليل إلهين من آلهة الماء . وكانت الصدى ذات منطق فصيح وحديث خلاب يستهوي السامع فينسيه نفسه ، ويلهيه عن شأنه ، فمرت بها (هيرا) حليلة (زوس) رب الأرباب فاستوقفتها بالحديث وعاقتها عما قدمت له . وكانت هيرا قادمة لتباغت (زوس) مع خليلاته فلما وصلت كن قد هربن وبقي حليلها وحده في مخدعها . وعلمت هيرا أنه لولا الصدى لما أفلت أولئك الضرائر منها فغضبت عليها وسلبتها قوة الحديث إلا أن تردد ما تسمعه ولا تزيد عليه .

أحبت الصدى نرجس فلم يحفل بها ، وامتنع عليها أن تبثه هيامها فذاب لحمها ، وبلي عظمها ، ولم يبق منها إلا نفس مصعد وصوت مردد .

أما نرجس فقد نقمت عليه (نمسيس) بنت الليل والربة المنتصفة للمظلوم من الظالم . نقمت عليه جفاءه وتيهه فأمهلته إلى أن أقبل على بعض العيون ووقف يعجب بما أبداه الماء من جماله فمسخته زهرة في مكانه ، فهو لا يبرح واقفاً على حافات العيون والجداول ناكس الطرف يطل على خياله في الماء .

***

بهذا التمثيل الشعري كان القدماء يفسرون عجائب الطبيعة ويشاركونها الإحساس فيبتهجون ويخالون أنها تضحك لهم ، ويحزنون ويحسبون أنها تبكي معهم . ويصاحبونها مصاحبة الأحياء للأحياء ، فكانت الطبيعة حياة كلها وليس في زاوية من أخفى زواياها موضع للجمود .

وقد كانت هذه الأساطير مادة غزيرة للشعراء فأولعوا بالنظم فيها ، وعني أحدهم بنظم قصص المبدولين والمتقمصين فسبكها أحسن سبك . . وهو (ببليوس اوفيداس ناسو) شاعر لاتيني ولد قبل الميلاد ونفاه القيصر أوغسطس من رومة لافتتان الشعب الروماني بغزله . كما نفى عمر بن عبد العزيز الفرزدق من المدينة لتهتكه ، وكما نهى المهدي بشاراً عن النسيب في إبان المدنية العباسية ، وإليك ما نظمه في حكاية الصدى . قال :

« راحت الصدى تقفو أقدام نرجس ولا يراها . وكلما لحقته تعاظمت برحاؤها ، وتحرقت أحشاؤها ، كهواء المشاعل يتبعها ولا تدركه الأبصار ، ويكاد يضطرم وإن لم تمسسه نار . وطالما همت بأن تفاتحه بتحية أو تستعطفه . فكان يخونها الحياء ويستعصي عليها النداء .

« وضل نرجس عن رفاقه يوماً فجعل يصيح أليس هنا أحد ؟ قالت الصدى . . . هنا أحد . . . وسكتت .

« فبهت نرجس وتلفت حوله ليرى مصدر الصوت ، ونادى هلم إليّ ! هلم إليّ ! فسمع الصدى تجيبه : هلم إليّ . . .

« وقال نرجس دعينا نلتق !! فسرعان ما سمع رجع كلامه بصوت

مد فيه الحنان ، وترنمت به الشعاب والغيران . ووثبت إليه تضمه وتعانقه فأجفل منها ومضى وهو يقول : اغربي عني !! لا كنت ولا كان قلبي إن جرى بيننا الحب . . .

« صدمة كسرت قلب الصدى فنادت وهي كاسفة . . . جرى بيننا الحب !!

« ثم ما زالت ينخر في قلبها الداء الدفين ، ويأكل منها الكمد والأنين ، حتى عادت أرق من الهواء . وبراها النحول إلا خفقة نداء ، لا تلبث أن يعبث بها الفضاء » .

اللؤم المكتسب

اللؤم ضربان : لؤم موروث ولؤم مكتسب . فأما اللؤم الموروث فذلك الذي لا حيلة لصاحبه فيه ولا حيلة لمخلوق في صاحبه ، وقد يتمنى اللئيم التطهر من وصمته والبراءة من شبهته : **وهيهات ذلك** .

وأما اللؤم المكتسب فلؤم يضطر إليه بعض الأشقياء اضطرارا . لؤم رجل سالم الناس فحاربوه ، وحاربهم فواربوه ، وبسط إليهم راحة الأمان فضربوه عليها ، وصرح لهم عن سويداء قلبه فوخزوه فيه ، فتعلم من الناس أن يقف منهم موقف المحارب الحذر . يراوغهم في أمره ويكتم عنهم مواطن قوته ، ثم يفتش عن مواطن ضعفهم ويتجسس على المغامر في صفوفهم . أفهموه أن ما هم فيه حرب لا سلم ، ومخاتلة لا مجاملة ، وغش لا نصيحة . فعمد إلى نفسه أولاً فاخفاها وراء سور من الرياء كما يخفي المقاتل نفسه وعدته وراء سور حصنه ثم عمد إلى مقاتليه فدبر كيف يصرعهم ، ومن أين يبتدرهم . إذا ابتسم له مبتسم تفقد قلبه هل فيه مطعن مكشوف أو ثلمة مطروقة ؟؟ وتعهد جوارحه لئلا تضطرب عند المجالدة أو تؤخذ على غرة ، ويعود فيرد تلك الابتسامة بمثلها ويجزي على ابتسام بابتسام . وإذا بكى بين يديه باك أسرع إلى قلبه فأضفى عليه الدرع واجتهد أن تكون أصفق دروعه وأمتنها لئلا يكون ذلك البكاء

خدعة من خدع الحرب . فإذا تثبت من قلبه وتهيأ لمقابلة العدوان بمثله رجع إلى ذلك الباكي فإما بطش به أو كان أكثر من ذلك لؤماً فيصافحه ولكن بعد أن يجرده من كل سلاحه وبعد أن يقلم أظفاره وينزع شوكته ويتركه ولو شاء أن يخدش نفسه فضلاً عن أن يخدشه لما استطاع . فهو بعد ذلك أسيره الذي يطيع إشاراته ويسخره في قضاء حاجاته لا صنيعته الذي يحسن إليه ويرفه عنه . وقديماً سمى الناس المحسن آسراً والمحسن إليه أسيراً ، وهم في هذه التسمية ما تعدوا الحقيقة قيد أنملة إلى المجاز .

واللؤم المكتسب هو لؤم من صدق الناس فكذّبوه ووفى لهم فخوّنوه ، وعمل لخيرهم فأضرّوه ، وأحب أن يبادلهم النفع فلم يقنعوا بما دون استنزافه وامتصاصه ولم يرضخوا له إلا عن أيسر ما لديهم وأهونه عليهم . ويرضخوا له عن هذا اليسير الهين وهم قادرون على جحده والمماطلة فيه . ورآهم يصدّقون من يكذبهم ويأتمنون من يخونهم ويخدمون من يؤذيهم ولا يشترطون عليه في نظير هذا التجاوز العظيم في هذه الصفقة الربيحة ، إلا أن يكون خداعاً ماكراً ودساساً لئيماً . فعلم أن هاته السوق أربح من تلك وأسهل في الممارسة . ورأى أن الناس كما يزدرون الرذيلة التي لا يحميها أحد كذلك يزدرون الفضيلة التي لا يحميها أحد فعلم أنهم ما أحبوا الفضيلة ولا كرهوا الرذيلة ولكنهم يخافون كلاًّ منهما حين يكون مخيفاً ويزدرونه حين يكون أعزل ليس عنده ما يخافونه ووجد الفضيلة أوعر مسلكاً لأنها غريبة والرذيلة ممهدة الطريق لأنها كثيرة الأمثال والأشباه فتنكب الأوعر إلى الأسهل وألقى بدلوه في الدلاء .

رأى ما رأى وعلم ما علم ثم وقف وقفة يحاسب نفسه فأيقن أنه لن يُصلح الناس وأنه بين أن يعتزلهم إذا قدر فيكون دِينه له ودينهم لهم . أو

يصحبهم فيعاملهم بالسكة[1] التي يقبلونها ما دامت كل سكة غيرها زائفة في نظرهم . وما دام الخيرون في هذه الأرض كالجن لا يظهرون لكل انسان .

وإن للؤماء عادةً أن لا يبوحوا بأسباب لؤمهم ولا يحاولوا التنصل مما يُرمون به لأن الناس لا يصدقونهم ولا فائدة لهم من تصديقهم إياهم ، فلذلك يتهمهم الناس بالحق وبالباطل ويقبلون فيهم كل ما يقال عنهم . ومتى رأى الناس رجلاً يسيء الاعتقاد بهم جميعاً لم يسمعوا له قولاً في واحد منهم وقالوا ذاك ديدنه في التبرم وتلك شنشنة له في التجني ، فيصدقون شكوى الشاكين منه ولا يصدقون شكواه في أحد . ويأبون أن ينصفوه وإن كان مغبوناً فيتسع بينه وبينهم مجال التهم وتقطع بينهم قلة الإنصاف :

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

وما كان لئيمٌ لئيماً إلا بعد يأس من إنصاف الناس ويقين من عسفهم في القضاء واغترارهم بظواهر الأحوال .

ولقد سمعت يوماً جماعة ينتاشون عرض رجل لم أعلم عليه من سوءفوصموه بنهاية اللؤم ورجموه بأشنع الخبث . وكان أطولهم لساناً وأفحشهم طعنا فتى كان يدّعي أنه ساعده فخذله ، وأحسن إليه فقابل إحسانه بالإساءة . فلقيت ذلك الرجل فسألته فقال نعم . أعطاني قطعة من السم صغيرة في قطعة من الحلوى كبيرة ، وهو يطالبني الآن بثمن تلك الحلوى ويمنّ عليّ أن وهبني السم بلا ثمن . وأخذ يقص عليّ من

---

(١) السكة هي النقود .

نوادر إساءة ذلك الفتى في الإحسان ، وغلظته في الملاطفة ، وتقطيبه في البشاشة ، مالو أنه قضى العمر في مناوأته والكيد له لم يكن معتدياً عليه .

قلت : فلمَ لا تفشي الحقيقة . وأقل ما فيها أن لا يفتري عليك الناس بما ليس فيك أو يعيبوك بعيب أعدائك ؟؟

قال : سواء عليّ أيعيبني الناس أم يشكرونني . بل أحب إلي أن يعيبوني ويحذورا جانبي من أن يحسنوا الظن ويخدعوني وإن المشقة التي احتملها في اقناعهم ببراءتي لأشد كثيراً من الضرر الذي يصيبني من اعتقادهم فيّ اللؤم ، إن كان فيه ضرر .

***

أنا لا ألوم هذا اللئيم الذي اقتبس دروس اللؤم من العالم كله وكيف وهو يقتبس من أستاذ يلوح له بالعصا أنى ذهب . يلوح له بها عند مشيه وقعوده وعند جده وونائه وعند أكله ونومه وعند مصادقته ومعاداته . ويوشك أن ينهال عليه بها فيقتله كلما سها عن درس من دروسه أو هم بأن يتلمذ لأستاذ غيره .

وأجد من يلوم هذا اللئيم كمن جلس على مائدته بين زوجه وولده ، وبين يديه صحاف الطعام ، وأمامه الأتباع والخدام . فجعل يلوم الصياد الذي خرج يبحث عن صيده في الآجام الموحشة فتقلد سلاحه ومشى ينظر كلما نقل قدمه إلى أمامه وإلى ورائه ، وعن يمينه وعن شماله ، وهو من الحيطة والتربص يكاد ينظر بكل عضو فيه أو كأنه من التمهل

التلف يدوس على الشوك ويخطو على جحور الأراقم[1] . يخاف إن هو غفل أن يفوته رزقه أو يثب عليه سبع فيفترسه . فيلوم ذلك الصياد على احتراسه وارتيابه ويطول عليه بأمنه ودعته ، وما كان هو أكثر منه أمناً لأنه أكرم قلباً ولا كان الصياد أكثر ارتياباً لأنه ألأم خيماً[2] وأردأ عنصراً .

أنا لا ألوم هذا اللئيم . على أنني لا أحب أن يكثر أمثاله في العالم . وعذري إياه أن الذنب في لؤمه على قومه ، ولكن البغيض المرذول هو اللئيم المجبول فإنه لئيم أحسن الناس إليه أم أساءوا . ولادته جريمة ، وموته ـ وليس سوى موته ـ تكفير لتلك الجريمة .

---

(١) الأراقم هي الحيات .
(٢) الخيم الطبيعة .

البخيل

كان في من أعرف من الناس رجل لا يعرف الناس أبخل منه . كان هذا الرجل إذا اشتهت نفسه الشيء مما تشتهيه الأنفس من طيبات المأكل والملبس أخرج القرش من كيسه فنظر إليه نظرة العاشق المدنف إلى معشوقه ثم رده إلى الكيس وقال : هذا القرش لو أضيف إليه تسعة وتسعون مثله لصار جنيهاً ، والجنيه بعد الجنيه يجلب الثروة العريضة ويجمع المال الحير[1] وهبني تهاونت بإنفاقه اليوم وسمحت نفسي به فلا آمن أن تسخو بغيره غداً . فانما القروش كلها واحدة في القيمة وليس قرش بأغلى من قرش . والشهوات حاضرة في كل وقت ، فكأنني أنفقت اليوم بإنفاقي هذا القرش جميع ما سوف أملكه وأدخره من المال ، وفتحت على نفسي باب الفاقة الدائمة والعوز المستمر مطاوعة لشهوة حمقاء ، إنْ أنا وقمتها[2] الآن ماتت واسترحت منها وإن آتيتها على ما تدعوني إليه كل ساعة كنت كمن يرمي الوقود في النار ليخمدها ، وكنت كمن يشتهي الفقر ويتمنى الإعدام وتلك والله الحماقة بعينها .

وكان إذا تم عنده الجنيه على هذه الكيفية أسقطه في صندوق ثقب له ثقباً في غطائه ولم يجعل له مفتاحاً لئلا يتعود الفتح والإقفال ، ويجرأ

---

(١) مال حير اي كثير جداً .

(٢) ردعتها .

على ذلك الذخر بالكشف والابتذال ، وخوفاً من أن تراوده نفسه لفرط شغفه بالذهب على مس جنيه من تلك الجنيهات فيجر المس إلى التحريك ويجر التحريك إلى الأخذ فالإخراج فالصرف وهناك الطامة العظمى والداهية الشؤمى ، ويقول إن سلّما أنت واقف على قمته حري أن تصل يوماً إلى أسفله . وما لك أن لا تغلق الشر من بابه وترقع الفتق من أوله وتتلافى الأمر في بدايته قبل أن تتعذر عليك نهايته . وكان يرى الفقر من بعيد فيظنه أدنى إليه من حبل الوريد . فالفقر عنده محيط بكل مكان ، شامل لكل زمان ، وما دام في الأرض درهم فهو فقير إليه وما دام فقيراً فالاطمئنان محال عليه ، ولقد ألفنا أن نسمي البخلاء عبيد الذهب وكان الأصوب أن نسميهم عبيداً للفقر لأنهم يضحون الذهب للفقر . وهم يحبون الفقر ويخشونه . يحبونه فيعيشون عيشة المعدمين والبؤساء ، مع تمكنهم من الثراء . ويخشونه فيتقونه ، وعندهم له من كل دينار وقاء .

فإذا سقط الجنيه في ذلك الصندوق . . . لا بل في تلك الحفرة كانت تلك السقطة آخر عهده بالهواء والنور ، وآخر عهده بالهبات والبيوع ، وآخر عهده بالأنامل والكفوف ، وهوى من ذلك الصندوق في منجم كالمنجم الذي كان فيه . وشتان المهد واللحد . ومات موتة لا تنشره منها إلا يد الوارث إن شاء الله وقد فعل .

ولو أتيح لتلك الجنيهات أن تتحادث في ذلك السجن المطبق عن ماضيها كما يفعل السجناء . إذن لسمعت من أحاديثها العجب العجاب بين جنيه رحالة جواب ، يتنقل بك من السويد إلى الكاب ، وينبئك عن الأعاجم تارة وتارة عن الأعراب ، وجنيه فرار غدار ، ما سلم بالليل إلا ودع بالنهار ، وجنيه نشأ في الحانات والمواخير ، فاسترق رنته من رنات

الكؤوس والقـوارير . وجميه عاشر الأبـرياء والجنـاة ، ورافـق النسـاك والغواة ، وجاور المعوزين والسراة ، ومر بالمساكين والعتاة ، وطفر من الأصدقاء إلى الأصدقاء ، ومن العداة إلى العداة . وكلها تشهد شهادة لا بهتـان فيهـا أن مالكهـا الأخـير أقـدر من قنص الدينـار ، من الأبـرار والفجار ، وأخبر من صاد النضار ، من الشطار والأحبـار ، وأول من راض هذا المعدن السيار ، على السكينة والقرار .

ولو أتيح لك أن تشهد ذلك البخيل وقد مثل عند صندوقه وألجأته الضرورة إلى الاستمداد منه - وناهيك بها من ضرورة - إذن لحسبت أنك تشهد في جنح الليل الأعكر سارقاً ينبش القبور عن أكفانها ، وقد تملكه الهلع من حراسها وسكانها ، أو لحسبت أنك تشهد كاهناً متحنثاً يقوم عند صندوق النذور يهم بأن يمد يده إليه فيتحرج من أن يستحل ودائعه لئلا يحل عليه قصاص الله ويحيق به غضبه . فإن ألحت عليه الحاجة أقسم أن لن ينام ولن يهدج أو يرد إلى الصندوق ما استعاره منه . وقد لا تجد بين ألف كاهن كاهناً واحداً يقسم هذا القسم ويبر به ولكنك لا تجد بين ألف بخيل بخيلاً واحداً يحنث في هذه اليمين .

ففي وقفة من تلكم الوقفات اقترض البخيل من صندوقه جنيهـاً وآلى بالطلاق من عرسه أن لا يدخل البيت إلا والجنيه معه . وذهب إلى السوق فكدح فيها ما كدح واحتـال حتـى استرجـع الجنيه نصفـاً ذهبـاً والنصف الباقـي قطعـاً فضية . وكانـت تلك عادتـه إذا أبـدل الفضـة بالذهب . كي تكون كل قطعة صحيحة صماماً حديدياً يحبس فيهـا ما تحتويه من القطع الصغيرة أن تتناثر وتتسرب إلى إحداها نزغـات الجـود ووساوس النفس الأمارة بالجميل . والخبيث يسيء الظن بنفسه ويتهمها بالسخاء عن القليل الطفيف مداعبةً لها وإدلالاً عليها . وإلا فقد وثـق

وثوق المؤمن بإيمانه أنه لو انثالت(١) عليه نقود المشرقين والمغربين دراهم ودوانق وسحاتيت لما سولت له نفسه أن ينفق سحتوتاً منها في غير ما يدفع التلف جوعاً والهلاك عرياً . فما تمهل حين صار الجنيه في يده إلا ريث أن هرع إلى الصيرفي فناوله إياه مفرقاً وقال أعطني به جنيهاً ذهباً .

قال له الصيرفي : هات خمسة ملليمات .

قال البخيل : وعلام هذه الملليمات الخمسة : إنك تأخذ هذا الجعل من الناس على أن تنقدهم الفضة بدل الذهب ، وأنا أعطيك فضة وأطلب ذهباً ، أفلا تحمد الله على أنني صفحت لك عن حقي وجئتك ساعياً إلى مكانك ؟؟

فما زاد الصيرفي على وكزه في صدره وكزة قذفت به إلى الجانب الآخر من الطريق . فما تململ الرجل ولا تأفف . بل وقف حيث قذفت به الوكزة صامتاً . والصيرفي لا يشك في أنه ينتظر أن يمر الشرطي فيستعديه عليه . فمر شرطي وثان وثالث لا يدعوهم ولا يبرح مكانه . والناس يظنون أنه يحدث نفسه بالانقضاض على الصيرفي فيوسعه ضرباً ولكماً فيخطئونه ويلومونه وينصحون له بأن يعتذر إليه ويسترضيه . وبينا هو كذلك أقبل على الصيرفي شيخ ريفي ، فكذب البخيل كل ظن وعاجل الشيخ فكان أسبق من يده إلى جيبه وصاح به : رويدك يا هذا إنك تريد أن تبدل جنيهاً وهذا اليهودي يتقاضاك خمسة ملليمات وأنا أقنع منك بمليمين ، فهاك الفضة وهات الذهب . والتفت إلى الصيرفي فقال بارك الله فيك فقد قيضت لنا رزقاً كنا في غفلة عنه ولا يزال هذا دأبنا كلما

---

(١) انهالت .

اجتمع جنيه عندنا ؟ ثم ولى والصيرفي يكاد ينشق عن جلده من الغيظ والناس يضحكون .

وكأني بك أيها القارىء تظن أن الرجل آلى بالطلاق وحرص على أن لا يمين فيه وفاءً لزوجه وضناً بذات فراشه واحتفاظاً بأم بنيه . فإياك أن تظلم الرجل بهذا الظن ، فان الاحتفاظ والضن بشيء غير المال ضعف يربأ بنفسه عنه . ولكنه تحرى أفدح الأيمان كفارة وأصعبها كلفة فرأى أن كفارة الحلف بالله سهلة وربما كان في الصيام من الاقتصاد ما يعزيه بالحنث كلما أقسم بالله . فاختار يمين الطلاق يهدد نفسه به ويخوفها من مؤخر الصداق ومؤونة الأولاد ومصاريف القضايا ، ثم لا بد له من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق . وهذه الزوجة لا بد لها من مهر قلّ أو كثر ، دع عنك الأعراس وما تستدعيه من الخروج عن العادة في الإنفاق ليلة أو ليلتين . فإذا آلى بالطلاق ذكر كل ذلك وأكثر منه فكان قيداً لا يستطيع منه فكاكاً . ولا يفوته مع هذا أن يصانع نفسه بأنه من القابضين على دينهم الذين يجتنبون حدود الله ولا يلعبون بيمين كيمين الطلاق ، والحقيقة أنه لا يجتنب حدود الله إلا لأن اجتنابها يوافق هواه . ولو كلفه خوف الطلاق معشار ما يصون من ماله لجار عن كل حد لله وللخلق . وعلى أنه لم يضطر يوماً إلى امتحان دينه ولم يقف بين ارتضاء الطلاق وجرائره وانتهاك حدود الله وأوامره . لأنه لم يكذب على صندوقه قط . فإذا استعار منه في الصباح سدد له الحساب في المساء .

ومرض هذا البخيل مرض الموت فجزع جزعاً شديداً ، وكان جزعه لأنه سيموت عن أقل من عشرة آلاف جنيه كاملة وكان ذلك كل أربه من الحياة . فاستحضر الطبيب بعد أن نهكته العلة ودب السقم في

أوصاله وعظامه ، فأمره بأن يتعاطى دواء وأن يقصر طعامه على لحم الطيور . وكان صاحبنا على مذهب النباتيين اقتصاداً لا فلسفة . فتملص يحايل الداء ويتملق الطبيب عسى أن يعدل على وصفته ، والداء يأبى إلا لحوم الطير والطبيب مصر على رأيه . ولما كان أربه في العيش لم ينته والعشرة الآلاف لم تكمل فقد رضي أهون الشرين وأصاخ لقول الطبيب وصار يأكل كما أمره وهو يتلهف ويتغصص ويتبع كل لقمة يزدردها بعملية حساب وهل أصعب في الهضم من الحساب وأثقل على المعدة من الأرقام الصماء ؟؟ ولم يزل يقول بعد كل أكلة : الله الله على الصحة !! لو كنت الآن صحيحاً أما كانت تكفيني أكلة بدرهم !! فلم يسعفه الدواء ولم يمرأه الغذاء . وما ذاك إلا لأن الطبيب داواه بالطب الذي يُداوي به الناس ووصف له ما كان يصفه لكل مريض مصاب بمثل مرضه ، ونسي أنه يداوي داءَين لاداء واحداً ، وفاته أن داءين أحدهما مزمن والآخر طارىء لا يصلحان بفرد دواء ، ولو سمعه كيف كان يأسف على الصحة ولماذا كان يأسف عليها لعلم أن صحة هذه البنية غير صحة سائر البنى وأن لها مرضاً غير أمراضها وأن الغذاء الذي ظن أنه يشفيه ويقويه قد حز من بدنه وأضاف مرضاً على مرضه . وقد مات المسكين بدائه ذاك ، وما أحسبه ندم على شيء وهو يفارق الدنيا ندمه على تلك الدراهم التي أطاع فيها الطبيب جزافاً . وماذا عليه لو قد عصاه فلم يفقد سوى حياته ؟؟!!!

ولهذا البخيل نوادر عديدة يذكرها معارفه فكان لا ينقضي له يوم إلا على نادرة طريفة مع بائع أو زميل أو شريك أو مدين وكنت أستظرفه فأتودد إليه وأشايعه على مذهبه فلا اقتصد في اطراء الاقتصاد ولا أبخل

بكلمة في مدح البخل وإذا فاوضته في الأدب أو طالعت معه في الكتب لم يكن أحقر على لساني من أسماء هرم بن سنان وحاتم طيء وكعب بن مامة ومعن بن زائدة وأبي دلف وغيرهم من أجواد العرب فأشنع بهم وأسأل الله السلامة من مثل مصيبتهم في عقولهم وأموالهم وأقول له ما أجدر ما دار بتمثال من الذهب ، فيقول أي وأبي ولولا ما في ذلك من الإسراف ، ولشد ما كان يتهلل وجهه حين أتلو عليه نكبة البرامكة فيقول حيا الله الرشيد ما أحكمه وأحزمه ، وقبحهم الله ما أخرقهم وأحمقهم . بادوا وخلفوا وراءهم للناس مثلاً سيئاً وقدوة ذميمة . وكانت له في أسباب نكبتهم فلسفة خاصة لم يفتح الله بها على أحد قبله . يقول لك لا تصدق ما يتمشدق به كذبة المؤرخين عن أسباب نكبة البرامكة . فوالله ما نكبهم ولا قتلهم إلا الإسراف والتبذير . أسرفوا في البذخ وبذروا أموالهم في الصلات فحسدهم الموصول وسخط عليهم المحروم ، فترصدت لهم العيون وتوغرت عليهم الصدور واستعظم الرشيد عليهم ما هم فيه فمثل بهم ذلك التمثيل وفجعهم في أرواحهم وأموالهم وآمالهم فلم يغن عنهم صنائعهم وذووهم . ولو أنهم بخلوا لنامت عنهم الأنظار وخرست عنهم الأفواه ، لأن من نعم الله على البخلاء أنه يجمع لهم بين مزيتي الغنى والفقر ، فلهم من الغنى المال الكثير ولهم من الفقر الأمان من حسد الحاسدين . ولهم من الغنى القدرة على ما يبتغون ومن الفقر القناعة بتيسير ما يأكلون ويلبسون . وهما مزيتان لا يجمعهما الله إلا لمن رضي عنه من عباده .

بيد أنني في صحبتي له كنت لا أستطيع ساعةً أن أفكر بأنني أصاحب إنساناً له عليّ مثل الذي لي عليه ، وكنت أحمل نفسي على أن

تصدق أنه من البشر كما تراه عيني فلا تذعن . وكيف وهي لا تحس بأدنى اختلاف بين ملاطفتي إياه وملاطفتي الكلبَ أو القرد الأليف ليأنس بي ولا ينفر مني . ولقد ضل والله من يتألف الكلابَ والقردة ويلهو برؤية الحيوانات العجيبة وعنده البخلاء يضمهم وإياه جنس واحد ومدينة واحدة فلا يتألفهم ولا يخف إلى رؤيتهم . أليس لوْ جاءك رجل فأخبرك بأن في مدينة كذا دابة تموت من الطوى[1] وبين يديها الطعام الفاخر ويفرش لها المهاد الوثير فتجفوه إلى الأرض الخشنة وتطلق في الفضاء الفسيح فتزمجر وتئن ، وتسجن في القفص الضيق فتطرب وتطمئن ، وقيل لك إن هذه الدابة منفردة بهذه الأطوار بين بنات جنسها ، أما كنت تبادر إلى تلك المدينة أو تتمنى أن تساق إليك تلك الدابة ؟ فالبخيل هو تلك الدابة الغريبة في تكوينها الشاذة في أطوارها ، التي تعد من الناس وليست منهم وتجانسهم في الصورة والقوام ولا تشاكلهم .

إن الناس يعرّفون البخل بأنه الحب المفرط للمال . وهذا تعريف ناقص من جميع أطرافه . وهل العلاقة بين البخل والمال إلا كالعلاقة السطحية بين العلم والأوراق ، وبين الشجاعة والسيف ، وبين الزمن والساعات ؟؟ وقد وجد البخل قبل أن تحتجن الأموال وتسك النقود كما سلف العلم قبل أن تصنع الأوراق ، وتقدمت الشجاعة قبل أن تطبع السيوف ، ودار الفلك قبل أن تخترع الساعات . ولو أصبحت الدنيا قد انقرضت منها الأموال وفني من أيدي الناس الذهب والفضة لما قضى ذلك بفناء البخل من قلوب البخلاء لما قدمنا من أن البخل شيء بمعزل عن المال .

---

(١) الجوع .

وإنما البخل عاهة تحجب الفكر وتفسد الطبع وتفرد المرء عن الفطرة العامة بين بني جنسه بفطرة منكوسة عوجاء . وتذره خلقاً عجيباً كلُّ حظه من الحياة أن يحرم نفسه حظوظ الحياة . يستغرق الوسع في طلب الوسيلة ثم لا هو يقنع بالوسيلة ولا هو يطلب بها الغاية . وليس البخل عاهة واحدة بل هو جملة عاهات ممثلة في هذه العاهة . فهو مزيج من الجبن الدنيء الذي يصور للمرء الخطر المستحيل كأنه قضاء حتم لا مرد له ، ومن الخسة التي يتساوى عند صاحبها الفخر والعيب . وتلحق عنده مراغة الهوان بمقاوم السؤدد ، ومن البلادة التي تميت فيه كل أريحية فلا تهتز في نفسه أمنية أو عاطفة تقوى على كسر قيود شحه وجبنه ، وقد ظهرت هذه الخلال للناس قبل أن يتمدينوا بآلاف السنين ومقتوها فمقتوا البخل متفرقاً قبل أن يمقتوه مجتمعاً . وغاية الفرق بيننا وبينهم أنهم كانوا يستضعفون من تكون فيه خلة من هذه الخلال فينبذونه عنهم ويهضمون حقه ويدوسون حرمته ولربما طلوا دمه وتبرأ منه ولاة ثأره . وأما في مدنيتنا هذه التي وضعت سنة المال موضع سنة الحياة فقد صار البخيل فيها يحل ويبرم ، ويؤخر ويقدم ، ويحلل ويحرم ، ويستشفع إليها بيدٍ فيها المال ويد فيها جبنه وخسته وبلادته فتقبل منه هذه لتلك . وإنها لعمري لمن الخصال التي انحطت بها المدنية عن الهمجية ـ وما هي بالقليلة فكم خصلة في المدنية يستحب المدني الهمجيةَ لأجلها ويأنف الهمجي بحق أن يتصف بها ؟؟

اللغات والتعبير

لولا أن الناس من أصل واحد في الخلق ، ومن لحمة قريبة في النسب ، بحيث أن ما يعرو أحدهم يعروهم جميعاً وما يصدق على جميعهم يصدق على كل واحد منهم ، لما أجدَت عنهم اللغات في كتابة أو كلام ، واعتُقِلتْ ألسنتهم عن كل فهم وإفهام .

ولو كان التقارب بينهم تاماً ، والشبه في السن والميل والسليقة محكماً لما افتقروا إلى اللغة ، ولكان يستشعر أحدهم في روعه ما يقوم في روع الآخر من غير حاجة إلى الشرح والبيان .

ولا ريب أن الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم ، وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك لطول عهدنا باستخدام اللغة في الإعراب عن مرادنا . فما اللسان إلا موضح ومفسر لما عساه أن ينْبهم على السامع من مجمل سر المتكلم ومما قد تحتويه أفكاره ولا يمكن أن تعبر عنه تمامَ التعبير وجداناتُهُ ، أما حالته النفسية فهي أفصح من أن يفصح عنها اللسان بل أفصح من أن يخفيها إذا حاول إخفاءها .

وما كان الإنسان قبل آلاف الحقب أيامَ هو بعدُ بهيم سارح في مراتع العجمة ، يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ، ومن صدقه أو مكره ، ومن أمانته أو خيانته ، إلا على ما يتفرس في أسارير وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه وكان إذا كلمه لم يكد يثق بكلامه

ويأمن اغتياله أو[1] يطابقَ مدلولُ أقواله ما وقر في قلبه من مغزى إشاراته ومعنى ملامحه ، فهو يأتمن السليقة ويرتاب في اللسان . وهذا سبب إعجاب الناس بالأشعار والخطب والكتب التي مصدرها السليقة وامترائهم فيما تعبث به يد الصنعة . لأنهم يقرأون نتاج السليقة فينفذ إلى سلائقهم ويصيب مواقعه منها ويحرك من القارىء مثل ما حرك من نفس الشاعر أو الكاتب فيعلمون أنه صدقهم وحسر لهم عن سريرته فيركنون إليه .

ويقرأون نتاج الصنعة فلا يجاوز ألسنتهم وكأنهم يقرأونه وهم ينظرون الشاعر أو الكاتب وهو يتعمل للظهور لهم بغير مظهره ، ويتنقب لهم بنقاب يخفي وجهه أو يبديه في غير صورته ، أو يرائيهم بتجميل هيئته وتدميم طلعته فيخالجهم الشك فيه ويعرضون عنه إلا إذا كان القارىء من الغرارة بحيث يصدق كل ما يقال أو من الجهل بحيث لا يميز بين السليقة والصنعة ، فإنه يقبل حينئذ كل قول على علاته . فلا تمنعه المماذقة عن المصادقة ، وتنكسر خزانة نفسه بمبرد اللص أسهل مما تنفتح بمفتاح صاحب المال .

ولقد والله أحسن جولد سمث اذ يقول في إحدى رواياته : « لسنا نستعمل الكلام للإفصاح عن حاجاتنا بقدر ما نستعمله لمداراتها » . فقد طمس الكلام إلى اليوم من الحقائق أضعاف ما فند من الأكاذيب . وضلل من المهتدين أكثر مما هدى من الضالين ، وإنك ربما تقترب من الرجل فتطلع من سيماه على ما يريبك فتتوجس منه فإذا سألته وكان من ذوي اللباقة والبراعة في المراء والمخادعة لبس عليك الحقيقة وأزال الريب من نفسك ، فينصحك لسان حاله ويغشك لسان مقاله . وكان آمن لك لو

١) أو هنا بمعنى حتى .

انك صدقته ساكتاً ولم تصدقه ناطقاً .

هذا فيما يملك الناس أن يبينوه أو يُكِنوه . وإن هناك أفكاراً تلتوي على اللغات وتشمس عن التقيد بالكلمات . فما فضل الناطق في هذه الأفكار على الأعجم ؟؟ وما زيادة الفصيح على الأبكم ؟؟ لا فضل ولا زيادة . ومن الأفكار ما هو أعوض من أن يُعبر عنه ولكنه أقوى من أن يكتم . السكوت عنها ممض والتعبير عنها ممتنع . لم يتغلغل الكلام إلى أعماقها فيخرجها ، وليست هي بالتافهة الضئيلة فتدفنها في مهدها وتدرجها ، وقد خصت ولم تعم فلم يكن لها حظ من اللغات العامة ، وتفرقت ولم تجتمع فليس بين أصحابها المتفرقين لغة متبادلة . فاعلم أنه لا يريحك من هذه الأفكار إلا سكوت كالخطاب . وذلك أن تجد ولو على البعد من يعاني مثل هذه الأفكار فيحيط بكتابك من عنوانك ، وتلهمه الكلمة العاجلة ما تضيق به الفصول المذيلة ، ويسبح معك برهة في عالم لا ألسنة فيه ولا آذان . . . !!

يتحادث الرجلان وبينهما تنافر في الأماني والأذواق فيفرغ أحدهما جعبة بلاغته ، ويمتهي غرار حجته ، ويستنفد أفانين حيلته ، ويحسب أنه أقنع جليسه واستولى على لبه ثم ينهض هذان الجليسان وإن بينهما من البعد لما هو أبعد مما بين الميت ومناديه ، والنجم ورائيه ويجلس غيرهما وقد توافيا على أمنية ، وتمازجا في الطوية ، فيقضيان الساعات لا ينبسان إلا بالكلمة بعد الكلمة ثم ينهضان وقد نقل كلاهما إلى أخيه خلاصة نفسه وطبع صورته في صدره . وما منا من لم يشاهد الحالتين فتبين له لغة الصمت أحياناً مقدار حداثة لغات الكلام .

وإني لأصغر شأن هذه العلوم والآداب القائمة كلها على تفاهم اللغات كلما تأملت فرأيت الأشياء الكثيرة التي تقوم بوجدانات الإنسان

ولا يحس بها ، والتي يحس بها ولا يعبر عنها ، والتي يعبر عنها ولا تصل برمتها إلى عقل سامعها ، فيتأكد لي أن الناس في حاجة إلى تفاهم أرقى من هذا التفاهم اللغوي . ولعل هذا النقص هو علة كثير من المشاكل التي تقع بينهم أمماً وأفراداً وتزول لو كان التفاهم بينهم كاملاً .

فليتخذ الناس اللغات رموزاً وإشارات تنوب عن المعاني لمن يعرفها ولا تمثلها لمن لا يعهدها أو يأنس بها . وليعلموا أنهم ما داموا لا يقولون كل ما يريدون أن يقولوه فهم خرس وإن نطقوا . وإنما البليغ المبين من الناس رجل يجيد الاشارة بلسانه أو يراعه . ولن تعنيه هذه الإجادة عن أن يكون سامعه ممرناً على التنجيم والتخمين . وأما من اخطأه هذا المران ، فسيان عنده الإشارة باللسان ، والإشارة بالبنان !!!

قوة الإرادة

خطر لي أن أبتدع في التجارة بدعة حسنة فاخترت أن أتاجر بالأخلاق النافعة للمصريين . فاقتديت بأولي الخبرة والنظر البعيد من التجار إذا عزموا الاتجار بسلعة من السلع في بلد من البلدان ، يتوخون حاجة السوق ويستقصون عادات أهل البلد ثم يقدمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد في الرواج والنجاح فتوخيت حاجة السوق في مصر وتقصيت عادات المصريين وفتشت عن الخلق الذي ينقصهم أكثر من أيّ خلق سواه فعلمت أنه قوة الإرادة فعولت على أن يكون اشتغالي بهذا الصنف من الأخلاق .

وراقني هذا الخاطر فمنيت نفسي رواجاً سريعاً وربحاً جزيلاً وأنني سأكون أنفق تجارةً وأكثر عائدة من المتاجرين بيننا بالوطنية والدين لأن حاجتنا إلى الوطنية والدين أقل من حاجتنا إلى الأخلاق ولا سيما قوة الإرادة . وفي مصر كثير من الوطنيين والمؤمنين ولكن قل فيها من كملت عليه نعمة الأخلاق فغنُوا فيها عن المزيد . وذهبت أحصي أرباحي ومكاسبي في السنة الأولى فالسنة الثانية وفي السنين التالية فضاق بها الحصر ولم يستوعبها الحساب ، وسرني أن أحلم بأنه سوف لا يكون في الاثني عشر مليوناً الذين يسكنون وادي النيل مصري واحد إلا لديه مقدار كبير أو صغير من تجارتي ، فقلت انها والله للتجارة التي لا تبور .

واكتريت الدكان في أوسع أحياء العاصمة وأحفلها بالسابلة

والقطّان وزخرفته أيما زخرفة فصفحته بالبلور وغشيت جدرانه بالذهب وصنعت رفوفه من خشب الهند ونقشت عليه لوحة من أجمل ما خط الكاتبون كتبت عليها « هذا دكان قوة الإرادة . يعطيك على نفسك سلطاناً لاحد له » ثم جلست على بركة الله أشمر للتعب والعمل وأخففهما عني بما أرجوه من المنفعة لي وللناس .

فكان أول من سنح لي في صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد تخالعت أعضاؤه من الوهن واحمرت عيناه من السهر وانعقد لسانه من الخمر فوقف قبالةَ الدكان يترنح ذات اليمين وذات الشمال وأوشك أن يميل على ألواح البلور فيحطمها ويكدر علينا صباح الاستفتاح بطلعته المشؤومة ولو كنت ممن يتطيرون لأغلقت دكاني لساعتي وجزمت بالفشل ولكنني تصبرت ولبثت ألاحظه وهو تارة يحملق إليَّ وتارة يتهجّى العنوان حرفاً حرفاً حتى أتى على حروفه بعد شق النفس ثم قال لي وكأن روحه تصعد مع كل كلمة !

أأنت صاحب الدكان ؟

قلت نعم .

قال أنت بعينك ؟

قلت أنا هو بعيني لا سواي . . . .

قال وتبيع قوة الأرإادة ؟؟

قلت من جميع الأصناف والأثمان .

قال ولنا أيضاً تبيعها ؟؟ . . . لا تؤاخذني فإني أحب أن أستفهم ؟؟

قلت أجل . لك ولكل من يشتريها .

قال : فأنا أسهر كل ليلة كما ترى وأسكر وأقامر وأجيء في هذه الساعة فيثقلني النوم ولا أحب أن أنام . فهل عندك صنف من الإرادة أتسلط به على النوم ويقويني على السهر ليل نهار ؟

قلت : ليس هذا من الأصناف الموجودة ولو وجد لما بعناه . ونحن باعة الأخلاق لا نقل في الأمانة لصناعتنا والحفاظ بذمتنا عن الصيادلة . وقد تعلم أنت أن الصيادلة لا يبيعون كل دواء لكل طالب ولكن عندنا أصنافا أصلح لك من هذا الصنف . فهل لك فيها ؟

قال : أرنيها .

فسردت له أسماء الأصناف التي في الدكان وأريته كل صنف منها في علبته ولم آله تفصيلاً لفوائدها وترغيباً فيها وبسطت له أسماء الإرادة المانعة ، وخواصها منع الناس عن مقارفة العادات الضارة . من التدخين إلى المقامرة ومن الكذب إلى الوقيعة . وتختلف المقادير والأثمان ، باختلاف الإدمان والأزمان .

وأصناف الإرادة العاملة وخواصها إيلاء الناس عزيمة وصبراً على تذليل مصاعب الأعمال وتحقيق هامات الأنفس . وأرخصها قضاء المرء واجبه ، وأنفسها قضاؤه واجب أمته ونوعه وهي أغلى من الإرادة المانعة لأن القدرة على أداء الواجب أندر من القدرة على اجتناب المحظور . وأعلى هجرك ما تؤاخذ به فعلك ما تحمد عليه . وعددت له أسماء نفر من عظماء الرجال الذين دفعتهم قوة الإرادة ودفعت بهم أممهم إلى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذرا . وأطنبت في الوصف والتحسين وهو يصغي إليّ بما بقي في حواسه من الانتباه ، فأطمعني اصغاؤه في أن يكون أول تجربة ناجعة وأصدق إعلان عن الدكان . ورأيته يطرق ملياً ثم قال :

ولـكن من يضمـن لي جودة الأصنـاف ويكفـل نقاوتهـا من الأخـلاط والأوشاب .

فقلت في نفسي سبحان الله ! هذا الذي يذهب كل ليلة إلى الخمار لا يسأله أيسقيه سمّاً أم خمراً . ويغشى موائد القمار يخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق إليها بغير سائق لا يريد أن يشتري قوة الإرادة إلا بضامن ؟ ولكنني جاريته وقلت له : لا خوف عليك من هذه الجهة فسأعطيك علبة نموذجاً فجربها وسل من شئت من التجار . ولك بعد ذلك الخيار .

***

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد إليّ في اليوم الثاني مفيقاً صاحياً فجلس بتؤدة وأدب وقال لي : لقد تعاطيت أمس علبتك ولم أعاقر ولم أقامر ولا أدري أبفضل العلبة ذلك أم لنفاد المال مني . وكنت إذا نفد المال مني اقترضت ، فلم أقترض أمس ، فلا أدري أيضاً أكان ذلك قوة في الإرادة أم حياءً من الرفض وكنت لا أستحي فلا أدري والله أكان حيائي خلقاً جديداً اكتسبته منذ تعاطيت قوة الإرادة أم هو لتكرار الطلب واليأس من الإجابة .

سألنـا فأعطيتـم وعدنـا فعدتم ومـن أكثـر التسـآل يومـاً سيُحرم

على أنني سألت التجار تاجراً تاجراً فاستغربوا اسم الصنف ولونه ورائحته ومعدنه واتفقوا على أنهم لم يسمعوا به لا في الشرق ولا في الغرب . ما عدا التاجر فلاناً فقد عرفه وفحصه قليلاً فرده إلي مشمئزاً وهو يقول : خذ يا شيخ ! فقد سئمنا هذا السخف والتدجيل ! وهل فرغ

الناس من سلطان الهموم فيسلطوا عليهم قوة الإرادة أيضاً ؟؟ وإذا كانت عوائق الدهر تحرمك شطراً من ملذات الحياة وأنت تحرم نفسك الشطر الباقي فأنت لا شك الذي يقال فيه إنه عدو نفسه . فخل عنك هذه الأضاليل ولا يغرنك ما تقرأ من العناوين وما تسمع من المواعيد فلو كان في هذه التجارة خير لما غفل عنها الناس إلى اليوم ، ولم ينسها دهاقين التجار الأزمان المتطاولة لتكون بدعة من بدع هذا الزمان المنكود .

فأسكت هذا المهذار وندمت على التفريط في العلبة وكان أعجب ما عجبت له كلام ذلك التاجر لعلمي بأنه ممن يميزون من أمثال هذه الأصناف ويحسون بنقص السوق فيها . ولم يكن بيننا مجاورة أو مشاركة . فخفي عني غرضه من تبغيض الناس في بضاعة ليس بيني وبينه منافسة عليها . ولكني وقفت فيما بعد على سبب ذلك . وهاك بيان ما وقفت عليه :

رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدر لها الربح الطائل والرواج السريع ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها . شأن الأعلاق النادرة . تزييفها كثير والغش فيها جائز ، وذلك لأن عارفيها معدودون ولأن جاهليها يحكمون عليها باللون والرونق وليس بالثمرة والجوهر . فقرر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة ويختص بذلك الربح فما ونى دون أن فتح له دكاناً تجاه دكاني وتأنق في تزويقه وتنظيمه ، وكتب عليه « هذا دكان قوة الإرادة الصحيحة . يعطيك سلطاناً لاحدَّ له على ملذات الحياة » .

فتح الدكان واستأجر له دلالاً سليطاً يفتأ سحابة النهار يصرخ بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول : يا طالب الإرادة الصادقة ، حيَّ

على الغنيمة قبل فواتها !! يا عشاق العزيمة الماضية هلموا إلى أعظم معمل للعزيمة الماضية ، هيا إلى أرخص سلعةٍ سعراً وأسرعها فعلاً وأصمدها على الطوارىء أثراً . إرادة لا تتكاءدها[1] عقبة ولا تصدها عن غايتها طَلِبةَ . فمنَ اشتهى السكر فصدته عنه مرارة الراح فليشتر من هذا الدكان فيستعذب تلك المرارة ويعاف عندها كل حلاوة ،.ومن صبا إلى الشهوات فأشفق من عقابيلها ومغباتها زودناه بقوة إرادتنا فأصبح لا يحفل بالعذل والملام، ولا يبالي بالضيم والسقام . ومن تورط في القمار ثم تهيب خشية الإملاق والدمار ، ومخافة الفضيحة والعار ، فعندنا ما ينزع منه تلك المخافة ، ويضحكه من هواجس تلك الخرافة . وعندنا لكل مريد إرادة ، ولكل إرادة شهادة . فالبدار البدار ! قبل غلاء الأسعار فاليوم بدرهم وغدا بدينار .

فما شككت في أن المسكين معتوه قد خسر رأسه وسوف يخسر رأس ماله وتوقعت له الخراب الجائح القريب ، إذ من أين له أن يزاحمني في تجارتي وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد . وأنا أبيع إرادة الجد والعمل ، وهو يبيع إرادة اللهو والكسل . ولكن ما أسرع ما أخطأ حسابي وارتد عليّ تكهني . وما راعني إلا الجماهير على أبوابه يتكوفون[2] وبضائعه في كل واد تسير ، بحيث لم تخل منها المدينة والقرية ، والبيت والحانوت ، والحانة والنادي ، ولم ينته الشهر ففتح دكاناً جديداً إلى جنب دكانه ، ودار الحول فكان له في الحي خمسة دكاكين وأصبح أعظم تاجر في الديار .

أما أنا فقد أعطيت في اليوم الأول تلك العلبة لذلك السكران

---

(١) تكاءدته العقبة وقفت في طريقه .

(٢) يجتمعون .

فكانت أول وآخر ما صدر من دكاني . ومرت أيام وأيام ، وتلتها شهور وشهور ، وتمت ثلاث سنوات مجرمات[1] ، وأنـا بتلك الحال أراقب التلف يدب في بضاعتي وأعاين السوس ينخر في إرادتي ـ وما الإرادة إلا كالسيف يصدئه الإهمال ويشحذه الضراب والنزال ـ فدهشت وغضبت ثم صبرت وتعللت ، ثم يئست وسلمت ، فأقفلت الدكان وطلقت التجارة ، وها أنا ذا أسأل عن المحكمة لأودعها الدفاتر والمفاتيح .

---

(١) السنة المجرمة الكاملة .

الشجاعة والعدوى

لا أحسب أحداً يجهل أن هناك فرقاً بين الشجاعة وحب الموت ، كفرق بين الجبن وحب الحياة . فقد يهجم اليائس الموتور على حتفه ، ويطرح بنفسه مطارح الهلكة . وهو بعدُ الجبان المنخوبُ . وربما كان هجومه هذا آية جبنه وجزعه . وقد يبرز الوحش الضاري للفارس الصؤول[1] أو يدهمه القطار أو يسقط عليه الحجر العظيم فيتحاشاه ويفر منه . .

*وهو الجريء على الحمام المقبل *

وإنما يحمد الاستخفاف بالحياة والاجتراء على الموت إن كان ذلك الواجب تصغر الحياة فيه ، ويتحتم الموت لأجله . وأما فيما سوى ذلك فلا واجب على الحيّ أقدس من واجب صيانة الحياة ودفع الموت عنه ، ولا جناح عليه أن يحب البقاء أبد الدهر لو كان إلى البقاء سبيل .

إن كان ذلك كذلك فلا فائدة لك ولا للناس في أن تدخل مع جراثيم الحميات والأوباء في وقعة مشكوكٍ فيها . وأنت وحدك وهي - أبادها الله وشتت شملها - قد شبت على الاتحاد والتكاثر وإن كانت في جو مصر !؟ فتهاجمك في الماء والهواء ، ومن بينَ يديك ومن تحت قدميك ، وأنت لا تراها ولا تشعر بها . ونحن مع ما نعلم من أن الحكومات تكافىء

(١) كثير الصيال .

كل شجاع على استقبال الموت في حومات الوغى وبين نيران الحريق ، ما علمنا قط أنها علقت نوطاً أو وساماً على صدر أحد لأنه صارع الميكروب فصرعه وانتصر عليه . أللهم إلا إن كان بعض الأطباء قد يظفر منها بالنوط أو الوسام تنويهاً بنصره عليه وفتكه به . ولكنك خليق أن لا تغرك شجاعة هؤلاء الأطباء فإنهم يحاربون الجراثيم وهي مكتوفة في الأنابيب ومخدرة بالعقاقير وليس هذا من أصول الحرب ولا من شروط المناجزة في شيء .

وإن من غرائب الخليقة وطرف العقول أن يكون بين إخواننا في الآدمية من تراه يقيم في وسط بؤرة تصعد منها رائحة البلى ، ويركد فيها الهواء من ثقل ما على كاهله من القذر والقذى ، وتسمع فيها الميكروب كالذباب .

* هزجاً يحك ذراعه بذراعه *

وينادي فيها عزريل ليلاً ونهاراً : ألا من حي فأزهقه ؟؟ ألا من نأمة فأسكتها ؟؟ ألا من تعب مكدود فأحمله ؟؟ ويمر أمام بصره في تلك البؤرة مركبات الأموات حثيثة العدو من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة . . وتقول له انج يا صاحبي بروحك واسلم بعمرك . وقد يكون من مذهبك أن من ينتظر مثل هذه النصيحة من سواه غيرُ جدير بأن يحرمَ الحفارُ أجرةَ قبره والبزازُ ثمنَ كفنه . فتتغلظ على نفسك وتأخذك الهوادة في مذهبك وتنصحه بالرغم من ذلك فيقول لك : معاذ الله أن أخاف الموت أو أفر من قرب الله . . . يقولها الملعون وكأنه يعتقد أن الله بعيد إلا عن تلك البؤر التي يفوح نتنها وتطرد الملائكةَ وخامتها . ويقولها الملعون وهو يجهل أن عمر بن الخطاب فر من الطاعون ، ولما لامه أبو عبيدة وقال له أتفر من

قدر الله ؟ قال نعم إلى قدر الله . . . وناهيك بعمر شجاعة وصبراً وإيماناً بالله واتكالاً عليه .

ولو صاحب من هذه الطغمة ـ ولا عارفي الصحبة ـ عثرت به في إحدى تلك البؤر فنصحته تلك النصيحة فكنت كأنما أخزه بها وخزاً ، وإذا هو يزورُّ عني ويلوي كشحه ويقول : أأنا أعبأ بالحميات والأمراض ؟؟ ومثلي يا فلان يرضى أن يذاع عنه أنه أجفل من الموت ؟؟ وهل يدركنا الموت في مكان وينسانا في مكان ؟؟ وما كان ظنك بعقلي وأنت تنصح لي بالجلاء عن داري التي ولدت فيها والانهزام أمام عدو لا أراه ؟؟ وأين ما عودتك فيّ من الجلد وعودتني فيك من تشجيع الأصدقاء ؟؟ وو . . قلت حسبك ولكني آسف يا سيدي على هذه الشجاعة الفائقة أن لا تتصدى بها لكل قوة من قوى هذه الطبيعة المغرورة بنفسها . وما بالك تستهزىء بالموت بالجراثيم كأنك تستصغرها ولا تستهزىء بالموت غرقاً أو حرقاً أو صبراً[1] وهذه القواطر والسيارات والترام كثيرة في البلد ، والناس يتنحون لها عن الطريق ويفرون منها كل مفر ، فما بالك لا تثبت أمامها وتريها أنك لست من هؤلاء الناس ؟؟ بل ما بالك لا تبالغ في احتقار الجراثيم والزراية بها فتشرب قدحاً من حمض الفينيك الذي يقتلها لتبزهن لها على أنك لا تعبأ بما يميتها . فكيف بها ؟؟

ولما رأيت أنني سألته بقدر ما سألني ، وأجبته بمثل ما أجابني فصلت[2] من عنده وأنا أفكر في اقتراح أعرضه على أولي الأمر : وهو أن تجمع الحكومة أفراد هذه الطغمة وتلصق بوجوههم علامة يعرفهم بها من

---

(١) الموت صبراً أي جوعا .
(٢) أي خرجت .

يراهم . حتى إذا وقف أحدهم في طريق سيارة أو ترام أو تعرّض أمام صائد يطلق على هدفه ، لم يكفف الصائد يده ، ولم يَتعب السائق في إيقاف سيارته أو ترامه ، فيضيع من وقت الركاب دقيقة أو أكثر لإنقاذ حياة هانت على صاحبها إلى هذه الدرجة وليست هي على الناس بأقل هواناً .

مواضيع الملاحة

مهما تعمقوا في تعريف الملاحة ووصف محاسن الوجه وقالوا فيها ما يشبه قولهم في السحر أو الروح واليوم الآخر ، فلا إخالها تُرَد في بادىء أمرها إلا إلى أنها شارة في أظهر عضو من الجسم ـ أعني الوجه ـ كانت ولا تزال في بعض الأحيان تدل على فضيلة جنسية في جسم الرجل أو المرأة .

إن أظهر ما تظهر الملاحة من معارف الوجه في العين والشفة لأنهما الجارحتان اللتان ترتسم فيهما حالة النفس وإحساسها بغاية الوضوح والجلاء ، وبهما تختلف أمة عن أمة وجنس عن جنس فالعربي والمصري والصيني والانكليزي والألماني وغيرهم من الملل والأمم يتماثلون بالعيون والشفاه . وكذلك الرجل والمرأة وأصدق وأوجز ما يقال في هاتين الجارحتين أنهما نافذة النفس فمنها تطل على العالم ومنها يطل العالم عليها . ولعل ما تكشفه منا للناس أكثر مما تكشفه من الناس لنا

لا بد من صلة محكمة دقيقة بين العين والرأس لأن نظرة العاقل غير نظرة المجنون . وقل مثل ذلك في الغادر والأمين ، والفظ والوديع ، والسقيم والسليم ، والشهوان والعفيف ، فإن لكل منهم نظرة غير نظرة الآخر . أما صلة الرأس بالجسم وما يندمج فيه من الطبائع فمعلومة ملحوظة . فالعين بهذه المثابة هي عنوان صفة النفس ومزاج الجسد .

ولا بد من صلة بين الشفة والإحساس لأن الشفة هي ملتقى أعصاب الوجه وهي أدق أعصاب الجسم . فلا تهيج في الجسم هائجة ولا تسكن به ساكنة إلاّ بدا لها أثر على الشفة . فتفتر أو تتهدل أو تنقبض أو تتقلص أو ترتجف . وترى الإحساس في الشفة يتوق إلى مقابلة مثله لأن الإحساس يبلغ فيها أشده ـ وهذا هو الميل إلى اللثم والتقبيل ـ نعم إن الأعضاء كلها تميل إلى المماسة ، ولكن الميل لا يكون إلا على قدر إحساس كل عضو . فلا تميل اليد إلى اليد كميل الشفة إلى الشفة لأن الفرق بينهما في الإحساس كالفرق بين المصافحة والتقبيل . وقد وضعت هذه الحساسية في الفم لأنه هو باب الجوف ، والجوف بحاجة إلى حاسة ظاهرة تجيد له جس الأشياء قبل وصولها إليه . وقد نرى الأعمى لا يعتمد في جس الأشياء إلا على شفتيه لأنه حين فقد البصر وأصبح معتمده على الحس وحده لا يشعر في جسمه بما هو ألطف على المس من شفتيه .

فالشفة هي ترجمان الاحساس ومجس العواطف . وإذا كان في الإنسان خاصة تتصل بالإحساس كان أحرى الجوارح أن تظهر عليه تلك الخاصةُ الشفةُ . فقليلاً ما يلتبس عليك الصابر الكظوم بالقلق اللجوج أو الأريب الكيس بالحُميقة الأبله ، من التأمل في شفاههم وهيئة أفواههم ، وأذا التبسوا عليك ساعة الهدوء والصفو لا يلتبسون ساعة الغضب والاهتياج .

ولرب وجه صبوح جميل يروقنا استواء خلقه واعتدال تقسيمه ويحيرنا نقد معارفه وقسماته . ولكنا يؤلمنا أن لا نتملى من ذلك الوجه بحظ الاستحسان الذي شوّقنا إليه منظره . ووجه أقل منه جمالاً وصباحة وأخفى روعة ورواء وهو يسبينا ويثير بلابلنا ويستولي على إعجابنا : وقد

ننسب ذلك أحياناً إلى اختلاف الأذواق أو خفة الدم ، ولو أنعمنا النظر في ذينك الوجهين لم يطل بحثنا عن السبب وعلمنا أن ما نسميه تارة باختلاف الأذواق وتارة بخفة الدم هو معاني تتضمنها العيون والشفاه ليست من جمال الصورة ، على أنها هي شطر الجمال الأكبر . وهي التي تفيض على ذلك التناسب الهندسي الممول روحاً حيّاً جذاباً .

إن لكل عضو جماله الخاص به وجمال العيون والشفاه عام لا يجمل الجمال إلا به . ولو نظرنا إلى مزية في العيون والشفاه تجعل لها هذا الشأن في تقدير الجمال غير اتصالها بالاحساس ذلك الاتصال الذي ألمعنا إليه لما أبصرنا لها أي مزية سواها . فلماذا لا نقول ان الأصل في حب الجمال هو امتحان قابليات الجسم بإظهار أجزائه للناظر ؟؟ أفي ذلك بخس للجمال ؟؟ ما الجمال إلا صبغة لا تفارق الجسوم ، فكيف نوفق بين احتقار الجسم وتنزيه صبغته ؟؟

هذا كلام لا يرضى به عشاق الجمال ولا يروقهم أن يكون حبهم له نوعاً من جس النبض وفناً من الفراسة . فإن كان إرضاؤهم لا بد منه فليذكروا أن جمال أجدادنا لا يستحق أكثر من ذلك ، وأننا لم نرث جمالنا وعواطفنا من غير أولئك الأجداد .

عباس محمود

العقاد

الفصول

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة واهداء

في سبيل الحق والجمال والقوة أحيا ، وفي سبيل الحق والجمال والقوة أكتب ، وعلى مذبح الحق والجمال والقوة أضع هذه الأوراق المخضلة بدم فكر ومهجة قلب ، قرباناً الى تلك الأقانيم العلوية ، وهدية من السحاب الى العباب .

***

في الدنيا الحق . ولو كان كل ما نشهد من الدنيا باطلاً لوجب أن يكون وراء هذا الباطل المموه شيء صحيح لا تمويه فيه ، وهذا الشيء هو جوهر الحياة : نصيب كل امرىء من الحياة على قدر نصيبه منه ، وهو الحق ، فمن عرفه لا يسعه أن يعرض عنه ، ومن لم يعرفه فهو من هاوية الهلاك عنصره والى غير السماء قبلته . وكل ما لم يقصد به وجه هذا الحق فهو من قشور الحياة المنبوذة لا من لبابها المدخر .

***

وفي الدنيا الجمال . لا بل الجمال غاية الدنيا التي لا غاية بعدها ، قد نعرف لكل شيء نفعا يرمى اليه ولسنا نعرف للوجود نفسه نفعاً نبتغيه من ورائه ، ولا غاية نخلص اليها بعد مفارقته . كلا لا نفع ولا غاية وراء الوجود غير العدم !! وانما هو أمنية نتمناها لذاتها ، وحالة نتطلع منها

ولكن الى صفة أخرى من صفاتها ، انما هو صورة تتملاها النفس لانها تهواها ، وليس بسلعة تطلبها لأنها تفتقر اليها . والكون كله ما كنهه وما ميسمه ؟؟ أهو آية صانع مبتدع أم مسعاة كادح منتفع ؟؟ كذلك خير ما في النفوس ما كان جماليا كهذا الكون ولم يكن نفعيّاً كعروضه ، لأن النفع عرضي ينتهي بغايته ، وأما الجمال فأبدي لا نهاية له .

***

وفي الدنيا القوة ، لا بل هما شيء واحد . فما ضمنت الدنيا قط الا قوة ، وما عرفت الدنيا قط ضعفاً ، لأن الضعف ما كان سبيلا الى فناء ، ولا فناء على الحقيقة في هذا العالم الباقي . انما يشكو الضعف من يعرض له الفناء بصورة من الصور ، ومن تتغير به الحال من حين الى حين .

***

قد تختصم القوة الصغيرة والحق الصغير ، وقد يختلف الجمال المحدود والحق المحدود . ولكن القوة الكبرى والحق الأكبر لا يختصمان ، والجمال الشامل والحق الخالد لا يختلفان . على انه لا حق وراء هذه الحدود ينفرد عن قوة ولا جمال ، ولكنها كلها عناوين شتى لقدرة واحدة : هي القدرة التي يبدأ منها كل شيء واليها يعود .

فالى تلك القدرة أتوجه بقرباني ليكون لها نصيب من عملي ، وعسى أن يكون لعملي نصيب منها .

عباس محمود العقاد

نظرات في فلسفة المعري [1]

مذهب النشوء

إن مذهب دارون حديث ولكن تنازع البقاء قديم شعر به الناس منذ وجدوا وصرح به حكماؤهم وشعراؤهم في الأمثال والأشعار كل على طريقته ومنواله . فمنهم من وصفه ولم يفطن اليه ومنهم من فطن اليه ولم يعممه . ومنهم من شعر به شعور المتألم منه المنكر عليه. ولعل أشد شعراء الأمم نقمة على تنازع البقاء وذكراً له في نظمه ونثره أبو العلاء المعري ، ولا عجب في ذلك فان المعري نزل الى معترك هذه الحياة العصيب أعزل من الأسلحة المنجحة فيه . نزل اليه يتيما فقيراً سوداوي المزاج مفرطاً في الحس ، وكان أرفع خلقاً من أن يسف الى منافسة أمثاله الشعراء على ما يتكسبون به . وكان رحيماً رحمة كادت تكون مرضاً ، وناهيك بمن يشفق على البرغوث أن يقتل وعلى النحل أن يشتار عسله . وليس بواحدة من هذه الخلال يحمد المرء غب تنازع البقاء أو يكون ممن يغفلون عن وطأته وينظرون اليه بعين الرضا والارتياح وهو ما هو عنفاً وقسوة وأثرة وخداعا وانتهاكا في معظم الاحيان لحرمات الأخلاق الفاضلة والمبادىء الرفيعة . فلذلك شعر به المعري شعور المقاتل الأعزل بالهزيمة

---

(١) نشرت هذه المقالة والتي بعدها في عددي سبتمبر ونوفمبر من مقتطف سنة ١٩١٦ .

وأوحى الألم والاشفاق الى وجْدانه قبل تسعة قرون ما أوحاه الاطلاع والاستقصاء والتنقيب الى فكر دارون في الزمن الأخير .

ولو كانت اشارة المعري الى تنازع البقاء كلمة بنت لحظة ابتعثها الألم فسطرها القلم لما كان في هذه الاشارة ما يجيز لنا أن نقرن اسمه بتنازع البقاء ولكان الأحرى بتلك الاشارة أن تردد في معرض الاستشهاد كغيرها من الخواطر الشعرية . ولكن اشارات المعري في هذا المعنى كانت أشبه بالتدقيق العلمي منها باللمحة الشعرية وأقرب الى التأمل الدائم المتسلسل منها الى النظرة العارضة التي لا تبدأ في الخلد حتى تنتهي وينطوي أثرها . فإنك لا تقلب صفحة من اللزوميات أو غيرها الا سمعت منها أنة أو أنات يتغير موضوعها ومبناها ولا يختلف مضمونها وفحواها ، وكلها نعي وتبكيت للعالمين على ظلمهم وتنافرهم ومكر بعضهم ببعض ، وكان الآلام المبرحة التي يعرفها المخذول في كل حرب ويجهلها الظافر قد جسمت هذه الحالة له وغلظتها فأحاط بدقائقها البعيدة ولم تخف عليه خافية من وجوهها المختلفة بين أنواع المخلوقات ، فبدأ بالشكوى من التنازع بين الناس ولحظه على حقيقته ، وهو أقرب الأشياء الى أذهان الناس لو التفتوا اليه ، ولكنك على كثرة الشعراء لا تقرأه ممثلا في شعر أحد كما هو ممثل في شعر المعري فمن قوله في ذلك :

أما لكمو بني الدنيا عقول ... تصد عن التنافس والتعادي
اذاة من صديق أو عدو ... فبؤسا للأصادق والأعادي

وأوضح منه في هذا المعنى قوله :

تنازع في الدنيا سواك وما له ... ولا لك شيء في الحقيقة فيها
ولم تحظ في ذاك النزاع بطائل ... فمتفقوها مثل مختلفيها

وأوضح من قوليه هذين قوله :

تناهبت العيش النفوس بقوة فان كنت تسطيع النهاب فناهب

وزاد على ذلك فبين ضرورة هذا الخلاف فقال :

لولا التخالف لم تركض لغارتها خيل ولم تقن ارماح وأسياف

وأحسبه استطرد من النظر في أطوار الانسان الى النظر في اطوار المخلوقات كافة فأجمل الحكم عليها في هذا البيت الجامع :

ولا يرى حيوان لا يكون له فوق البسيطة أعداء وحساد

وفصل هذا القانون العام في عدة مواضع من لزومياته فقال :

يغادر غابه الضرغام كيما ينازع ظبي رمل في كناس
سجايا كلها غدر وخبث توارثها أناس عن أناس

وقال :

تدري الحمامة حين تهتف بالضحى ان الأجادل لا تطيل جدالها

وقال وفيه إلماع الى توارث الخوف بين الحيوانات :

تتبع آثار الرياض حمامة ويعجبها فيما تزاوله النقر
تهم بنهض ثم تثني برغبة فما شعرت حتى اتيح لها صقر

وهو لا يفرق بين الأقوياء والضعفاء في هذا النزاع بل يشملهم به جميعاً كما جاء في قوله :

ظلم الحمامة في الدنيا وان حسبت في الصالحات كظلم الصقر والبازي

ومن كلامه ما يصح أن يعد تلميحاً الى غاية هذا النزاع وهي بقاء

الأصلح وانتفاع الغالب برجحانه على المغلوب كما يؤخذ من قوله :

ولو علمتم بداء الذئب من سغب ... اذن لساجتم بالشاة للذيب

ومثله قوله :

ولولا حاجة بالذئب تدعو ... لصيد الوحش ما اقتنص الغزال

ومثله أيضاً :

وسخط الظباء بما نالها ... تولد منه رضى الحابل

وأحيانا يتجاوز القول بتنازع البقاء وبقاء الأصلح الى تقرير هذا الرأي الذي قرره النشوئيون حديثاً وهو أن لكل حي على الأرض سلاحا خاصا يتقي به عدوه ويكدح به لنفسه وليس أصرح في هذا الرأي من هذا البيت :

وما جعلت لأسود العريـ ... ـن أظافير الا ابتغاء الظفر

وأقل منه صراحة في ذلك البيتان :

اذا كف صل افعوان فماله ... سوى بيته يقتات ما عمر التربا
ولو ذهبت عينا هزبر مساور ... لما راع ضأنا في المراتع أو سربا

فاذا راجعت الأبيات المتقدمة مع كثير من أمثالها التي اكتظت بها دواوين المعري أمكنك ان تجزم بأن الرجل سبق أسبق المتأخرين الى ادراك تنازع البقاء وما يلابسه من الأفكار . أدركه متكررا جامعاً لا متفرقا طارئاً . فاذا قيل ان دارون واضع المذهب في عالم العلم ساغ لنا أن نقول والمعري واضعه في عالم الأدب والشعر .

ويظهر أن فرط الشعور بتنازع البقاء لا ينفك عن فرط الشعور

بالمحافظة على الذات . وهذا أمر طبيعي معقول . ولا يعرف قيمة الشيء كمن يعرف مقدار التزاحم عليه . ولذا كثر كلام المعري في حب الحياة والافتتان بالدنيا كما كثر كلامه في التنافس والتباغض . فهو يردده في قصائده ولا يبرىء منه نفسه ويتهم من يظهر خلاف ذلك بالكذب والمراء كما قال في لزومياته :

شقينا بدنيانا على طول ودها فدونك مارسها حياتك واشقها
ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بان القلب يضمر عشقها

وكما قال أيضاً :

ومن العجائب أن كلا راغب في أم دفر وهو من عيابها

الى كثير غير ذلك . وهو لا يكتفي هنا أيضا بالحكم على الانسان فحسب بل يشمل بحكمه الاحياء جميعا فيقول :

أرى حيوان الأرض يرهب حتفه ويفزعه رعد ويطمعه برق

ويقول كذلك :

تسريح كفك برغوثا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة ويروم العيش مهتاجا

وتعميم المعري الحكم على الانسان والحيوان معا كلما نسب الى الانسان خلقاً من الأخلاق طريقة ذهنية عجيبة لا نستطع تأويلها الا اذا قلنا بأن الرجل كان يعتقد أن الانسان والحيوان من عنصر واحد وانه كان في صميم نفسه نشوئياً بالغريزة وان لم يعلم بذلك فكره علما يصح الاستدلال به .

على أن هذا الارتباط بين الشعور بتنازع البقاء والشعور بحب البقاء يفسر لنا سر فلسفة المغالين في التشاؤم المبالغين في النقمة على الوجود ، فليسوا هم بأشد الناس كرها للحياة كما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الأولى ولكنهم أشد الناس حباً لها وضنا بها . وهم لا يسبون الحياة سب المحتقر المزدري بل سب الرجل المرأة التي يتوله بها ويعبدها ثم لا يحظى بطائل منها ولا يجد عندها صدى غرامه بها .

وقد انتهى النظر في هذا المعترك الضروس بالمعري كما انتهى بعده بإمام المتشائمين ارثر شوبنهور الى نهاية واحدة فكلاهما يقول لك ما خلاصته : ما دامت الدنيا كفاحا لا راحة فيها وما دام الغالب اليوم يغلب غداً والموت يهلك الغالب والمغلوب على السواء فالحياة وقر فادح والعيش عبث والعدم أفضل من الوجود . الى آخر ما اتفق عليه مزاجهما من ايثار العزلة والاستئناس بالحيوان والقول بارادة الحياة مع التنفير منها واحتقار النساء وتحريم الزواج . ومن هنا يظهر خطأ الاثنين بل خطأ المتشائمين جميعاً في التعقيب على تنازع البقاء . اذ لا شك أنه لو وقعت هذه الخواطر لأناس ذوي مزاج مختلف عن مزاجهم لما استخلصوا منها هذه النتيجة ولرأوا أن الأولى بهم أن يقولوا : ما دامت الدنيا غلابا فكن أنت الغالب وما دام الموت قضاء لا مفر منه فلا يهممك أمره وليهممك ان تنال من الحياة أقصى ما ينال فلان يدركك الموت سيدا خير من أن يدركك مسودا وليس العجيب أن يتفاوت حكم الناس في المسألة الواحدة من النقيض الى النقيض ولكن العجيب أن نعلم بما للدنيا من ألوان لا عداد لها وبما للناس من حالات وميول لا يحصرها الفكر ثم نطالبهم بالاتفاق على الكبائر

والصغائر أو نقدح مثلا في فلسفة المتشائمين لانهم يرون الحياة من جانبها المظلم ونحن لا نراها الا من الجانب الأبيض المنير . ومن الخطأ أن يرفض النقاد فلسفة التشاؤم جملة لبعد أصحابها عن حياة الاعمال الدنيوية ولا يذكروا أن هذه الدنيا غاصة بالنقائص وان هناك جبلات اسرع الى استكناه هذه النقائص من سواها وانها ليست بطبيعة الحال جبلات أهل الأعمال لان هؤلاء مصروفون بأعمالهم عن مشاهدة ما يقع حولهم - ومن أين للمقاتل المنهمك في المعركة أن يحيط بما يجري في غضونها ؟

وانما قلنا اتفق مزاج المعري وشوبنهور ولم نقل اتفق عقلهما لأننا نعتقد ان المتشائمين كلهم من مزاج واحد وأن هذا هو علة اتفاقهم في الاقيسة التي يذهب فيها الناس مذاهب شتى وادراكهم المسائل على وتيرة واحدة وان كانت مما تتشعب فيه الأفكار . فقد اتفق المعري وشوبنهور على كل رأي اشتركا في الالمام به ولو لم يكن من أصول فلسفة التشاؤم ، واليك مثلا ادراكهما للزمان فان المعري يتصوره كانه نفس طائر في أثر نفس وكأنه أجزاء متفرقة يجمعها كل واحد فيراقبه مراقبة من لا يسهو عنه ويتبع كل نفس يمر بحسرة المشيع الآسف ومن هذا النحو قوله :

نفس بعد مثله يتقضى ... فتمر الدهور والاحيان

قوله :

لهفي على ليلة ويوم ... تألفت منهما الشهور

وقوله :

أما المكان فثابت لا ينطوي ... لكن زمانك ذاهب لا يثبت

ويلحق به قوله :

قدم الزمان وعمره ان قسته   فلديه أعمار النسور قصار

وكذلك يقول شوبنهور مع الفرق بين الأسلوبين الشعري والفلسفي : « الزمن هو ذلك الذي يفتأ يجعل الاشياء لا شيء في ايدينا فتفقد بذلك قيمتها » ويقول « نحنْ نسلب يوماً كل مغرب شمس » ويقول : « ان وجودنا مستقر على الحاضر الذي ما يني ابدا متسربا طائرا فلا بد له ، أي لوجودنا ، من أن يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا أمل في الوصول الى الراحة التي ننشدها . مثلنا في ذلك مثل المنحدر من جبل عال فهو يسقط اذا حاول الوقوف » .

ولا يشعر بالزمن هذا الشعور الا الذي يحصي كل لحظة تمر به سآمة وألماً كأنه السائر المتعب يلتفت بعد كل خطوة يخطوها الى المسافة التي خلفها وراءه والمسافة التي لا تزال أمامه . ولا تخطر فكرة استقرار الوجود على الزمن الا لمن يرى أن الحياة ان هي الا زمن يمر لا تكوين يستتم قواه وجزء من الطبيعة يأخذ منها وتأخذ منه . ولسنا نقول ان الزمن ثابت والمتشائمون يخطئون اذ يتصورونه غير ذلك وانما نقول ان تصورهم هذا خاص بمزاجهم . فكم من الناس حتى الفلاسفة والمفكرين والعلماء لا يشعرون بالوقت منعزلا عن الحياة لانهم يقيسون الحياة بحركاتهم التي هم مستغرقون فيها لا بحركات الافلاك والسيارات . وكم من الناس في قرار وجدانهم لا يتصورون للوقت وجوداً فضلا عن تصورهم أن الوجود مستقر عليه .

والمعري وشهوبنهور سيان في الرأفة بالحيوان واستطلاع أطواره وعاداته . ولقد رأينا كيف كان المعري يستعرض أخلاق الانسان في طبائع الحيوان فانظر رأي شوبنهور في ذلك . يقول هذا الفيلسوف « أي لذة

تداخلنا عندما نرى حيواناً مطلقا يدبر شؤونه بنفسه غير معترض ولا مسوق . تراه اما يتلمس طعامه أو يتعهد صغاره أو يخالط الحيوانات من جنسه الى نحو ذلك . وان هذا لهو الذي ينبغي أن يكون وهو الذي لا يمكن أن يكون سواه . فان كان ذلك الحيوان طائرا متعت نفسي بالنظر اليه برهة من الزمن لا بل فليكن فأرا مائياً أو ضفدعا فذلك لا ينقص من سروري بالنظر اليه . ويعظم سروري به ان كان قنفذاً أو عظاة أو أيلا أو غزالا . وما كان التأمل في أحوال الحيوانات ليسرنا لولا أننا نأنس فيها حياتنا مصغرة بسيطة » .

ولم يعد شوبنهور الصواب في هذا التعليل . الا أننا لا نجد الناس كلهم يسرون بالتأمل في أحوال الحيوانات كما يسر بذلك المتشائمون . ونظن هذا السرور آتياً من فرط احساسهم بالحياة فلذلك يعطفون على كل حي ويبحثون عن مظاهر الحياة في جميع طبقاتها . وسيطول بنا الشرح لو تمادينا في المقارنة بين المعري وشبنهور على هذا النمط وما المقارنة بينهما الا بمثابة تحليل لمزاج واحد . ولكن لعل اعجب ما اتفقا عليه وفاؤهما لوالديهما وفاء لم نعهده في الفلاسفة الذين يغتبطون بالحياة ولا يشكون غصصها . فشوبنهور أهدى كتابه الدنيا كارادة وفكرة الى والده وأثنى عليه أطيب ثناء في كلمة الاهداء والمعري رثى أباه ابلغ رثاء وهو القائل :

على الولد يجني والد ولو أنهم ملوك على أمصارهم خطباء

نظرات في فلسفة المعري

ـ ٢ ـ

زهد المعري في الدنيا واعتزل الناس لانه كما أسلفنا لم يكن له في الدنيا حظ ولا بمعاشرة الناس طاقة . والعزلة مضادة لطبع الانسان بل لطبع كل حيوان أليف ، لأن الحيوانات الاجتماعية تحن بالرغم منها الى رفاقها ولا تطيق الابتعاد عنها . حتى لقد تؤثر الوحدة في بنيتها كما تؤثر فيها قلة العلف ومواصلة الاجهاد . ولقد روى شارل مرسييه صاحب كتاب العقل والجنون وروايته مشاهدة محققة « ان الجلابين العارفين بعادات الماشية والانعام يذكرون أن البقرة المعزولة لا تدر اللبن ولا تسمن ولا تصلح لشيء مما تصلح له البقرة وسط الصوار » فالاجتماع ضرورة جسمية في الحيوان الاليف قبل أن يكون حاجة نفسية أو ميلا قلبياً . ولن يلجأ الى العزلة رجل متسق البنية متوازن القوى لان اتساق البنية يبتغي من صاحبه استكمال ضروراته التي من أولها كما قدمنا الاجتماع والتآلف . وانما يرغب في العزلة الشاذون عن استواء الخلق اما ليتنسكوا ويتبتلوا أو ليقطعوا الطريق ويخرجوا على نظام الاجتماع شاهري الحرب عليه وعلى أوضاعه . ويغلب في أهل النسك والتبتل أن يكونوا من ذوي المزاج السوداوي الذين ينقبضون عن عشرة الناس وينقبض الناس عن عشرتهم ، لتباينهم عنهم في المشارب والأطوار ولان أهل النظر وأهل

العمل قلما يتفقون في الآراء والأفكار. ولا شك عندنا في كون المعري من أصحاب المزاج السوداوي لأن السوداء معروفة بأعراضها وهي الوجوم والحزن الملح المجهول السبب والاكثار من ذكر الموت وسوء الظن بالناس وبالنفس أحيانا في أزمات النوبة التي تحرج الصدر وتغيم على العقل . أما الأعراض الأولى فقد طفح بها شعر المعري ونثره فلا نستطيع أن نستشهد لها ببيت من دواوينه دون بيت . وأما سوء الظن بالنفس فقد جهر به المعري مرارا فقال :

ان مازت الناس أخلاق يعاش بها	فإنهم عند سوء الطبع أسواء
أو كان كل بني حواء يشبهني	فبئس ما ولدت في الخلق حواء

وقال :

رويدك لا تغترر يا أخي	بي فأنا الرجل الساقط
ولو كنت ملقى بظهر الطريق	لم يلتقط مثلي اللاقط

وقال :

كلاب تعاوت أو تغاوت لجيفة	وأحسبني أصبحت ألأمها كلبا

وقد يبلغ به اتهام نفسه أحيانا أن ينكر عليها العلم والعقل ويرى أنه امرؤ لا نفع فيه لأحد اذ يقول :

ماذا تريدون لا مال تيسر لي	فيستماح ولا علم فيقتبس
أنا الشقي بأني لا أطيق لكم	معونة وصروف الدهر تحتبس

ولو كان ما يعلمه المعري من الفقه والفلسفة والأدب واللغة والسير في صدر رجل آخر مبرأ من نوب السوداء لملأ الأرض بعلمه غرورا وتطاولا ، لان غاية العلم عنده أن يسأله الناس فيجيبهم وهم لا يسألون

عن شيء لا جواب له عنده . ولكن المعري القائل :

اذا كان علـم النـــاس ليس بنافع ولا دافـــع فالخسر للعلماء
قضى الله فينـــا بالـــذي هو كائن فتـــمَّ وضاعـــت حكمـــة الحكماء

يرى للعلم أحياناً وظيفة أجل من الاجابة عن الاسئلة ويرى أن أقصى العلم ينتهي بصاحبه الى باب المجهول الابدي الذي يرد كل طارق ولا يطرقه الا كل حائر ضللته الغاز الحياة وبهرته مصاعبها فترك النـاس يحيون وذهب يبحث عن مغزى الحياة وأسبابها وغاياتها فما استطـاع أن يجيب نفسه وعلم انه بالسكوت عن اجابة غـيره أولى . وقـد يمكننـا أن نتصور حالة التلاميذ الذين كانوا يسمعون من المعري هذا الاقرار بالجهل وهم لا يتمنون من العلم الا أن يبلغوا فيه مبلغه . فلا بد انهـم كانـوا يرمونه بالبخل بالعلم ولا يصدقونه حتى كان يضيق بهم صدراً فيقول :

أتسألـــون جهـــولا أن يفيدكم وتحلبـــون سفياً ضرعهـــا يبس
ما يعجـب النـاس الا قول مختدع كأن قومـــا اذا ما شرفـــوا أبسوا

ولعمري إن كلمة البخل بالعلم التي شاعت في العصور العـربية المتوسطة لتدل على جهل الناس يومئذ بالعلم الحقيقي ولباب المعرفة لأن العلم الصميم هو الذخيرة الفذة التي لا قبل لحاملها بالبخل بها . كما أنها تدل على نوع العلم الذي كانوا يطلبونـه في ذلك الزمـن وعلى غرضهـم منه . وأحسبهم لم يستنبطوا هذه الكلمة الا بعد أن أصبح العلم تجارة يحملها العلماء الى الأمراء متوخين فيها مآربهم ومداركهم وأصبح للبخل بالعليم معنى بخل الصانع الحاذق بسر صنعته . ولعل هذا أيضاً مما حبب العزلة الى المعري وأضجره من قاصديه الذين كانوا يفدون اليه من اقاصي البلاد وأولعه بذم العلماء والتشهير بالمشعوذين والسفسطائية والمجربزين

من المنجمين الذين يشغلون فراغ العلم اذا خلا منه مكانه .

بيد أن السوداء لا تهدي الى العزلة دائما وقد تهدي الى نقيضها فيكون السوداوي خليعا ماجنا مستهترا بالشهوات مغلوبا على عقله بهواه ولكنه على كل حال شبيه المعتزل في الشذوذ عن الخلقة العامة المعتدلة ، وكثيرا ما تتقارب العلل وتتباعد المظاهر في تقدير الناس . فأين التصوف والجذب مثلا من التهافت على المرأة والجنون بغرامها ؟ ولكنهما في نظر الطب متشابهان في مصدرهما ان لم نقل ان مصدرهما واحد عند بعض الأطباء . ومما يقوله مرسييه المتقدم ذكره بعد شرح طويل : « إن انكار الذات أساس يلتقي عنده الهوى الديني بالهوى الجنسي ولا يزال كل منهما يشبه الآخر حتى بعد تكوينه ونضجه فهما متماثلان في طبيعتهما الشاملة المتشعبة وهما يتماثلان قبل هذا التكون والنضج في غموض الأوصاف والخصال . ولاتفاقهما في الأصل وتقاربهما في الطبيعة يسهل أن يتحول أحدهما من مجراه الى مجرى الآخر . ومن ثم نرى أن إنكار الذات والمفاداة بالنفس اللذين يحتملهما العاشق عن طيب خاطر مرضاة لمعشوقه ظاهران في عاشق الكنيسة بمثل تلك الغيرة أو بأشد منها وان كان ظهورهما من شكل آخر . فكأن الكنيسة حلت محل المعشوق في هذه الحالة . وكذلك متى استعصى على العاطفة ان تنحصر في فرد واحد اتسع نطاقها فأعربت عن نفسها في اعمال البر وخدمة البشر . ولكن لا بد من دخول عنصر المفاداة بالنفس في هذه الأعمال أو تظل العاطفة متطلعة غير مقتنعة ويظل الاعراب عنها ناقصا . وهذا هو السر في ما نشاهده من أن أعمال البر القائمة على الهوى الديني والتي تشتق مصدرها البعيد من الهوى الجنسي لا تزال تبدو بأساليب شتى كلها ينطوي على المفاداة بالنفس والإيثار عليها » .

وهذا قول بمنزلة البدائه عند أكثر الأطباء المشتغلين بطبائع العقل ، فلا نخال سواد القراء يستبعدونه لان الوقائع التي تؤيده كثيرة ويندر الا يرى احدهم أناساً من الغالين في الدين انقلبوا الى الغلو في اللهو أو أناسا من الغالين في اللهو انقلبوا الى الغلو في الدين . يرون ذلك فيهم ولا يرونه في المعتدلين القاسطين الا في الفرط القليل . وهم يعجبون لذلك ولكنهم يقولون غلبت عليه الشقوة أو تاب عليه الله ، وبعد فليس أشهر من رمز المتصوفة والزهاد الى الجمال وكلفهم به اعجابا بصنع الله ومزجهم بذلك بين حب الله وحب الجمال الانساني . ومن الناس من تتعاوره الحالتان للغي آونة وللتقوى آونة أخرى ، كأبي نواس الذي نظم في الوعظ ما يزجر المارد ونظم في الغواية ما يفسد العابد . وما كان في احدى حالتيه مرائيا يعبر عما لا يشعر به ولكنه كان متقلبا لا يندم حتى يأثم ولا يأثم حتى يندم . وكأبي العتاهية الذي قضى شطر عمره الاول منغمساً في لذاته وصبواته ثم قضى شطرا من أيامه مبالغاً في التنطس والتقشف ثم حضرته الوفاة فكانت آخر حاجة له في الحياة أن يسمع غناء مخارق . ولقد كان أحرص الناس على عرض الدنيا وهو أكثرهم بباطلها عرفانا وأشدهم للموت ادكارا .

وينبغي لنا هنا ان نقول انه قد مضى الوقت الذي كانوا يقارنون فيه الأخلاق والعادات بأسمائها في اللغة . فالهوى الديني والهوى الجنسي متناقضان أيَّما تناقض في عرفنا مع أنهما متصلان في المنشأ كما قد رأينا . والسرف ضد الشح في اللغة وان كان أحدهما اشبه بالآخر من القصد بالسرف مثلا أو من القصد بالشح . هذا وهم يقولون ان القصد هو الحد الوسط بينهما ، فكان ينبغي على هذا القول أن يكون اقرب الى الطرفين من احدهما الى الآخر ، ولكنه بخلاف ذلك بعيد جدا عن الخلتين

المذمومتين . أما هما فمن القرب والمساواة بحيث يكاد أحدهما يحل محل الثاني ، ويظهر هذا التقارب اوضح ظهور بين العائلات الشاذة في أخلاق افرادها فان شذوذ هؤلاء الأفراد لا يبرز لنا في وجهة واحدة بل يجمع فنونا مختلفة من البدوات والأخلاق فيكون الرجل غاية في التقتير واخوه غاية في التبذير ، ويكون فيهم الزاهد المتحرج والجشع المتقمم . وقد يترهب أحدهم وله أخ او قريب قد خلع العذار وركب رأسه في الفجور والفحشاء . وقد ذكر « نسبت » صاحب كتاب جنون العبقرية عائلات عدة من هذا القبيل ـ منها عائلة (ديجرين) التي قال عنها « ان الشره في هذه العائلة عرض من اعراض الخبل العصبي يلوح الى جانب البخل والورع الشديد » . وكذلك الطمع ضد بذل المال ولا سيما البذل في سبيل البر ولكنهما في حكم الطب فرعان من شجرة واحدة أو كما يقول نسبت أيضاً « ان الطمع وحب البر حالة جسمانية لا يزال ارتباطها بالاضطراب في النخاع الشوكي باديا جليا » ولاستواء هذه الخلال المتعارضة في الشذوذ تقترن احيانا بشذوذ العبقرية فيقل في العبقريين الاعتدال ويكثر فيهم الطرفان اي التبذير والشح ، ولا حاجة بنا الى عد العبقريين المبذرين لانهم الفريق الغالب بينهم . أما الأشحاء فعندنا جماعة نذكر منهم جريرا وسهل بن هارون وابا العتاهية والبحتري ومروان ابن ابي حفصة والمتنبيء وأبا الفرج الأصبهاني . وهم من فحول شعرائنا وكتابنا . وممن ذكرهم نسبت عائلة اقترنت فيها العبقرية في القانون والشعر والموسيقى والأدب بالحذق في تدبير المال ، وهي عائلة نورث الشهيرة . فبعد ان ألمع الى علاقة الحرص بالعبقرية استطرد فقال : «لقد كان فرنسيير نورث خازن جيمس الثاني أحد اخوة خمسة لهم أخت واحدة وكان أبو هذه العائلة يقرض الشعر ويباشر المسائل المالية فورث عنه أبناؤه

هذه الملكة الأخيرة وظهرت فيهم مظاهر شتى ، فمنهم هذا الخازن وكان أديباً مدبرا وقد وصفه ماكولي بالاثرة والجبن وخسة النفس . . . . »
ومضى يسرد اسماء الاخوة ويصفهم بما لا يخرج عن مفاد هذه الأوصاف .
وأراد بهذا وبما تقدمه أن يثبت ان للشذوذ أصلا واحدا وان تنافرت ألوانه واختلفت فيه آراء الناس فمدحوا بعضا منه وذموا بعضا .

ونحن لم نعرض لهذه الآراء لنبخس آراء المعري ونحط من قدر أخلاقه وخصاله او نسوي بين ما يمدحه الناس وما يشنأونه من الأخلاق الشاذة ، لان تقارب أسباب الشذوذ لا يمنع ان يحب الناس منه ما ينفعهم ويحسن عندهم ويكرهوا ما يضرهم ويقبح في نظرهم . ولكنا رأينا فريقا من الكتاب يتلمس المشابهات بين فئات الشعراء من كل طريق غير طريق المشابهة في الأمزجة . فبعضهم يقسم الشعراء حسب اختلاف العصور مع أن اختلاف سني الولادة لا يستلزم في معظم الأحيان الاختلاف في المشرب الشعري . كما يلاحظ في شعر عدي بن زيد المتوفى قبل مولد المعري بنحو خمسة قرون ، فإنّا نجده اقرب اليه في نحيبه على الشعوب الهالكة ونعيبه على الدنيا من الشريف الرضي ومهيار الديلمي وهما من شعراء عصره . وبعضهم يقسمهم حسب الأسلوب اللغوي وهو تقسيم لا بأس به اذا كان الغرض منه لغويا ولكنه لا يغني في نقد الشعر وتقدير الشاعر . وبعضهم يقسمهم حسب الموضوعات التي يتناولونها في أشعارهم وكان الأحرى ان يعنوا بكيفية تناول تلك الموضوعات لا بمجرد تناولها . ومنهم من اذا بحث في الأخلاق أغفل البواعث الباطنة وتمسك منها بعنواناتها المنكشفة . ومن هؤلاء من قارن بين المعري وأبي العتاهية فأبعد البون بينهما لأن أبا العتاهية كان يكنز المال وهو يذم الدنيا ويذكر الناس بالموت ولم يكن المعري كذلك . ولعمري ان كنز ابي العتاهية

للمال لادل على صحة خوفه من الموت وأبين لمزاجه السوداوي من القصد وتصديق القول بالعمل . والعجيب أننا كنا نناقش بعض الأدباء في هذا الصدد فقال ان المعري نفسه كان يكره ان يقارن بأبي العتاهية واستشهد بقوله فيه :

أبـدى العتاهـي نسكا وتـاب عن ذكر عتبه
والخـوف ألـزم سفيا ن ان يغـرق كتبه

كان رأي الشاعر في نفسه حجة على النـاس في النظـر اليه وكأن المعري كان يحسن الظن بنسك أحد غير ابي العتاهية وهو الـذي شمـل الأتقياء جميعاً بقوله :

قد حجب النـور والضياء وانمـا ديننـا رياء
يا عالـم السـوء ما علمنا ان مصـليك أتقياء
لا يكذبـن امـرؤ جهول ما فيك لله أولياء

ولا نخالنا نغضب روح المعري اذا قلنا انه لولا عماه وتربيته الأولى وبيت العلم الذي نشأ فيه والكوارث التي نكبته في صباه والقلاقل التي فشت في زمانه وشيء من ضعف البنية وما خلفه الجدري في جسمه منذ طفولته لما كان بعيدا أن ينحو به المزاج السوداوي نحواً آخر غـير الزهـد والعزلة .

كراهته للبشر

وقد يرتكب بعض نقاد الغرب مثل هذا الخطأ في تقسيم الشعراء الى فئتين : محبي البشر (Philanthropist) وكارهي البشر (Misanthrope) لأنهم

يعدون من كارهي البشر أولئك الشعراء الذين يسخطون على الناس ويتبرمون بهم ويجتنبون مخالطتهم . وعلى هذا التقسيم يصح أن يعد المعري أكره الناس للناس لقوله على الأقل :

هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطر فما بقوا لم يبارح وجهه دنس
والأرض ليس بمرجوّ طهارتها الا اذا زال عن آفاقها الأنس

والحقيقة ان أكره الناس للناس وأضرهم بهم ليسوا بمعزل عنهم ولكنهم هم الذين يعيشون معهم حيث يصل اليهم أذاهم . واذا استعملنا المجاز قلنا انه لا يقهر الناس الا رجل يخوض معهم غمار هذا المعترك ويقاتلهم بسلاح أمضى من سلاحهم . أما المتبرم بهم المتنائي عنهم فكثيراً ما يكون رجلا قليل الشر قد طرح السلاح والتزم موقف الحيدة . ولنعلم أن الانسان لا ينفر من الناس لانه لم يستطع أن يكرههم وهو عائش بينهم بل لأنه لم يجد فيهم من يحبونه كما يحبهم . ولكم كان المعري يعدل عن سوء ظنه بالناس ويسترسل اليهم فيرده أذاهم الى سوء الظن بهم ويعجب لنفسه كيف ذهل عن رأيه وهو القائل في ذلك :

طهارة مثلي في التباعد عنكم وقربكم يدني همومي وأدناسي
وأعجب مني كيف أخطىء دائماً على أنني من أعرف الناس بالناس

وانه لقول رجل لا يتمالك نفسه أن يتبسط بالمودة لابناء جنسه ثم لا يلبث طويلا حتى ينقبض مكرهاً فيذوق لهذا الانقباض ألماً يجري على لسانه سخطاً وتذمراً . وما هو بسخط ولا تذمر . وهل ترى في قوله :

اذا كان إكرامي صديقي واجباً فإكرام نفسي لا محالة أوجب

أو قوله :

ان ترد أن تخص حراً من النا　　س بخـير فخصَّ نفسـك قبله

الا قول رجل يرى أن الأنانية خلاف الواجب ولكنها أمر تدعو اليه الضرورة ، والا مجاهدة منه لإقناع نفسه بخلق جديد لا ترتاح اليه ؟

وهل قال المعري في الحفيظة على الناس أكثر مما قال في الحفيظة على نفسه أو هل تمنى هلاكهم أكثر مما تمنى هلاكه هو نفسه ؟ فهل يقال اذن إن المعري كاره لنفسه بالمعنى المفهوم من كراهة الانسان للبشر ؟ ولقد أوصى الانس بالطير على حين كان يحذر بعضهم من بعض فقال :

تصدق على الطير الغـوادي بشربة　　من الماء واعددها أحق من الانس
فما جنسهـا جان عليك أذية　　بحال اذا ما خفت من ذلك الجنس

ومن هذا وأشباهه ترى أن الرحمة ثابتة في طباعه ولكنه يتنقل بها من موضع الى موضع كما يتنقل المرء بالهدية المردودة .

اشتراكيته

على أن للمعري أبياتاً في الرثاء لحال الفقراء كادت تسلكه في عداد شعراء الاشتراكية كقوله :

لقـد جاءنـا هذا الشتـاء وتحته　　فقـير معـرّى أو أمـير متوج
وقـد يرزق المجـدود أقـوات أمة　　ويحـرم قوتـاً واحـد وهـو أحوج

وقوله :

كيف لا يشرك المضيقين في النعـ　　ـمة قوم عليهـم النعماء

وقوله :

ان شقاً يلوح في باطن البرة قسم بيني وبين الضعيف

نعم ان الاشتراكية لا تعتمد في حقوقها على الرحمة ولكنها لا تطلب من شعرائها أكثر مما قال المعري .

الجبر وتحريم اللحم

وقد قصرنا الكلام الى الآن على درس مزاج المعري لأننا لا نعود بفلسفة الرجل الا الى مرجع واحد وراء كل مرجع ، وهو مزاجه وما أضافه اليه تأثير البيئة والحوادث فكل ما يؤثر عنه من التقشف والتشاؤم والقول بتنازع البقاء والنهي عن الزواج انما هو نتيجة خلق متأصل فيه لم يزده الاطِّلاع والتحصيل غير صيغة العبارة واصطلاحات العلم . وما قلناه عن هذه الآراء نقوله عن رأيه في الجبر وتحريم اللحوم . أما الجبر فهو سبيل كل رجل يشعر في نفسه بتضارب الاحساسات وتحكم الطبائع ويعلم بعد مكابدتها أنه لا حيلة له فيما يرضى أو فيما يأبى ، وأنه لا اختيار لعقله فيما ينوي وفيما يصنع ، وما كابد التضارب في الاحساس والفكر أحد كما كابده المعري فذاك هو الذي أمضه وأرهقه حتى انتهى به الى الجزم بأن الارادة مغلولة والأهواء مستبدة والعقول مسخرة فكان يقول :

وقد غلب الأحياء من كل وجهة هواهم وان كانوا غطارفة غلبا

ويقول :

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق تقدير

وعلى هذا فهو مبتكر في مذهب الجبر لا مقلد . أما تحريم اللحوم فليس أعجب من القول بأنه اقتفى فيه مذهب الهند أو غيرهم من المتدينين

به !! ولو أن المعري كان كاهناً هندياً برهمياً متريضاً لما عجبنا للأمر لانه انما يخضع لسلطان عقيدة دينية ويخشى عقاب قدرة الهية . أما وهو رجل قد شك في الديانات وهزأ بشعائرها وفرائضها فمن العجيب حقاً ألا يكون له باعث على ترك اللحم أربعين سنة الا الايمان بمذهب البراهمة . وعندنا أن المعري كان لا يشتهي اللحم بطبعه وكان فقيراً مع رحمة مفرطة فيه . وكان به ميل الى تعذيب النفس كما هو شأن بعض أصحاب الأمراض العصبية في رأي ماكس نوردو وغيره من الأطباء ولم يفده عرفانه بمذهب الهنود البراهمة الا اخراج هذه الميول في صبغة مذهب فلسفي . ولهذا بدأنا مقالنا ونختمه بالقول بأن مفتاح البحث في فلسفة المعزي انما هو درس مزاجه ورد أفكاره وخواطره الى خواص هذا المزاج التي ساعدتها البيئة على الظهور .

خاتمة

وقبل أن نختم هذا البحـث نستحسـن أن ننبه الى بعض مآخـذ لاحظناها على أحد أشياخنا الكاتبين عن المعري بياناً للفرق بين النقـد النظري والنقد الاستقرائي . ونقول ان ذلك الكاتب ، مع عنايته بتتبع الآثار التاريخية وشرح أحوال العصر الذي عاش فيه المعري ، لم يوفق الى انصاف المترجمين له ولم يقدر آراءهم قدرها .

فمن ذلك أنه أشار الى ما ارتآه جورجي زيدان من أن سبب سخط المعري على الدنيا هو عسر الهضم فتعجل برفضه وقرر استحالتـه ، ولا برهان لديه ينقضه ، ولا ندري نحن لماذا يستحيل عسر الهضم على رجل دائم الكآبة سوداوي المزاج مدمن لأكل البقول ملازم داره لا يبرحها وأنه قارن بين أبي العلاء وأبي العتاهية فقال « مرجليوث اجتهد في أن يقارن بين أبي العلاء وأبي العتاهية في هذا الشعر الفلسفي فزعم أن بين الرجلين تشابهاً وتابعه على ذلك سلمون . ولقد كنا نحب أن نجتهد في بيان هذا الوهـم الـذي وقـع فيه هذان العـالمان لولا أن دائـرة المعـارف الاسلامية التي يكتبها المستشرقون سبقـت الى هذا فجعلـت قياس أبـي العلاء الى أبي العتاهية ظلماً وحيفاً اذ كان أبو العتاهية يستقي من الدين ويتقيد به وكان أبو العلاء ينتقي من الفلسفة ولا يتقيد بالدين وهذا الفرق ظاهر الأثر في شعر الرجلين . وخصلة أخـرى لم تلتفـت اليهـا دائـرة

المعارف وهي أن أبا العتاهية على كثرة ما استعان بالدين في زهده الذي ملأ به ديوانه كان فاسقاً مستهتراً بالمجون بخلاف أبي العلاء الذي استملى الفلسفة واتهمه الناس بالزندقة والإلحاد فانه لم يمل الى الهوى ولم يذهب مذهب المجون » .

وترى الكاتب هنا يوافق دائرة المعارف ليخالف مرجليوث وسلمون ولكنه لم يشأ أن يوافق الدائرة كل الموافقة فذكر أنه التفت الى شيء لم تلتفت اليه وهو مجون أبي العتاهية . على أنه عاد بعد ذلك فاقتدى بالدائرة في مقارنتها بين المعري وأبيقور وقال :

« أبو العلاء يرى رأي أبيقور هذا كما تدل عليه اللزوميات في مواضع كثيرة نجتزىء منها بقوله :

ولم أعرض عن اللذات الا لأن خيارها عني خنسنه

فليس من الغريب بعد ذلك أن يشير أبو العلاء بالاشتراكية في النساء الخ » فكيف اذن تكون مجاراة اللذات روح فلسفة المعري الاخلاقية ولا يكون ثمة شبه بين شعره وشعر أبي العتاهية لان هذا ماجن مستهتر باللذات ؟ أما نحن فلا يسعنا الا أن نعجب برأي دائرة المعارف الاسلامية وأن نسوقه شاهداً على ما فصلناه قبل في تحليل أطوار المزاج السوداوي وما ينتاب أصحابه من الأطوار المتناقضة ولا نقول كما قال الكاتب ان المنطق لا يقبل المتناقضات فيلزم من ذلك أن يكون كل عقل منطقياً في كل حالة من حالاته وأن يكون الطبع جاريا على منهج العقل في أهوائه ورغباته . وهو خطأ ظاهر لا يقبله المنطق .

وقد حرص هذا الكاتب على أن يوصف بالتدقيق في استقصائه ومع هذا لا يبالي أن يزعم أن المعري « كان على مذهب الباحثين من علماء

الافرنج في هذه الأيام » أي أنه « يمنع ان يكون الناس مشتقين من سنخ واحد » ولا نعلم نحن ان هذا مذهب الباحثين من علماء الافرنج وانما هو خاطر مرجح عند طائفة منهم ولا نحسب الكاتب كان يقبل أن ينسب الى المعري رأيا كهذا لو أنه قاس درجة العلم في عصره قياساً دقيقاً (أولا) لان القائلين بهذا الرأي من علماء اليوم لم يعمدوا اليه الا بعد إنعامهم الطويل في درس مسألة الأنواع والأجناس درساً علمياً استقرائياً (وثانيا) لان كلام المعري كله خلو من كلمة أخرى تسنده ، ولعله لم يرد بقوله :

وما آدم في مذهب العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

الا أن آدم هذا المذكور في الكتب الدينية ليس بأقدم آباء البشر - يفسر هذا المعنى قوله في بيت آخر :

جائز أن يكون آدم هذا قبل آدم على اثر آدم

فليس الخلاف بين المعري والمتدينة خلافاً على عدد أصول النوع البشري ولكن على قدم أولها . وأين هذا من رأي تلك الطائفة من علماء اليوم ؟

ونكتفي بهذا القدر اذ كنا لا نقصد الى نقد الكتاب وانما مررنا منه بما له مساس بموضوعنا .

السلوى [1]

نعمة من أنعم الله الكبرى . وترياق للنفس الحزينة مركب في الطباع ترجع اليه في بلواها كما يرجع الجمل الى سنامه يغتذي منه كلما طال عليه السغب ومسه الضر وأقفرت من حوله الديار . وخير الدواء ما كان من مكمن الداء منبته ومن مادة النفس عنصره ومن جرثومة الشكوى طبيعته . لا يعرف صدق ذلك أحد كما يعرفه أطباء الأجسام والأرواح أو أشباه الأطباء ممن عالجوا في أنفسهم ما يعالجه الاطباء في أنفس الآخرين . قال ابن الرومي :

ان من ساءه ألزمان بشيء لجدير اذن بأن يتسلى

وما أظنه جديراً بالسلوى فحسب فانما هو مفتقر اليها ومرغم عليها وغير مصروف بأي صارف عنها . والا فما تراه صانعاً ان لم تثب نفسه الى أمل في السلوى أو الى سلوى في الأمل ؟ انه لن يصنع خيراً من هذين شيئاً .

ولقد تقارب الشبه بين الأمل والسلوى حتى لقد حسبتها أخته أو حسبته توأمها على خلاف المألوف في التوائم ، وان كان لا بد من نسب فأبوهما الفقدان وأمهما الرغبة . أخذت هي من خشوع أبيها أكثر مما

(١) نشرت في العدد الثامن من صحيفة الرجاء

أخذت من جمال أمها ، وأخذ هو من جمال أمه أكثر مما أخذ من خشوع أبيه ، وكما أن من الأمل صادقاً وآخر كاذباً كذلك السلوى منها الصحيح المقبول ومنها الزائف المغشوش . فأما السلوى الصحيحة فهي التي تغني صاحبها عما فقده الى أن يجد سواه أو يجد ما هو خير منه . وأما السلوى الزائفة فهي التي لا يزال صاحبها فاقدا خاسراً ولا ينتقل بها من خيبة الا الى خيبة أفدح منها فهو يتسلى عما ليس يملكه بما ليس يملكه . ليس في دفتره حساب ، بل ليس له دفتر يصلح للمحو والإثبات بل هو نفسه مضاف على حساب الخسارة في دفتر هذا الوجود .

والسلوى كالأمل دليل غنى النفس وغزارة مواردها ووفرة ذخيرتها واستكمال عدتها لملاقاة الخطوب ومنازلة الحوادث . فمن كانت ذخيرته من السلوى ناضبة كان كالتاجر الفقير الذي تعصف برأس ماله أول صدمة من صدمات السوق ثم يقعد بعدها خاوي الوفاض منقطع الأسباب . وليس كذلك التاجر العامر فانه لن يعدم من ماله أو من الثقة به حيلة يتلافى بها خسارته ويصلح شأنه ويترقب من ورائها الربح الجزيل ، بما يكون له منه سداد لدينه وعوض ينسيه ما فاته .

على أن الأمل لا يؤذن له في كل مكان تدخله السلوى . وقد يكل الأمل عن غاية من الغايات فيقف دونها أو يحجب عنها وتبلغها السلوى فتنزل فيها بين الرضى والحفاوة ، وماذا يجدي الأمل شيخاً فانياً فجع في وحيد له أودعه من الدنيا كل أمله وغاية مطامعه ؟ أو ماذا يجدي الأمل مكفوفاً ذهب عنه بصره الى حيث لا يرده عليه طب ولا مال ولا يرجو له معجزة تخرق نظام الحياة من أجله ؟ أو ماذا يجدي الأمل ملكا خلع عن عرشه وأبعد عن ملكه الى حيث لا نجاة ولا رجعة لغير التراب ؟ عند

السلوى لهؤلاء ومن شاكلهم زاد كثير وليس لهم شيء عند الأمل . فليتبلغوا بزاد السلوى اذا ارتد عنهم الأمل يائساً . وويل للنفس اذا يئست منها السلوى بعد يأس الامل منها ، فانها تكون قد نضبت واصفر نصيبها من الدنيا فلم يبق لها الا الموت أو الجنون . وطوبى للنفس السالية فان المصائب لن تأخذ منها كل ما يؤخذ من النفوس .

ومن الغرائب البينة في خيال الناس أنه مهما توالى من تجربة الانسان لحوادث الأيام وبالغة ما بلغت خبرته بلواعج الحزن فانه لا يبرح يستخف حمل المصائب البعيدة عنه ولا يتمثلها على حقيقتها ولا يشعر بالالم في نفس غيره كما يشعر به في نفسه . قال روشفكول : «كلنا أولو قدرة كافية على حمل مصائب سوانا» . وكأني به يعيب على الناس هذا الخلق وما به من عيب ، ألسنا نحب أن تخف عن عاتقنا مصائبنا ؟ فما بالنا نطلب أن تثقل علينا مصائب غيرنا ؟

ولو فكرنا قليلا لرأينا الطامة الكبرى التي تحيق بالناس لو أنهم طبعوا على غير هذا الخلق . فإننا نرى كثيراً من الضعفاء والاقوياء يبهظهم أن ينهضوا بحصتهم من الأثقال ، ويشق عليهم ما يمسهم من الشدائد والأهوال ، فكيف بهم لو ألقيت عليهم مع حصتهم حصص الخلق جميعاً ـ فأصبح كل ميت عزيز لسواهم كأنه ميت عزيز عليهم ، وكل أمنية يفقدها أحد كأنما هي أمنية ضائعة منهم ، وأصبح ما يشكي العالمين فردا فردا يشكيهم على السواء في لذعة الحزن وحرارة الأسف ؟ اذن تقتل الهموم ذويها وغير ذويها ثم لا يجدون من يكشف عنهم غمتها ويسري لوعتها .

وليس بنا من حاجة الى أن ترهق الناس أعباؤنا كما ترهقنا ، وانما

حاجتنا أن يشعروا بأعبائنا ويتلطفوا في تهوين وقعها علينا . وهل تراهم يفعلون ذلك الا حين يجدونها خفيفة شائعة من حيث نجدها نحن جسيمة نادرة . أو حين يكونون أقل منا جزعاً لها ودهشة من طروقها ؟ ولعل أحب أصدقائنا الينا هو الذي يكون مع عطفه وخلوص نيته أقدر على تلطيف آلامنا ساعة نحمد له ذلك ، وان بدا منه في تلك الساعة أنها لا تؤلمه كما تؤلمنا ولا هو يكبرها كما أكبرناها .

أعرف صاحباً ظريفا كان اذا روَّح عن مهموم أو عاد مريضاً يمزح فيظهر العجب ممن يجزعون من الهم أو يشتكون المرض ويتأففون منه ويقول اني والله لأحسب المرض سميراً مسلياً ورفيقاً مؤنساً ، وكانما مع الانسان شخص آخر في اهابه يناجيه ويتسمع له ويتحرى رضاه فيلطفه بالطعام المنتخب والشراب الموصى عليه وينفرد به في ليله ونهاره . وكنا نقول له : وما رأيك في مرارة العقار وحبسة الدار والاقصار عن الاوطار ؟ فكان يقول : وماذا في هذا . أليس لكل صداقة قيود ؟

وألمت بصاحبنا هذا ضائقة فأفرط في الاهتمام لها والاشتغال بها . وقطعته عن عاداته من الدعابة والتبسط في الحديث . وأردنا العبث به فقلنا له : لشد ما احتفيت بصاحبك هذا الجديد فعساك تحمد عشرته ؟ فاستلقى ضاحكا وقال : قاتل الله الأصدقاء !! ما بقي في الدنيا صاحب موافق قط .

وعندي أن المرء يغبط على هذا المزاج الذي لايعيي صاحبه أن يتخذ من الهموم والسقام رفقاء وسمارا يحفظ عهدهم وان لم يحفظوا عهده ويأبى رفدهم وهم يطلبون رفده . وليس كلامنا هنا الا على الذين يحتاجون الى السلوى فأما الذين لحظتهم العناية وحالفتهم الجدود المقبلة فأصبحوا

يتقلبون في حياتهم من نصر الى نصر ومن نجاح الى نجاح لا يقفون لحساب خسارة ولا للتدبر بموعظة فأولئك يغنيهم الله عن صداقة الأوصاب والشجون ، ومشاورة الأحقاب والقرون ، وأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

آراء في الأساطير [1]

المذهب التشخيصي اللغوي

الـرأي التشـخيصي هو أصـوب الآراء في تعليل منشـأ الأساطـير وأقربها الى الاقناع وأجمعها لأوجه التطبيق والتأويل . وفحوى هذا الرأي ان من ديدن الانسان أن يخلع شخصيته على الموجودات ويتمثل ذاته في القوى والعناصر المجردة فيرى لها عامداً أو غير عامد شخصاً كشخصـه ونية كنيته وحياة كحياته ، وان هذا الوهـم الذي لا محيص للمرء عنه يظهر آشد الظهور في الطفـل والرجـل الشرس السيِّىء الخلـق فتـرى الطفل يضاحك الأشياء ويغاضبهـا ويحنـق عليهـا والرجـل الشرس يصيح بهـا ويسبها ويقتص منها كأنها تفهم ما يقول أو تقصد ما تعمل . وقد يظهر في الرجل الرشيد اذا ملكه.الحزن أو الغيظ فيخاطـب ما لا يعقـل خطـاب العقلاء . ومنذ زمن لا عهد لنا بمبدئه وصفت اللغات الأشياء بصفـات الآدميين ونحلتها اعضاءهم وأفعالهم وحمدت منها أوذمت ما يحمد أو يذم من الناس وقسمت ما ليست له ذكورة ولا أنوثة الى ذكر وأنثى . ولولا غريزة التشخيص لما سميت بعض الأشياء بأسماء المذكر وبعضها بأسماء المؤنث حسب ما يتصوره فيها الانسان مما يقابل صفة الرجل عنده أو صفة

---

(١) من كتاب « ساعات بين الكتب »

المرأة ـ وقد أسهب في تحليل هذه الغريزة الأستاذ الايطالي تيتو فينولي [1] في رسالته الموسومة (بالخرافة والعلم) ولخصها في قوله : « لم يفتأ علماء الناس وجهلاؤهم يتكلمون عن الجمادات كأنها تعقل وتشعر وفي ذلك اشارة الى الأصل البعيد للمذهب القائل بتشخيص الانسان لجميع المواد الطبيعية كما فيه اشارة الى أن عقولنا لم تتخلص بعد من هذه العادة ، ولذلك تتردد الكلمات عفواً على ألسنتنا في سياقها العتيق فنسمعنا نقول : جو طيب وجو رديء ، وريح خرقاء أو هوجاء ، وبحر غدار وصخر عنيد اذا صعب علينا تحريكه . وقد نعنف الموانع والعراقيل كأنها تسمعنا . ونقول فصل متقلب أو خداع وأن الشمس كئيبة لا تشاء أن تضوىء وان السماء تتوعد بالثلج وهذا نبات قد خنقه الحر وهذه تربة عصية وتلك تربة ليست بالمستوحشة أي أنها تصلح للزرع . والأرض تضحك خصبا وايناعا وتختال زهوا وامراعا ويقال نهر سوء وبركة تبتلع الناس وصعيد عطشان يترشف الماء وان النبات يخاف البرد ـ ويقول أهل بستوجا إن بعض أشجار الزيتون لا تتوجع للضرب ولا تخاف كيت وكيت أو انها تعيش ولا تأبه لمر السنين . ويقولون أيضاً ان شجر الزيتون لا يهاب المناجل ويلتذ قطعها فيه اذا أعملتها يد ماهرة . وغير هذا ألوف من الأمثلة يمكن ايرادها . فمن رام التوسع من قرائنا فعليه بكتاب جيلياني (اللغة التوسكانية الحية) .

« ولا نقنع بأن ننحل الأشياء أفعالنا وشعورنا بل ننحلها كذلك هيئاتنا وجوارحنا فنقول رأس الجبل وكتفه وخلفه وقدمه وأضراسه واحشاؤه ونقول ذراع من البحر ولسان من الأرض وثغر المرفأ أو الكهف أو

(1) Myth and Science by Tito Vignoli

البركان ووجه المنزل وقرن الهوة وعين السماء وشريان المنجم وان جبال الألب صلعاء أي جرداء والثرى أجعد وهذا شيء ميمون الطالع أو منحوسه وجبل عملاق أو قزم الخ الخ » .

ومن هذه الغريزة تولدت الأساطير والحكايات التي يرويها القدماء عن الكواكب والأشجار والبحار وما ينسبونه اليها من خلائق الانسان كالغرام والولادة والانتقام ورغبات أخرى مما لا يحصل من غير بني آدم .

(مذهب سبنسر)

وللفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر رأي غير الرأي التشخيصي في منشأ الخرافات والأساطير فعنده انها ترجع الى عبادة الموتى وتفسير ذلك أن الهمج كانوا يعبدون أرواح اسلافهم وآبائهم ويعزون اليها ما يصيبهم من الخير والضر، ويعتقدون انها تتغذى مثلهم وتنكح وتشتهي من متع العيش ما يشتهي الأحياء فيتقربون اليها بما يرضيها ويدفنون النساء مع الهالكين ليلحقن بهم . وان قوماً من هؤلاء الأجداد كانوا يدعون باسم الشمس والقمر والعناصر الطبيعية ثم يموتون وينسى الناس تواريخهم وأشخاصهم فينسبون ما حفظوه عنهم من النوادر والأخبار الى مسمياتهم ، يعني الشمس والقمر والعناصر الطبيعية ، فيقولون الشمس أحبت والقمر صنع كذا وكذا . والحقيقة أن الرجل الذي كان اسمه القمر أو الشمس هو الفاعل الاول لتلك الأفعال .

وهذا رأي وجيه يسهل به تعليل كثير من الأساطير الهمجية ولكنه لا يعارض الرأي التشخيصي ولا ينفي أن الانسان قد جبل على أن يفترض للكائنات شخصا يرسمه في مخيلته على مثال شخصه ويجعل له ارادة ورغبة مثل ارادته ورغبته ، ويأنس بها ويحاذرها أحياناً . ومتى كان مجبولاً على

ذلك فلماذا يستغرب منه اختراع تلك الأساطير ثم الايمان بها ولا سيما اذا عرفنا أن الغريزة التشخيصية عريقة في الحيوان قبل الانسان ؟ ونحن نعرف ذلك لأنه ظاهر من عدة مشاهدات ملحوظة نسوق منها ما قصه دارون في كتابه أصل الانسان عن كلبه حيث يقول : « كان الكلب راقدا على العشب في يوم قائظ وعلى مسافة قريبة منه مظلة مفتوحة هبت عليها نسمة رخية فحركتها حركة كان لا يلتفت اليها الكلب لو أنه أبصر بجانب المظلة انساناً ولكنه كان كلما اهتزت المظلة عوى عواء شديدا وأظنه خطر له بسرعة وعلى وجه غير محسوس أن الاهتزاز بغير محرك ظاهر يشير الى وجود فاعل خفي » واستنتج دارون من ذلك أن للحيوانات إلهاما بالأرواح ، وهو بعيد ، وكل ما يؤخذ من عمل الكلب أن الحيوان يوجس من الجماد اذا اضطرب أو تقلقل لانه لا يسعه الحكم باستحالة صدور الأذى منه . وقبل أن نلجأ الى استنتاج دارون ينبغي ان نتأكد من أن بديهة الحيوان تفصل بين طبيعتي الحياة والجمود . فهل هذا معقول ؟ ومن منا لم ير سنورا يعبث بالخرق والريش كما يعبث بالفأر أو ير جواداً يجفل من الأغصان كما يجفل من الثعبان أو يتحاشى بعض الأشجار كلما دنا منها كانه يتوقع عندها مكيدة ؟ وقد أورد صاحب كتاب الخرافة والعلم مشاهدات كهذه شهدها في بعض الحيوانات لا حاجة بنا الى ايرادها لكونها مألوفة مسلمة .

على هذا درج الادراك الحيواني مشخصا في العجماوات قبل الانسان ، فلا داعي الى القول بأن ما يتحدث به من أساطير الأقمار والكواكب والعناصر منقول عن رجال عرفوا باسمائها في الزمن القديم ، وليس من الجائز أن يكون الانسان قد تبطن كنه الاجرام السماوية حين عبد موتاه فعرفها تمام المعرفة ولم ينظر اليها نظره الى الحي الذي يريد

ويعمل وينـاط به السعـد والنحس . وعلى أن تسـميه النـاس باسماء الكواكب يشهد بصحة المذهب التشخيصي وعمق مصدره من المخيلة . والا فهل كان الهمج يسمون زعماءهم بأسمائها أو يسمونهم بسمائها ان كان ليس لها في نفوسهم شخصية وليس بينها وبين زعمائهم مشاكلة ؟

(المذهب اللغوي)

ورأي ثالث في منشأ الأساطير للبحاثة اللغوي ماكس مولر . يقول هذا البحاثة ان وصف الكائنات بصفات الانسان ضرورة أوجبها ضيق اللغـة في الأيام الفارطـة . فكانـوا اذا جعلـوا الشـمس أُمّاً فعلى سبيل الاستعارة كقولنا مثلا ان ايطاليا أُمّ الفنون ، ولكنهم لضيق اللغة كانوا يعممون ذلك في حديثهم فيسري منه الى المخيلة عفواً وعلى غير قصد ، وهذا القول من المذاهـب المعوّل عليهـا في تفسـير طائفـة من الاساطـير الاغريقية والهندية . اذ لا ريب أن الاستعارة اللغوية أصـل وشيج من أساطير الأمم نابت بعضها من بعض كما يقول مولر . ولكن ضيق اللغة اذا جاز أن يكون سببا لتسمية الجمادات باسماء الانسان فما هو بمغن في تأويل خوفه منها وتأميله فيها فضلا عن تأويل ذلك في أطفال لا يتكلمون وفي عجماوات لا تعوزها اللغة ، ومولر نفسه قد أتى في عرض كلامه على مقابلة الاساطير بشذرات هي مؤدى المذهب التشخيصي برمتـه فقـال : « كيفما صرفنا اللغة لم نجد كلمة مجردة الا وجدنا أنها في أصل اشتقاقها كانت صفة ثم صارت اسما . وان من أعسر المسائل على الذهن أن يدرك الصفة في هيئة ما مجردة ان لم نقل ان ذلك محال من الوجهة المنطقية . فاذا قال قائل مثلا (أنا احب الفضيلة) لم تقترن بكلمة الفضيلة أية صورة لأن الفضيلة ليست كائناً ولا هي بحال من الشخصية أو القالب او الصورة

الخارجية . وليس لها هيئة تؤثر في عقولنا اثراً ملموحاً وانما هي تعبير مختزل من جملة طويلة . وأول ما قال قائل أحب الفضيلة فانما كان يعني « أحب كل شيء فاضل » وقال مولر أيضاً : « ليس في طاقتنا أن نستحضر في اخلادنا العاطفة التي بها كان ينظر الأقدمون الى آيات الطبيعة اذ كل شيء عندنا بقانون قاهر وحسبان مقدور وفي استطاعتنا أن نحصر قوة الجو العكسية ونذرع مد الفجر في كل سماء وشروق الشمس عندنا حقيقة نحن لا نشك فيها الا كما نشك في أن اثنين واثنين أربعة . ولكن هب أننا استطعنا أن نعود كأسلافنا فنؤمن بأن في الشمس ربّاً على مثالنا وأن في الفجر روحاً يشاطرنا العاطفة واستطعنا برهة ان نتخيلها كائنات مطلقة من ربقة النواميس . معبودة كما تعبد الآلهة فما أشد ما يتغير احساسنا ببزوغ النهار .

« فاعلم أن قولنا ان الشمس ستشرق حتما جزم لم يفهمه الأقدمون من عباد الطبيعة . واذا طرأ عليهم شبهة من انتظام الشمس والأفلاك في دورانها فما ان يزالون يحسبون أنها أسرى مغلولة الى أجل مسخرة في طاعة قدرة أعلى وأكمل ، ولسوف يخلى عنها في يوم من الأيام كما سيخلى عن هرقل فترقى الى المقام الاسنى . وقد يلوح لنا من السذاجة الصبيانية ما نقرأه أحياناً في (الفيدا) من أمثال هذه الاسئلة : ترى هل تطلع الشمس غدا ؟ أيرجع صاحبنا القديم الفجر ؟ أيظفر اله النور بجنود الظلام ؟ ومتى ذر حاجب الشمس عجبوا لها كيف تقوى في المهد على تجذيل افاعي الليل وكيف تطيق الوليدة عبور السماء . وسألوا ما بال طريقها نقية من الغبار وكيف لا تنقلب فتسقط . ثم لا يلبثون أن يحيُّوها تحية الشاعر العصري « مرحبا أيها الظافر الشرقي بالليل العبوس » الخ الخ .

وخلاصة هذه الآراء أن الانسان مشخص برغمه فهو اذا تمثل قوة مجردة أو محسة وهبها زيَّه وبسط عليها زواله ونحلها أعماله .

اساطير العرب

وعسيت تقول : ان كان هذا هكذا فملكة الأساطير مستقرة في كل نفس ، مشاعة في كل جنس . فما بال أمم نراها لا تلزم بالاساطير حدا ، وأمم أخرى كالعرب مثلا تنزر بينها جداً ، وتعد فيها مشخصات الطبيعة عداً ؟

نقول : ان هذه الملكة وان كانت من الملكات المشاعة الا أن ظواهر الطبيعة التي بها تتلبس الأساطير وعليها تدور حوادثها لا تتراءى في كل أقليم على وتيرة واحدة ولا تطرق خيال الأمم على نسق فرد ، وانما تتفتق الملكة وتسخو على قدر ما يعروها من هول تلك الظواهر وتوالي طوارقها عليها .

وما أحسن ما كتب المسعودي في هذا المعنى اذ يقول : « ان ما تذكره العرب وتكني به من ذلك انما يعرض لها من قبيل التوحد في القفار والتفرد في الأودية والسلوك في المهامه الموحشة لان الانسان اذا صار في مثل هذه الأماكن يوجد له تفكر ووجل وجبن واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية الفاسدة فصورت له الأصوات ومثلت له الأشخاص وأوهمته المحال بنحو ما يعرض لذوي الوسواس ـ وقطب ذلك وأسّه سوء التفكير وخروجه على غير نظام قوي أو طريق مستقيم

سليم لأن المتفرد في القفار مستشعر للمخاوف متوهـم للمتـالف متوقـع للحتوف ، لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها في نفسه فتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف » .

فهذا كلام سديد ولكنه شتان مخاوف البطحـاء المكشوفـة والأودية المعروفة ، ومخاوف بلاد كالهند مثلا ـ بلاد تجللها الأسرار فكل ما فيهـا رائع فخم ـ فمن أطواد سامقة يعمر سفوحها الخـراب ، وينقطـع دون رؤوسها السحاب ، الى آجام تمادى بها القدم حتى غاب من جذوعها في التاريخ أكثر مما غاب في التراب ، الى بروق ورعـود فيهـا من الـوعيد أضعاف ما فيها من الوعود ، الى تماسيح في الأنهار وتنانين في القفار ، الى أسود ونمور ، وبزاة ونسور ، وكهوف وصخور ، وطوفانات وبحور الى غير ذلك مما يجسم الوهم الطفيف ، ويفسـح للمخيلـة مجـال التصـوير والتكييف .

ألم تر أن العرب لما ابتدعوا أساطيرهم كانت ممـا يجيء من قبـل الحواس لا من قبل الخيال وكانت هواتف وأصداء وهاما تسمعهـا الأذن ولم تكن أشباحاً تبرز للمخيلة ؟ وما هكذا كانت أساطير الآريين الذين قد يصفون لك الشبح من أشباح الأساطـير وصف العيان والتحقيق ، ويفصلون لك من سماتها كيف كانت أرؤسها وأبدانها ، وكيف أظافرها وأسنانها ، وكيف شياتها وألوانها . ثم يتلون عليك من الحوادث ما يوافق تلك الملامح والمخايل مع براعة وقوة مستمدة من روح نباضـة وطبيعـة فياضة .

ولم نعرف في أساطير العرب روحـاً جبـاراً يهيمـن على فلك من الأفلاك أو يشتمل على ظاهرة طبيعية رائعة مدهشة ، فحتـى شياطينهم

شياطين هينة يؤاكلونها ويزاملونها ، ولا يختلف خوفهم منهـا عن خوف الرجل من الفرس العاثر أو الكلب العقور ، فكأنما هي فصيلة داجنة من الجن . . . وأما الغول والرخ والسعادين فهـي ان كانـت اختراعـا فلا تنطوي على رمز جليل ، وان كانت مبالغـة في جوارح وكواسر موجـودة فللمخيلة فيها عمل ضئيل ، ولهم خلال ذلك أقاويل في النجـوم تشبـه الاساطير كزعمهم في رواية ابن دريد ان الشعريين أختا سهيل وكانـت كلها مجتمعة فانحذر سهيل فصار يمانيا وتبعتـه الشعـرى اليمانية فعبـرت البحر أو المجرة فسميت عبوراً وأقامت الغميصاء مكانها فبكت لفقدهما حتى غمصت عينها » أو أن العيوق عاق الدبران لما ساق الى الثريا مهراً وهي نجوم صغار نحو عشرين نجماً فهو يتبعها أبدا خاطباً لها ولذلك سموا هذه النجوم القلاص » الخ الخ . فهـذه الأقـاويل على كونهـا من باب الحدس(Fancy) لا من باب الخيال(Imagination) ليست هي بالمستكثرة على العرب وهم ما هم ترصداً للأجرام ومواقيتها وترقباً للأنواء ومهابها لما هم مضطرون اليه من متابعة الإسآد ومواصلة الارتياد .

وكالعـرب في هذه الخصلـة كل أمـة تقطـن السهـول والـدياميم القاحلة . لا فرق بين آريين وساميين . فالأمة الميدية ـ وهي أمة آرية ـ كانت قليلة الاساطير جداً ، ولم تكن في ديانتهم آلهة للشر لقلة ما يرهبون من قوى الطبيعة وكانوا لا يلبسون معبوداتهم بالقوى الطبيعة ولا ينصبون لها نصباً وأصناما ، وفي زعمهم أن الههم الاكبر يقيم بمكان بعيد عن هذه الأرض لا يدنو اليه أحد من الناس ويهبط اليهم منه بالوحي ملائكة يرون النـاس من حيث لا يرونهـم ـ تلك كانـت عقائـد الميديين في الالهيات والعالم الاخير فهم والعرب في هذا المجال سواء .

***

وهناك سببان آخران لندرة الاساطير عند العرب ـ أولهما يظهر من تطبيق رأي سبنسر والثاني من تطبيق رأي مولر ـ وهما رأيان لا يخفى انهما لا يرفضان كل الرفض ـ فسواء اخذنا بعبادة الموتى وهي رأي سبنسر أو أخذنا بالاستعارة اللغوية وهي رأي مولر فالنتيجة واحدة وهي أن الأمة العربية لا تكون بحسب واحد من هذين الرأيين كثيرة الأساطير والحكايات التي تجري مجراها

فاذا اخذنا بتعليل عبادة الموتى فالعرب لم ينسوا حديث آبائهم الذين كانوا يعبدونهم ولم يزل معمروهم إلى ما بعد الاسلام يذكرون ان اللات احدى آلهتهم كانت في الأصل رجلا صالحاً يلت السويق للحجاج فلما مات مثلوا له مثالا وعبدوه ، وهذا ابن القيم يقول في كتابه اغاثة اللهفان : « فطائفة دعاهم الشيطان الى عبادتها (الاصنام) من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما يروى عن هشام عن أبيه انه قال كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين فماتوا في شهر فجزع عليهم ذوو قرباهم فقال رجل من بني قابيل ياقوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة اصنام على صورهم غير اني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً قالوا نعم فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول » ١ هـ .

وأما الاستعارة اللغوية فمولر يبني رأيه فيها على أساسين :

أولهما قدم الاستعارة ؛ ونضرب لها مثلا كلمة الطبيعة التي أصل معناها الحبلى ـ سموا الطبيعة بهذا الاسم لانها أكثر الأشياء انتاجا وولادة ثم نسي سبب التسمية حتى صاروا اذا قال القائل (الطبيعة) لم تدل عند

السامع على الحبلى كما كان يفهم واضعو هذا الاسم ، واذا قال ان الطبيعة تلد النبات والماء والحيوان عسر على الذهن أن يذهب الى ذلك المجاز البعيد وسبق اليه أن صاحبة (العلم) أم حقيقة وان هنالك اسرة أمها الطبيعة وأبناؤها وبناتها الأنهار والاشجار والانعام . ثم تنشأ الاسطورة بهذا المعنى .

وثانيهما المترادفات ـ وذلك انهم كانوا في ابان طفولة اللغة يسمون الشيء بأشهر أعماله وأظهر أوصافه فكان يقال للأخت (التي تحلب) لأن عملها في البيت حلب الماشيةويقال للاخ (الذي يحمل) لأنه يعاون أباه في حمل الاثقال ثم تنسى هذه الاعمال والاوصاف ولا تبقى منها الا أعلام منوطة بمسمياتها . فمن ذلك انه كان للأرض في السنسكريتية واحد وعشرون علما كلها صفات كالعظيمة والواسعة والعريضة الخ ولما كانت الاشياء تتشابه في الصفات فقد كان يتفق أن يسمى الشيئان المختلفان باسم واحد . فاذا اتفق الاسد والشمس مثلا في الاسم ألحق الناس بالشمس كل ما هو للاسد من الصفات فتسمع حينئذ بلبد الشمس وبراثنها وبفرائسها وعرينها وتسمع بالشمس الفاتكة والشمس المزمجرة والشمس المرعبة ثم يتألف من ذلك قصص تسير مسير الأسطورة ، ويتعهدها الخيال فلا تزال حتى تخفى جذورها في فروعها .

ولنرجع الى الالفاظ المستعارة عند العرب ، فقد نجد انها في الغالب كلمات ما برح معنويها يمتزج بحسيّها الى الان . ويندر بين مفرداتها كلمة تجردت لما استعيرت له دون ما استعيرت منه ، فانت تقول خجل فلان من الفعل القبيح ثم تقول خجل في الثوب أي تعثر فيه وخجل البعير في الوحل أي تحير وكتب القلوص أو كتب الكلمة قيدهما . وهكذا

لب اللبيب ولب الفاكهة وعقل الرجل وعقل الناقة وزاملت الرجل صادقته وزاملته أيضاً رافقته على الزاملة وبايعت الملك على الملك أو بايعت التاجر على السلعة . وتقول رجل محب وامرأة محب كقولك جمل محب أي بارك لا ينهض كانهم يكنون عن حب المرأة باناخة الابل عند خبائها .

ونحن نقول الجمال أو العفاف ونعني بهما شيئا معنوياً والجمال عندهم مأخوذ من الجميل أي الشحم والعفاف من العفافة أي بقية اللبن .

وحسبك أن الميول والعواطف والحقائق هي في اللغة العربية كلمات لم تغلب عليها الصبغة المعنوية بعد فتسند الى أنزه المعاني كما تسند الى اكثف الاجسام . بل ان الروح والنفس والنسمة لا تزال مشتركة بين مدلولاتها وبين الهواء[1] كأقدم ما سميت به في لغة من اللغات ولم تكد تبدأ بينها الفوارق كما بدأت في اللغات الأخرى .

وأما المترادفات في كلام العرب فما كان منها جامدا فهو منقول بحروفه عن اللغات التي تفرعت منها اللغة العربية . وما كان مشتقا فهو حتى اليوم صفات شتى لاسم أو أكثر . خذ مثلا لذلك مرادفات السيف

---

(١) كان المتوحشون لا يفهمون من الروح الا انها هي النفس المتصاعد بين الزفير والشهيق لانهم يرون الواحد منهم بخير ما تنفس فاذا مات أو أغمى عليه سكن صدره . قال جرانت الن في كتابه (نشأة العقيدة بالله) : « ما هو ذلك الجزء الذي يغادر الجسم وينأى عنه في الأحلام الا أن يكون هو الروح أو النفس الذي يرى الوحشي انه شيء منفصل قائم بذاته . ثم اذا مات انسان ألا يشاهد الوحشي أن هذه الروح أو النفس يبتعد عنه ؟ واذا جرح جرحاً بالغاً ألا يتوارى وقتاً ما ثم يرتد اليه ؟ ثم اليست هي تخلي الجسد او تعبث به احيانا في حال الاغماء والتشنج وغيرهما من الحالات الطارئة ؟ ولا حاجة بي الى الافاضة في هذه الفكرة فقد فصلها المستر هربرت سبنسر والدكتور تيلور . وبحسبنا أن نقول أن الانسان الاول أخذ يعتقد من تاريخ سحيق بأن الروح أو الحياة شيء مرتبط بالتنفس وانها شيء يبرح الجسم أو يحل فيه حسب مشيئته » .

اليماني والهندواني والقساسي والحسام والمشطب والعضب والصارم والجراز إلى اخرها فهل ترى الا انها صفات مشتقة أو منسوبة ؟ وقس عليها أغلب المترادفات التي لم تتغلغل في القدم بحيث تخفى أصولها فتتوالد منها الاساطير على نحو ما ألمع اليه مولر . اذ كلها حديثة الاشتقاق لا يدخل البحث عن جذورها ومصادرها في عمل الباحث اللغوي لانه عمل يستطيعه النحويون والصرفيون .

ولو استبحر بالعرب الذين وصلت الينا لغتهم عمران أو استتبت لهم مدن وأمصار ورفعت لهم فيها البيع والهياكل تتلى فيها الصلوات بالغداة والعشي ويصدر منها الكهنة الى الناس بالاسرار والألاقي لكان لهم على الأقل اساطير وتخرصات على منوال الاسرائيليات التي عادوا فاقتبسوها بعد الاسلام ، وان كانت لهي أدخل في باب الرؤى المباحة لكل نائم منها في باب الخيالات التي لا تجود بها الاقريحة يقظة جوالة ، ولكنهم كانوا قبائل رحلا يؤمون المدن في مواسم تتقسمها العبادة والتجارة والخطابة فائتمر التاريخ والاقليم واللغة على أن يكون العرب أمة بلا خيال ، وأهون بذلك لولا أن سعة الدنيا من سعة الخيال ، وان حلى الحياة انما تصاغ من معادنه وكنوزه .

الالعاب الرياضية [1]

ان حاجتنا الى العناية بالالعاب الرياضية ليست مما يجوز أن يوضع موضع الخلاف اذ هي لا تقل في لزومها للتلامذة عن مواد التعليم نفسه ولا نكون مغالين اذا قلنا انها مقدمة عليها في كثير من الاعتبارات . لاننا نعد الألعاب الرياضية الصحيحة تمريناً نفسياً عقلياً قبل أن نعدها تمريناً يعود صلاحه على الجسد وحده ولا نكاد نعرف أمةشعرت بالتقدم والتفوق الا رأينا فيها مع شعورها هذا شغفاً شديداً بالرياضة البدنية . وهذه انجلترا واليابان شاهدان على ذلك في التاريخ الحديث فقد بلغ من اهتمام الانجليز بالالعاب أن يترك أعضاء مجلس النواب الجلسة ليشهدوا احدى مسابقاتها واشتهر من عادات أهل اليابان انهم كلفون بهذه الألعاب ولا سيما المصارعة بفنونها كلفاً لا يضاهيه كلف أمة أخرى في الشرق . ولا غرابة في انتباه الأمم الحية الى مزية هذه التمرينات الجنسدية فان أول ما يحسه الانسان من يقظة الحياة الميل الى الحركة وطلب القوة . وقد يكون هذا الميل من دوافع النفس قبل أن يكون من دوافع الجسد لأننا كثيرا ما نرى في الشعوب الخاملة أناساً من أقوى الناس وأصحهم بدناً ولكنهم كسالى فاترو الحس ثقال الطبع لا تلمح عليهم خفة الحياة وتفززها وربما رأينا العجاف الضعاف في أمم ناهضة تواقة الى الكمال وكأنما نفوسهم

---

(١) من مقال نشر في جريدة الأفكار يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٢

تستحث أجسادهم الى أكبر مما تطيقه من النشاط والمراح . فليس من التجوز البعيد أن نقول ان النشاط ملكة نفسية تستقر في طبائع الأخلاق قبل أن تشاهد مستقرة في صلابة البنية ووثاقة التركيب .

ونحن نعزو الى اهمال الرياضة البدنية غير قليل مما يعاب على معظم شباننا من كسل النفس وقلة الاقدام على المخاطر واقتحام المسالك النادرة والفجاج الغريبة في الأعمال الاقتصادية والادبية وغيرها . فقليل في هؤلاء الشبان من يحسب الحياة أوسع من هذه المعالم المطروقة التي يتناولها حساب الحيطة والتقية المحفوظة عن ظهر قلب . وعندهم ان المخاطرة في كل أحوالها شعبة من الجنون وضرب من الخطل إن أفلح فانما هو الخطل الموفق . وأقرب ما نؤول به ذلك أن السلامة هي الفضيلة العليا عند هذا الفريق من الشبان وان الدنيا برحبها في رأيهم هي هذه الطرق المعبدة من العيش التي يسير فيها المرء مغمضاً كما يسير مفتوح العين بصيراً . وليس أدل على الجمود وركود العقل من غلبة هذا الاعتقاد لان المخاطرة عامل لا يمكن اغفاله في باب من ابواب العمل . وروح المخاطرة عميقة في الحياة لا بل الحياة نفسها مخاطرة في عالم مجهول ، وكل فتح جديد فيها انما هو مخاطرة جديدة . فمن لم يخاطر مختاراً بالاقدام على ما يخاف خاطر مكرهاً بالزهد في ما يطمح اليه ويهواه .

وقد يضحك ويبكي أن تسمع رأي أولئك الشبان في المخاطرين الذين تصل اليهم أخبارهم على سبيل التفكهة والتنادر بالغرائب . أذكر أن رجلا أمريكياً كان من همه أن يحمل الناس على التحدث بعمل مدهش يقدم عليه فدخل في برميل من الحديد ودفع بنفسه في جنادل « نياجرا » ليعبرها من شط الى شط ولم يكن على رهان ولا موعوداً بجائزة . فما كاد

البرميل يمس الماء حتى تقاذفته اللجة فتحطم ومات الرجل . وهي ميتة قاسية لم يقدم عليها ذلك المخاطر الا لأن النجاة منها كانت تعد أعجوبة في العالم من أندر الاعاجيب . ولا نشك في أن الامريكان أنفسهم استحمقوا الرجل ورموه بالسخف والجنون ولكننا لا نشك أيضاً في أنهم قد أدركوا جميعاً « مسوغاً » لتلك الحماقة وتمثل لهم حظ جميل كان ينتظر الرجل عند محبي الغرائب ومحباتها من أبناء أمريكا وبناتها . وفهموا أن هذا الولع بالمخاطر على شذوذه واعوجاجه ينتمي في النفس الانسانية الى عاطفة كريمة هي صاحبة الفضل في كل ما بلغه الناس من التقدم على أيدي المجازفين والشهداء ، واليها يجب أن ينسب كل معلوم كان مجهولا ، وكل مألوف كان محذوراً ، وكل سهل كان صعباً ، وكل حق كان نهباً ، وكل أرض كشفتها رحلة مرهوبة ، وكل شر دلت عليه تجربة متلفة - بل كل دين أو رأي أو اختراع أنكره الناس قبل أن يسلموا به ، وذادوه قبل أن يذودوا عنه . فما كان شيء من ذلك ميسورا لو لم يتقدمنا مخاطرون في كبائر الأمور وصغائرها وعاملون لا يستشيرون دفتر الربح والخسارة في كل خطوة يخطونها . وأقرب هذه التجارب الينا تجربة الطيران ، فهل تظنون أن أول مجازف بركوب طيارة كان أرجح حلماً (من وجهة النظر الى السلامة) من صاحب برميل نياجرا ؟؟ .

وهذا هو الذي لم يفهمه ظرفاؤنا الذين نما اليهم حديث ذلك الرجل فجعلوا يضحكون منه ما طاب لهم الضحك أو يصرفونه بكلمات تأفف يوشك أن يكون تباهياً بسلامة عقولهم وطهارة قلوبهم من خزي التورط في هذه المعاطب . . . وكان أعذرهم للرجل من كان يسأل : ألم يطمع في ربح يجنيه من الاشتهار بالمخاطرة؟ ويجوز انه كان طمع في شيء من هذا . ولكن ما سؤالهم عن المال في علة هذا الخلق الذي أودى

بحياته ؟ ما سؤالهم عنه في البحث عن علة ولوعه بركوب الغرائب ؟ ان الفارس ليجازف في طلب الاسلاب وليس الحطام المسلوب هو علة شجاعته وفروسيته ومجازفته لحياته . والجبان كالشجاع في الشوق الى لذة السلب فلماذا لم يكن كل الناس شجعاناً اذ كانوا كلهم طامعين ؟

والامر الذي فات ظرفاءنا هو أن العاطفة إما ان توجد وفيها السليم والسقيم أو لا توجد بتاتا وانه خير لنا أن يكون منا مجازفون متهوسون من أن لا يكون بيننا مجازفون على الاطلاق. فيقتلنا حب السلامة ونحسبنا ناجين وادعين ونحن في الحقيقة نعرض أنفسنا لأرذل الاخطار . وأي خطر أرذل من استكانة النفس وتقلصها في قشورها ؟

وسيعلمون لذة المجازفة الساحرة يوم يعلمون لذة الحياة الشريفة فعلموهم كيف يلعبون فانه لا أمل في الجد القويم لمن لا يعرف اللعب القويم .

المواكب (١)

قصيدة شعرية نظمها جبران افندي خليل جبران من أدباء السوريين في أمريكا وطبعها في كتاب مستقل كبير الصفحات مزدان بالرسوم الرمزية ، ويظهر أنه جرى في وضعها وطبعها على أسلوب رباعيات الخيام لانه وضعها في المعاني التي طرقها الخيام وطبعها على الشكل الانيق المصور الذي اختاره الناشرون من الانجليز والامريكان لطبع رباعياته .

وللكتاب مقدمة بقلم نسيب افندي عريضة نراها من الزم المقدمات لانها فسرت من أغراض القصيدة ما لم تفسره أبياتها ومنها قوله : « ليتصور القارىء قبل اقدامه على مطالعة الكتاب مرجا واسعا في سفح جبل . هنالك يتلاقى رجلان على غير ميعاد أحدهما شيخ والاخر فتى . الأول خرج من المدينة والثاني من الغاب أما الشيخ فيسير بخطى ضعيفة متوكئا على عصاه بيد مرتجفة وفي غضون وجهه وشعره الشائب المسترسل ما ينم على أنه عرك الدهر وعرف أسرار الحياة ومخبآتها فذاق منها مرارة أوصلته الى التشاؤم منها . يصل هذا الشيخ الى المرج فيستلقي هنالك على العشب قصد الراحة واذا فتى جميل غض الاهاب قد لوحت الشمس

---

(١) نشرت بجريدة الاهالي في مايو سنة ١٩١٩

بشرته واكسبته الحياة جذلا وانبساطاً خرج من الغاب يحمل نايه فيسير حتى يصل الى مكان راحة الشيخ فيضطجع بجانبه . فلا تمر دقيقة سكون الا تراهما قد بدآ بالحديث فيأخذ الشيخ بابداء نظراته في الحياة كما يراها طرفه المتشائم وخبرته المحنكة ، فيرد عليه الفتى شارحا عن الحياة كما تراها عينه الجذلة المتفائلة » .

هذا هو محور القصيدة كما فسره صاحب المقدمة . وقد أحسن كاتبها في مراعاة المقام لولا ما في كتابته من قليل الغلط النحوي والصرفي . وما يتخللها من روح النقد العتيقة التي احتذى بها امرسون وأشياعه من متصوفة الامريكان .

أما القصيدة فليس في استطاعتنا أن نسميها شعرا صحيحا كما وصفها صاحب المقدمة وان كنا نتبين منها أن ناظمها يفكر تفكير شاعر . وأول ما نشير اليه أن مبنى القصيدة ليس مما يوصف بالصحة لما فيها من الخطأ اللغوي وما يعتورها من ضعف التركيب وغلبة العبارة النثرية على النغمة الشعرية في أبياتها . وقد فتحنا الكتاب فوجدنا في أول شطرة من أول بيت خطأ من هذا القبيل في قوله

(الخير في الناس مصنوع اذا جبروا)

يريد أجبروا . ولم ننته من الصفحة الا على خطأ ثان في قوله

فافضل الناس قطعان يسير بها صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر

والواجب جزم يندثر في البيت . وهذا وليس في الصفحة الا أربعة أبيات !! ولا نشك في ان ناظم القصيدة كان يحترس من الوقوع في مثل

هذا الخطأ لو كتب باحدى اللغات الغربية . فالاحتراس في الكتابة العربية اولى .

أما المعنى فمعيار صحته عندنا ان يكون موافقا للفطرة الصحيحة والطبيعة الصادقة . ولا نرى معاني الناظم كذلك . نعم ان صاحب المقدمة يقول انه ـ أي الناظم ـ متمرد على الحياة نفسها . ولكن التمرد على الحياة لا يدل في كل حالة على رغبة في حياة اسمى وأفضل وكثيرا ما يدل على انتصار المتمرد لجانب الموت والفوضى على جانب الحياة والمثل الأعلى . خصوصا اذا لم يكن هذا التمرد مبنياً على أساس من الشعور الصميم بقوانين الحياة الراسخة في دخائل الطباع واعماق الاحساس . ونرجح مما قرأناه في مواكب الناظم ان تمرده على الحياة من هذا النوع لأنه كما يقول صاحب المقدمة « يتمرد على كل قيد ويود الرجوع الى الغاب » أما الغاب التي يقصدها في قصيدته فليست غابا بمعناها الضيق بل هي الطبيعة بأسرها » فمن قال ان الطبيعة تحل الانسان من قيوده ؟

الا ليت الطبيعة كذلك !! ولكنها في الحقيقة ام القيود والاغلال ، وما من عادة متحكمة في نفوسنا ولا غريزة غالبة او شهوة متمكنة الا وفي يد الطبيعة طرفاها واليها مرجعها .

فاذا قال الناظم متغنيا بطلاقة الطبيعة وتسامحها :

ليس في الغابات دين لا ولا الكفر القبيح
فاذا البلبل غنى لم يقل هذا الصحيح

قلنا على الرغم منا : حقا ان البلبل لا يزعم ان غناءه هو الصحيح وغناء غيره الشاذ السقيم ولكنه لسوء حظ العشاق : عشاق الطبيعة يدين

بالانانية القاسية التي يدين بها المتعصب لمعتقده الزاري على معتقد غيره ويعمل في اطاعة هذه الانانية كل ما يستطيع عمله من عبث وضر . ويؤيد قول المعري .

ظلم الحمامة في الدنيا وان حسبت   في الصالحات كظلم الصقر والبازي

واذا قال الناظم في الاشادة بمساواة الطبيعة وعفتها :

ليس في الغابات حر   لا ولا العبد الذميم
انما الامجاد سخف   وفقاقيع تعوم
فاذا ما اللوز القى   زهره فوق الهشيم
لم يقل هذا حقير   وأنا المولى الكريم

قلنا انه لا يقول ولكنه يفعل. انه يقتل كل شجرة ضعيفة تجسر على النمو الى جانبه وتشرئب الى مكان لها من الفضاء والنور وكذلك نجد قيود الطبيعة وقوانينها ويجدها كل حي في هذا العالم المسخر ، فهي قيود أثقل وأظلم على من يشعر بها من قيود المدنية . وقوانين أشنع وألأم عند من يشكوها من قوانين الانسانية . وربما لطفت المدنية قيودها وزوقتها وصقلت جوانبها ولكن الطبيعة لا يعنيها القيد ولا حامله ولا تلقي اليك قيدها الا حديدا أسود كالحاتم تضاعفه لك وقد لا تقبلك في حظيرتها اذا انت حطمته أو زحزحته عنك .

فليس من الشعور الصحيح ولا من الاحساس العميق أن يعبر الانسان عن ألمه من قيود المدنية هذا التعبير . أو يظن أن بساطة الحياة تنجو بالحي من أحكام الوجود ، وقد تكون المدنية شوهاء ولكن ليس

معنى ذلك ان الحياة الهمجية مليحة الوجه حسناء . . . . . . أليست شياطين ساكن الغابات وأرواحه الخبيثة ترجماناً لوساوسه ومخاوفه ؟ أليس هو أسوأ ظنا بالطبيعة وقوانينها منا ؟ هذا وهو طفلها النازل في كنفها ونحن عصاتها الخارجون عليها المتحصنون دونها في حصون المدنية ؟

وبعد فنحن لا نغمط ناظم المواكب حقه اذا قلنا ان شعره ليس من الشعر الصحيح لهذا السبب . ولكننا لا ننسى أن نذكر أننا قرأنا في مواكبه أبياتا من أصدق الشعر وأحكمه مثل قوله

وما السعادة في الدنيا سوى شبح يرجى فإن صار جسما مله البشر

وكقوله في العدل

والعدل في الارض يبكي الجن «لو» سمعوا به ويستضحك الاموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين ان صغروا والمجد والفخر والاثراء ان كبروا

وقاتل الجسم مقتول بفعلته وقاتل الروح لا يدري به البشر

وأصاب اذ قال « العدل في الأرض » ولم يقصره على الناس . وقوله

انما الناس سطور كتبت لكن بماء

وقوله

والحب في الناس اشكال واكثرها كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر

وعندنا انه لو طرق باب الشعر المنثور لكان ذلك افسح مجالا لآرائه وأقرب الى سليقته وقدرته اللغوية من معالجة الشعر الموزون . وحبذا لو

أقل من المعاني الرمزية فانها بقية من بقايا ابهام الكهان الأقدمين.لا يقبلها في العصور الحديثة الا اشباه اتباع الكهان فيا تصرم من العصور .

الثقة بالناس

الثقة بالناس عقيدة كثير من حكماء الناس وبلهائهم . وهـي ان أريد بها الثقة بما في الانسانية من خير مودع وآمال مرجوة ، مذهـب لا سلطان لنا عليه ، ولا خوف علينا منه ، ولا مطمع للرأي في تفنيده لانه هوى متمكن من فطر النفوس ، راسخ في جبلاتها .

أما إن أريد منه الثقة بهؤلاء الناس الذين نبصر وجوههم ، ونسمع أصواتهم ونغدو ونروح معهم ، فلنا فيه قول قد لا يوافقنا عليه الا الذين عجموا عود الناس كما عجمناه ، وبلوا من مواربة الانسان بينه وبين غيره وبينه وبين نفسه ما بلوناه .

الناس أشرار أو أبرار . فأما الاشرار فحكمهم معـروف وأمرهـم مفروغ منه .

وأمـا الأبـرار فهـم على الفضيلـة طرائـق وفي اجتنـاب الرذيلـة مشارب .

فرجل طيبته جهل بالشر ، فلو عرفه لاندفع فيه .

ورجل طيبته عجز عن الشر ، فلو قدر عليه لما قعد عنه .

---

(١) نشرت في مؤيد ١ يونيه سنة ١٩١٤

ورجل طيبته مغالبة للشر ، فهو يصرع الشر والشر يصرعه . ويملك نفسه آنا ويخذله الطبع أحيانا . وأنت لا تعرف متى يكون غالبا فتأمنه وقت غلبته ، ومتى يكون مغلوبا فتحذره وقت هزيمته .

ثق بالجاهل حتى يعرف الشر وبالعاجز حتى يقوى عليه واياك ان تثق بمصارع الشر وان كان لهو اصوب من رفيقيه فكرا وأرحب منهما نفسا فانك ان وثقت به كنت كمن يخاطر على المعركة بغير بينة . وكنت كمن يصحب الغارة ليغنم فيصبح وهو في يد الأعداء غنيمة .

وما ظنك بمعركة لا يعرف القلب الذي هو ميدانها كيف تدور الدائرة فيها ولا يدري شاهدها موقف الخصمين منها الا كما يدريه غائبها . وانما هي حرب البراقع ـ ولو ظهر كلا العدوين لكان للحدس مجال وللتقدير حساب ولكنهم لا يظهرون الا خلف قناع من العثير المثار . ولا يضربون بسلاح تعرفه الا ريثما يتقلدون سلاحا غيره قد تجهله .

ذلك ان « العارف » عرضة للشك وهدف للحيرة . ولا ينتاب الشك نفساً الا زعزع اركانها . وأحال معالمها . فلا تدري ايها جانب الشر وايها جانب الخير .

فان كان لا بد من الثقة بهذا فثق به حيث يكون نفعك نفعاً له . وضررك راجعاً ولو بعضه اليه .

وان اردت الأمان . فثق بالناس جميعاً وكن على حذر من الانسان .

مغنى المجالس [1]

قيل للجمل زمر فاعتذر قائلا : « بماذا ؟ لا شفة ملمومة ولا أصابع مفسرة . . » .

كذلك سمعنا الفلاحين يروون عن الجمل فان كان ما يروون عنه صحيحاً فقد والله ظلمه العباس بن مرداس حين قال فيه :

لقد عظم البعير بغير لب   فلم يستغن بالعظم البعير

فان الجمل والحق يقال لهو اذن ألبّ وأكيس من هؤلاء الذين يحترفون الزمر والغناء وينسبون انهم من ذوي المشافر المشقوقة والاصابع المضمومة بل هو أعقل من كثير من أبناء آدم الذين يزمرون لك ويستبيحون أذنك من غير أن تقترح عليهم الزمر أو تدعوهم اليه ، وهو على الأقل اعقل من مغنينا الذي أنا محدثكم عنه فيما يلي

والجمل يحمل أوزارنا ، ويلم شملنا ، ويصبر على العطش ليروينا ، ويجود لنا بالوبر ليكسونا ، فليس من الضروري بعد هذا كله أن يكون له أيضاً مشاركة في الفنون الجميلة . وحسبه هذه الفوائد التي لا يستغنى عنها ، ولكن أي فائدة لانسان لا عمل له في الدنيا غير الغناء وهو

---

(١) نشرت في العدد التاسع والعشرين من صحيفة الرجاء

لا يحسن الغناء ؟ . .

دعينا ليلة الى مجلس سماع فوجدنا المغني الذي سنسمعه قد سبقنا اليه وقد تولى عن صاحب الدار الترحيب بالمدعوين ومصاحبة القادمين الى أماكنهم من المجلس . ولا عجب فهو صاحب الليلة ولا خسارة على صاحب الدار في أن ينزل له عن زائريه ليلة من لياليه . فحيانا عند قدومنا وبش لنا واجلسنا بالقرب من مكانه احتفاء بنا ، ورأيناه يتكلم وهو يبتسم ويسكت وهو يبتسم ويقعد ويقوم ويأسف ويعبس وهو يبتسم وبالغ في اللطف فكان يبتسم للراح وهي كما يقول الاقيشر « لوجه أخيها في الاناء قطوب » ولا تشتغل شفتاه عن الابتسام الا بالترحيب أو السلام .

لا بأس بالابتسام يزيل الكلفة ويبسط النفوس للمعرفة ، ونعم التحية هو يسترعي الابصار ويستميل نوابي الآذان . وكأيّ من رجل يمهد سبيله في الحياة بابتسامة تلازم شفتيه فيملك بها القلوب ويفتح اصفاد الصدور . ولا نغمط مغنينا اقتداره في هذه الصناعة الشفوية فلقد أثرت في اكثرنا ابتساماته اثر السحر أو أعظم فسقطوا في يديه أسرى دماثته ورهائن بشاشته ، قال أحدنا : ما أظرف المغنى !! انه والله للظرف المجسد . وقال آخر ما احسبنا الا سنسمع الليلة ما لا اذن سمعت ونرى من مغنينا هذا ما لا عين رأت . ولا شك عندي في أنه مكين في فنه ، بعيد العهد بممارسته ، فأقل ما في الأمر أنه أطال مصاحبة أهل الفن حتى اقتبس منهم وتأدب بأدبهم وهذه اشاراته وآدابه في التحية والملاطفة شاهد بذلك . وأهل الفن بمصر كما تعلمون لطاف لطاف لطاف الى النهاية في اللطافة ـ لطف الله بهم فانهم ليكادون يتلاشون من اللطافة كما تتلاشى

الحانهم في الهواء .

ومضت بعد ذلك برهة في التشوف والانتظار ثم مضت برهة ثانية في النقر واصلاح الآلات ، ومضت البرهة الثالثة ولا ندري كيف مضت ، لاننا فوجئنا بزعقة هائلة لم نعلم أمن السماء هبطت أم من الأرض صعدت ، وصوت صارخة هي تعدد أم صوت قتيل يستنجد . أستغفر اللهبل لم نعلم أهي صوت انسان أم عزيف طائفة من الجان . ولما أفقنا من غشيتنا وجدنا بعضنا ينظر الى بعض واذا بالمغني يصيح . يا ليل يا ليل ، فما شككنا في أنه ينادي ليلة الحشر أو أبعد ليلة في ما وراء التاريخ وأيقنا انه صاحب الزعقة الاولى . . . . يا ضيعة الأمل . أهذا هو المغني الظريف اللطيف ذو الشفة الملمومة والأصابع المفسرة ؟ وانطلق الرجل بعوي وينهق ويصهل ويموء ويثغو وينعق ويصيح بصوت كل حيوان مزعج في الأرض ـ أهي بدعة جديدة في الغناء المصري وهذا الرجل صاحب مذهب في الموسيقى قد أراد أن يقلد صياح هذه الحيوانات محاكاة لأصوات الطبيعة ؟ لا فقد كنا نسمع منه صوت الانسان مرة على الأقل في هذه المحاكاة .

وبعد ، ألا يكون الرجل مازحا ؟ انها احدى اثنتين فاما أن يكون مازحا أو مجنوناً والا فان رجلا معافى سليم العقل في شناعة صوته وقبيح تلحينه ورداءة طريقته لا يعقل أن يخدع نفسه في الغناء ، وفي الغناء لا غير . فلقد كان أسهل له أن يدعي الامارة من أن يدعي الغناء لأن بين الأمراء كثيراً ممن هم أقل كفاءة منه ولم أر من غير المغنين من هو أشنع منه صوتا وأقبح تلحينا وأردأ طريقة .

ترى لو سمع هذا المغني مثل غنائه هذا من أحد الناس أكان يغطي

على سمعه كما غطى عليه الآن فلا يفهم أن مثل ذلك الصوت مما لا يسر سماعه ولا يحسن ايقاعه ، أم تراه كان يقدح فيه ويعيبه ؟ ما نظنه الا كان قادحا فيه عائبا له وربما كان اشتداده على غيره بقدر اعتداده بنفسه . أما وهو مغن وليس بسامع فقد تغير الحكم وكان الواجب أن لا يتغير ، ولكن يظهر أن الانسان قد أعطي حواسّه ليدرك بها غيره ولم يعطها ليدرك نفسه . وصدق من قال إن الانسان لا يرى وجهه بعينيه .

وطفق الرجل يلحم دورا بدور ويضرب لحنا بعد لحن ، وكلما قلنا قد انتهى اذا هو يبتدىء أو قلنا (ينجلي) اذا هو يحلولك ويظلم . ونحن بحال لا يعلمها الا من ابتلي بمثل بليتنا في ليلة كان يظن أن ستكون من أسعد لياليه فاذا هي كأنحس ما مر به من الليالي . فلا نحن نسمع شيئا يحسن السكوت عليه ولا يخلى بيننا وبين أنفسنا فنتسلى عن السماع بالسمر . ولما يئسنا من سكوته من لدن نفسه أوعزنا الى أحد اخواننا أن يمازحه لعله ينصرف عن الغناء الى المزاح فما زاد على أن رد مزحته بابتسامة ومضى في صريخه . . . قلنا يا سوء ما دبرنا ان كان ينوي أن يقابل كل حيلة لنا بابتسامة منه فانه ليس أكثر لديه من الابتسام . فأوعزنا الى صاحب الدار أن يخفف عنا بعض ما قيضه لنا على غير قصد فيميل عليه بالراح لعلها تلجمه وتفل من غرب صوته فما زادته قاتله الله الا احتدادا واشتداداً كأنه الآلة البخارية يزيدها الماء ضوضاء وصريخاً . فلم يبق لنا من حيلة الا أن نفاتحه مازحين أو جادين بطلب السكوت فبعثنا اليه من يذكره سرا بضرر موالاة الغناء على الحناجر ويذكر له أناساً ممن اصيبوا في أصواتهم لكثرة اجهادها وضنهم عليها بحظها من الراحة فكان كأنه لا يسمعه وكأنما حال زعيقه بينه وبين أذنه التي في رأسه كما حال بين افواهنا وآذاننا فلم يصغ اليه ولا أبه له . ولما لم يجد تذكيرنا اياه بواجب الرأفة

بنفسه لم نر بدا من أن نذكره بواجب الرأفة بنا فقال له أحدنا : أيها الشيخ . . . ان كنت لا تعلم ماذا صنعت بنا فاعلم انك قد أفسدت علينا الهواء وضيقت بنا رحب الفضاء ، وقال الثاني : نعم وقد أضجرتنا .

وقال الثالث : وقد أبرمتنا

وقال الرابع : وقد أزهقت أرواحنا

وهكذا دار الدور بالحاضرين فلم ينته الا وقد أتينا على جميع الفاظ الضجر ومعانيه في اللغة العربية .

أما هو فانه نظر الينا هازئا وقال وهو كأهدأ ما يكون : « ياللاسف ما كنت أحسب أن يبلغ بكم الجهل باحكام الصناعة ما أرى . ولقد نسيتم أيها السادة أنكم لا تنقدونني أجراً على غنائي ، ولتعلموا بعد أنني لست متكفلا بسروركم وأنني انما أغني لأسر نفسي فأنتم وشأنكم » ثم عاد الى ابتسامه وغنائه .

اي وربك . انه ليس متكفلا بسرورنا كما قال ، وقد صدق ، ولكن اتراه كان متكفلا بتنغيصنا ؟ ونحن لا ننقده أجرا ، وهذا صحيح ، فهل يكون في حل من مضايقتنا لانه يضايقنا مجانا ؟ كذلك قضى لنفسه علينا ذلك المشؤوم ولم يستمع لنا مراجعة ولا اعتراضا فلا أراح الله آذاننا من صوته ملحنا ومتكلما ان لم نرحها نحن بأنفسنا وان لم نصنع له بأيدينا ما لم يصنعه به عقل رجيح ولا ذوق سليم .

ولا نعلم بم كنت قاضياً عليه أيها القارىء لو كنت في موضعنا من الابتلاء به ولكننا نعلم أن الاربطة والكمائم تكون قد خلقت في الدنيا عبثا ان لم يكن لها نفع في كف مثل هذه اليد عن التوقيع وكم مثل هذا الفم

عن الصريخ والتقريع . وكذلك صنعنا به فقد عمدنا اليه فكممنا فمه وربطنا يديه وأوثقناه بالمقعد الذي كان جالسا عليه ، والله يعلم أننا لم ننل منه بهذه المثلة بعض ما نال منا فانه ليس أضنى للنفس ولا أحق بالنقمة ممن يجبرك على سماع ما تكره أن تسمع ويمنعك الحديث مع من تحب أن تحادث ، وليس أقدر من المغني الممرق على أن يجعل مجمع الاخلاء ومجلس الاصفياء شراً من العزلة والانفراد .

ولقد أتممنا سهرتنا فطاب لنا ما بقي منها بفضل المناديل والحبال بعد أن أبت أن تطيب لنا على يديه بفضل المعازف والمزاهر ، ثم تركناه على تلك الحالة لا يقدر على أن ينبس بكلمة أو يحرك يده بنغمة وخرجنا واحدا بعد واحد وبودنا لو ننظر الى مواضع ابتساماته تحت تلك الأربطة الكثيفة !! ولكنا كنا ننظر اليه فنثق انه كأن يشتمنا بعينيه شتما لا يقل عما يعاقب عليه قانون العقوبات .

كتاب البؤساء [1]

— ١ —

نظرة في ادب هيجو

« والآن ماذا يكون عطيل ؟ انه الليل . جرم شاسع رهيب . فالليل قد أغرم بالنهار ، والظلمة تعشق الفجر ، والافريقي يعبد المرأة البيضاء ، وعطيل يكون له من ديدمونة نور وخبال مهيج . ومن ثم فما أسهل دبيب الغيرة اليه ؟ انه لعظيم وأنه لمبجل مهيب . انه يسمو برأسه على جميع الرؤوس ويمشي في حاشية من الشجاعة والحرب وقرع الطبول وألوية الوغى والصيت الذائع والمجد الفاخر ، يتلألأ عليه عشرون انتصاراً وترصعه الدراري في حلكته ، ولكنه بعد اسود الأديم ، فما هو الا أن تنفث الغيرة نفثتها فينقلب البطل وحشا والأسود عبداً ويتصل ما بين الليل والموت .

والى جانب عطيل وهو الليل ، ترى « أياجو » وهو الشر ، وهل الشر الا صورة أخرى من صور الظلام ؟ على أن الليل ليل الدنيا وأما الشر فهو ليل الروح . فما أعمق ظلمة الخيانة والنفاق . . . لسواء كان ما يجري في خلال العروق مداداً أسود أو غدراً ذميا ـ فكلا هذين واحد .

---

(١) نشرت بالعدد الصادر يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢ من جريدة الأفكار .

يعرف ذلك من قضي عليه بمدافعة المين والبهتان ، فان الانسان ليخبط مع اللؤم في ظلمة كظلمة الأعمى ولو أن الرياء أريق على طلعة الفجر لانطفأ منه نور الشمس ، وهذا بعينه هو الذي يعرض لنور الله من أثر الديانات الكاذبة .

إن « اياجو » بجانب عطيل لكالهاوية بجانب الجرف المنهار . يهمس في أذنه أن تقدم . . فاذا الفخ ناصح بالعمى ، وعاشق الظلام يقتاد الأسود والخداع يهب الليل بديلا مما يحتاج اليه من ضياء ، والرياء يصحب الغيرة صحبة الكلب للمكفوف .

فعطيل العبد واياجو الخائن يأتمران بالبياض والطهر . وأي شيء لعمري أهول من ذلك ؟ ان هذين السبعين الضاريين من سباع الظلمة يعملان على وفاق . أن هذين المظهرين المتقاربين من مظاهر الخسوف ليتآلآن بين زمجرة من أحدهما وتهانف من الآخر على خنق فاجع للضياء .

وتعال نسبر غور هذا الأمر العميق . ان عطيلا هو الليل ، واذ كان ليلا وكان يريد أن يقتل فأي سلاح يا ترى يختاره لفعلته ؟ السم ؟ الهراوة ؟ الفأس ؟ المدية ؟ كلا. بل الوسادة . . . فالقتل عنده هو أن يستهوي من يقتله الى الهجوع . ولعل شكسبير نفسه لم يقصد هذا الذي نشير اليه ، ولكن العقل المبدع ينساق على غير ارادة منه في معظم الأحيان الى ما هو خليق بقالبه ، فيكون هذا القالب قوة . وعلى هذا النحو ماتت ديدمونة قرينة الليل مكظومة الانفاس تحت وسادتها التي تلقت عليها قبلتها الأولى ولفظت عليها النفس الأخير . . . . » .

انتهى ما أردنا نقله من كلام فكتور هيجو. نقلناه من كتابه على ويليام شكسبير واخترنا هذه الكلمة بغير كثير بحث ولا مقارنة لانها أجمع

ما رأينا لشتات ما يعاب على هذا الاديب في شعره وكتابته ويكاد يتفق عليه أئمة النقاد من أنصار المدرسة الحديثة . أما هذه العيوب على الجملة فهي اطنابه في غير طائل وايثاره القشور المموهة على اللباب المثمر والتفاته من الاشياء الى علاقاتها الوهمية دون علاقاتها الصحيحة وانه عظيم الشغف بالأخيلة الضخمة يستحضرها ويحتفل بتزويقها والتزيد منها تقديماً لوقع الكلام في السمع على مغزاه في الذهن ومسراه في النفس ومصدره من القريحة المنزهة والسليقة الخالصة . وتري هذه العيوب ظاهرة على هذه الكلمة في طريقة تناوله لشخصية عطيل وفي عكوفه على جانب واحد سطحي من هذه الشخصية ، وهو سواد لونه الذي جعله محور وصفه ، وطفق يبدأ منه ويفتأ يعود اليه ، ويفتن في تكريره ويدخله في ضروب شتى من المجاز والطباق واللعب بالالفاظ . وهكذا كان سواد الرجل هو السر في حبه لديدمونة وهو السر في الصلة بين عطيل و « اياجو » وهو السر في اختيار الوسادة لقتل حبيبته وهو القرينة التي جلبت ذكر الخسوف وسباع الظلمة والشر والمداد الاسود وكلب المكفوف وكل ما أفاضه الشاعر على وصفه من كنوز خياله الغني بهذه الثروة الزائفة . فأي علاقة لهذه الأشياء كلها غير الوهم والتمحل ؟ ولم تخل من المآخذ التي سردناها هنا وتكثر وتختلف حسناً وقبحاً حسبما يسعفه الحدس ويمده اللفظ . ونظنه لا يقل منها اذا أقل الا عن عوز الى المادة وعلى أسف لنزارتها وضيق موردها وبعد يأس من توفيرها والاغراق فيها وليس ترفعا عن هذا السفساف أو كراهة لما فيه من عوار وتشويه .

ولو كان هيجو كتب تلك الكلمة في إبان حداثته لكان له شفيع من نزوات الصبا وما فطر عليه الشباب من الاغترار ببهرج الاشياء ، وقلة

التمحيص والكلف بأول زينة تطالعه وتجذب نظره دون التفطن الى دخيلتها أو البحث عن سر علاقاتها وروابط معانيها ولكنه كتبه بعد اذ نيف على الستين وبلغ غاية النضج . فالعيب في طبيعة مواهبه لا في غرارة سنه وحداثة تجاربه .

كذلك لا نرى الاعتذار له بتقدم زمنه وغلبة الميل الى الزخرفة في أهل جيله وأن الآداب كانت عند ظهوره متخلفة والعلوم قاصرة والنظريات الخلابة فاشية في ابحاث العلماء فشوها في قصائد الشعراء وانشاء البلغاء . فهذا عذر لا يخلي صاحبه من النقص ولا يبرئه من وصمة الزغل الذي انغمس فيه عصره ، وكأي من أديب مطبوع نبغ في عصر هيجو أو في عصور تماثله ولم تؤخذ عليه هذه العيوب ولا قاربها كأنه صاحب البنية القوية يعيش بين المرضى ولا تنتقل اليه عدواهم ؟ ولا حاجة بنا الى الاستشهاد بأدباء الانجليز والالمان والطليان الذين عاصروا هيجو وشاركوه في فنون الكتابة وسلموا من عيوبه فان في نشأة المتنبي وسلامة شعره من سخف الصنعة وبهرج المحسنات في ابان رواجها وعنفوان نشأتها ما يغني ويدل على أن الفطرة الصادقة تعصم صاحبها من مثل هذا الزلل أو تصده عن الايغال فيه على الاقل أيا كان الوسط الذي يحيط به .

وأعجب ما في الأمر ان ترد العبارة التي اقتبسناها وعشرات من أمثالها في عرض كتاب عن شكسبير يتضمن نقد أدبه وتقدير فحولته ـ فهل درس هيجو أدب شكسبير حقاً ؟ ليخيل الينا أن النفي أولى بأن يكون الجواب على هذا السؤال مع غرابته وصعوبة توجيهه . والا فان الذهن الذي يدرس شكسبير ولا يتثقف به ولا ينتفع منه بما يزيح عن بصره غشاوة

الفتنة بالظواهر والتخايل بالصنعة الباطلة والزخرف الملفق لهو ذهن من أفشل الأذهان وأبعدها عن استقامة الفطرة في الفهم والاداء ، وليس ذهن هيجو من الاعوجاج والخباء بهذه المنزلة لاننا نبصر له وميضاً يخطف الأبصار احياناً ونجد بين سطوره من براعة الفهم وحسن الايحاء والالمام ما يونق ويعجب . فكيف نوفق بين هذا الذكاء وبين هذا العجز عن الاستفادة والقصور عن الفطنة الى مواطن الجمال الحقيقي ومزايا الأدب العالي ؟ أم لعله ذكاء المنار الذي شبهه به نيتشه اذ يقول : انه منار ولكنه مقام على أوقيانوس من الكلام الفارغ ؟

على أننا لا نحب غلو نيتشه في النقد ولا نحسبه يعني كل ما يقوله ولا نذهب مذهب الآخرين الذين يتهمون هيجو بالسرقة واصطياد جميع محاسنه المأثورة من غيره . ونرجح أن الرجل لو أصاب من يفهمه شكسبير فهماً جيداً في شبابه لانتفع به كثيراً .

***

وكيفما كان الرأي في مواهب هيجو فمما لا شك فيه عندنا انه حرم في كتابته مزيتين من مزايا الأدب الرفيع والعبقرية العالية : وهما مزية الفطنة الى الجمال البسيط الصادق ومزية التعمق في الفكر . وليست هاتان المزيتان بضدين كما يتوهم بعض المقلدين الآخذين بأطراف الآراء الواقفين عند القريب من حدودها . اذ نحن لا نفهم لماذا لا يكون الفكر العميق جميلا ؟ ولكننا نفهم أن شهود الجمال والشعور بالتعب منه لا يتفقان ولا يجتمعان في لحظة واحدة . وان الجميل شيء غير المتعب في النظر . فالذين يكد رؤوسهم ويشق على بصائرهم أن يدركوا بواطن الأفكار الكبيرة يحق لهم أن يحسبوا الفكر العميق والجمال متناقضين وان لا يروا

بينهما نسبة ولا صلة ، ولكن الذنب في ذلك ذنبهم واللوم عليهم . وليس هذا القصور منهم بمانع أحدا ممن لهم قدرة على التبصر واستكناه خبايا الأمور أن يستروح أجمل الجمال من أعمق الأفكار .

***

ولا بد من كلمة موجزة قبل الختام في التفرقة بين الجمال البسيط الصادق وزخرف الصناعة الكاذبة فمما لا يقبل الجدل أن النفوس مجبولة على أن تطلب الجمال وأنها لا تكتفي بالنافع . ونحن لا نشرب اليوم في قعب من الخشب لاننا لا نقتصر في صنع أدواتنا على تحري المنفعة البحتة منها . ولكننا نشرب في آنية تحمل الماء كما يحمله القعب مع جمال في اللون والصنعة والملمس والمنظر ، ولكن هل ترى أننا لو جئنا بالقعب الأول ووشيناه بالحرير الناعم وحليناه بالذهب البراق وعلقنا على حواشيه من الجواهر النفيسة ما تغلو قيمته وتسر رؤيته أتظنه يكون بهذه الحلية المصطنعة أجمل رونقا مع اعتباره آنية للشرب من كوب الزجاج المتقن البسيط ؟ كلا . وسبب ذلك انه لم يعد قعبا ولا كوبا ولكنه عاد شيئاً مستعارا له الجمال من غيره لتكلف الاعجاب والنفاسة ، وأما الكوب فهو بخلاف ذلك لانه جميل وهو كوب لم يستعر له شيء من خارجه .

وكذلك يجب أن تكون المعاني ـ جمالها في ذاتها وفيما تؤدى به وظيفتها وفيما تلزم به طبيعتها وليس فيما يضاف اليها من الفاظ منمقة وأخيلة مستعارة متكلفة .

كتاب البؤساء [1]

ـ ٢ ـ

ترجمة الجزء الثاني

وبعد ما بيناه من الرأي في أدب فكتور هيجو هل أحسن حافظ أو أساء بترجمته هذا الكتاب أوهذه الرواية ـ ان صح انه رواية ـ وليس هو كذلك ؟ ولنعلم قبل البدء بالجواب أن كتاب البؤساء كسائر كتب هيجو محشو بما يؤخذ عليه من عيوب الصنعة والفكر وانه في رأي كثير من النقاد أضعف مصنفات الشاعر من الوجهة الفنية ، اذ ليس فيه صورة شخصية واحدة كاملة الشكل صادقة التحليل ، وقل فيه ما يطابق الحقيقة من أوصاف النفوس وأطوار الفكر والجسد وأكثره مما لا يقره كتاب الطريقة « النفسية » ولا يرضى عنه الثقات من نقاد فن الروايات . ومن الأمثلة على أخطائه في هذا الجزء الصغير الذي أبرزه حافظ اليوم وصفه لفانتين في مرضها وما يتخلل سياق الفصول أحياناً من تحليل السرائر وتعليل الخوالج والخواطر ، فانه لم يفلح فيما تعمل له من هذا القبيل الا نادراً وكان فلاحه فيه قريب المدى قليل الجدوى . فهل أصاب حافظ أو أخطأ في انتقائه هذا الكتاب للترجمة ؟ قد يقال انه لم يخطىء لأنه أخرج لنا كتابا من جنس

(١) نشرت في العدد الصادر يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٢ من جريدة الأفكار .

الأدب الذي تعود قراؤنا أن يعجبوا به ولا سيما في العهد الذي ظهر فيه جزؤه الاول ، وانه اذا كان الشغف بالزخرف وخلابة اللفظ مما يعاب على فكتور هيجو فانه عيب لا ينكر من عيوب الادب عندنا في الجيل الماضي . ولسائل أن يسأل هل هذه وظيفة المعربين يا ترى ؟ وهل كل ما يطلب منهم أن ينقلوا الينا ما هو قريب من عيوبنا موافق لاذواقنا وان كانت على خطأ وضلال ؟ هذا هو موضع النظر : وقد يقال من ناحية أخرى ان حافظا أخطأ خطأ مضاعفاً لانه في هذا الوقت الذي أخذت فيه العقول تتفتح على الصواب وتفطن الى فضائل الآداب الصحيحة وأصول النقد الحديث جاءنا بكتاب يضلل النشء ويدس في روعهم ان ما يعجب به المعجبون من آداب الغرب لا يختلف في روحه ومنهجه عما يعجبنا نحن من الآداب العتيقة وصنوف البلاغة الغثة الممجوجة فيختلط عليهم الأمر ولا يتبين لهم فاصل ظاهر المعالم بين الصدق والتمويه والأصالة والتقليد ـ قد يقال هذا وقد يقال ذاك ولا يخلو القولان من قسط من الصواب .

على أننا لا نعني بهذا القول أن العمل ضار لا نفع فيه ولا أنه قليل النفع أو ضئيله فان للكتاب محاسنه كما لا يخفى وفيه الجيد كما فيه الرديء وليس من الصعب أن يتلافى خطأه بلفت النظر اليه وتصحيح وهم الواهمين انه مثال للأدب الاوروبي المختار وقدوة يقتدي بها المحدثون من أنصار الاساليب العصرية . فاذا قرأه القارئون وهم على علم بمآخذه فقد لا يتسرب اليهم كثير من خطئه . ومن يدري فلعل هذا الخطأ لا يضرهم الا ريث أن يشعروا به فيصلحهم وينفعهم . لانهم على الأكثر بين غافل عنه لا يدقق في فهمه فهو بمعزل عن خيره وشره ، وبين متنبه له فهو محترز منه . ومن هنا تهضمه المعدة القارئة وتستخلص منه ما يفيد ممزوجاً بقليل من الضرر الذي لا يشعر به الا ساعة التهيؤ للخلاص منه .

ولكننا نعود فنقول ان غير هذا الكتاب قد كان أولى بالعناية والمشقة التي صبر عليها حافظ حتى ترجم ما ترجمه الى الآن في جزأيه . وهو أقل من ثلثه . وليست اللغة الفرنسية بالفقيرة في مؤلفات أبنائها وغير أبنائها وليس قليلا فيها من آثار العبقرية ما يجمع بين الاقتدار والبلاغة واللذة الادبية .

***

أما هذا الجزء الثاني من حيث هو ترجمة من عمل حافظ فلا خلاف في انه ذخيرة طيبة بين ذخائر اللغة العربية وصفحة نادرة من صفحات البلاغة فيها . ولا نغالي اذا قلنا اننا نرى الترجمة العربية أعلى طبقة في البلاغة من طبقة بعض التراجم الانجليزية في لغتها . وهنا نقف . . .

نعم نقف هنا لأننا لا نستطيع أن نزيد على ذلك مزية أخرى للترجمة العربية ولا يسعنا أن نقول انها تضاهي الترجمة الانجليزية التي بين أيدينا في الدقة وضبط العبارة . واللوم في ذلك على حافظ لانه اختار أن يتصرف بلا ضرورة تلجئه الى التصرف سوى الاسترسال مع طنين الالفاظ أو تحاشي ما يحسبه نابياً عن السمع منافراً للاستطراد . وأول ما لفتنا من ذلك اننا قرأنا في الكتاب عبارة خيل الينا أنها لا تكون في الأصل . وهي « فلم يكد يلمح تلك التحايا لانه وقع في ذهول قد افترس طائر حلمه » ولو أننا وجدناها في الأصل لما استغربنا كثيرا لأنها شبيهة بنمط هيجو في الكتابة . وخطر لنا ان نراجعها فلما رجعنا الى الكتاب اذا هي زائدة لا أثر لها ، فكأن حافظا لم يكفه ما في عبارة هيجو من هذه المجازات والاستعارات على وفرتها حتى أراد أن يتمها . . . وليته وفق الى صواب في زيادته فان الحلم يوصف بالرجاحة والوقار ولا يشبه بالطائر المستوفز الخفيف .

وقد راجعنا جملا متفرقة هنا وهناك فألفينا بعض الحذف والتحريف

في أكثر الفقرات التي بحثنا عنها اتفاقاً للمقابلة . ومنها هذه الجملة في الصفحة الرابعة وهي « ولبث ما شاء الله يرى السعادة في يقظة الضمير فكان كلما بضع الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر في نفسه بوفر تلك السعادة ولقد تكفلت حسنات الشطر الثاني من حياته بغسل حوبات الشطر الأول » وترجمتها نقلا عن النسختين الفرنسية والانجليزية « وكان سعيداً بما كان يخامر ضميره من حزن يعتريه من أثر ماضيه ، وبأن يرى شطر حياته الثاني على نقيض من شطرها الأول . فعاش في دعة . وقد عاودته الثقة واطمأن » ومن قوله في الصفحة الخامسة « على انه لم يشهد مشهداً لهذا العراك كان أشد هولا وأعظم مراساً من ذلك الذي مر به حين دخل عليه جافير ولفظ أمامه ذلك الاسم الذي درج في أثناء النسيان فاضطربت له نفسه من داخل الجسد واستخذى عند سماعه وعجب لذلك الجد الذي لا يفارقه العثار » وأصلها : « ومما ينبغي أن يقال انه لم يعرض له عارض كهذا الذي مر به في حاضره . وما اشتد العراك بين الفكرتين المسيطرتين على ذلك الرجل المنكود الذي نصف عذابه كما اشتد بينهما في ذلك الحين . وقد خطر له ذلك على شيء من الابهام ولكنه على غموضه بعيد القرار، خطر له مذ لقيه جافير بكلماته الأولى عندما دخل عليه مكتبه . فبهت حين فاه أمامه بذلك الاسم الذي تعمق في قبره . وكانما أسكرته غرابة جده المنحوس » ومنها وصفه للعجلة في صفحة (٤٨) فانه حذف في ثلاثة أسطر أكثر من سطر مع لزوم ما حذفه من الوجهة التاريخية ومنها قوله عن فانتين في صفحة (٦٦) ـ : « ولقد كان لتشويه خلقها أثر في تشويه خلقها » والذي يقوله هيجو « ان ألم الجسد قد أتم ما بدأه ألم النفس » وقوله في صفحة (٨٠) ـ « وكان رئيس الجلسة في أراس ممن يعظمون مادلين ويبجلونه » والذي في الأصل انه

كان يسمع باسمه المبجل في كل مكان . وقوله عن حاجب الجلسة في الصفحة نفسها : « فسلم وانحنى حتى كاد يمس الأرض بجبهته وحتى تبين مادلين اعظامه في حماليق عينيه » والذي في الأصل نقيض ذلك وهو أن مادلين سمع في ذهوله قائلا يقول له الخ ولم يتبينه ولا رأى شيئاً في حماليق عينيه . وقد كان الواجب على المعرب أن ينبه الى هذا التصرف وليس عليه كبير حرج لانه لم يمس جوهر المعنى في عمومه الا في مواضع محصورة مما قابلناه . ولكنه سكت عن التنبيه وزاد على ذلك ان قال في هامش الصفحة الثامنة والثلاثين انه في « هذه الصفحة وحدها قد أضاف كلمات من عنده دعاه اليها حسن المقابلة في المعاني واطراد القول » وهذا خلاف الحقيقة كما ترى .

***

ولا نأخذ على حافظ بعد ما سبق الا مأخذين قد يسره أن يعابا عليه . وهما الحرص على ارضاء الجامدين من بقايا المدرسة العتيقة والمبالغة في الخوف من الابتذال حتى كاد هذا الخوف يكون جبناً أدبياً في بطلنا الجندي القديم .

أما ارضاء الجامدين فانه لم يظفر به ولن يظفر به بعدما أعنته طلابه وأجهده تحريه ولا نخالهم يقيلون له عثاره . فقد سقط في بعض الأغلاط التي كان لا يتعذر عليه اجتنابها ، وسيحاسبونه عليها فلا يحسبون له ما تجاوزه من المفردات والعبارات التي يتحرجون منها بلا حرج فيها غير الحرج الذي في عقولهم والضيق الذي في حظائر نفوسهم .

وانا لنعجب غاية العجب من رجل يمارس ترجمة صفحة واحدة من لغة أجنبية ثم يأبه بعدها لتجني هؤلاء القاعدين المتشدقين الذين لا

يحسنون أن يكتبوا ولا يدعون غيرهم يكتب . وهل في لغة العرب كلها منذ الف فيها المؤلفون الى اليوم كتاب واحد أو بعض كتاب وافق شرطهم في الكتابة أو خلا من مآخذهم فيها ؟ أليس في القرآن الحكيم كلمات من جميع اللغات التي عرفها العرب وحروف على غير القياس الذي اخترعه النحاة بعد ذلك ؟ بلى ! ولكن هؤلاء القاعدين المتشدقين لا يروقهم أن يكون في الكلام حرف أعجمي أو وضع على خلاف السماع . فمن لحافظ اذن او لغير حافظ-بارضائهم ؟ وماذا يعنيه من رضاهم وغضبهم وانهم لأحرى بالخجل ممن يعيبون عليهم ؟ وهل مماشاة سنة الاحياء في اللغات ونبذ الجمود الذي لا تقر عليه حياة عيب يعاب !

وأما الابتذال فقد أخطأ حافظ فهمه وينبغي أن نحاول تعريفه قبل أن نبين وجه الخطأ في فهم معناه . فالابتذال عندنا هو أن تتكرر العبارة حتى تألفها الاسماع فيفتر أثرها في النفس ولا تفضي الى الذهن بالقوة التي كانت للمعنى في جدته . . ومن ثم فالابتذال مقصور على التراكيب ولا يصيب المفردات . وما دام للكلمة معناها الذي يفهم منها ؛ وهي سرية مصونة ؛ فلن يتطرق اليها الابتذال ولو طال تكرارها . والا فنيت اللغة وانقرضت جميع مفرداتها بعد جيل واحد .

وعلى هذا ليس مما يشكر عليه حافظ ولا مما يعد توقياً منه للابتذال أن يستبدل « عابا » بعيب في قوله « وقد كان أيسر عاب بها انها حدباء » أو معناة بمعنى في قوله « وهذان أيضاً لا معناة للابقاء عليهما » أو خرصت بظننت في قوله « ثم رفعت لي قرية فيممتها فخرصت عليها انها قرية رومانفيل » او بسل بحرام في قوله : « بسل على أن تموت فانتين » الى أمثال ذلك مما هو بالحذلقة أشبه . وما عناؤك أن تسلم من ابتذال اللفظ

فتقع في فكرة مبتذلة ؟

ولنا أن نلوم حافظاً على شيء آخر . ذلك أنه حذف عناوين الفصول وأدمجها كلها في فصل واحد فوزع من الكتاب ما قسمه صاحبه ، وقد أفسد عليه هذا الولع بالوصل الذي ظنه من لوازم الاسلوب العربي جملا كثيرة سمعناها منه ثم عدنا فقرأناها على وضع أخر . ومنها هذه الجملة في وصف أهل الجلسة حين قام بينهم مادلين يعترف على نفسه بالجريمة « فذهب بأهل القاعة وحالوا الى عيون تنظر ، وأفئدة تخفق ، فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح اشراطاً ولا مدافعين ـ أنسي كل غرضه ـ نسي الرئيس انه جاء للرئاسة والمدعي انه قام للاتهام والمحامي انه مثل للدفع والحرس انهم أقيموا للحراسة » فقد سمعناها منه هكذا ثم لج به وسواسه فأضاف (الواو وقد) قبل نسي فذهب بما لمفاجأة الاقتضاب من معنى بليغ في هذا المقام . وغريب هذا منه مع انه أحسن الفصل في غير جملة من الكتاب .

ولكن لا ننسى أن حافظا جهد لاجتناب النقص والخلل وانه أراد خيراً وصنع خيراً . فاستحق عذراً جميلا وشكرا جزيلا .

وانا لعاذروه وشاكروه . وحامدون له ما أفاد به من فضل وعناية .

على اطلال المذهب المادي [1]

« كلما انحط الانسان في القوة العقلية قلت مساتير الوجود في نظره . فكل شيء عنده يحمل معه تفسيراً لكيفية وجوده وسبب حدوثه »

(شوبنهور)

للاستاذ البحاثة فريد وجدي فضيلة خاصة قل أن رأيناها لاحد غيره من كتاب مصر وعلمائها في هذا العصر وهي فضيلة المثابرة على العمل وخلوص النية للعلم والبحث . فهو لا يفرغ من تأليف مؤلفاته العديدة الا ليشرع في تأليف جديد . وكفى من آثار هذه الخصلة النادرة انه استطاع أن يتم دائرة معارفه في وقت لم يكن أصعب فيه من تأليف الكتب ، والمطول منها على الخصوص ، لانه وقت الحرب . وناهيك بمشاق الطبع في ذلك الوقت واستجلاب كتب المراجعة وما هو أعظم من ذلك في عقبات الحياة الادبية عندنا وهو ضيق الصدور وقلة صبر الناس على المطالعات الجدية المطولة وانكباب أكثرهم على القصص التافهة والموضوعات الفارغة التي لا محصل لها من علم أو خلق أو ذوق ويقيننا أن الاستاذ وجدي على تقدير الكثيرين بيننا لفضله وثنائهم على جده وإخلاصه وإعجابهم بنزاهته لا يزال مغموط الحق لا يستوفي حظه الواجب

---

(١) نشرت في عدد يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٢ من جريدة الأفكار

من الانصاف وسيعرف له المستقبل عمله أكثر من معرفة الحاضر به .

والكتاب الذي بين أيدينا اليوم من مصنفاته الكثيرة الميمونة هو كتابه « على اطلال المذهب المادي » وهو سفر قيم في ثلاثة أجزاء تبلغ زهاء خمسين وثلثمائة صفحة من القطع الكبير . واسم الكتاب ينم على موضوعه فهو مخصص لنقض المذهب المادي وايراد أقوال طائفة من كبار الفلاسفة والعلماء على بطلانه والدلالة على قصر نظر المتشبثين بالمادية البحتة يظنونها آخر ما يعرف من حقائق هذا العالم ويخيل اليهم أن « لا » التي يقولونها ليس بعدها « نعم » ولن يأتي بعدها جواب آخر . ويكاد يكون محور الكتاب معنى الجملة التي اقتبسناها من شوبنهور وصدرنا بها هذا المقال .

وأقل ما لهذا السفر من الأثر هو أنه يعلم من له استعداد للتعلم كيف يشك في شكوكه وكيف يستضخم هذا الكون الأزلي الابدي عن أن يكون له حل واحد بسيط يقنع بقبوله أو رفضه ثم يستريح منه بنعم أو بلا كما يستريح من حل مسألة حسابية عرف جوابها وروجع ميزانها . وجزى الله الاستاذ خير الجزاء على هذه الاريحية العلمية فانه أراح طائفة أغرار الملحدين من عبء النظر في عشرات الكتب النفيسة التي لا تصل اليها أيديهم ولا يظنونها تنفعهم شيئا أو تحول نظرهم الى اتجاه جديد بعد الحكم المبرم الذي أمضوه على هذا الوجود وفرغوا من شأنه . ولو سئلت رأيي لأبيت الا أن أكلفهم ثمن الافاقة من هذا الغرور بكد عقولهم وتلظى نفوسهم . لأن الخروج من الجهل الذي أسبغوه على أنفسهم ليس بالمطلب السهل الرخيص المنال . ألا تراهم يمنون على الناس بايمانهم وتصحيح عقولهم ويجلسون مجالس القضاء فيقولون « ان العقائد التي رويتموها لنا مشوبة بالأوهام والترهات والخطأ الظاهر للحس فلا حرج

علينا من رفضها حتى يجيئنا من العقائد ما يقوم البرهان على صحته » ؟ وانه لقول ينبىء عن قصور في فهم الواجب على الباحث خاصة وعلى الناس عامة . اذ أي سلطان في الدنيا يلزم طائفة من الناس واجب التنقيب عن الأدلة المثبتة للعقائد الصحيحة ويطرح عبء هذا الواجب عن الطائفة الأخرى ؟ ولماذا تنتظر هذه الفئة من أغرار الملحدين في مكانها كأنها الشاري في الحانوت يجلس على كرسيه ويقوم البائع بعرض السلع عليه واحدة بعد واحدة فيقبل ويرفض وهو متكىء في موضعه ؟ لم يكون هذا البحث واجب ذلك البائع ولا يكون واجبها ؟ لم تنتظر أن يجيئها اليقين من غيرها ولا تعمل لاستخراجه من ذات نفسها ؟ وهب كل دليل أتى به الناس من قبل على صحة الايمان قد بطل وانتفى فهل هذا مسقط عن أحد منهم فريضة التماس الهداية ؟ أترى هذا الكون شركة مساهمة لسمسار أو سماسرة قد استأثروا بمصادره وموارده ليروجوا له ويقنعوا الناس بفلاحه وربح أسهمه فيشتري منهم من يشاء ويعرض عنهم من يشاء ؟ كلا ! فانما الكون شركة الجميع ولكل من الناس حصته فيه وعلى كل منهم واجب البائع والشاري والمروج والرابح والخاسر والوسيط في آن واحد . فلنطلب الحقيقة كلنا ولا يحتج أحد منا الى زخرفتها وتمويهها فما هي ببضاعة لاحد ، ألا ولتكن قليلة أو كثيرة ومشوبة أو خالصة ومرة أو عذبة وكريهة أو شهية ، فمن استقلها فليكثرها ومن رأى فيها الزغل فلينقها ومن عافها أو كرهها فليصلح منها ما عاف أو كره . وليس لامرىء أن يقول أروني أصل كونكم هذا لاقول لكم هل أصبتم أو أخطأتم وهل أفلحتم أو حبط سعيكم . بل تعال أنت فاخدم نفسك معنا فليس أحد منها بخادم لك ولا أنت بضيفنا في الكون فنمهد لك منه ما لا تريد ان تمهد بيدك .

ولكن الاستاذ وجدي مشفق على هؤلاء الأغرار يستصعب عليهم هذا الطعام القوي فيسوي لهم اللقمة ويجهزها للتناول . فلعلهم يزدردونها سائغة ولعلها تنفعهم على سهولة متناولها . ولو أدى هذا الكتاب الغرض المؤلف لأجله لكانت فائدته الوطنية الاخلاقية أكبر من فائدته الدينية ، لأني أعتد الحاد الطائشين آفة في الأخلاق وطبيعة النفس ولعنة فادحة تعتور أعمال الانسان قبل أن يكون لها أثر في معتقده وفكره . اذ ما هو الكفر في معناه الحقيقي ؟ انه الارتياب في نظام الوجود . في حكمة الحياة . في نفس الانسان . في غاية أعماله وأهوائه . في حبه وبغضه. وأمله ويأسه وسعادته وشقائه وشرفه وضعته وفي كل ما هو فيه وما هو خارج عنه انه وقفة الانسان بين عوالم لا يأمنها على نفسه ولا يطمئن منها الى ملاذ قرير . فهو في ما بينها طريد شريد غاضب مغضوب عليه . ولكم خطر لي ـ لهول معنى الكفر في نفسي ـ أن الانسان لن يكون في طاقته أن يجحد الله صدقا ولو قال ذلك بلسانه واعتقده في روعه كما ليس في طاقته أن يجحد نفسه ولو أنكرها بقوله واعتقد انه كاره لها متبرم بوجودها. ولم يخطىء الأقدمون في هربهم المرعب من الكفر بل ربما كنا نحن أحق منهم بالرعب لانهم كانوا يكفرون بإله ليؤمنوا بإله آخر وينبذون نحلة ليأخذوا بنحلة غيرها ، كانوا يكفرون بألسنتهم وقلوبهم مطوية على اليقين أما نحن فمن يكفر منا فقد أراد أن يجتث نفسه اجتثاثا من شجرة الوجود وباء بلعنة دونها تلك اللعنة المعهودة في نذر الاقدمين . فان كان الكافر منهم على نظرة من خسارة الحياة المقبلة فالكافر منا معجل العقوبة في الدنيا قبل الآخرة .

ولقد قلنا ان فائدة كتاب وجدي الوطنية الاخلاقية أكبر من فائدته الدينية لاننا نعلم أننا لم نصب في نهضتنا الوطنية من ناحية أضر من

ضعف اليقين وقلة الثقة بمباديء الأخلاق السامية . وهي عيوب في النفس قلنا قبل أن تكون عيوبا في طرق التفكير . ولولا هؤلاء الهلافيت الذين ملأهم جهلهم حتى لم يبق فيهم فراغاً لجهل أو لعلم والذين لا غفلة عندهم الا غفلة الاعتقاد بأن هذا الكون العظيم فيه ربح للنفس غير الغذاء والكساء وغلائظ الشهوات ، لما كانت حالتنا الآن ما ترى .

فعلى هذه الفوائد المضاعفة نشكر الاستاذ الجليل راجين له التوفيق في جهاده الصادق ولنا بعد كلمة نظنه على رأينا فيها وهي أن أخطر الشكوك ما داخل الفكر من ناحية العقائد الباطنة لا من ناحية المشاهدات الحسية . وان أنجع البراهين ما يحسم شكوك النفس لا ما يقنع ظاهر الحس . فالعناية بهذه البراهين العقلية النفسية مقدمة على العناية بما كان من قبيل تحضير الأرواح وما يروى عن أعمال المحضرين ولو كان كل ما يروى عنهم صحيحاً .

***

نقول ذلك لأننا نشك في أكثر الروايات من هذا القبيل . غير أننا لا نشك فيها تغليباً للمادة وإنكاراً للمغيب المجهول كبعض الذين ينكرون الارواح وتحضيرها . وانما يعترينا الشك من ناحية واحدة : وهي تنزيه العالم المغيب والتماس الوحدة والارتباط بين ما نستشفه من قوانينه وأغراضه وبين ما نراه من ظواهره التي يقع الحس عليها ، وقد يبدو لنا أن انتهاء البحث القديم المعضل في أمر الروح باظهار الروح نفسها للباحثين فيها لهو كالاختبار بامتحان يعطى فيه نص الجواب مع السؤال ، أو كالفراغ من دست الشطرنج برفع الشاه ووضعه في العلبة بدلا من متابعة اللعب الى النهاية . ولتفرض مثلا أن رجلا امر أبناءه بالسفر في رحلة

مجهولة وجعل على كل منهم مبلغاً من المال يكسبه لتصلب على العمل أجسامهم وتحصف بمزاولته عقولهم ، وليختبر بتحصيلهم ذلك المبلغ ما استفادوه من علم بمسالك الأقطار ومصاعب السفر وتقليب الاسعار والسلع . وانهم لما تفرقوا عنه وبلغوا من الرحلة عقبتها ومن التجربة معضلتها أنفذ الى كل منهم ان اذهب الى مكان كيت وكيت تجد المبلغ الذي فرضته عليك فخذه واحمله إليّ لتسرني بنجاحك في ما أخرجتك من أجله . ولا يكون ذلك غريبا ؟ ألا نراه مبطلا لغرض الرجل من تدبيره ، معطلا لسعي أبنائه ، ملغيا لرحلتهم من مبدئها الى معادها ؟

وهذا العالم الانساني قد درج في كل عهد من عهوده وفي كل عمر من اعمار وحدانه وجماعاته على ان يمارس الحقائق ممارسة ولا يلقنها تلقينا .

وما كشف سرا للطبيعة ولا اتقى لها ضررا ولا استخدم قوة فيها ولا فض الاغلاق عن اصغر قانون من قوانينها الا بعد أهوال شداد وأغلاط تبدأ وتعاد وغصص تجرعها قطرة قطرة ثم توارثها فترة بعد فترة ، وليس بين تواريخ الانسانية ذات الشعب والمناحي المختلفة ما هو احفل بالضحايا والآلام من تاريخ العقيدة ونعني به تاريخ الروح الباطنة . أو تاريخ البحث عن الروح في الانسان وفي الوجود . ويا له من سجل دموي رهيب .

فلقد خاض الانسان نار الجحيم في معراجه الى تلك السماء . فلوثته دماء القرابين الآدمية وشقي دهورا بالمذابح والحروب الدينية واقترف أشنع الآثام وأبشع الفظائع وهويزعمها هداية وصلاحا ويتقرب بها خاشعاً متبركاً ويرجو المثوبة عليها وهو في ظاهر الأمر بالعقوبة أولى . ففي أي شيء حمل تلك الجهالة وفي أي سبيل ذهبت تلك الضحايا؟ لقد

كان يخوض جهنما بعد جهنم من تلك التجارب لينتقل من عبادة خشبة الى عبادة خشبة غيرها قد تكون مثلها من جميع الوجوه وقد تفضلها من وجهة نظرة خفية بعيدة لا تستحق في الظاهر كل هذا الشقاء والمطال . وكانت له صرعات تتكرر ومحن تتوالى في شوط الوثنية وحده فما تنقل من أسفل دركاتها الى اعلاها حتى صلي منها الوانا من العذاب لا يحصرها الوصف ، ثم وراء ذلك جهاده في التوحيد والتنزيه ، ووراء جملة تاريخ العقيدة الخاص بها تواريخ ضحايا أخرى هي ضحايا العلوم والفنون والصناعات وهي التي ساعدت على تصحيح النظر الى الكون وتثقيف العقول ـ وتهذيب المشاعر وتقويم الاديان ، ومن ثم امتزجت بتاريخ العقيدة الذي لا تاريخ للانسان في الحقيقة سواه ـ فلو انه كان ينفع الانسان أن يلقن سر الحياة بلمحة واحدة من العين أو بلفتة واحدة من الأذن وأن ينتقل من الجهل الى المعرفة ومن الضلالة الى الهدى بدفعة واحدة من قوة خارجة تدفعه كما تدفع الآلات وليس بجهاد نفسه وعناء فكره لكان عبثا طول ذلك الانتظار ولكان قسوة بالغة كل تلك الآلام والاخطار ، ولكان باطلا ما اقترن بها ونشأ عنها وأنشأها من تجاذب في الأفكار ، وتفاوت في الأقدار ، وتباعد في الأقوام والأمصار .

نعم فجميع أولئك كانوا خلقاء أن يطلعوا على السر الاعظم بلمحة واحدة في لحظة واحدة . ولكن الله لم يشأ ذلك . وانما شاء ان لا يرتقي الانسان الى درجة من المعرفة أو الدين حتى يستحقها بعمله واستعداده واعتماده على نفسه ، وما به جلت قدرته وتعالت حكمته من عجلة . فالأبد مديد وساحة التجربة واسعة والتكمل الحر المهتدي في ظاهره بالاختيار دون الاضطرار جدير بضحاياه وباكثر منها . ولا ضحايا في

الحقيقة . لأن التضحية هي الفقد ولا يفقد شيء في هذا الكون المحكم الرحيب .

على أن الناس إما مقلد يؤمن بالقدوة أو مجتهد يؤمن بالبحث . فأي هذين يصلحه ظهور الأرواح له عيانا ؟ فأما المقلد فانه في غنى عن ظهور الارواح لان كلمة أئمته عنده كالبينة الملموسة أو أشد وقعاً ، وأما المجتهد فقد شككته أسباب لا يكون لايمانه قيمة أو يقتنع ببطلانها ويتدارك علة الزيغ فيها والذي نعرفه ان الذين تظهر على أيديهم الارواح ليس لسوادهم فضل يؤثر لا في الايمان التقليدي ولا في الايمان الاجتهادي ولا في الايمان اللدني ، فما معنى اختصاصهم بهذه المقدرة ؟

تخطر لي هذه الخواطر فأشك في تحضير الأرواح ولكنني لا أقطع الشك باليقين لأننا قد نخطىء في استقصاء القياس من الماضي وقد نكون على أبواب طور للانسانية لا يقاس على ما سلف ، وكل ما هو مجهول فحجته فيه .

الوضوح والغموض (١)
في الأساليب الشعرية

قرأت للاديب الحاذق « صدقي » مقاله في الهواء الطلق . واستوقفني منه اشارته الى الفرق بين عبارات الافهام وعبارات المشاعر وأراه على صواب بين في هذه التفرقة فانه مما لا يقبل الجدل أن للعلميات وما نحا نحوها أساليب تختلف عن أساليب الشعريات وما يخرج من ينبوعها ويتولد من معدنها ، ولكل منهما نمط من القول لا يساغ ولا يصلح في سواه . وهذا الذي أردت اجمال الكلام عليه في هذه الكلمة .

يقول الأديب : « ولربما يدين الريحاني بان العبارة الواضحة المعتادة تخاطب الافهام وأن المشاعر تخاطب بلغة أخرى ، وبهذه اللغة الأخرى نحن ندين ولكن غير مطموسة الرموز بل تتراءى معانيها خلف نقاب من الشف لا هو يسترها الى حد أن يخطئها العيان ولا هو يبديها الى حد لا يعود معه لخيال القارىء عمل » .

وهذا صواب لاشية عليه ولا سيما الالماع الى سبب استهجان الوضوح المفرط في عبارات الشاعر وهو أن يشل حركة الخيال ويبطل عمله ـ بيد أنه يجب أن يقال هنا ان رفع ذلك « النقاب الشفاف » واجب

---

(١) نشرت في العدد السابع من صحيفة الرجاء

بل فرض مقضي على الشاعر كلما تسنى رفعه دون اخلال بالمعنى أو تعطيل لمتعة الخيال اذ ليس الفرق بين أسلوب العلم وأسلوب الشعر في درجات الوضوح والغموض وليس ذلك النقاب الشفاف بالحائل بين ما هو من سبيل العقل وما هو من سبيل الخوالج النفسية . وانما الفرق الذي بينهما أو الحائل الذي يفصلهما كائن في طبيعة الاشياء التي يتناولها كل من العقل والخيال وفي طريقة التناول وكيفيته . فلو اننا جئنا بدرس من كتاب الكيمياء فلففناه بالغلائل والحجب وأطلقنا حوله من البخور والدخان كل ما في جعبة الطلاسم والسحر لما صار شعرا .. ولو أننا جئنا بفن من فنون الشعر فغمرناه في بحر من النور لا تخفى فيه خافية وبسطناه حتى لا موضع فيه لالتفاتة لما صار علما وانما يبقى الاول علما غامضا ناقصاً ويبقى الثاني شعراً مبتذلا ناقصاً كذلك .

ولا أذكر انني قرأت بيتا أو جملة قط لفحل من فحول الشعر والبلاغة فأحسست للقائل اختياراً في وضوح عبارته أو غموضها فان المعنى اما ان يكون واضحاً بطبيعته فلا يكون تعمد اخفائه للمبالغة والترويج الا شعوذة ينبو عنها بل يستحي منها كلُ طبع نزيه ، وإما أن يكون غامضاً بطبيعته فليس للشاعر أو الكاتب حيلة فيه ولا يقال حينئذ للذي يحتوش كلامه الغموض انه ذاهب فيه مذهبا خاصاً يقصده ويؤثره على سواه . وهذه آثار أئمة الشعر وفحول البلاغة في الشرق والغرب بين أيدينا فليبحث فيها من شاء فهل تظنونه يجد في اطوائها معنى واحداً مما يعد من آياتهم وغرر أقوالهم وشواهد بلاغتهم حجبوه قصداً أو على غير قصد ؟ ان وجد فانما يكون ذلك بين سقطهم الذي يعتذر له ويتمحل فيه التأويل لا في المميز المنتقى الذي يشاد به فضلهم وتذيع لأجله شهرتهم .

ولقد تقترن العبارة البليغة بمعاني جمة لا تزال تسترسل في الذهن حتى يحتويها الغموض في ظلال الفكر البعيدة وشعاب الخيال المستسرة ولكن لا يلزم من ذلك أن يكون لهذا الكلام البليغ نصيب من الغموض الذي لا بد تنتهي اليه معانيه ذهابا مع الخيال ومطاوعة لتداعي الخواطر وتلاحق الصور . انظر مثلا الى هذه الآية الكريمة : « والصبح اذا تنفس » فلعمر الله أي ثروة معنوية فيها وأي وضوح وايجاز ؟

ثلاث كلمات موجزات هيهات تأنس لكل ما قيل وصفا لاول طلوع الفجر ما تأنسه فيها من اعجاز التعبير ووفرة المدلول وتنوع الصور واتساع مجال السبح للخيال . وما خطرت لي هذه الآية مرة الا تفتحت أمامي فجأة صورة كاملة للفجر البهيج ، بعضها تهم به العين في ضحوة النهار وبعضها يلوذ بعالم الاحلام من غرابة ونفار . فيهب على نفسي نسيم الصباح الندي ، واتمثل الطبيعة يتنهد به صدرها كأول ما تدب الحياة في الجسم بعد طول السبات ، واستروح أنفاس الرياض شائعة في كل مهب ومطار ، سيارة بنفحات الرياحين والازهار . وتتبادر من هنا وهناك طيور طار عنها النعاس وخلائق فارقها كسل الظلام وشملها من « نفس » الصبح ما يشملها من نوره فاذا هي حية صادحة . مستوفزة صائحة . واذا الفجر كله كأنه نفس عميم من أنفاس القدرة الخالقة المبدعة : قدرة الحياة الابدية المتجددة .

وهذه الصور الكاملة تلهمك اياها كلمة « تنفس » بسرعة البرق وخفة السحر ولذة الحلم . فهل حفلت قط كلمة بمثل ما حفلت به هذه الكلمة الواحدة في موضعها من الأشكال المأنوسة والخواطر القريبة والبعيدة ؟ وهل في هذه الكلمة أو في الكلمات الثلاث أثر لأقل تعمل أو

غموض ؟ فمن هنا نعلم أن القدرة في التعبير لا يعوقها الوضوح أن تبتعث الخيال الى آخر مداه ونهاية سبحه . وان الذي يهرب الى الابهام فراراً من الجلاء انما يهرب من عجز ظاهر الى عجز مستور .

وانظر كذلك الى هذه الآية القرآنية في الانذار بيوم القيامة « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كُل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فأي هول لا يسبق الى الروع من هذه الآية المعجزة ؟ وأي دهشة تفوق دهشة العقل من تلك الصورة الموجزة ؟ أي بلاء ذاك البلاء الذي يذهل الوالدة عن رضيعها ويتغشى الناس بحيرة السكر وهم مفيقون ؟ ليخيل للانسان ان جهنم نفسها قد جنت من ضراوة وجوع فزحفت بأهوالها تلتهم الخلق التهاماً وما لهم من مهرب وما هم بمهتدين اليه لو أصابوه ، وان الخيال ليهجم عليه الهول من هذه الصورة الداهمة حتى ليكاد يحجم عن استفسارها كما تحجم الفريسة عن التأمل في وجه آكلها ، فهو يبلغ أوج الشعور في وثبة واحدة ولكنه لا يحرم قليلا ولا كثيرا مما هو مدمج في تفاصيلها . والآية كما تراها ليس في مفرداتها أو تركيبها أو معناها مسحة من خفاء أو كتمان .

كذلك ترى بلاغة هذا التمثيل حيث وجدتها على تفاوت في الدرجات والمناهج والأساليب ، فاذا التفتنا من القرآن الى الشعر في لغتنا ألفينا شواهد كثيرة على هذا الوضوح الحافل بالاشباه والخواطر : ومن هذا الباب استهلال البحتري في وصف الربيع :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وبيت مسلم بن الوليد يصف مجهلا من الأرض :

تمشي الرياح به حسرى مولهة ... حيرى تلوذ باكناف الجلاميد

ولا يقل عن هذه الطبقة قول ابن الرومي يذكر بلدا « بغداد » :

فاذا تمثل في الضمير رأيته   وعليه أغصان الشباب تميد

أو قوله الفكه الذي تناهى في ضبط الشبه حتى لا مزيد للعيان ولكنه يخلي للخيال منصرفا سهلا الى تصور الهيئة النفسية ومعاني الملامح فيعطيها حقها من التأمل المضحك المطلوب . ونعني بيتيه المشهورين في تشبيه الأحدب :

قصرت أخادعه وطال قذاله   فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة   وأحس ثانية لها فتجمعا

وقول ابي تمام يتحسر على عهد نعيم فقده :

لحظت بشاشتك الحوادث لحظة   ما زلت أعلم انها لا تسلم

وقول قطري بن الفجاءة يفتخر بمواقفه :

ويوم لهو لأهل الخفض ظل به   لهوي اصطلاء وغى نيرانها تقد
مشهرا موقفي والحرب كاشفة   عنها القناع وبحر الموت يطرد

وقول المعري :

قال صحبي في لجتين من الحند   س والبيد اذ بدا الفرقدان
نحن غرقى فكيف ينقذنا نجـ   ـمان في حومة الدجى غرقان

ولا يكاد يخلو كلام شاعر أو كاتب مجيد من أمثلة حسنة على هذه البلاغة المكشوفة السافرة ؛ ومن هذه الأمثلة يظهر لنا أن ازدحام المعنى قد يعبر عنه بلفظ لا ازدحام فيه ، وان الكلمة لا تحضر في الذهن معناها المراد بها ولا تطلق أعنة الخيال الى أبعد غاياته لغموض يشوبها أو لوضوح يبديها

ويسطع عليها ، ولكنها تحضر المعنى وتطلق الخيال متى وقعت في موقعها واستوت في سياقها : فمن اقتدر على ذلك فليعالجه وليعلم انه مستغن عن ظلل الغمام وسدل الابهام بنصوع بيانه وصفاء وجدانه ، وأما من يلوح له معناه الواضح صغيرا فيثقله بالسجف المصطنعة والتعاويذ الملفقة فانه انما يلجأ الى الاحتيال . ويبيع على الناس بضاعته بأغلى من ثمنها الحلال .

الاشمئزاز (١)

اذا حضرت مجلساً تذكر فيه قصة رجل من أهل الدنس والسيرة القبيحة فانظر الى السامعين وراقب سحنتهم فانك ترى أكثرهم يظهرون التقزز والاشمئزاز فيشدون مناخرهم ويطبقون شفاههم أو يشيحون أحيانا عن المحدث بأبصارهم ووجوههم . وربما اشتد الانفعال ببعضهم فيتفل على الأرض ويمتقع لونه . واذا توالت هذه الانفعالات في النفس ثبت منها على الوجه لمحة يعرف بها أهل الترفع والعزوف .

واذا رأيت أحدا يمر بشيء مما تعافه الانفس ، وتكره رائحته الانوف فانظر اليه تره يفعل ذلك أيضاً ، ولكنه هنا يشد منخريه ليعلق أنفاسه فلا تصعد اليهما الرائحة الكريهة ، ويطبق شفتيه لئلا ينفذ من بينهما الهواء الفاسد ، ويدير وجهه كي لا يبصر مبعث ذلك النتن ، ويتفل اذا دخلت الرائحة الى جوفه فهاجت فيه غدد اللعاب .

فالأصل في الاشمئزاز انه حركة جسدية . ولذلك كان أثره في الوجه جسدانيا جبلت عليه الاعضاء للوقاية مما يضر الجسد ويكدر الجواس ، وذلك بعض ما يستدل منه على أن كل معنوي في عواطف الانسان وخلائقه فانما أصله من الجسد أولا ، وان الانسان عاش زمانا في

(١) نشرت في احدى الصحف الاسبوعية

مبدأ خلقه لا حكم عليه لغير الجسم ، ولا محرك له غير مطالب الطبع الحيواني من جلب رضى أو دفع أذى . فلما تولد فيه الادراك العالي والاحساس المعنوي تخلفت عليه مسحة من الحس الجسداني ، وبقيت هذه المسحة ظاهرة في أطهر العواطف وانزه الآداب وهذه الأنفة مثلا أليس أرقى ما يسمو اليه أدب النفس ونبلها أن تنفر عن الدنايا وتتأذى من ذكر المعائب والمخازي وتأنف من كل وضيع ذميم ؟ ولكنك تنظر فلا ترى على وجه الرجل الشريف فرقا بين أثر الأنفة من خلق وضيع وأثر الانفة من جيفة منتنة . فكلا الأثرين في السحنة سواء كما رأيت . وقد عرف العرب بدقة وصفية في وضع اسماء المحسوسات واختيار الفاظها قل أن يشاركهم فيها غيرهم من أصحاب اللغات ، فمن يسمع كلمة الأنفة ولا يتبادر اليه أن فيها معنى مما يتعلق بفراسة الانف ؟ وذلك لانه ليس في جسم الانسان جارحة تظهر عليها سمة الترفع ظهورها في الأنف ، وانما علة ذلك ما قدمناه - وربما كان سبب هذه الدقة في هذا النمط من كلمات العرب أنهم كانوا قوم بادية تكثر بينهم الفراسة والقيافة لحاجتهم اليهما في حياتهم . والفراسة كما تعلم هي رد الملامح المعنوية الى أصولها الجسدية ، واستكناه شيء في النفس بشيء في الجسد .

وكما يكون الاشمئزاز المادي داعيا لصاحبه الى الصد عن مبعثه وكراهة التطلع اليه ، كذلك يلزم أن يكون الاشمئزاز المعنوي صارفا للعزوف عما يأباه من خبائث الناس وفضائحهم ، ومانعا له عن إطالة النظر الى ادران نفوسهم وقذر أخلاقهم ، والا فهو اشمئزاز طبع أبخر لا يشم ما يشمئز منه ، ولهذا كان أكبر برهان على احتقارك انساناً أن لا تعرّض به ولا تخوض في مثالبه وليس البرهان عليه ذمك اياه ونيلك منه ، الا أن يكون ذلك لغرض تحتمل من أجله محنة النظر الى ما نعافه ، ولهذا

أيضاً كان أكثر الناس وقوعا في أعراض النـاس وجـدا وراء صغائرهـم وخسائس جبلاتهم هم أكثرهم فضائح وأرذلهم مروءة ، اذ كانت النفس الكريمة تتأذى من انكشاف هذه العورات لها ولا تطيق النظر اليها ، وما يطيق النظر اليها الا الذين لا يخجلون منها لو انكشفت للناس فيهم . وهم في ذلك كالاطفال في جهلهم وان لـم يكن لهـم عذر الاطفال .

ساعات بين الكتب

— ١ —

قصر ملا

الآن ، وفي اسوان ، أي سبيل الى غير الوحدة ومناجاة الأحلام ؟ وأي مشغلة للفراغ أجمل من قضاء الوحدة في قصر ملا أو بين صفحات كتاب ؟

وقصر ملا هذا هو طلل دارس منصوب للرياح من أينما أقبلت :

درسته الـريح ما بـين صبا   وجنـوب درجـت حينـا وطل

جمع منظره بين وحشة القدم المتبدد . . . ونضرة الصبا المتجدد . وقامت حوله وديفة منيفة [١] تعرف باسمه ويرتاح اليها الطارق من سآمة ذلك الشبح المهجور في أكمته ؛ وهي رباوة [٢] أثرية ذات طباق يعلو بعضها على بعض ، في كل طبقة منها حياض الأزهار والنوار . ومنابت العشب والبهار ، تنتهي من بحبوحتها العليا الى جانبها الغربي فتشرف من ثم على النيل ، ويستقبلك الجبل الغربي تليه الجزر والجنادل

(١) روضة عالية
(٢) أي رابية

المعترضة في جوف النهر ، وهو ينساب بينها انسيابا ، فروعا وشعابا ، وتجلس هناك بعد الغروب فتنظر أمامك الى المقياس في هيكله القديم ، والى النيل يجري وكأنه لا يجري والى الجنادل قد اطلعت رؤوسها على متنه كأنها بعض حيوانه يتنسم هواء الليل ، والى الجبال ممتدة على طول الافق كالديباجة السوداء حول تلك المناظر الساحرة . فيجلو لك ضوء الكواكب منها صورة قاتمة كأنها الصورة الفحمية رسب فيها الظل من جانب وطفا من جانب ، فاذا كانت الليلة مقمرة أخذ القمر يرفع عنها سدفة [1] بعد سدفة ، ويزحزح منها رواقا بعد رواق ، كمشاهد الحلم البعيد العهد بالذاكرة تستعيده فيتألف في ذهنك شتاته ، وتبرز لك غوامضه ، حتى اذا اتسق الضياء وانجابت عن تلك المواضع ظلال الغسق ، مثلت أمامك وهي الى مشهد حلم غابر أقرب منها الى مشهد تراه بين يديك وتحس صلابة أرضه تحت قدميك ، فاذا نظرت في تلك الساعة الى القمر ثم نظرت الى تلك الأماكن ، آنست بينهما ألفة وسرارا ، وعرفت لهما حرمة وجوارا ، ورأيت من عزلة الاماكن وانفرادها ، وبعد الجالس فيها عن استشعار الصلة بغيرها ، ما يوهمك أن القمر لا يطلع في تلك الساعة على غير تلك البقعة من الدنيا .

وقد كنت أتوردها الفينة بعد الفينة [2] أقضي هزيعا من الليلة - هناك - فأجلس على صخر قديم ساوره [3] النيل أعصارا ثم قنع بمسح أقدامه ، وطغى عليه أعواما فلم يظفر بغير المرور من أمامه ، وأعوض العزلة بمساجلة بنات الأحلام ، ومسامرة عرائس الشعر . ولله هن ما

---

(١) ظلمة
(٢) ازورها الحين بعد الحين
(٣) واثبه

أجدلهن وأطربهن ! وما أشد امتزاجهن باللحم والدم وأقربهن اليك في نسب النفس من بنات وعرائس ! فهن والله خفيفات ظريفات . أخف من كواعب الانس وأظرف وأعز منهن في القلب وأشرف . لان القلب بخلقهن كما يشاء ويرضى وكما يرسم الأمل ويملي الهوى ، ومن له بأن يجد من حسان الانس من توافق الامنية وتنزل على حكم الوفاء ؟ وأنى له منهن بمن يصطفيها وتصطفيه على العلات . ومن لا يفترق لها أمل عن أمله ولا ينفصل لها ضمير عن ضميره ولا خاطر عن خاطره ؟ ولقد كن لا يغببني في ليالي الصيف القصار ، ولا يفترن عني على شحط المزار ، وتوسط المهامه والقفار . وكأنما يكذبن لي وصف دعبل حين قال في هذه الديار :

هبطت محلا يقصر البرق دونه ... ويعجز عنه الطيف أن يتجشما
وان امرأ أضحت مساقط رحله ... بأسوان لم يترك له الحزم معلما

وسامح الله دعبلا ما أقل حمده ورضاه وأكثر تجنيه وشكواه ! أتراه كان لا يلمح الطيف في لياليه باسوان ولا يسري اليه البرق في سمائها أم كذلك دأبه لا يزال يهجو الديار وسكانها ويجتوي الارض ومن عليها ويستبعد البعيد والقريب منها ؟

أو لم يتأوبك يا دعبل في ليالي غربتك طيف من بغداد ولياليها . ومجالس الانس فيها ؟ أو لم يبلغك وأنت مستلق على ساحل النيل ليلة من ليالي الصيف ، صدى المزاهر في قصور الخلفاء . وشدو القيان الفاتنات المفتونات يغنين للجمال والحياة ، ويغني الجمال والحياة فيهن انشودة الفوز للحب والسعادة ؟

أو لم تحمل البرق عشية من عشيات نأيك . وقد ذهب بك

الشوق . وقعد بك النوى . رسالة الى حبيب فارقته في ربوع دار السلام ؟ أو تحية الى أخ من مقارضيك الشعر على شواطىء دجلة ؟

ولكن من لك بالاخوان وأنت القائل :

ما أُكثر الناس لا بل ما أقلهم　　الله يعلم اني لم أقل فندا
اني لأفتح عيني حين أفتحها　　على كثير ولكن لا أرى أحدا

ولك العذر يا دعبل . فأحسبك قد صدقت على كره من الصدق وبئست الشكوى الصادقة ـ ولقد يحق لك أن تضع اسوان بحيث يعجز الطيف عن تجشمها ويقصر البرق دونها ، لأن خليقا بلحظك الشزر أن لا ينام ولعمري لا يعجز الطيف الا عن تجشم مكان واحد : هو سرير الساهر !! فهو أهول من عرين الاسد واخوف للمدلج اليه من وادي التيه .

نعم وللبرق أجدر أن يقصر عن مكان لا يجوده السحاب ولا يحمله الى جوه ركاب !!

ساعات بين الكتب

ـ ٢ ـ

الليل في قصر ملا

تقول الولادة لصاحبها

« انــي رأيت الليل أكتــم للسر » وكذلك تقــول لي العــرائس الزائرات ، الدانيات النافرات . عرائس الشعر وبنات الاماني .

عهدتهن لا يلممن نهارا بصاحب ولا ترسلهن السماء الاعلى أشعة صباح ندي البكورة أو مساء سري الأصيل ، ويا لهما من ساعتين فيهما للنفس جذل وكـآبة . وحركة وسكون . وضياء وظلام ونهـار وليل ـ فاما اذ تنصب أشعة الشمس على الأرض كأنها وابل من السهام المحماة . أو كسيل من النار . فهن مقصورات في المقاصير . لائـذات بحـوافي الأنهـار . ناعسـات في أفياء الـرياض والبساتـين . وهــن في جو مدار السرطان أجدر ان يشفقن على أجنحتهن الهفافة من سعير القيظ وهجيره وعلى وجوههن الناعمة أن يسفعها الهواء المضطرم بهوجه وزفيره .

فكنت اذا انفـردت بذلك المكان ، اقبلن عليَّ من كل صوب مع همس النسيم . ومنامسة الشجر . ورقرقة النهر . وشذى الرياحين . ووسوسة النجم . وحدثنني بكل لسان وناجينني بكل بيان لا يخطئن لغة

من اللغات مما ينطق به الطير أو يومىء به النبات . فكم جرس شجي لهن كانه صدى الوتر المقطوع في الغرفة المهجورة . وكم ضحكة ذات رنين يدور في مسامع النفس كما يدور فيها هزج الابتسامة الصامتة . وكم لثمة تلمسها الايدي قطرة ندى وتحسها الشفاه رضاب ثغر برود اللمى . وكم نظرة تشخص بعينيك لها ثم تمحى عنك في لألاء الضوء . فاذا أنت شاخص الى الفضاء ممتلىء العين بالهواء . وكم عبث لهن وكم دلال وكم صد لا يبلغ أقبح الهجر حتى يرتد الى أحسن الوصال . لا أملُّ عبثهن ولا يمللنه . ولا أقطع حديثهن ولا يقطعنه . وربما لج بهن العبث والمراح فيختبئن عني ساعة في ألفاف الروضة حتى اذا أمعنَّ هربا ، واعيينني بحثا وطلبا ، خرجن إليَّ من جانب الطلل ضاحكات ، او أقبلن على اكف الموج سابحات ، وتسابقن الي كما يتسابق الأطفال الغيارى . وكلهن حبيبات اليَّ اثيرات لدي . خلا واحدة منهن كانت مولعة بالأذى . مسلطة على النكاية . قد دلها اللعب والفضول على سهم قر في جانب القلب وكاد يندمل جرحه ، فما زالت منذ عرفته تدمن اللعب فيه ، وتنكأه حتى تدميه ، لا يزيدها النهي الا اغراء ، ولا الغضب الا استهزاء ، ووالله لا اعلم أأنا أحبها ام اقلاها ، وهل هي اود اخواتها إليَّ ام اقساهن علي . ولا أدري ادلها اللعب والفضول على ذلك السهم ام انا قد دللتها عليه ، وكانت تعصاني اذ انهاها عن مسه ام كانت تطيعني بتلك المخالفة وترضيني بذلك الاغضاب ؟ لا اعلم . وكثيرا ما يجهل الانسان اسرار نفسه .

***

كذلك تنصرم الليالي . فإما تنصف الليل أو كاد لبثت برهة أنظر الى

الدنيا تغرق في جوف الليل الحالك العميق ، وأنصت الى لاغية المدينة تهبط رويدا رويدا في ذلك الجب الأسود فما هي الا هنيهة ثم لا يسمع منها السامع الا أنين ساقية يضربون بها المثل في طول الانين والنحيب ، والاهتاف النواتية يجأرون في شمال المدينة بأصوات هي بأصوات العناصر أشبه منها بغناء بني الانسان .

***

أيها الليل

ان ظلما من الفلك الدائر أن جعلك مهجع الحواس ، ومخدع العقول ، وان فيك يا ليل من مسارح النظر ، ومطارح الفكر ، لما هو أرفق بالحواس من النهار وأحلى ، وأحوج الى العين والفؤاد وأجلى

أيها الليل

لئن أنامت فيك الطبيعة أبناءها لقد أسهرت عشاقها وأخلاءها ـ أولئك تأويهم الى أحضانها ، وتكنفهم بحنانها . وهؤلاء تظهرهم على ظاهر زينتها وباطن جنانها . وتمتعهم بمباهج خدرها ثم تطلعهم على سرائر وجدانها ، وكلا أرضت بما قسمت . فلا عقّت الابناء ، ولا ظلمت العشاق والاخلاء .

أيها الليل

أنت رب الأرباب الاقدمين وإله الآلهة الاولين . فيك فلا بدع يتهجد العباد وتنطلق أرواح الآلهة المحبوسة ، وفي ظلامك الذي يشرق فيه نور الضمير يجد الكافر الهه ويظفر التائه المضلل بقطبه . قال يونج « بالليل يعود الملحد نصف مؤمن بالله » . وقد صدق . فما من شك في

ساعات بين الكتب

ـ ٣ ـ

الكتب

الكتب كالناس . . . منهم السيد الوقور ، ومنهم الكيس الظريف ، ومنهم الجميل الرائع والساذج الصادق والاريب المخطىء ، ومنهم الخائن والجاهل والوضيع والخليع . والدنيا تتسع لكل هؤلاء . ولن تكون المكتبة كاملة الا اذا كانت مثلا كاملا للدنيا .

يقول لك المرشدون اقرأ ما ينفعك . ولكني أقول بل انتفع مما تقرأ ، اذ كيف تعرف ما ينفعك من الكتب قبل قراءته ؟

إن القارىء الذي لا يقرأ الا الكتب المنتقاة كالمريض الذي لا يأكل الا الأطعمة المنتقاة . يدل ذلك على ضعف المعدة أكثر مما يدل على جودة القابلية .

واعلم أن من الكتب الغث والسمين . وأن السمين يفسد المعدة الضعيفة ، وأنه ما من طعام غث إلا والمعدة القوية مستخرجة منه مادة غذاء ، ودم حياة وفتاء . فان كنت ضعيف المعدة فتحام السمين كما تتحامى الغث . وان كنت من ذوي المعدات القوية فاعلم أن لك من كل طعام غذاء صالحاً .

وان من منظر أنت تراه فلا تود أن تراه بعدها . أو صوت تسمعه ثم لا تحب أن تسمعه آخر العمر . فلا أدري من أين داخل القراء أن الكتاب انما يقرأ قراءة واحدة . مع أن الكتاب أخفى رموزاً وأكثر مناحي نظر من المنظر والصوت . وأنت تنمو بعقلك أكثر من نموك بحواسك ، فانت احرى أن تعاود النظر فيما يمتحن به نمو الفكر ومن كان يفهم أن قراءة الكتاب شيء غير الاتيان على كلماته ، وان درسه مطلب غير استظهار صفحاته ، فعليه بلا ريب أن يكرر قراءته كلما استطاع ، لأن كتابا تعيد قراءته مرتين هو أغنى وأكثر من كتابين تقرأ كلا منهما مرة واحدة .

ثم اعلم انه ليس بأنفس الكتب ولا بأجلها الكتاب الذي تتوق الى اعادته بعد قراءته . وليس بافرغ الكتب ولا بأقلها الكتاب الذي تقنع بتركه بعد الفراغ منه . فإنك ربما صادفك الكتاب الأجوف المغلق فأعجبتك رنته فجعلت تقلبه على كل جنب لعلك ان تخلص الى لبابه ولا لباب له ، وربما صادفك السفر القيم الشافي فانتهيت الى آخره مرتاحاً مصدقا فقنعت بذلك منه . وقد عهدنا الناس يمنعهم البخيل فيراجعونه ويلحون عليه ويعطيهم المنعم الكريم فيهجرونه ويعرضون عنه ، وتلك ضرائبهم في مصاحبة الكتب . فلا تكن في المطالعة من هؤلاء .

وطريقتي في القراءة ان لا اذهب مع الطرف في الصحيفة الا ريثما أذهب مع الفكر في نفسي . فقد اتناول الكتاب ابدأ فيه حيث ابدأ اذا كان من غير الكتب التي يلتزم فيها الترتيب والتعقيب ، فيستوقفني رأي او عبارة تفتح لي بابا من البحث والروية فأمضي معها وأطويه فلا أنظر فيه بقية ذلك اليوم او انتقل منه الى كتاب آخر . وأجد هذا التوجيه في انفس الكتب كما اجده في أردئها . فلا أميز بينها في الابتداء . ولا يكاد

يستدرجني الى المضاء في المطالعة غير موضوع يستوعب ذهني ويأخذ علي المؤلف فيه باب الانفراد بالفكر دونه .

فأما وقد عرفت رأيي في الكتب وطريقتي في المطالعة فهلم نقرأ .

ساعات بين الكتب

— ٤ —

ابن زيدون

يروج الادب في ايام السقوطكما يروج في أيام الرفعة . والمعول في الحالين على نوع الأدب ومادته لا على كثرته او ندرته. . ولقد راج الادب رواجه المعروف في أيام اضمحلال الاندلس وادبار دولتها . وما راج فيها ذلك الأدب الخاص بأيام ملوك الطوائف الا لاضمحلال وادبار الدولة . فإنه قد شاعت على عهدهم مجالس المنادمة واللهو بين الرؤساء والكبراء بل نزلت الى مصاف السوقة والعامة ، وقعد الناس لها ولاقتناء آلاتها والتباري فيها ثم دعت الحاجة الى النظم والمطارحة في هذه الملاهي فدار أدبهم كله على هذا المحور . فكان الغلام او الجارية لا يساوم فيهما الا على قدر حظهما من الادب وكان الفتى لا يظرف محضره ويعذب سمره حتى يروي من ملح النظم والنثر ونوادر الشراب والمجون ما يناسب تلك المجالس ويصلح ان يدور مع الكأس على الندماء ، فانعدم الشعر الفحل وكسد الأدب الجزل وراجت سوق الأدباء والمؤدبين في الاندلس لهذا السبب لا لشوكة الدولة ومنعة الملك والأمة .

ومن الشعراء المبرزين في ايام ملوك الطوائف ابو الوليد بن

زيدون ـ اديب كانت قصائده مروية في انحاء الجزيرة ، وكان إماما يتحداه ادباؤها ويأخذون عنه وهو شاعر سلس المذهب متخير اللفظ ، تقرأ شعره فيطرفك ويروقك ولكنه لا يستحوذ على لبك ولا ينطبع في نفسك . قال ابو محمد عبد الواحد المراكشي في تلخيص اخبار المغرب : « نسيبه يختلط بالروح رقة ويمتزج باجزاء الهواء لطافة » وقال ابن بسام في الذخيرة :«ان له حظا من النثر غريب المباني شعري الالفاظ والمعاني »

والاصح عندنا أن يقال ان النثر في نظمه أكثر من الشعر وان ذوقه كان أقل من ظرفه وكان ذكاؤه اظهر من عاطفته وان الصنعة أبين في شعره من الطبع . ألا ترى أنه في احر قصائده التي نسب فيها بولادة لم ينس الطباق والمقابلة بين ابتلال الجوانح وجفاف المآقي في قوله :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

أو بين سواد الايام وبياض الليالي في قوله :

حالت لبعدكم أيامنا فغدت   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

او بين السدرة والكوثر وبين الزقوم والغسلين في قوله :

يا جنة الخلد ابدلنا بسدرتها   والكوثر العذب زقُّوما وغسلينا

وقد لهج ابن زيدون بولادة ايما لهج واربت قصائده فيها على قصائد المجنون في ليلاه ولكنك يندر ان تعثر بينها ببيت غلب فيه عشق الرجل للمرأة على صحبة الوزير لبنت الأمير واخاء الأديب للاديبة . وهكذا كانت محبة ابن زيدون لولادة . فانه يلوح لنا من قصته معها ومن شعره فيها انه تحبب اليها منافسة لابن عبدوس الذي كان يزاحمه على الرئاسة ويقارعه في الشرف ويسابقه على الصدر في نادي ولادة . ولا يندر بين

الرجال من يهوى المرأة لئلا يهواها عدوه ، فلا يتوقف هواه لها على جمالها او على تبادل الهوى بينهما ولكن على المنافسة بينه وبين اقرانه ونظرائه .

وكان لولادة ناد مشهود كاندية الاندلس في ذلك الوقت ، وهو اشبه شيء (بالصالونات) التي كانت تعقدها النساء المتأدبات في ابان الثورة الفرنسية فيؤمها الأدباء ليتنافسوا على الحب والشهرة ويجمعوا بين مطارحة الغرام ومطارحة الكلام ويمثلوا من الروايات الهزلية ما ليس يخلو منه مجلس فيه نساء يدعين العلم ويشتهين تحبير الرسائل الغرامية . ولا بد للانسان في اندية كهذه من أن يعشق ويساجل من له علم بالأدب ومن لا علم له به . فان لم يشعر في نفسه بلوعة العشق ولم يحسن المساجلة فعليه أن يتصنع حتى يتقن دوره ، ولا يعفيه من هذا الواجب تقدم السن ولا الخجل من مخالفة الطبع والعرف ، كلا ! فانه لم يمنع عجوزا عمياء في السبعين من عمرها أن تتدله بكهل من دهاة السياسة في الخمسين من عمره[1] ولا أبى عليها ان تقضي بقية حياتها الصالحة تئن من الصبابة لا من أدواء الشيخوخة ، وتبث فاتنها لواعج الوله والهيام لا دعوات الشفقة والحنان !!! واين اديبات الاندلس من هذا المضمار . . !

وكان ابن زيدون ممن وهبوا ذلاقة اللسان ورزقوا الفصاحة وحسن المحاضرة . فكان حدثا[2] لبقا وخطيبا لسنا . قال ابن بسام : « عهدي بابن زيدون قائما على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فما سمعته يجيب احدا بما أجاب به غيره لسعة ميدانه وحضور جنانه »

---

(١) هو الوزير الانجليزي هوراس والبول وعاشقته هي مداه ديفان من أديبات الصالونات الفرنسية .

(٢) أي حسن الحديث

وهبة الذلاقة والفصاحة قلما تتيسر لاحد مع عمق العاطفة وغزارة الشعور ، ويقول جون ستوارت ميل في فصل له على تعريف الشعر انهما لا تتفقان في الأمة الواحدة ، ففرق بين الفرنسيين والانكليز بأن الاولين أمة الفصاحة والآخرين أمة العاطفة . وقريب من هذا قول سهل بن هاورن « اللسان البليغ والشعر الجيد وبلاغة القلم » والفصاحة أليق ما تكون حلية من حلى النثر ، وشقاشق الخطابة . وانما كان ابن زيدون شاعرا فصيحا كما كان كاتبا فصيحاً وكما كان متكلما فصيحا ولم يكن كذلك لمزية له في الشعر على غير الشعر ولا لان فصاحته التي لم تكن تفارقه كانت تنم على قوة عاطفة فيه اذ المعهود أن قوة العاطفة لا تملك الانسان في كل حين ولا تلازمه في حيث يتكلم جادا ولاهيا وفي حيث يلقي الخطب ويقرض فنون الشعر . ولكن لانه كان حسن موهبة الكلام وكان كلامه طوع ارادته لا طوع خوالجه واطواره .

وهذه الفصاحة فيه هي التي خيل لابن بسام انها رونق الشعر في كلامه المنثور ، فوحد الشعر والفصاحة ، وهما جد مختلفين ، وشتان معدن الشيء وطلاؤه .

فاقرأ له النبذة الآتية من الكتاب الذي سطره الى ابن عبدوس على لسان ولادة .

« ولا شك انها قلتك اذ لم تضن بك [1] ، وملتك اذ لم تغر عليك فإنها قد اعذرت في السفارة لك ، وما قصرت في النيابة عنك . زاعمة أن المروءة لفظ انت معناه ، والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه . حتى

---

(١) يشير الى امرأة كان قد دسها ابن عبدوس الى ولادة لترغبها فيه

خيلت أن يوسف حاسنك فغضضت منه . وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه » الخ . وهي مثل صالح لنثره كله . فهل تعد لشعر ابن زيدون حسنة في عذوبة اللفظ وصفاء العبارة ولطف الاستهزاء احياناً الا عددت شرواها في هذا النثر ؟ والشاعر ما لم تكن لشعره مزية على نثره فالنثر به أجدر ، وهو على غير الشعر أقدرْ .

لكنك لا تخطىء أن تصادف في ديوان ابن زيدون البيت أو الأبيات فيها الوصف الصادق والشعر المطبوعْ . كقوله :

واهاً لعطفك والزمان كأنه صبغت غضارته ببرد صباك
والليل مهما طال قصر طوله هاتي وقد غفل الرقيب وهاك
يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم أكاد به أقبل فاك

ومثل قوله :

ورد تألق في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين اشراقا

ومثل قوله في الذكرى

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى حفظ الله زمانا أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك

وهي أبيات نقية بارعة ليس عليها شيء من تمويه الصنعة ولا يتخللها شيء من الشعور المكذوب والاحساس المدعى . فهي تسبق القارىء الى نفسه وتذكره لاول نظرة بامثال موقفها من مواقفه . وقد بلغ من سوء فهم الشعر قديما ان بعض الرواة نسب هذه الأبيات الى ولادة

وزعموا انها انشدتها ابن زيدون بعد أول لقاء لهما ! ولا نعلم ماذا يصنع هؤلاء الرواة بقوله (كم بت اشكو) ؟ وهل هذا مما ينشد بعد اللقاء الأول ؟ وقال أحد باشوات مصر المحسوبين على الأدب في محاضرة القاها على تاريخ ابن زيدون انه ارتجل هذه الأبيات وهو يودع ولادة ذات يوم . . . ولو انه كان يفهم الشعر ولو كما يفهم الحفاظ آي القرآن لادرك أنها أبيات لا تقال في موقف الوداع . اذ كيف يقرع السن على أنه لم يكن زاد خطوة في تشييعها وهو لم يزل بعد في موقف التشييع ؟

أما سائر شعر ابن زيدون مما لا يتعلق به الاختيار فهو كشعر عصره ، وكشعر كل عصر من عصور الاسترخاء والترف ، لا يخرجه عن الطريقة وكونه من أحسن أهلها متاعا ، وأطولهم في النظم باعا .

وما يدريك عصر الاسترخاء والترف ؟ انه عصر تزيغ فيه الابصار والبصائر فتكل عما وراء القشور والظواهر . عصر تكون البهائم فيه أصدق حباً من الناس لأن البهائم لا تلعب بحبها ولا تبتذل غرائزها . تهجع المشاعر في أمثال ذلك العصر فتعربد الحواس ، ويموت الحب الفطري فتمرح في رفاته ديدان الشهوات ويأخذ الناس من كل شيء بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه الى الحس وأصغره ، فلا يكون الجمال الا صبغة في البشرة تلحسها الالسنة حتى تزول ثم تمجها كما يمج البصاق الملوث من فرط التقزز والاحتقار ، ولا تكون البساتين والامواه الا مجالس شراب ومراوح هواء ، ولا الطبيعة بكلأها ورياحينها وثمارها الا طنفسة مطرزة بمختلف الالوان والاشكال ، ولا الشعر الا بهرجا براقا لو صور بشرا سويا لنالت منه العيون ما لا تنال النفوس ، ولا الأخلاق والمروءة والشرف الا آدابا يصطلح عليها المعاقرون ليدوم لهم صفو

المجلس ، ثم ما شاء المعاقر بعد ذلك من غي وشنار ، وما طاب له من عبث واستهتار لا يشينه ذلك ولا يقدح في آدابه .

فكانت ولادة يومئذ تلقب ابن زيدون بالمسدس وتفسر هذا اللقب بهذا البيت :

فلـوطـي ومـأبـون وزان   وديـوث وقـرنـان وسارق

وتكتب على طرازها الايمن :

أنـا والله أصلـح للمعالي   وأمشي مشيتـي وأتيه تيها

وعلى الأيسر :

وأمكن عاشقي من صحن خدي   وأعطـي قبلتـي من يشتهيها

ويجيء المؤرخ الاندلسي فلا يرى في شيء من هذا ما يدنس عرض المرأة ويغض من حيائها ولا يبالي أن يصفها بالصيانة والعفة والكمال . . .

ومما يدل أبلغ دلالة على حالة الاخلاق والأذواق في ذلك العصر ما حدث به أبو عمر المالقي حيث قال : « كنت جالسا بمنزل بمالقة فهاجت نفسي أن أخرج الى الجبانة وكان يوماً شديد الحر فراودتها على القعود فلم تمكني من القعود فمشيت حتى انتهيت الى مسجد يعرف برابطة الغبار وعنده الخطيب أبو محمد بن عبد الوهاب بن علي المالقي فقال لي اني كنت أدعو الله تعالى أن يأتيني بك وقد فعل فالحمد لله ، فأخبرته بما كان مني ثم جلست عنده فقال أنشدني فأنشدته لبعض الأندلسيين :

عصبـوا الصباح فقسمـوه خدودا   واستوعبـوا قصـب الاراك قدوذا
ورأوا حصا الياقـوت دون نحورهـم   فتقلـدوا شهـب النجـوم عقودا

لم يكفهم حد الأسنة والظبا حتى استعاروا أعينا وخدودا

فصاح الشيخ وأغمي عليه وتصبب عرقا ثم أفاق بعد ساعة وقال :

« اعذرني فشيئان يقهرانني ولا أملك نفسي عندهما : النظر الى الوجه الحسن وسماع الشعر المطبوع » .

وقد ألف الضرب على هذا اللحن شعراء الأندلس فقال بعضهم فيه ايضاً :

سلبوا الغصون معاطفا وقدودا . وتقاسموا ورد الرياض خدودا
تخذوا البنفسج في الشقيق عوارضاً والياسمين معاطفا وزنوداً
بدلوا الخصور من الخناصر دقة واستبدلوا حقق اللجين نهودا

فهل عرفت في هذا النحو قط أغرب من صبوة ذلك الشيخ الخطيب وتواجده واضطرابه حتى أغمي عليه طربا لسماع تلك الأبيات وتصبب جسمه عرقا ؟ وهل رأيت عمرك أملح من هؤلاء الشبان ذوي النهود أو الشواب ذوات العوارض في الخدود ؟

كذلك كانت صبوة القوم ومشربهم ، وكذلك كان الشعر الذي كان يطربهم ، اذا أرادوا أن ينبهوا بصائرهم الكليلة أو يحركوها وضعوا أمامها الصباح والشهب واليواقيت وكل ساطعة ولامعة صبرة واحدة لأنها لا تنتبه لما دون ذلك من المناظر الطبيعية . وتنظر الى أشعارهم واوصافهم ودواعي السرور والحزن عندهم فيذكرك كل ما تراه منها بحال المختبل السقيم أو المخدر المذهوب العقل . . . تراه مثاقل الأعضاء بطيء النفس راكدا يفسده السكون ولا تصلحه الحركة ، وتلمح في طبعه روحاً تتوهمه سماحة وما هو بسماحة ، وفي خلقه مجوناً تحسبه فطنة وهو نقيض

الفطنة ، ينعكس النور على عينيه فيملأ الدنيا أمامه رهجا ووميضا ، وهو اذا سار في طريقه صدمته المحسوسات كأن الدنيا ظلام دامس وليل أليل ، وما تشاهد عدا هذا من عرض من أعراض التخدر في الرجل ، فهو أيضاً عرض من أعراض السقوط في الأمة . هما في ذلكم سواء .

ساعات بين الكتب

٥
الغزل الطبيعي

من الأوهام التي شاعت بين قراء الشعر عندنا وبعض قرائه في الأمم الأخرى أن الرقة هي الصفة الأولى للشعر كله أو هي مزيته على النثر والكتابة والمباحث العقلية البحتة ، وان شعر الغزل على الخصوص ينبغي أن يكون مفرطاً في رقته بعيداً عن الخشونة وعن كل ما يذكر السامع بالعنف والقوة ، فلا يحسب من شعراء الغزل المجيدين الا من كان ظريف النسيب ، خافت الصوت والوجيب ، مكثرا من الشكاية والنحيب ، فان بدرت منه كلمة جامحة ؛ وأفلتت من وقدة صدره نفثة لافحة . فليس ذلك بغزل ، وليس الشاعر بمطبوع على العشق ولا بمدرب على « العواطف » ، ولكنه دخيل في هذه الصناعة متكلف لها . . .

إن هذا الوهم لا يقف ضرره عند حد الخطأ في فهم الشعر أو في الحكم على مقاييس الآداب والفنون عامة ولا يدل على فساد ذوق ونقص في ملكة التمييز بين صنوف الجمال فحسب . ولكنه يدل قبل ذلك على مرض في المزاج وضعف في الأخلاق وسخف في مدارك الفكر ، واذا دل على هذه الخلال فقد دل على ما يلازمها من سقوط الهمم وخبث الطباع

وأعراض التأخر والفتور في الأمم ، لأن النفس التي تحس الحياة حق الاحساس وتجاري الطبيعة في قوانينها ومقاصدها لا يمكن أن تجهل العشق هذا الجهل ولا تخطىء في وصف التعبير عنه الى هذا الحد . ولا حظّ في الحياة لمن انقطعت بينه وبينها صلة الشعور الصحيح المستقيم .

ونعتقد انه ليس أعون لنا على فهم طبيعة العشق الصادق من الالتفات الى نقطة واحدة : وهي علة استئثار الرجل بالغزل دون المرأة . فلماذا انفرد الرجال بالغزل ولم تنفرد به النساء إنْ كان مصدره الرقة واللين والنعومة ، وكان براء من العنف والقسوة والخشونة ؟؟؟؟ ولماذا يباح للرجل أن يطلب المرأة ويحمد منه الالحاح في طلبها ولا يباح لها أن تطلبه ولا يحمد منها أن تستجيب لأول دعوة منه ؟؟

ان الرجل لا يستأثر بذلك عبثا ولكن لأنه أقوى عاطفة وأقدر على التغلب برغبته من المرأة ، ولهذا السبب استأثر في أول الامر بالزينة والحلى[1] ثم شاركته المرأة فيها فانفرد دونها بالكشوط والندوب لأنها شارة الايد والبسالة ، ولهذا أيضاً استأثر بالنداء على المرأة واستدعائها اليه بالغناء الصوتي أو الغناء المقسم بالحروف . وهما أصل الغزل في الأجياء جميعاً .

ولست أرى أن المرأة كانت تطرب حينئذ للأصوات من حيث هي جميلة وأجمل . ولكنها كانت تسمع أكثر الأصوات تنوع نبرات . وتفاوت مقامات . فتجدها أكثرها انفعالا وحرارة وأدلها على القوة والرجولة . فتهيج فيها العاطفة العاطفة . وتبعث الرغبة الرغبة . وتنقاد للرجل

---

(١) قال لورد افبري في كتابه نشأة المدنية : « للهمج شغف عظيم بالزينة . وانه لينلر بين قبائل من أوضع البشر من يتزين من النساء لأن الرجال يخصون بالزينة أنفسهم » .

الذي استطاع أن يزعج فيها رغبة العشق انقياد المجبر لا انقياد المنصت المميز بين توقيع حسن وتوقيع أحسن منه ولهذا كان الرجل هو البادىء بالصياح ، اذ كان هو الأقوى صدرا . والأشد من ثم تأثيرا . فاذا امتلأ صدره بالهواء الحار أزجى به صوتا يردده الانفعال بين الارتفاع والهبوط والاستقامة والاهتزاز على الرغم من صاحبه . فيكون الغناء في أبسط حالاته . ويغلظ لأجل ذلك صوت الرجل بعد البلوغ ولا يكاد صوت المرأة يتغير .

وقد تلمس دارون علة الطرب من ناحية الرقة والرخامة فعسر عليه الوصول الى مصدرها وقال في كتابه أصل الانسان : « لو سأل سائل ما بال بعض الالحان والأوزان يرتاح اليه الانسان وأنواع من الحيوان ؟؟ لما كان في وسعنا أن نجيب عن ذلك الا بجواب السؤال عن سبب ارتياحها الى بعض المذوقات والمشمومات » .

وليس الأمر كذلك . لأننا اذا تلمسنا علة الطرب أولا من جهة التأثر بقوة الصوت وجدنا الجواب على ذلك السؤال سهلا قريبا وأمكننا أن نجيب من يسألنا : لماذا يؤثر أعمق الأصوات ارتجافاً وتمويداً . وأكثرها تنوعا وتجويداً ؟؟ فنقول له : لأنها ترجمان العاطفة الشديدة . والعاطفة من شأنها أن تبعث العاطفة .

ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعقد الصوت الفاظاً وحروفاً ، فيتدفق الغزل من النفس المحتدمة تدفقا قويا عارماً . ويكون أجهر الرجال رغبة أهيجهم لرغبة المرأة . وأبلغهم الى نفسها كلاما واغلبهم على طبعها سلطاناً . ويكون الشاعر الأول في عصور الفطرة هو أعنف الرجال عشقا . وأضراهم هياما .

****

فالعشق في طبيعته الأولى بعيد عن الرفق والسلاسة . وإنما هو شواظ لاذع يلتف دخانه بناره . ويتلهب شوقا الى وقوده ، فان أصابه خمد وعاد الشاعر يترنم بهناءة نفسه ، ويغتبط بالراحة من سورة طبعه . وإن لم يصب وقودا كان نقمة لا تطاق . وأي رقة في قول المجنون :

كأن فؤادي في مخالب طائر اذا ذكرت ليلىٰ يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم عليّ فما تزداد طولا ولا عرضا

إن قلب السامع لينقبض ، وان صدره ليحرج لهذا الوصف . ومع هذا أي شعر أبرع من هذا الشعر وأي شاعر أطبع وأعشق من المجنون ؟؟ وليس العشق الصادق ، حين يشب أواره وتتأزم حلقاته ، بالعاطفة التي يود صاحبها دوامها ويستريح الى مناجاتها . كلا . وانما هو غمة مطبقة يود المبتلى بها لو تنقضي لساعتها ، ويقوم في نفسه عراك لا تهدأ ثائرته ولا يهنأ بالغلبة فيه ، لأنه هو الغالب وهو المغلوب . وكأنما ينزع نفسه من نفسه فيضيق ذرعا ويغوث من كرب هذا النزاع . نزاع الحيرة التي يقول فيها المجنون :

فواللّه ما في القرب لي منك راحة ولا البعد يسليني ولا أنا صابر
وواللّه ما أدري بأية حيلة وأي مرام أو خطار أخاطر

وكان كاتيولس[1] الشاعر الروماني يدعو الآلهة قائلا « أيتها الآلهة ان كانت لك رحمة بالقلوب الصديعة المشفية . فبحق براءتي عليك الاما نظرت الى عذابي ، ورثيت لما بي . ومسحت عني هذا الوباء الماحق . والبلاء اللاحق . وهذه اللوعة التي تسربت رعدتها في عروقي . فنفت

(١) (Gaius Valerius Catullus) شاعر لاتيني ولد في فيرونا سنة ٨٤ قبل الميلاد ومات سنة ٥٤ وهو من أكبر شعراء العشق في اللغة اللاتينية ومن أمثال قيس وعروة وجميل وكثير عندنا .

الهناء عن قلبي » .

وهي رعدة عروة بن حزام التي يقول فيها :

واني لتعروني لذكراك رعدة لها بين جلدي والعظام دبيب

ووهلة المجنون التي يصفها بقوله :

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائر كان في صدري

فان طاوعته نفسه في نزاعه ذاك والإحنق عليها ، وذهب به الحب الى كره ذلك المخلوق المسلط عليه ، الذي حرمه نعمة الطمأنينة ، وجلب عليه هذا الشر ، وفرق بينه وبين نفسه . فيحب ويكره في آن . وربما تمنى لحبيبه الموت لعل اليأس منه أن يشفيه كما قال جنادة العذري :

من حبها اتمنى أن يلاقيني من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول فراق لا لقاء له وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها
ولو تموت لراعتني وقلت الا يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

وكان كاتيولس يقول : « إني لأكره وأحب . تسألني كيف ذلك ؟؟ من يدري . ولكني أحس بحقيقة هذا الأمر وشدة برحائه » .
وكذلك كان يقول المجنون : ـ

فيا رب اذ صيرت ليلى هي المنى فزني بعينيها كما زنتها ليا
والا فبغضها الي وأهلها فأني بليلى قد لقيت الدواهيا

وليس في نعت الحب بالداهية شيء من الرقة والدماثة ولكنها حقيقة اتفق عليها شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لغة ؛ أو مشرب قوم أو وحدة زمن . ولكنهما اجتمعا على عاطفة انسانية صادقة ـ بل اتفق عليها

كل شاعر عالج من العشق ما عالجه هذان الشاعران .

وأحيانا يثوب العاشق الى نفسه فيبدو له كأنه مختار في شغفه وسلوته ، وكأن الأمر لا يعني غيره ، فإن شاء سدر في الحب وان شاء صدف ، وان شاء مضى مع قلبه وان شاء وقف . فلا ينشب أن يستيقن عجزه وقلة حيلته ، وأن الأمر فوق يده ووراء مشيئته ، وهذا الذي يصفه جميل اذ يقول :

ألا قاتل الله الهوى كيف قادني كما قيد مغلول اليدين أسير

وهنا يخيل اليه أو إلى الناس أن قوة فوق قوة الانسان تقهره على مشيئته وان رقية من رقى السحر أو طائفا من طوائف الجن يحول بينه وبين حريته . كما خيل لذلك الشاعر الروماني حين قال : ـ « أيتها الساحرة . لئن جملتك طلاسمك في عيني لتعلمن أن الوجد أطول أجلا من الاجلال . واني لأهواك ولست بعد الا محتقرا لك . وان عد هذا ضربا من الخيال » .

وكما يقول المجنون : ـ

هي السحر الا أن للسحر رقية واني لا ألقى لها الدهر راقيا

أو كما يقول جميل :

يقولون مسحور يجن بذكرها فأقسم ما بي من جنون ولا سحر

وما الجنون والسحر الا ما به . والا فهل للعشق وصف أصدق من انه مزيج من جنون وسحر ؟؟ هل هو الا جنون يعتقل العقل ويهزأ بالحذر ويطير مع الأهواء فإن ثقلت عليه النهى أزاحها عن عاتقه ومضى

لطيته ؟؟ ألا يعرف العاشق ما يوبقه ولكنه لا يحيد عنه ، ويبصر ما يشفيه وهو يأبى أن يذوقه ؟؟ وهل العشق المبرح الا أن يغطي على السمع والبصر ، وأن ينفث النفثة التي لا ينجع فيها طب طبيب ولا نشرة عراف ، فاذا بالفريسة المغلولة مأخوذة بين يديه كما يؤخذ المسحور الى حيث أراد الساحر . وكما يثب الوسنان من وساده على غير هدى ، وهو المفيق الخادر والنائم الساهر ؟؟

ولا داعي للعجب من وجود عاطفة في نفس الانسان تأسره هذا الأسر المؤلم الشديد ولا من وقوع الانسان في أسر هذه العاطفة باختياره وأسفه عليها بعد زوال صرعتها ؟ وانفثاء لوعتها ؛ ولا من حنينه الى ما يعانيه من عسفها كما يقول البحتري : ـ

وددت اني ما قضيت لبانة   منكم ولا أني شفيت غليلي
وأعد برئي من هواك رزيئة   والبرء أكبر غاية المكبول

نقول لا داعي للعجب من ذلك ، لأن الغرض من العشق غير مقصور على لذة الفرد ومصلحته ولكنه غريزة يراد بها بقاء النوع كله واتصال حبل الحياة جيلا بعد جيل ، فلا عجب اذا صغرت حيلة الانسان وعيت مداركه عن مناصبة هواه فيه لأن المدارك مدارك فرد واحد والهوى هوى نوع بأسره .

***

ومن محاسن جميل واخوانه من الشعراء الغزليين أمانتهم في الاعراب عن النفس والبث بالعاطفة . انظر الى قوله :

أرى كل معشوقين غيري وغيرها   يلذان في الدنيا ويغتبطان
وأمشي وتمشي في البلاد كأننا   أسيران للاعداء مرتهنان

فهكذا ظن جميل ، وهكذا يظن كل عاشق يسمع بلذة العشق ولا يرى أين هي ، فيحسب انه هو الشقي وحده وأن العشاق كلهم سعداء . والحقيقة أن العشق لا يخلو من الشقاء أبدا ، ولو خلا منه لكان أشبه باللهو الذي يتشاغل به البطالون والمجان كعشق عمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف واضرابهما من المخنثين . عشق أملس وقشعريرة ناعمة حلوة . فأما ما يبلغ منه الصميم ، ويخترق الشغاف . وتتقاتل فيه الأهواء وينتهب من النفس أخفى خفاياها . وأعمق دفائنها . فبعيد أن يكون لذيذا بالمعنى المعروف من اللذة .

وما هو الا أن تخبو في النفس تلك الشعلة وتترك فيها رمادها حتى يشعر العاشق ببرد الفراغ . ويذوق لذة الاحتراق بعد شفاء الكي واندمال القرحة . ويعلم حينئذ أن السعادة التي سمع بها هي تلك القوة التي كانت تصطرع للظهور . وتتأجج للسطوع . وان الانسان يسعد بقدر ما تأخذ نزعاته وعواطفه من مجراها ، وتنطلق في مداها ، ولو كان في ذلك هلاكه . وأنه خير له أن تكون هي قبره من أن يكون هو قبرها ، فيطرح نفسه مرة اخرى بين جناحي العشق الذي كان يجاذب ما يجاذب للافلات من أوهاقه ، ويود لو أتيح له أن يستعيد تلك الغرارة التي استقبل بها العشق للمرة الأولى . وهذا لون من الجنون . ولكنه جنون ليس لانسان أن يفخر بسلامته منه أو تغلبه عليه . لأن التغلب عليه قد يدل على ضعف الطبع لا على قوة العقل . ولا يصعب على أضعف الناس عقلا أن يكبح هذه العاطفة اذا كان طبعه أضعف من عقله .

وليس مرادنا بأن العشق غريزة نوعية انه محصور في معنى معين ومحبوس في شعور واحد ، اذ لا يخفى أن الغرائز النوعية متداخلة

متوشجة ، والعشق منها على وجه التخصيص يدخل في كل ما ليس بأناني صرف من الطباع والأخلاق . ولذا سادت الانانية على الطفولة والشيخوخة لأنهما خاليتان منه ، وكانت الشبيبة وهي سن العشق سن الغيرية والايثار والمفاداة .

فليس تأثير العشق مما يقف عند الغرض الأول منه ولا هو بمقصور على العلاقة النسلية بين الرجل والمرأة ولكنه يمتد الى كل غريزة سواء أكان لها ارتباط بالشوق الجنسي أم لم يكن . وربما ملك النفس وتمكن منها ولم يبلغ من تأثيره النوعي عليها الا أن يذكي فيها الغرائز الغيرية التي تقوم عليها علاقات المجتمع وان ينمي الأذواق النوعية الأخرى التي تترجم عنها الفنون الجميلة من شعر وتصوير وغناء ، ولذا كان أهل هذه الفنون ممن لا يستغنون عن العشق ، لأن موت عاطفته في نفوسهم يميت اذواقهم الفنية . وقد كان الفرسان في القرون الوسطى لا ينون بين حب وحرب ، يوري فيهم الحب نار الشجاعة وتشعل الشجاعة فيهم قبس الحب ، ويستحون أن يكون أحدهم محبا ثم لا يكون بطلا مغوارا ينضح عن ملته ومليكه ، لما بين الحب وحماية القبيلة أو الأمة من العلاقة الخفية ، وكان العرب لا يشهدون قتالا أو ييممون بلدا الا ذكروا ذلك لصواحبهم في شعرهم واستهلوا به قصائدهم وافتخروا به في غزلهم ونسيبهم ، كانما هم لم يقاتلوا ولم يرحلوا الا لأجلهن وابتغاء مرضاتهن . وما جعل للحب هذا السبق على العواطف النوعية ولا صيره حافزا لها يثيرها كلما ثار الا كونه أصلها طرا ، فهو بلا شك أول غريزة دعت انسانا الى انسان غيره .

هذه هي العاطفة التي ردها أرقاء الرقة الى ذلك الغزل المرذول الذي تقرأه للمتأخرين من شعراء الاندلس والعباسيين .

ساعات بين الكتب

٦

الأدب العصري

إذن فهل تستهجن الرقة في الشعر كله ؟؟ كلا فليس هذا ما نقوله ، وإنما نقول ان الرقة تعاب في غير موضعها وانها تملح بعض الأحيان في الشعر بقدر ما تملح في الرجل . ولكنها اذا كانت شرطاً من شروطه ، وغرضاً يبحث عنه ان لم يوجد فيه ، فقد ينم هذا الكلف على داء دخيل ، ويشف عن ذبول في الطباع غير جميل .

فمن ذا الذي يسمع الأغاني الشائعة في أيامنا هذه ممن استقامت فطرتهم وسلمت من المسخ أذواقهم فلا يخجله أن يكون هذا الطنين الخافت صدى نفوس آدمية ينتسب اليها وتنتسب اليه ، وأنه كل ما تستطيع تلك النفوس أن تعبر به عن احساساتها وأن تترجم به عن أسرار حياتها في اللغة التي خلقها الله للأحياء جميعاً ، والتي استطاعت الطير وغيرها من خلائق الله العجماء أن تعبر بها عن احساسات مختلفة ، ومطالب منوعة ، واستطاع أن يتعاطف بها من لا يتعاطفون بالكلام لقوة دلالتها وشيوع معانيها وعمق مصدرها من غرائز النفس وخوالجها ؟؟

أم من ذا الذي لا يؤسفه أن يسمع نقادنا وقراءنا يتسكعون في

لطائفهم ورقائقهم الغثة ، فيعجبهم الهذر إذا وافق ما يتحرونه من أصول الرقة ويثقل عليهم الكلام الفحل إذا خلا من تلك الأصول التي يتمحلونها ، ويقولون : هذا مما لا يسيغه الذوق ولا ينبغي أن يخاطب به المحبوب أو يشبه به ، وهذا يزري من لطافة الشعر وحلاوته ، وهذا قبيح بالغزل والتشبيب . وهذه كلمة غليظة أو لهجة خشنة ؟؟ الى غير ذلك مما يخيل اليك أن القوم خلقوا من الشمع الذائب لا من الطين اللازب ؟؟

من ذا الذي يسمع هذا وذاك ثم يخطر له أن هذه النفوس خليقة ان يحوك فيها شعور نبيل أو أمل كبير أو عاطفة قوية شريفة . وانها جديرة أن **تصبر على خطب داهم أو تذلل عقبة كؤوداً أو تقمع نزعة طائشة ؟؟**

لقد حارت الموسيقى والغناء عندنا الى مثل انين السقيم الحرض في طلب المرضة ، وبات ينشدنا المغني وكأنه يشفق أن يذود النعاس عن عيوننا . وجاءنا الغناء الافرنجي فسخر منه أكياسنا وتنادروا به وتقرر عندهم أن الافرنج محرومون من لذة السماع ، عاطلون عن حاسة الذوق ، كيف لا وهم يطربون لهذا الضجيج والصريخ ؟؟ **ولأكياسنا** العذر ، اذ من أين لهم أن يعلموا أن هذا هو الغناء وهم يخافون على آذانهم هذا الخوف ؟؟ ولو كانوا أقل خوفا عليها من ذلك لعلموا أن الرجل يخالجه الغضب كما يخالجه الطرب وأن النفس تدوي جوانبها بهزيم الرعد ويتجاوب في نواحيها زفيف الاعصار كما يرن في سمعها قطر الندى وزقاء الأطيار ، وأن الغناء هو صدى الطبيعة في النفس ولم يقل أحد ان الطبيعة لا تنطق الا همسا ولا تطرب الا بما يخدر وينيم .

وقد نجحف بالريفيين وسكان السواد اذا نحن عممنا القول ولم نخصصه بالحضريين أو بالفئة التي تدعي لنفسها الظرف والفهم منهم ، فان الريفيين برآء من هذه الرقة ، وقل فيهم من يهتز لأغاني الحضر ، ولا سيما الفني منها ، وربما تظاهروا بالطرب مجاراة وتقليدا وخوفا من أن يرميهم الحضريون بالجفاء وقلة الدراية ، وهم في الباطن يمجون هذا الضرب من السماع ولا يتحركون له كما يتحركون لاناشيدهم الشجية الساذجة . وقد سمعت أحدهم في محفل غناء يقول : ما بال الرجل ، ألعله يحتضر ؟؟ فضحك الذين حوله وعدوها جلافة قروية !! ولولا أن أغاني القرويين لا تجري مجرى الفنون لسذاجة واضعيها ونشوز الحانها لكانت مثلا في الغناء بما فيها من روح صريحة صحيحة مفعمة بالرجولة ، مع بلاغة في الأداء واستقامة وقصد في العبارة .

لقد كاد عبد الحمولي يحيي فن الغناء المصري وينفخ فيه روحا جديدا بمزجه بين الغناءين المصري والتركي[1] فانتعش بعض الانتعاش بهذا اللقاح . لكنه عاد فاستفل بعد موته . الا ما جدده بعض المغنين ، وفي يقيننا أن الغناء المصري لن يصبح فنا عاملا في حياة هذه الأمة ما بقيت المعازف والآلات التي يوقع عليها الآن على قصورها عن حكاية أصوات الطبيعة وترجيع شتى العوارض النفسية .

أما الأدب ـ فمع ان الشعر لا يتغنى به منذ زمن بعيد ـ فقد أصابه ما أصاب الغناء وزاد عليه فساد الفكر فوق فساد الذوق وبقايا التقاليد

---

(١) قالت اللادي مونتاجو في رسائلها « أؤكد لك أن موسيقى الترك بليغة مؤثرة جدا وقد أراني أميل الى تفضيل الموسيقى الايطالية . الا أن هذا ربما ينسب الى التحيز وأعرف قينة رومية تغني أحسن من الآنسة روبنصن وتتقن كلا من موسيقى الترك والطليان وهي ترجح الاولى على الثانية » وهذه شهادة امرأة مهذبة وقد سمعنا نحن ما أيد لنا أن للترك موسيقى حية .

الموروثة ، فكانت قيوده أثقل وقرا وجموده أصعب مراسا .

ورثنا آداب الأمة العربية على حين قد خارت عزائمها ومارت دعائمها واستحال شعرها الى كلام من فوقه كلام من تحته كلام . سوى ان لكل كلام ، ولو كان دارجا مبتذلا ، اغراضا يقصد اليها المتكلم ويتعمد الافضاء بها الى سامعه منزهة عن الخلط والعبث . وأما الشعر فكان لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة ، فملأوه بالتورية والكناية والجناس والترصيع وجعلوا قصائدهم كلها كأنها شواهد نظموها ليذيلوا بها كتب البيان والبديع وظهر في الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس وراح الشعراء يتبارون في اللعب بالألفاظ وجمعها كما يتبارى الأطفال في جمع الحصى الملون وتنضيده ، وكان الشاعر منهم يلاحك البيت بالبيت أو يشبك المصراع بالمصراع ويخلط كلامه بكلام غيره وهو لا يحسب انه يخل بروح الشعر ، لأنه يلتزم حرف الروي في كل بيت وعروض البحر في كل قصيدة . . .

ورثنا هذه الآداب على حين فترة من اللغة فزادها سقوط الأسلوب ورذالته سقوطا على سقوط ورذالة على رذالة حتى صار أهون على الانسان أن يرفع بيده خرقة ملوثة منتنة من أن يجيل نظره في ديوان شاعر من شعراء هذا الطراز .

ولا تعد فطنة الشعراء في العشرين سنة الأخيرة الى حقارة النكات والمحسنات الصناعية تقدما يذكر في الأدب بعد ما نشرته المطابع من مخبآت اللغة وودائع الأدب العربي القديم ، وبعد تداول الناس أشعار الفحول الأوائل وكتب الاساتذة الفطاحل ، لأنها نتيجة قريبة لا بد منها على أثر ذيوع الأدب القديم ومضاهاته بهذا الأدب المعتل السقيم . وهي أقل ما

ينتظر من ادبائنا عامة والذين لم يشربوا في صغرهم الشغف بتلك المحسنات خاصة ، ومن ثم نرى أكثر المطرحين للمحسنات ممن لم يعكفوا على دراستها في صغرهم ، فليس يعد اقلاعهم عنها تغلبا على جمود ولا تغييرا لمذهب قديم بمذهب حديث . اذ كانوا قد حطموا قيودا لم يتقيدوا بها ونبذوا مذهبا لم يعتنقوه ، وزد على ذلك أن معظم الأدباء اذا استقبحوا هذه المحسنات فلا يستقبحونها ترقيا منهم في عرفان لباب الشعر وانفة من كذ الأذهان سدى في هذا السفساف ، ولكن تعصبا للقديم واستخفافا بكل ما هو حديث ، وأحسبهم لو تقدم الأوان بالشعراء المصنعين فلحقوا بالجاهليين أو المخضرمين لما وجدوا في شعرهم ما يعاب .

وانما الحري بأن يدعى تقدما مثمرا التقدم في الاحساس بالأشياء على ما هي عليه والاستعداد لتمييز أصدق الفنون المترجمة عنها . اذ ان هذا في الحقيقة هو التقدم الذي يشمل الأدب وغير الأدب . والأمة التي تباشر حقائق الدنيا بحواسها الظاهرة والباطنة لا يكون قصاراها أن تخرج للعالم أدبا صادقا وانما يكون هذا الأدب فيها كالزهرة اليانعة علامة على حياة سائر اجزاء الشجرة ، وقد تعددت تعريفات الفوارق بين الآداب الرفيعة والوضيعة ولكني لا أرى أصوب من ردها جميعا الى الفارق بين القائلين والكاتبين ، لأنني لم أتبين قط فضيلة تميز رجلا على رجل أو أمة على أمة الا تبينت لهذه الفضيلة اثرا في التمييز بين شعريهما ، ولست أرى بين أجود الشعر وأردئه سوى فرق واحد جوهري . وهو أن الشعر الجيد ما لم يحل بين قائله والطبيعة حجاب من التقليد أو عوج الطبع وأن الشعر الرديء ما ليس كذلك .

واذا عرفنا ذلك فانظر الى أشعار هذه الطائفة التي يسمونها الشعراء في مصر - ايمكنك ان تصدق أن ما نقرأه من كلامهم هو كل ما تدخره الطبيعة لابن القرن العشرين من بدائع الآيات وروائع المضامين والأسرار ، وهل تدرك من مدحهم وهجائهم وتشبيبهم غاية ما تدركه النفوس من محاسن الحياة ومساويها ومن معاليها وخسائسها ؟؟ ألا ما أضيق الطبيعة اذن وما أحقر الحياة !!

وربما سمعت اليوم بعض المتأدبين يقسمون الشعر الى اجتماعي وغير اجتماعي ، ويعنون بالشعر الاجتماعي شعر الحوادث العامة ، وبغير الاجتماعي ما يعني قائليه وحدهم - هؤلاء يزعمون أن الشعر زاد عليه في عصرنا باب مبتكر واتسعت منادحه بالنظم فيما يهم الأمة ، فلم يعد مقصورا على الأبواب الخمسة المألوفة في الدواوين القديمة وهي على الجملة المدح والفخر والهجاء والوصف والرثاء . وهذا جهل وخلط بين أغراض الشعر الحقيقية التي تفهم من معناه وبين عناوين ابوابه في الكتب ، والا فأي شعر اقدم من الشعر الاجتماعي عند العرب ؟؟

فهذه دواوين شعرائهم الأقدمين والمحدثين هل خلا أحدها من عدة قصائد في كل واقعة من الوقائع التي كانت تهمهم يومئذ ؟؟ وهل مجرد حدوث الوقائع في القرن العشرين لا في القرن العاشر أو الخامس جاعل للشعر المنظوم فيها روحا جديدا أو نمطا مبتكرا ؟؟

ثم اننا لا نعرف شعراً يرويه الناس ويقال انه يعني قائله وحده . لأن شعر النفس يعني كل نفس ، والشعر الذي لا يعني قراءه لا يستحق ان ينظم ، وما من شعر نظم الا وهو بهذا المعنى شعر اجتماعي ، لأنه

يبين عن حالة المجتمع ويؤثر فيها . وان لم يكن اجتماعيا بمعنى انه يخاطب الأمة أو يدون حادثا قوميا أو عملا من أعمال الجماعات ، وربما خدعك الشعر الاجتماعي عن حالة الأمة لخطأ في رأي صاحبه وانحراف في نظره الى الحوادث وتقديره لها ولم يخدعك شعر الغزل مثلا ، وهو أخص القول بقائليه . لأن الغزل هو فى آن واحد مسبار نفس الرجل ومعيار قيمة المرأة. ومن رأي ماكولي نقادة الانجليز ومؤرخهم أن أغاني بترارك الشاعر الايطالي الغزل قد جلت عن المرأة الايطالية هوانها ورفعت من شأنها نهضة ايطاليا ، وليس هذا الرأي بغريب عند من يعلمون العلاقة بين الغزل وحالة المرأة ونهوض الأمة .

ومما تقدم يبدو لي انه ربما نشط فن الموسيقى المصري من عقاله وربما ولد التصوير المصري على أحدث طراز واحكمه وأتمه والأدب رهين قيديه بين مزدحم الآراء ومشتجر الأهواء ، يختلف عليه الأرقاء الذين لا يريدون أن يسمعوا كلمة لا تمسكها الأصابع باطراف أناملها أو تلتقطها الجفون بأهدابها ، والجامدون الذين يؤثرون أن يدبروا بالدنيا الى الوراء ولا يتزحزحون قيد شعرة عن القديم ، وليس لهذا الاختلاف فائدة لأنه لا يدني احد الفريقين من الأدب الصراح ، ولا يهديه الى خطئه . فالذين يكرون الذوق السخيف لا يحجمون عن استحسانه متى صيغ لهم في الأسلوب الجاهلي أو المخضرم ، والذين ينكرون مذاهب الجاهلية ومعارض النظم عندهم لا ينكرونها متى صيغت لهم في الأسلوب المهلهل الرقيق الذي يستحسنونه . واذا انتهى الخلاف بينهما باقناع أحدهما وتحوله الى رأي مخالفه فانه لا يتحول حينئذ الى ما هو خير من رأيه الأول . لأنهما سواء في الخطأ وسواء في البعد عما نسميه بالأدب الصراح .

***

وما علمت في تاريخ الآداب حالا أعجب ولا مسلكا أوعر من حال الأديب العصري في مصر ومسلكه ـ وانما عجب حاله وتوعر مسلكه لأن في مصر الأدباء العصريين وليس فيها القراء العصريون . أو ربما كان فيها القراء العصريون ولكن الصلة بينهم وبين الأديب العصري مقطوعة .

والقراء في مصر واحد من ثلاثة . قارىء الأقاصيص والنوادر ، وقارىء الأدب العربي ، وقارىء الأدب الافرنجي .

فأما قراء الأقاصيص والنوادر فهم أغبى من أن يقرأوا أدبا قديماً كان أو حديثاً . وهم أجهل ان قرأوه من أن يميزوا بين زهيده وثمينه وزيفه وصحيحه . وبغية هؤلاء من الكتب انما هي تمرين السنتهم على الهجاء أو تبديد الوقت في البطالة والفراغ .

وأما قارىء الأدب العربي فإن كان ممن يقرأ فلا يروىء في المطالعة بصره ، ولا يصير من تلاوة الشيء الى الحكم عليه ، فما أشبهه بقراء الأقاصيص !! وان كان يقرأ ويحكم فهو انما يحكم بطراز ألفه وشب عليه فلا معدل له عنه ولا مقياس للأدب العصري غير آداب الأمم التي سبقتنا في أدوار الحياة والفنون وهو ـ أي قارىء الأدب العربي ـ معزول أتم العزل عن آداب تلك الأمم . لا يستطيع نقدها وتقديرها أو يستطيع أن يميط الحجاب عن عالم الغيب . لأن حكم الرجل على ما ليس يعرف وتوهمه في نفسه القدرة على نقد أدب لا يلحن لغاته ولا يقرأ كتبه ولا يلم بسير أدبائه وأخلاقهم وبمحاضراتهم ومساجلاتهم أو يحيط بآراء النقاد فيهم وأقوال بعضهم في بعض ويعارض بين عصورهم ومذاهبهم ثم لا يعلم الميزان الذي يزنون به اجاداتهم وملاومهم ـ هو بمثابة حزر الغيب والخوض في عالم المجهول .

وقد يحسن هؤلاء الأدباء المقارنة بين الأدبين من جهة واحدة هي جهة المشاركة بينهما وهي أخس ما في الأدب العصري وابعده عن جوهره وزبدته ، وكائن ترى منهم من يقارن بين أديب محدث وأديب مقلد فيرجح هذا على ذاك لأنه أرجح من قبل المشاركة ، ويصفح عما سوى ذلك من الحسنات التي استدق سرها عليه ، بل يتعجل فيقضي للأدب القديم جملة على الأدب العصري جملة ، وهو ان كان له عذر في جهله بفضائل الآداب الاجنبية فلا عذر له في الحكم على ما يجهل .

وربما أعجبك من بعضهم أن يأنق للفصل الأنيق أو يستجيد قصيدا جيدا . فاذا سألته عما راقه اضحكك أن تراه ينتخب ما لم يخطر للكاتب أو الشاعر على بال ويسهو عما عمل له وتحراه كأنه ليس في الفصل أو القصيد .

هذا محك أولئك الأدباء على ما علمت من الزلل والانحراف . وهم كما رأيتهم ليسوا بأخبر من قراء الأقاصيص بغرر هذا الأدب وعرره .

وأما قراء الأدب الافرنجي فأيسر لهم أن يقتبسوه من أمهاته ويرتادوه في لغاته ، واكثرهم لا ذوق لهم ولا بصر باللغة العربية فما هم بأفهم للمعاني المودعة فيها من سواهم .

كانت حياة الأدب بالقبيلة ثم صارت حياته بالرؤساء في القرون الوسطى . وليست مصر في حال من هذين . ثم صارت حياته اليوم بالقراء ، وهم في مصر كما عهدت فهل بقي للأديب العصري الا ان يجاهد لنفسه ، وهل لصنف من هؤلاء القراء حق عليه ؟؟ .

ساعات بين الكتب

٧

عجائب المخلوقات

قلنا في الفصل الذي تقدم على الكتب ان القارىء الحريص على الفائدة البصير بالاستفادة لا يزهد في قراءة الكتب الغثة ولا يقصر قراءته على الكتب السمينة ، وانه يجب ان تتم الفائدة من الكتاب والقارىء لا من الكتاب فقط . وهذه خطة قد يكون لقراء بعض اللغات بد من اتباعها ولكنها مما لا بد منه للقارىء العربي لاختلاط المؤلفات وقلة العناية بتقسيمها ، وقد يوجد الغث والسمين في كل لغة ولكنا لا نراهما ممزوجين مزجا تاماً كما نراهما في المؤلفات العربية ، فالكتاب العربي خليط يجمعه صاحبه من هنا وثم ويحشر فيه من جميع ما يحفظ من قصة تاريخية أو نادرة فكاهية أو قصيدة مأثورة أو حادثة مشهورة ـ فلا يسعك أن تميز بين ما يقرأ ومالا يقرأ لأول نظرة ، ولا تجد في نسق التأليف وطريقته تفاوتا بين كتاب وكتاب ، فان كان هناك تفاوت فهو في الحجم والعبارة لا في التأليف والتقسيم .

وكلمة التأليف وحدها كافية لمن يجهل اللغة العربية ويريد ان يحكم على طريقة التأليف فيها من كلمة واحدة ، اذ التأليف هو الجمع ، والتأليف العربي انما هو الصيغة التي ظهرت بها أخبار الرواة واسانيد

النسابين بعد أن تعلم العرب الكتابة واشتغلوا بتدوين الكتب ، فكان المؤلف العربي خليفة الراوية أو النسابة في هذه الصناعة ، وكان الرواة والنسابون يجمعون الاخبار والقصائد ويذكرون المحامد والمثالب والانساب والمفاخر فلما ذهب الراوية وجاء المؤلف جرى على هذه الطريقة ، فكان يضع الكتاب المطول لا يكون له فيه غير توطئة يستهل بها بابا أو جملة يعطف بها خبرا على خبر ، ولم يشذ عن ذلك غير القليل وأكثر هؤلاء الشاذين من كتاب الاخلاق والفقه .

وعذر العرب في هذه الطريقة هو عذرهم في كل نقص آخر في السياسة أو الاجتماع ، واعني به انتقالهم فجاءة من البداوة الى المدنية وانهم لبسوا رداء المدنية على طباع البداوة وبقوا بدواً في دولتهم وبدواً في معيشتهم وبدواً في تاليفهم وأدبهم ، مع ما شيدوا من الآطام وأثلوا من الآثار الجسام .

أقول هذا وبين يدي كتاب وضعه صاحبه (القزويني) على هذه الطريقة وسماه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، وهو لو سماه عجائب المختلقات وغرائب المعدومات لأنصف ولكان الكتاب قطعة جميلة من ابداع الخيال ووحي الفكاهة تشهد لصاحبها بالافتنان في القصص والقدرة على التصور .

وما كنا ننتظر من كاتب ينشأ في عصر كعصر القزويني أن يصنف كتابا في التاريخ الطبيعي أو في علم الاحياء صحيح البحث جيد الاستقراء ، ولكنه كان يسعه على الاقل أن يفرغ تلك الترهات والاساطير في قالب الموضوعات العلمية المبوبة ، فلا يفوته الترتيب ان فاته التحري والتدقيق .

ولسنا نريد أن نبحث في موضوع الكتاب ولكنا ننظر فيه هنـا من جانب آخر ، فيلوح لنا انه لم يتجرد من الحقيقة البعيدة وان تجـرد من الحقائق الملموسة القريبة . ونستعرض فيه ما يستحق من أجله القراءة ، ولعله يصلح أن يعد جرثومة لمذهب النشوء والارتقاء . نشأ منها في القدم ثم ارتقى عنها ذلك المذهب ، فمن ذلك قوله في ترتيب الكائنات بعد أن قسـم الأجسـام الى نام وغـير نام وهـو ما نسـميه اليوم العضـوي وغـير العضوي : « أول مراتـب هذه الكائنـات تراب وآخرهـا نفس ملـكية طاهرة . فإن المعادن متصلة أولهـا بالتـراب أو الماء وآخرهـا بالنبـات . والنبات متصل أولـه بالمعـادن وآخـره بالحيوان . والحيوان متصـل أولـه بالنبات وآخره بالانسـان ، والنفـوس الانسـانية متصلـة أولهـا بالحيوان وأخرها بالنفوس الملكية . . » .

وهذا قول لا يعزز بتجربة ولا يدعم ببرهان ولكن ما ظنك بمكان الفروض والاظـانين من معارف الانسانية بأسرها ؟؟ وهل كانت قضايا دارون نفسها قاطعة في تأييد مذهبه واثبات نتائجه ؟؟.

وعلى ان ترهات الكتب القديمة وفروضها تنفعنا الآن أكثر مما تنفعنا حقائقها ، لأنها هي البقية الباقية لنا من تلك الأوهام التي تسلطت على العقل البشري في ازمانه الخالية ، وهي المفتاح الذي ليس لدينـا مفتـاح سواه لخزانة المخيلة وما اكنته من تصورات الانسان ووجداناته وما انطبع فيها من البدائه العميقة المتغلغلة التي عودتنا أن تنطق بالأحاجي والالغاز وتبهم حتى على صاحبها وهو الذي أوجدها وصورها .

فقد حفلت كتب السلف بروايات المسخاء والمبدولين ، وتناقلوا في الحكايات أن الحيوانات المختلفة يتناسل بعضها من بعض ، ويتسلسـل

بريها من بحريها ، أجمعت على هذا كتب العرب وغير العرب واتفقت عليه كتب الدين وكتب الأدب ، وهذا الكتاب الذي نحن بصدده مكتظ بتفصيل انواع هذه الحيوانات وما يتشاكل منها في البر والبحر . فمنها كلب الماء وقنفذ الماء ، وبقرة الماء وفرس الماء ، وزعموا انها تلد من خيل الأرض ، ومنها انسان الماء قال القزويني : « يشبه الانسان الا أن له ذنبا وقد جاء شخص بواحد منه في زماننا في بغداد فعرضه على الناس وشكله على ما ذكرناه وقد ذكر انه في بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء الى الحاضرة انسان وله لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أياما ثم ينزل فاذا رآه الناس يستبشرون بالخصب ، وحكي ان بعض الملوك حمل اليه انسان مائي فأراد الملك ان يعرف حاله فزوجه امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الأبوين فقيل للولد ماذا يقول ابوك قال اذناب الحيوان كلها على اسافلها ما بال هؤلاء أذنابهم على وجوههم . . . » ونقل عن يعقوب بن اسحق السراج « أن رجلا ركب البحر فألقته الريح الى جزيرة قال فلم نستطع أن نبرح عنها فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر ابدانهم كأبدان الناس » الى آخر ما هو مشهور من هذه الأساطير .

فما مغزى هذا الاجماع والتواتر ؟؟ وماذا في طي هذا الاعتقاد بأن الانسان يتحول أحياناً من هيئته الى هيئة حيوان أدنأ منه ، أو أن في عالم الحياة مخلوقا بعضه انسان وبعضه حيوان ؟؟ هذا شعور لم يرد الينا من ناحية الحواس ولكنا لا نجهله . وصحيح ان الخيال مفطور على مزج أشكال الحس وإلباس الموجودات لباس الانسانية ولكن لماذا فطر الخيال على ذلك ؟؟ أكان يستحيل أن يفطر على غير هذه الفطرة . وهل لو خلق الانسان من غير عنصره المعروف كان يتخيل هذا الخيال بعينه ؟؟ ألا يجوز أن يكون مغزى هذا الاجماع والتواتر ان في جبلة الانسان شعورا راسخا

بوحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات في النسب على تباين اشكالها وتباعد مراتبها وبناها ، وانه لا حاجز في التكوين بين حيوان البحر وحيوان البر ولا بين الانسان وعامة الحيوان ؟؟ ـ شعورا أعمق من الفكر لا بل أعمق من الخيال نفسه ، يتكلم باللسان فيكني ويلفق ويتكلم بالبديهة فيصرح ويصدق ؟؟ ولماذا ننفي وجود شعور كهذا يصل الانسان على وجه ما بشيء من أسرار الحياة مع علمنا أن الانسان قد اتصل بالحياة قبل ان يصله بها عقله وحواسه ؟؟ أليس ترجيح وجود هذا الشعور أولى وأحرى بقدم العلاقة بين الاحياء والطبيعة ؟؟

فلا يبلغن من قصور العقل أن لا يصدق الا بالعقل وحده ، ولا يبلغن من ضيق النظر أن نفسر حواس النفس كلها على أن تنحو نحو الحواس الخمس كأن الانسان لا يتصل بالدنيا الا بها وكأنما الخيال ليس جزءاً من الانسان كما هي جزء منه ، فربما كانت هذه الترهات والخرافات أقطع في الدلالة على وحدة الخلق من كل شبه ظاهر واستقراء بعيد ، وربما كانت كتب الأساطير أسبق من كتب العلم كلها الى ابداء مذهب النشوء والتمثيل له بلغة لا يتخللها الباطل ، وكل ظاهرها باطل وتلفيق[1] .

(١) هذا آخر ما ينشر في هذا الكتاب من المقالات التي سبق طبعها باسم « ساعات بين الكتب » وهو اسم كتاب الفناه في منتصف سنة ١٩١٤ وطبعنا منه خمس كراسات على نفقتنا ثم اتفقنا مع بعض الكتبية على اتمام طبعه واسلمناه عدة كراسات من مسوداته التي لم تطبع . وما كدنا نبرح القاهرة الى اسوان حتى ضم الكتبي ما سبق لنا طبعه وأخرجه في شكل كتاب تام وأغلق المكتبة فلم نقف له بعدها على أثر .

جمال الطبيعة (١)

نحن الآن في ابان الربيع ـ جمال الطبيعة على أتمه ، والدنيا في زخرف العرس ، والأرض قد أخرجت زخارفها ، وكشفت السماء عن جبينها ، وفتح الليل صدره للساهرين بعد اذ كان كأنما يذودهم عنه الى الجحور والمخابىء زبانية الزمهرير ـ فمن باب التحية الفكرية لهذا الجمال الفائض على كل شيء ، وهذه الحياة المالكة لكل نفس أن نرجع الى انفسنا فنسبر فيها غور تلك الروعةوذلك الأنس اللذين نشعر بهما بين يدي الطبيعة ، وان نسألها عن سر ما تستهول من جلالها وعظمتها ، ومعنى ما تستجمل من روائها وزينتها . وذلك أقل ما يجب علينا للربيع من صلاة الفكر وتسبيحه .

وللطبيعة سر مقترن بسر الحياة لست أتعرض له . وفيها جانب يتصل باحساسنا ووعينا هو الذي سأبحث فيه هنا . ولست مستهديا في البحث بالعلم الطبيعي وحده ولا بخيال الشاعر وحده ، ولكني أمزج بينهما ، اذ لا غنى عن تدقيق العلم وعن سليقة الشعر معا لمن يود البحث في أمر ينظم طرفاه بين عناصر الطبيعة وسرائر النفس الانسانية .

نحن نعلم أن حب الطبيعة من الغرائز وان الغرائز مما لا يدخل في

---

(١) نشرت في المؤيد ١٨ مايو سنة ١٩١٤ .

حيزة الفكر والقصد ولكننا نعلم كذلك أن منها ما هو موروث عن الأجداد والآباء . وانهم كانوا يتعمدون بعض أفعالهم التي صارت غرائز فيما بعد تعمد الارادة والروية ، ثم انتقل الشعور بهذه الأفعال الى نفوسنا بالوراثة كما يتوارث الحمل خوف الذئب ولم يره ، أو يتوارث الأرنب خوف كلب الطراد وما أحس له بسطوة .

فاذا خطر لنا أن نقف على سر ميلنا أو نفورنا من شيء من الأشياء وغم علينا طريق السبب ، فقد يسهل علينا أن ننقب عن موقع ذلك الشيء من نفوس أجدادنا ثم نقابل بينه وبين موقعه في نفوسنا . وسنجري على ذلك في تعليل الميل الى الطبيعة ، فماذا نرى ؟؟ ماذا كان يبغي أجدادنا الأولون من الطبيعة ؟؟
يخافون الطبيعة ويرجونها كما يخاف الرجل ربه ويرجوه . وكانوا يرتادون فيها الكلأ والري لهم ولانعامهم ، وكانوا يشاركونها في مواسمها وأعيادها ، لأنهم بعض عناصرها وأجنادها .

خلقت مخيلة الانسان الاول خلاقين لا يحصر لهم عدد ولا يؤمن لهم شر ، فكان يخطو من هذه الارض في عالم حافل بالآلهة والارواح ، مكتنف بالمردة والشياطين ، في كل كوكب اله ، وفي كل نسمة خافقة روح هفاف . وفي كل عنصر من عناصر الطبيعة رب متصرف . وكان مع هذا محوطا بالاوابد والضواري يجالدها وتجالده ، وينازعها آجامها وتنازعه ـ فاذا أدلج تمشى كالسارق المتحفز . ونزل به جزع المروع على حياته ، تصفر الريح فاذا هو واجم متربص يحسبها روحا سارية . فلا يدري أناقمة هي ام راضية . وروح خير هي أم روح شر عاتية . ويسمع حفيف الأشجار فيخالها وجس الجنة والعفاريت تأتمر به ، ويومض البرق

فيحسبه الها حانقا ينذره بغضبه ، ويختلج كوكب فوقه فيظن له نبأ عنده فيخشع ، أو يسمع زئير الأسد وهو لا يبصر مكمنه فينتفض جسده ويهلع ، فهو لذلك يرهب الليل كما يرهب المنون .

خرجنا ذات ليلة نستروح الهواء في أرباض بعض المدن ـ وكان البدر في تمامه ، والرمل يلتمع في نوره الشاحب كما يلمع التبر في نار البوتقة ، وكان الوقت صيفا والليلة شديدة الحر . ركد فيها النسيم وخرست الأشجار فباتت ظلالها ـ كما يقول هيني ـ كأنما دقت في الأرض بمسمار . فجلسنا عند أحقاف النهر ثم قال احدنا ؛ هلموا الى النهر نبترد .

قلنا : هلموا ، ونهضنا الا صاحبا لنا كان يطربنا برخيم صوته وشجي غنائه فلم يشأ أن ينهض معنا ، وقال لست معكم في هذا .

قلنا . ولم ؟؟

قال إن لهذه الأماكن حفظة من الملائكة والجن ، وانهم يسرحون في النهار ثم ينسلون الى مخادعهم بالليل . ثم قال مازحا : فان وطىء أحدكم ذنب عفريت أو داس على جناح ملك فلا يلومن الا نفسه !!

ما هؤلاء الحفظة الذين تحاشاهم صاحبنا الا سلالة تلك الأرواح التي عبدها آباؤنا في غسق التاريخ ، لدن كان أولئك الآباء يقدسون الأنهار والعيون والينابيع ، ويجعلون لها أربابا تدعى وتخاف وترجى . ويضعون في كل منها أرواحا وعرائس يقربون اليها القرابين ، ويرتلون باسمها ترانيم الصباح والمساء .

ولسنا اليوم نؤله العناصر أو نخشى غارة السباع ، ولكنا نشأنا في هيكل قدسه آباؤنا فاقتفينا آثارهم . وربما بلغ أحدنا غاية الجرأة وتنزه

عقله عن هذه الأوهام فجعلها هزؤا ومجونا ولم يؤمن بشيء منها ولكنه مع ذلك لا يطرق المكان نهارا كما يطرقه ليلا ، من أثر ذلك الخوف القديم .

***

والطبيعة بعد مرتاد كلأ ومؤنة كما قلنا في أول هذا المقال ـ لا يتصور كيف كانت تهش لها نفس الهمجي ويهتز لها قلبه الا من تخيل نفسه مرة في ركب ضل سبيله في فلاة ديموم ، وقد نفد ماؤه وفرغ زاده فبلغ منه العطش والسغب . وأتلفه القيظ والكلال ، حتى يئس من النجاة ؛ وأيقن بالهلاك . ثم ارتفعت له بعد ذلك رؤوس الأشجار تمتد من تحتها الظلال ، ولمعت لعينيه الجداول تترقرق بالماء الزلال . انه ليعلم حينئذ أن هذه المناظر خليقة بأن يرقص لها قلب الهمجي ، فقد كان أبدا في مثل ذلك الركب . كان يتنقل من بقعة الى بقعة طلبا للري والمرعى ، فلا يصل اليها الا بعد أهوال يتجشمها ، ومخارم وجبال تقطعه قبل أن يقطعها ، وبعد أن يصارع الضواري العادية ، والكواسر الجارحة ، أو يقاتل على تلك المراعي والمراتع عشائر يحرصون حرصه عليها . فاذا هو أشرف بعد هذا النصب على واد خصيب لا جرم أشاع في نفسه احساسا لا يقارن به احساسنا الآن بالطبيعة الا كما يقارن الصوت بصداه والوجه بصورته في قرار الغدير . فنحن نخف اليوم الى الخضرة وان كنا لا نتزود منها طعاما ، ونفرح بالماء وان كنا لا نتخذ منه شرابا . ولكن في باطن هذا الفرح بقية من فرح الظمآن بالري والجائع بالقوت ، وما هو في الحقيقة الا صدى ذلك الفرح القديم وصورة منه باقية في قرارة نفوسنا .

***

على أن من أحسن ما يروقنا في الربيع أزهاره ، وليست هي مما

يخاف فيعبد ولا مما يستطعم فيؤكل . فأي شأن لها في نفوسنا ؟؟ بل قل أي شأن لها في نفوس كثير من الاحياء ، فانها لا تروقنا وحدنا ولكن تروق الحشرات والطيور أيضاً . ومن هذه الحشرات والطيور ما يستهويه جمال الازهار فيجعله واسطة لتلقيح اناثها من ذكرانها ، ومنها ما تعجبه هذه الالوان التي تزدهي بها الرياحين كما تعجبنا ، وفي كتب دارون وغيره من النشوئيين شواهد وأمثلة على هذا الاعجاب . فقد ثبت ان إناث بعض الطيور لا تميل الا الى آنق ذكورها ريشا ، وأبهاها نقوشاً ، وأحسنها في الالوان اختلافا وترقيشاً ، فأية علاقة يا ترى بين هذه الالوان وبين الانتخاب الجنسي ؟؟

نرجىء هذا قليلا لنسأل : ما هو الربيع ؟؟ أليس هو فصل الحب ؟؟ أليس هو الموسم الذي تشرق فيه ألوان الازهار فتتزاوج كما يتزاوج الاحياء ؟ ألا تنكشف للعشاق علاقة هذه الازهار بالغرام فيراسلون بالانوار الندية ، والرياحين الشذية ، ويخرجون اذا أقبل الربيع الى المنازه والخلوات فيختارون من الاماكن ما تحف به الورود المتعانقة والطيور المتعاشقة ، وتفاجئهم بهجة الحب من داخل نفوسهم ومن خارجها في نفثه واحدة من نفثات الطبيعة الحية ؟؟ وأي ميلاد يؤلف بين نسبها ونسبنا واية قربى تمت بها الأزهار الينا ألصق من القربى التي تجمع في موسم واحد بين توالدنا وتوالدها . وحياتنا وحياتها وامتزاج الجمال والحب فيها بامتزاج الجمال والحب فينا ؟؟

ولم يحقق لنا العلم ما هو سر تأثير الالوان في الزهر على أبصارنا ولا ما هو سر تأثير الزهر بذاته في شعورنا . ولكنا قد نرى علاقة النور بالالوان . ونرى علاقة الحرارة بالنور ، ونرى علاقة الربيع بالحرارة ،

ثم نرى علاقة العواطف الغرامية بالربيع . فكلها عناصر ربيعية تظهر بباعث واحد في زمن واحد ، ولا نرى منها الا ما هو من الحرارة قابس وبالضوء مزدان ولابس ، وفي الحب مغروس وغارس .

الحرارة تنبعث من الشمس الى جوف الارض فتتخللها فتنبت البقل والثمرات - ذلك هو الربيع .

والحرارة تبسط نورها على الازهار فينسج على أوراقها اللطيفة ألوانه ، يجليها بأصباغه ونقوشه . ذلك هو سحر الالوان وبهجة الازهار والحرارة تجري الدم في العروق فتتيقظ العواطف التي أنامها الظل ، وتتحرك الحياة الكامنة فيملكها الشوق الى تجديد الحياة في مخلوق جديد ، ذلك هو الحب .

فالربيع والازهار والحب أشقاء لم يولد بعضها بعضاً ولكنها تولدت على السواء من أم واحدة هي الحرارة . أو هي الشمس : أم الحب والحياة في هذا النظام .

***

قال ابن الرومي يصف الارض في فصل الربيع : -

تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الانثى تصدت للذكر

وقد أخذ عليه صديقنا المازني خلطه في التشبيه بين المذهب الحسي والمذهب النظري . أما أنا فلا أميل الى رأي الصديق في مؤاخذة الشاعر وقد أرى انها المؤاخذة حس فيه جعلت نفسه تشعر بتلك العلاقة الخفية بين تبرج الازهار وتبرج النساء ، ويلوح لي أن المسألة لم تكن عند ابن الرومي مسألة تشبيه جاءت به المناسبة العارضة ، وانما هو شعور غامض

في نفسه لا يفارقها . وآية ذلك انه كرر هذا المعنى في غير ما موضع فقال في بعض رثائه ؟

لمن تستجد الارض بعدك زينة فتصبح في أثوابها تتبرج

وقال أيضاً :

لبست فيه حفل زينتها الد نيا وراقت بمنظر فتان
فهي في زينة البغي ولكن هي في عفة الحصان الرزان

وربما كان علة هذا الشعور الغامض اضطراب في جهاز التناسل هيج جميع أجزائه المستدقة فهز خيوطها ، ونبه أقدم وشائجها ، ومنها الاحساس بذلك التبرج كما هو في قلب الطبيعة . أما هذا الاضطراب الذي اومأنا اليه فمما يسهل **الاستدلال** عليه من شعر ابن الرومي ، ولا نخاله يخفى على من يقرأ ديوانه فيطلع على شهوانيته الظاهرة في وصف محاسن المرأة ، والتغني بما ظهر وما بطن من اعضاء جسمها وربما دل عليه رثاؤه لابنائه واحداً بعد واحد وما يشير اليه ذلك من ضعف نسله واضطراب جهازه . أضف الى هذا ما يؤخذ من أهاجيه فيمن اتهموه بالعنة وأشياء أخرى لا حاجة الى ذكرها . وفي جملة هذه الاشياء ما تعرف منه أن الرجل لم يكن من هذا الجانب سليما ، وانه كان خليقا بطبيعة تركيبه ومزاجه أن يشعر بتلك الحقيقة ، ويستنبط من أغوار نفسه تلك الاحفورة الشعرية النفيسة . ولا غرو فان النفس اذا شفت كالبحر اذا شف يتراءى لناظره ما خفي في أعماق قراره .

***

ذلك مجمل رأينا في هذا الذي نشعر به من روعة الطبيعة وحسنها ، انما هو كما يبدو لنا مزيج من العبادة والامتيار والغرام .

الرسائل

الرسالة الأولى (١)

لم افتح رواية جوتييه في الأقصر لأنني كنت قد أمعنت في كتاب « سادهانا لتاجور » فأنفت له أن اخلط قراءته بقراءة أي موضوع مما يجول فيه قلم جوتييه واشباهه ورأيت أن لا أكون بخلطي بين الكتابين كمن يغازل في المحراب أو يكتب الخمريات على هامش القرآن ، فاقبلت على الكتاب حتى أتممته فاذا سفر من أجل أسفار الدنيا وأحقها بالدرس والتأمل ، ولم أكد افرغ منه إلا على شوق الى إعادته . ولست أعني انني تلقيت الكتاب بالايمان الكامل ولا أنه اشتمل على كل ما يعرف من سر الحياة فانني لا أنتظر ذلك من كتاب قط ، وحسب المؤلف عندي أن يكون في كلامه ما يصح أن يشغل حصة واحدة في مدرسة الحقائق التي تكشفها الحياة لأبناء الفناء .

ولا شك عندي في استمداد تاجور من أصول الفلسفة الهندية القديمة ولكنه مهما كان مبلغ استفادته من تلك الفلسفة التي استمد منها العالم أجمع فقد برع في التفسير والاقناع براعة تقرب من الابتداع ،

---

(١) كتبت هذه الرسائل الخمس من أسوان الى صديق أديب بالقاهرة ردا على أسئلة أو آراء تفهم من قراءة الرسائل . وقد اثبتها هنا نقلا عن صحيفة الرجاء التي نشرتها لأول مرة .

وعندي أن المستشرقين الذين قضوا أجيالا في نبش دفائن العقائد الهندية واذاعة كتبهم المقدسة لم يظهروا من روح الهند القديمة لمحة مما استطاع تاجور اظهاره في هذا الكتاب الصغير .

أول نوفمبر سنة ١٩٢١

الرسالة الثانية

كتاب « سادهانا » الذي سبقت مني الاشارة اليه هو مجموعة محاضرات تتضمن آراء شتى في الفلسفة الصوفية والدين كان يشرحها تاجور في مدرسته التي أنشأها ببلدة بلبار من أقليم البنغال للمذاكرة في الحكمة والأدب وفقه الدين ، وموضوع الكتاب « تحقيق كنه الحياة » من حيث شعورها بوجدانها ، وإحساسها بالخير والشر والجمال ، وظهورها في العمل والحب ، واتصالها بالكون عامة واللانهاية من وراء ذلك ، وقد القى بعض هذه المحاضرات بجامعة هارفارد الامريكية إجابة لطلب الاستاذ جيمس وود ثم ضمها الى هذا الكتاب ووسمها بالاسم المتقدم فكانت بمثابة تفسير لعقيدة تاجور وفلسفته ، وهي بعينها عقيدة البراهمة القديمة ، لأن الرجل نشأ في بيت اشتهر كباره بالتقوى والورع وادمان التلاوة في الكتب المقدسة . ولكن تاجور استخدم ملكته الكتابية وموهبته الشعرية في التوضيح والتقريب بضرب الامثال وحل الرموز واستخبار الالفاظ عن معانيها العويصة التي لا تضبطها اللغات الا بما يشبه الاشارة والتلميح لقلة من يفضي الى اسرارها ، فكان هذا العمل من الشاعر مأثرة على سمعة قومه بل على قرائه جميعا ، وان كنت أشك كثيرا في قدرة سواد الغربيين على فهم وجهة النظر الهندية ، لأن القوم مغرورون بمدنيتهم

غرورا لا يفيقون من سكرته التي تطمس البصيرة وتكل الالهام الا بعد أن تزول عنهم قوتها وصولتها .

وقد حدثتني على تلك الفئة التي تنعت نفسها بالتحرر من قيود الأدب القديم وما تقيدت قط بأدب قديم ولا حديث فيكون لها فضل الافلات من الأسر . وعندي أن هؤلاء الذين يتهجمون على أساطين الآداب الشرقية ولا يدينون بالشاعرية لغير الغربيين لا يدلون على حرية فكرية أو جرأة أدبية ، إنما يدلون على خلو واقفال وخداج في العقل ، مثلهم في ذلك مثل السوائم والأوابد في حريتها فانها لا تفعل ما تريد علوا عن ربقة الأوهام ونبوا عن أحكام التقاليد بل لخلوها من قابلية التقيد حتى بالأوهام الباطلة والتقاليد المهجورة ، وعجزها عن فهم الصحيح وغير الصحيح على السواء ، وقد يكون لهم بعض العذر اذا قرأوا وتفهموا وقارنوا ثم أخطأوا اسباب المقارنة واختل معهم ميزان الحكم ، فاما وهم ينقدون ما لا يحسنون له مزية ويرفضون مالا يعرفون له وزنا فهم مسيئون الى انفسهم والى الناس ، بيد أني لا أظن اساءتهم ذات خطر لأنهم لا يقنعون احدا بصدق هرائهم الا كان مثلهم في الغباء وخفة الاحلام ، والذي اراه أن ذلك الشيخ الذي كان يحدثك عن كتاب الديوان ومن حذا حذوه في الرأي والاطلاع هم أحق بالخوض في أحاديث الأدب وابداء الآراء في الشعر والكتابة من أولئك السائمين الهائمين على وجوههم في تيه الخيلاء الفارغة والدعوى الكاذبة ، وبودي لو استطعت ازالة اللبس عن عقول اولئك الذين يحسبوننا في عداد الغامطين لكل شعر غير شعر الغربيين ، فانهم يخطئون فهمنا خطأ كبيرا ، فلعل الايام تسمح لي بالافاضة في هذا البحث واظهار معيار الجودة في اعتقادنا اظهارا يعينهم

على معرفة رأينا في كل قصيدة قبل سؤالنا عنها وينفي عن أفكارهم شبهة التحيز التي لا يعلمون حقيقتها .

١٥ نوفمبر سنة ١٩٢١

الرسالة الثالثة

أخي الفاضل . . .

لم أشك في انك كنت تعني مقالة (الخصائص) لكارليل عندما أخذت في قراءةوصفك لأثر مقالته التي كنت تقرأها وما استجاشته من خواطرك وشجونك ، وأفعمت به نفسك من المعاني والتصورات ، فانني لا أعرف للرجل مقالة تستحوذ على لب قارئها استحواذ هذه المقالة الجزلة الممتعة ـ ولا غرابة ، فهي بلا ريب مفتاح فلسفته.ومقياس جميع تقديراته للحوادث والرجال ، ولا يكمل درس كارليل بغير دراستها واستقصاء أسبابها من تطورات فكره ووقائع عصره . وإن كان لهذه المقالة عيب فهو أنه جعل فيها الحد بين القوة والضعف فاصلا حاسما لا يعتوره وهن ولا يأذن بثلمة أو منفذ . فالذي يقرأها يتوهم أن هناك عصورا قوية لا يتخللها ضعف واشخاصا جبابرة لا يلم بهم فتور أو شك ، والحقيقة خلاف ذلك فان أقوى العصور عرضة لنوبات الحيرة والخوف ، وأقدر الرجال قمين أن يتسرب اليه الخور في بعض هجسات نفسه وأوهام خياله ، ومن المستحيل استحالة مطلقة أن يسود الايمان الملهم عصرا كاملا أو رجلا قويا في جميع أدوار حياته وأطوار تفكيره ؛ لأن الالهام لا يوحي التفصيل المسهب وانما يوحي خاطرا مجملا او عقيدة غامضة ، وللفكر ان يعمل فيها تحليلاته واقيسته ويجيل فيها شكوكه ايضا ، ولهذا

لن تجد كاتبا او شاعرا او فيلسوفا على مستوى واحد في فيض ذلك الوحي واغداقه ، ولهذا كانت مقالة كارليل نفسها مزيجا من الالهام والتفكير العميق والاستنتاج المختلف صوابا وخطأ وحكمة وشططا ، وانتم مصيبون فيا لحظتموه من كثرة التفكير فيها على غمطة لقيمة والتفكير في كثير من عباراتها ـ وهو معذور في ذلك ـ الم تعرض للأنبياء والقديسين وساوس وشكوك تقبض الصدور وتشغل الأفكار ؟؟ وليست هذه الوساوس والشكوك التي كانوا يسمونها اغواء وخداعا من الأبالسة والشياطين الا فترات الضعف في الايمان واحتجاب الالهام ، والا ذلك التردد الذي كان يشكوه كارليل ويقول من شدة بغضه له انه وقف على العصور الخابية والنفوس الخافتة ، ويسميه احيانا لجاجة واحيانا جدلا واحيانا سفسطة ، حتى ليكاد يخلط بينه وبين المنطق الصحيح القويم . ولكن كارليل قليل التدقيق في توجيهات الفاظه بحيث يظلمه من يحكم على منطقه بكلماته الظاهرة ، ولا بد من تجريد النفس من أسر المفردات والخوض معه في عباب المعاني حتى يعطيه القارىء حقه من الاكبار والانصاف .

قلت في آخر خطاب لك انك أحببت أن تسألني عن قولي : أقصد الغربيين « ان القوم مغرورون بمدنيتهم الخ » فالذي اقصده بهذه العبارة هو أنني لا أقيس مدنية الغرب بعدد مخترعاتها الحديثة ولكن بالملكات والمواهب التي انتجتها . فهل بين هذه الملكات ما هو أعظم وأجل وأرفع من الملكات التي أبدعت صناعات المدنيات الغابرة وعلومها وفنونها ؟؟ إن كان ثمت فرق فهو يسير جدا . نعم يسير جدا بالنسبة الى غطرسة المدنية الغربية ودعاواها ؛ وأنا أعتقد اعتقادا جازما ان القمة الروحية التي ارتقى اليها نساك الشرق وفلاسفته لم يبلغها غربي ممن نعرفهم ونقرأ

كتاباتهم ، وإن هذا التقصير عيب كمين فيهم ، ويكفي أن أوروبا لم تنبت نبيا وانها عالة على الشرق فيما تدين به . ان من يقرأ فلسفة البراهمة ليشعر بصغر أكبر أبطال الغرب الروحيين بجانب أولئك المردة الأشداء ، إنني لأحسب أن كل مهمة المدنية الغربية هي أن تستحث حياتنا المادية أو الحيوانية على اللحاق بتلك الغاية البعيدة التي أوغلت اليها روحانية الشرق ، أما أن تسبقها او تبتكرها فلا ـ وكأنما الغرب اليوم خادم قوي يبدأ بأن يقطع الطريق نفسها : الطريق التي سبق السيد[1] فاجتازها ولكنه لم يجلب معه مؤنة رحلته وأسباب وقايته ، فاذا ما التقى الركبان يوما تبين السابق من المسبوق وعرفت لكل قيمة مزيته .

حبذا لو تكرمتم فاطلعتموني من انباء العاصمة الأدبية والسياسية على ما يفوتني علمه بسبب مقامي في اسوان وسلامي اليكم والى الاخوان جميعا .

الرسالة الرابعة

اخي الفاضل . . .

تسلمت روايتي بلزاك ومرديث وقد شوقتني اليهما وسأبدأ بقراءة رواية مرديث قريبا ولكن ربما مضت برهة قبل اتمامها لأن الرواية طويلة ولست أمعن في القراءة اليوم الا قليلا ، وسألقاك قريبا في كل موضع التفات من الرواية ، فان للروايات والكتب معالم تعبرها الأفكار فتلتقي عند الاشتراك في القراءة ، وهي بهذا المعرض تلتقي مواجهة لا بالذكرى

---

(١) أي الشرق

التي لا يتلاقى بغيرها الجائزون بمعالم الطريق .

الخلاف في أمر المدنية الغربية الحديثة يمكن حصره ، فان كان القصد من تعظيمها انها بلغت بالصناعات والمعلومات حداً لم يتقدمها اليه متقدم معروف فذلك حق لا ريب فيه ولها الشكر الجزيل عليه . أما ان كان القصد ان هذا التقدم يستلزم حتما تفوقا في الملكات وطاقة العقول ، فهنا يقع الخلاف الكثير - فقد يخترع الرجل اداة لطبع الف نسخة في الساعة ثم يجيء غيره فيخترع آلة أخرى تطبع عشرة آلاف نسخة ولا يفهم من هذا ان له من الذكاء والفطنة عشرة أضعاف ما للأول لأن اختراعه اسرع بهذه النسبة . وقد يبتعد السائر عشر مراحل عن نقطة فلا يؤخذ من هذا انه أقوى على السير ممن لم يبتعد عنها الا بتسع مراحل ، لأن الأول ربما لم يسر الا مرحلة واحدة بدأها من حيث انتهى سابقه ، وخلاصة رأيي ان مدنية الغرب الحديثة ليست ببعيدة الغور في نفس الانسان فان اليابان قد أصبحت لها في مدى ثلاثين أو أربعين سنة مدنية مصنوعات ومعلومات كمدنية اوربا على العموم ، فهل يقال ان مدنية تنقل في أقل من عمر رجل واحد تعد شوطا كبيرا في تقدم النوع الانساني؟؟ وماذا في صحة المعلومات في ذاتها من الدلالة على عظم القوة المفكرة ؟ ان التلميذ الصغير اليوم لأصح علما فيما يلقنه من الدروس من أبي الطيب أو افلاطون ، ولكن أين عقل الصبي من عقل الشاعر الحكيم أو الفيلسوف المبتكر ؟ واذا نظرنا الى الرفاهة المادية نفسها فهل يسعنا الجزم بأن مدنية اوربا الحديثة زادت سعادة الانسان أو خففت من شقائه ؟؟ قارن بين رجلين أحدهما ممثل لمدنية قديمة عالية والثاني ممثل لمدنية العصر الحاضر - فلا يبعد بل الأرجح انك تجد الأول أفخر ثيابا وأشهى طعاما وأجمل مسكنا وأصح

جسدا من رفيقه ، ولا تعرف لمدنية الآخر مزية حتى تسأل في كم من الزمن صنعت ثيابه أو بني بيته . هنالك تظهر لنا مزية السرعة ، ولكن ماذا وراء ذلك ؟ سرعة المخترعات لا تستلزم تفوق القوى المخترعة وأما بعد ذلك فلا الصانع الحديث ولا المستفيد بصناعته أسعد حالا من زميليهما في القدم . ازيد على ما تقدم أن الصانع القديم كان أصنع يدا وأدق حاسة وأكثر مراناً على استخدام أعضائه من الصانع الحديث الذي صيرته المخترعات آلة تدير آلة ، وإني لأعرف في الريف نجارين ينظر أحدهم الى الخشبة فيقول انها زائدة فاذا قاسها لم يجدها تزيد بأكثر من نصف قيراط ، ولم أر نجارا واحداً تعود الاعتماد على القياس في جميع أعماله يدرك ضعف هذا الفرق .

أما كتب الديانة البرهمية فاشهرها على ما أذكر :

Vedas . Ramayna, Mahabharata

وهناك كتب اخرى لا أضبط اسماءها لكثرة حروفها وحركاتها . وليست للكتب المذكورة طلاوة كتاب كسادهانا ولا امتاعه الشعري والأدبي لأنها لم تكن الا مجموعة شعائر وقصص ، وأمثال ومحاورات ، هي الديانة البرهمية كما شاء كهان الهند أن يبرزوها للأنظار لا كما هي في لبابها المجرد ، لكن لا يؤخذ من هذا انها خالية مما يدل على سمو الروح وعلوها في سبحات الفلسفة الدينية وتعطشها الى ادراك اعلى الكمال المقدور لها في دنياها . خذ مثلا عقيدة تناسخ الأرواح ثم اتصالها بعد التطهير بالروح الكلي الأعلى ، فأي فرض أو أي استدراك مما يرد على الباحث في مصير الروح الانسانية لم يلحظ في هذه العقيدة المضحكة لمن لم يجشم نفسه هذه المباحث ، ففي هذه العقيدة ملحوظ ضعف القول بقسمة الحياة الى

دورين في احدهما النعيم السرمد أو الشقاء السرمد وفي الآخر التجربة والتحضير ، مع العلم بان هذه التجربة لا تتساوى فيها الفرص ولا الحظوظ ولا النتائج ، وملحوظ فيها الرد على الذين يقولون (أوليفر لودج يقول بهذا الآن) إن الروح الحرة ارسلت الى العالم لتتقوى بمصادمة قيود المادة ، إذ يرد عليهم بأن الطفل قد يعمر وقد يموت صغيرا فماذا يكون نصيب المعاجل في حياته من ذاك التقوي المقصود من الأزل ؟؟ وملحوظ فيها عدم اطمئنان الفكر الى بقاء الروح منفصلة عن الروح الكلي في العالم الأخير مع بعدها عن مرتبة الكمال وهي مفطورة على طلبه . وملحوظ فيها غرابة القول بالشقاء السرمد أو حصول الجزاء في عالم غير العالم الذي امتحن فيه الانسان بالذنوب او تطهر فيه من العيوب ، وملحوظ فيها ما في القول بالقضاء والقدر من التناقض الكثير الذي لا يخلص العقل من شبكته مهما اجهد نفسه ومهما بلغ من ميله الى التسليم . وملحوظ فيها وحدة الحياة من أسفل مظاهرها الى ارفع كمالاتها المطلقة . وقصارى القول ان هذه العقيدة قد لحظ فيها كل باب موصد ينتهي اليه الباحث في أمر الروح ثم يرجع عنه طائعا أو مكرها .

قارن هذا بقنوع العالم الغربي بعقيدة الخلاص على كونها مقتبسة بقضها وقضيضها من البرهمية ، واذكر ان البرهمية كملت قبل ثلاثة آلاف سنة وان الانسان بطيء في تغيره من عقيدة الى عقيدة ومن فرض الى فرض ، وانظر بعد المسافة الهائل الذي يفصل هذين العالمين من هذه الوجهة . أما الفلسفة اليونانية فاعظم فلاسفتها الالهيين افلاطون . فأما خلود الروح فقد نقل القول به من الشرق وأما فكرة الـIdeas التي أخاله انفرد بها بين فلاسفة قومه فهي لعبة أطفال بجانب ذلك المحيط الزاخر

العميق . ومن هنا أعذر شوبنهور في تقديس البرهمية حتى لقبوه البرهمي الحديث . وإن كنت لا أحسبه فهمها على الوجه الذي افهمنيه منها كتاب سادهانا ، فانني لم اقدر حقيقة المقصود بالـNirvana الهندية الا بعد قراءة هذا الكتاب .

يطول الكلام في هذا المضطرب وارى اننا متى التقينا امكننا التقارب في النظر والحكم فان ما يقال في جلسة واحدة لا يفي بشرحه عشرات الرسائل . وسلامي اليك والى الاخوان جميعا ١٦ - ١ - ١٩٢٢ .

الرسالة الخامسة

أخي الفاضل :

لم أتمكن بعد من البدء في قراءة رواية مرديث لأننا في أسوان وفي هذا الموسم الذي لا ربيع للمدينة سواه نؤثر الجولان في الخلاء على الجولان في ميادين الأفكار والتفرج بالنظر الى وجوه الغربيات الحسان على التفرج بالنظر الى رؤوس الغربيين المتفلسفين . ولا أكذبك أن للمدنية الغربية لدينا الآن شفيعات كثيرات فاذا رأيتني اجور عليها فقد يكون الجور مبالغة في الحذر وخوفا من المحاباة . . !

إني ابسط لك ما انكره على المدنية الغربية وما أعترف به لها وما اجدني غير مستطيع الاعتراف به توضيحا للجوانب المختلفة من رأيي في هذه المدنية فأما الذي انكره عليها فان تكون قد انشأت من عندها تقدما روحانيا يضاهي تقدم الشرق أو يلحق به . وأما الذي اعترف به فهو انها

ابدعت في الصناعة والعلوم مبدعات لم تسبق اليها ، وربما كان من نتائج هذه المبدعات التقريب بين قوى الانسان المادية وقواه الروحية بعد دورة تحس فيها القوة المادية غاية جهدها فتقصر عند حدها . واما الذي لا استطيع الاعتراف به فالقول بأن للغربيين طاقة فكرية لا تلحق بها طاقة الشرقيين ارتكاناً الى ما يشاهد من مخترعات وعلوم في مدنية اوروبا الحديثة ، لأنني اعتقد ان الطاقةالبدنية لا تقاس بنفاسة الحمل بل بوزنه فالرجل الذي يحمل قنطاراً من الحديد كالرجل الذي يحمل قنطارا من الذهب على بعد الفارق بين الحملين في القيمة ، وكذلك الطاقة الفكرية لا تقاس بفائدة الشيء المخترع ولكن بالمجهود الذي استدعاه اظهاره في ظروفه المحيطة به . واني حين قلت لك ان اليابان اقتبست مدنية اوروبا في ثلاثين او اربعين سنة لم اقصد الا ان هذه المدنية لا يدل ظهورها على خطوة واسعة في طاقة الفكر تخطوها الفطرة الانسانية قبل ان تصطبغ بصبغتها . وقد قلت ان هذه السرعة من مفاخر مدنية العصر الحاضر لأنها تختصر الوقت وتعجل قضاء المطالب فهل المقصود ان مدنية القوم اخترعت لليابانيين عقولا غير عقولهم فبفضل هذه العقول الجديدة اختصروا الوقت فاكتسبوا في جيل واحد ما لم يكونوا كاسبيه لولا ذلك في عشرات الأجيال ، وانهم اسرعوا في التفكير قياسا على الفرق بين كتابة اليد الواحدة وكتابة المطبعة الحديثة او على الفرق بين نسج النول القديم ونسج المعمل البخاري ؟؟ انك لا تعني ذلك طبعا . وما دام العقل لم يتغير فتغير المصنوعات له قيمة محدودة لا يعدوها . وأحول نظرك الى ان انفراد الأمم الهندوجرمانية ـ التي لا شك في شرقيتها ـ بالنبوغ الخاص في عالم الفلسفة والشعر بل في عالم الصناعات أيضا لهو اكبر معين على اعطاء المواهب الشرقية حقها من تراث الانسانية الخالد وانصاف الغرب والشرق

معا ـ حدثني شاب أديب مجتهد يقيم الآن في أسوان ويعنى بالمباحث الكهربائية والتلغرافية منها على الخصوص ، قال ان رجلا هنديا اسمه (رامساراجام بلتورا) ادخل على التلغراف اللاسلكي تحسينا مهما مأخوذا به الآن في جميع البلاد المتمدينة فلما شرع في تسجيله بالهند غالطوه وتلكأوا في اجابة طلبه واضطهدوه حتى يئس فالتجأ الى اليابان ومنها الى الولايات المتحدة وهناك سجل اختراعه ، وقال ان مصريا اسمه . . . . . . عدل جهاز الاشارات في السكة الحديدية تمكن من تحويل كلتا دائرتي التلغراف الى الأخرى بأسهل وسيلة فأهملوه وثبطوه وهو الآن في الخمسين من عمره لم يتجاوز مرتبه أربعة عشر جنيها ، فاذا كان فتح المعامل في الشرق وهي مكان التجربة والاختبار ممنوعا أو معرقلا وكان هذا نوع المكافأة التي يلقاها المجتهد خارج المعامل فنحن الشرقيين أولى من غيرنا بالتريث الطويل قبل اتخاذ الركود الصناعي في بلادنا عرضا من أعراض النقص الملازم والقصور الدائم . وقد تكون رواية الشاب محدثي صحيحة برمتها وقد يكون بعضها غير صحيح ولكني على كلتا الحالتين لا أرى لماذا نحكم على رجل بعيد عن الماء بأنه لن يحسن السباحة ؛ ولماذا نصدق القائلين بذلك ممن لا يدلون ببرهان معقول ولا يسلمون من شبهة الغرض ، وأي حجة كانت عند سكان انجلترا قبل الميلاد على من يصمهم بالعجز الأصيل عن تمريد الصروح ودرس الفلسفة ؟؟ لا حجة البتة ، فما قيمة حجتهم علينا ونحن سبقناهم بتاريخ يدحض هذه الحجج وليس فينا من آفة قط لا يمكن ردها الى سبب عارض قريب ؟؟ وقد سألتني هل المدنية الا مصنوعات ومعلومات فجوابي أن المدنية بمعناها الحرفي هي أقل من ذلك ولكن معناها العام يشمل كل ما يوضع مع الانسان في الميزان اذا أريد تقديره فهي بهذه المثابة

أقرب الى معنى الـ (Culture) في العرف الحديث .

ـ عقيدة الانتهاء بالنيرفانا بوذية ولكنها برهمية أيضا لأن البوذيين ينسبون الى « بوذا » الرسول البرهمي في كل شيء الا في تقاليد الطبقات ولا يخفى أن بوذا يعبد « برهما » فليست نحلته الا نحلة برهمية .

ـ إنني معك في ضرورة الاهتمام بتعهد الحركة الأدبية المصرية وقد قلبت مشروع انشاء مجلة على جميع الوجوه فان كانت لديكم فكرة عن مشروع آخر يخلو من بعض صعوبات.المجلة المعلومة فأرجو أن تشرحوه لي ، لأنني لا أرى انشاء المجلة من السهولة بحيث يقدم على كل فكرة سواه . ولا اكتمك انني ارتاب في علة رواج كتاب الديوان فأرى أن حب الأدب وحده لم يكن بأقوى البواعث على لفت الأنظار اليه ، فهل تراه كان يحدث هذه الزوبعة التي أحدثها لو خلا من حملة معروفة الهدف شديدة الرماية ؟؟ واذا كان ذوق الجمهور لا يستفز بغير هذه الوسيلة فهل تفيده المجاراة فيه وان افادته فهل يحتمل كاتب ان يقصر قلمه على هذا الباب من الكتابة ؟؟ ولست اعدد هذه الصعوبات لميل الى ترك المشروع بل لشدة ميل الى حياطته ووقايته .

سلامي اليكم والى جميع الاخوان واظن انه لم يبق بيننا الا شهر فبراير القادم ، إذا اعتدل الجو ، ثم تجمعنا القاهرة ومجالسها المستطابة وانديتها الجميلة .

٣١ يناير سنة ١٩٢٢ .

نهضة المرأة المصرية[1]

قبل عامين أو نحو ذلك ، كنا نعمل في مكتبنا الصحفي كالعادة اذ طرق مسامعنا من وراء زجاج النافذة هتاف رخيم ولكنه عال ، ضعيف ولكنه سريع متدارك لايني ولا يهدأ . فعرفت انه هتاف الأوانس الصغيرات . لأنني عهدتهن في مواكبهن من قبل لا يتمهلن في دعائهن ولا يرحمن حناجرهن وأصواتهن - يرددن أن يحيا الوطن ، ويحيا الوطن، ويحيا موات الدنيا قاطبة - في نفس واحد وفي لمحة واحدة . . . ولا أظلم الجنس اللطيف اذا قلت انه اذا طلب لم يصبر على التريث في الاجابة ، حتى في الطلب من الأقدار !!

ألقينا الأقلام وأطللنا ننظر هذا الموكب الجميل ، وما هو بالموكب الذي تمر به لحظة وتطوي هتافه نسمة هواء ، ولا هو بالموكب الذي يعصى عليه سمع الدهر فما ظنك بسمع الانسان ، ولا هو بالموكب الذي تمهده ساعة وتطمس آثاره ساعة . إنه موكب أنصتت مصر مئات السنين لتسمع أولى بشائره فلما سمعتها سمعتها الدنيا كلها معها وتلفت الزمن ونودي في عالم التاريخ بميلاد عصر جديد . إنه موكب لا يعلم الا الله كم جيل دأب على تنظيمه في ظلام الماضي ، ولا يعلم الا الله كم جيل سوف يثب

---

(١) نشرت في العدد الثاني عشر من الرجاء

وثبة النصر والسعادة على توقيع هتافه في اضواء المستقبل ؛ وان الذين سيمرحون في سعادة مصر بعد عشرات الاعوام ومئاتها قلما يعلمون اننا رمقنا مجدهم كله يتتابع أمامنا فوجا بعد فوج في هذه الطليعة .

أطللنا فرأينا مالا ينقله الى السمع ذلك اللجاج المحبوب وتلك اللهفة الطاهرة ، رأينا وجوها تشرق من الحماسة بما لا يقوى على نقله النداء والدعاء ، رأينا مركبة الأوانس الغاضبات تتقاطر منها الدعوات لمصر كما يتقاطر التغريد من الدوحة الباسقة في نور الصباح الباكر ، وان الشبه لقريب ،فما كنا نرى اذ رأينا الا عصافير الحرية قد انتبهت تحيي فجر مستقبل موموق .

قال أديب كان معنا : لن تضام أمة هؤلاء بناتها ، والحق اقول انني اردت أن لا نتعجل الفوز فنفقده . فقلت لصاحبي : أو ليس الأولى أن يقال « هؤلاء أمهاتها » ؟؟

وأتت بعد ذلك أيام مفعمة بالحوادث المنسيات ، والخطوب المذهلات ، فنسيت كثيرا وذهلت عن كثير . ولكنني لم أنس تلك اللحظة ولم أر من شبيهاتها الا ما يذكرني بها ، ففي هاتين السنتين توالت دلائل نهضة المرأة المصرية وشجعت بوادرها أشد الناس حذرا من تصديق الأمل واكثرهم توجسا من ظواهر الأمور ، وأصبحت أجد من نفسي طربا صادقا لأعلى تهليلات الرجاء بعد أن كنت أتردد في الاصغاء الى أضعف همساته ، ولم أر داعيا لانتظار اليوم الذي يكون فيه أوانسنا الصغار أمهات لجيل جديد فإنهن منذ اليوم خليقات أن يؤتمن على مجد مصر ، وانهن منذ اليوم ينشئن لمصر مستقبلها العظيم ولا ريب ان من أبصر الغاية فقد أخذ في ادراكها ، ومن عرف الصعوبة فقد شرع في تذليلها .

***

أين هو الرجل الذي يفهم الحرية وهو يسكن الى شريكة في الحياة مستعبدة ؟ وأين هو الرجل الذي ينعم بثمرة الحرية وهو وليد أم مقيدة ؟ وأين هو الرجل الذي تحيا نفسه وقد مات فيها الجانب الذي خلقت المرأة لتحييه ؟ انه العنقاء التي يتحدثون عنها في أساطير الأولين .

ولم يودع الله في نفس الانسان بعد حب ذاته غريزة هي أقوى من الحب ولا أشد منها تغلغلا في اطواء نفسه وابتعاثا لكوامن استعداده وخفايا مواهبه ولا اغلب منها سلطاناً على مجامع هواه وبواطن خوالجه وقواه . فالرجل الذي تستولي على قلبه هذه الغريزة النبيلة يريك من العجائب مالا تراه من غير أولئك الجبابرة الذين تستولي عليهم الآلهة ، أو المسحورين الذين يستخرج منهم الاستهواء[1] قوى لا علم لهم ولا للناس بها ، وهل الحب الاضرب من التنويم المغناطيسي ؟؟ هل هو الا تنويم تتغلب به ارادة نوع على ارادة فرد ؟ فبهذا التنويم العجيب ينقل النوع الى الفرد ارادته وزكانته وجملة احساسه ، وبهذا التنويم يتسلط عليه تسلط الأحياء على المادة الصماء ، فترى العاشق في قبضته أكبر من فرد بشجاعته واصراره وشفوف نفسه وتوقد جنانه ، وأقل من حجر بطاعته وانقياده لما يراد به وعماه عن أوضح الشبه وأظهر الظنون ـ يمده النوع بوحيه فيحس من القوة والجمال في نفسه مالا يكون لفرد أن يحسه ، ويجعله في تيقظ الحس كالنائم المستهوي الذي يبصر بأعصاب بشرته ما لا يبصره المفيقون الا بالعيون . ثم هو يدفعه الى بغيته كما يدفع النائم المستسلم . يأمره فيطيع ويزين له المحال فيصدقه ويريه الحلو مرا والمر حلوا فلا يشك فيما يخيله اليه ، بل يقول له الق نفسك في الهلاك فيلقي بها

(١) التنويم المغناطيسي

لا محجما ولا وجلا ، وعنده انه يعملي على لذة قلبه وراحة خاطره .

كذلك خلقت غريزة الحب النوعي . فهي تستحث في نفس أسيرها كل ما فيها من استعداد وكل ما تتسع له من شعور ، بحيث لا يخطىء من يقول ان العاشق يولد مرة أخرى وان من لم يعشق فقد حرم هذا الميلاد ومات بعض الموت وهو في قيد الحياة .

هذه هي القوة الغلابة التي يلغيها من ميدان العمل جهل المرأة ، وهذا هو الينبوع الزاخر الذي خلقت المرأة لتفجره في قلب الرجل ، والذي يجففه في قلبه حرمانه من شريكة مهذبة عارفة بكرامتها وكرامته تبادله العطف وتشاطره الحب وتعطيه مثل الذي تأخذ منه من احساس وشغف ونورانية ، فاذا انكرت على المجتمع ضلالا في الأذواق وفتورا في العزائم ونكوصا عن التسابق الى الأمثلة العليا والمراتب الفاضلة وكسادا في العقول وجمودا في الشعور وصبرا على الهوان وخللا في العرف والآداب ، فلا تعجب ولا تذهب بعيدا في البحث عن السبب ، إذ أي نقص لا يحدثه في الأمة خلوها من تلك العوامل البعيدة الغور وأي قحط لا يسلطه على النفس فراغها من نتائج تلك الغريزة المخصبة ؟؟

***

لن تضام أمة عرف نساؤها الحرية . اجل فهذه قولة حق لا شك فيها ، ولكن كم من الشك في قول من يزعم أن عرفان الرجال بالحرية هو حسب الأمة ضمانا لها من الضيم ؟؟ فان حرية لا يعرفها غير الرجال احرى ان تكون حرية شوهاء ، لأنها كالتربة الشحيحة التي لا يسري غذاؤها الى كل فرع من فروع أشجارها . فلا نباتها كله بمروي ولا المروى منه بسابغ فيه الرواء على جميع اجزائه . والمرأة في أمثال هذه الأمم

فرع يابس لا خير فيه ، وقد يكون الرجل اندى منها حالا ، ولكنها حال لا تنفعه إلا كما ينتفع بالفرع تتمشى فيه الخضرة واليبوسة فلا هو للإثمار ولا هو للوقود ، وليس هذا شأن الأمم التي يظفر نساؤها بقسطهن من الحرية فانها امم تستقي الحياة من ابعد اطرافها وترسلها الى أبعد أطرافها . فهي شجرة يانعة لا حطبة لينة .

وعلى أننا كثيرا ما عرفنا رجالا خطبوا الحرية ثم خانوها ونذروا لها أعمالهم ثم كفروا بها ولم يؤدوا حقوقها . وربما استحبوا النفاق لضمائرهم أو اضطروا اليه اضطرارا يخجلون منه ويتلمسون له المعاذير من مضائق العيش ومتناقضات الأيام . أما المرأة فما الذي يمنعها أن تؤدي ما عليها للحرية من حقوق ؟؟ لا يمنعها منها الا من يمنع اللبن أن يسيل من ثديها سائغا الى ثغر رضيعها ، والا من يمنع المهد أن يهتز على أشجى ترانيم الوطنية والفضيلة ، والا من يمنعها في كسر بيتها أن تربي صغارها التربية التي تختارها وأن تناغيهم باللغة التي تحبها . وليس على الأرض قوة تمنعها من شيء من هذا اذا ارادته . وان امرأة تريد هذا ولا يمنعها مانع منه لهي معقل للحرية لا تزعزعه الطوارىء ولا يخشى عليه من « مضائق العيش ومتناقضات الأيام » .

ومن البديهي ان للمرأة خصائص لا يشاركها فيها الرجل جعلتها أصلح منه لاداء كثير من الواجبات المدنية فضلا عن واجباتها الطبيعية : فهي على الجملة ألطف منه شعورا وأدق حسا وأصدق زكانة في العلاقات الجنسية وأحرص على تقاليد الدين وأحكام العرف واشد احتفاظاً بما يصون هناءة البيت ، وغير ذلك من الخصائص التي تنفرد بها أو ترجح على الرجال فيها . وسنرى اليوم الذي تظهر فيه آثار هذه الخصائص

البارزة في المجتمع المصري ويتبارى فيه كل من الجنسين في تنويل مصر انفس ما يملك من مزايا جسمه وعقله وروحه . وهي في حاجة الى جهد أصغر صغير من ابنائها وبناتها . وربما سبقتنا بعض الامم الى تقسيم الفروض الاجتماعية بين الرجل والمرأة على قدر معلوم وبقانون مرسوم ، وربما سمعنا في هذا الباب من الغرائب ما لا يخطر الآن على البال . ففي السويد مثلا كاتبة كبيرة تدعى « الن كي » تقترح ان يفرض التجنيد على الفتيات كما يفرض على الفتيان فتقضي كل فتاة تبلغ الثامنة عشرة من عمرها مدة سنتين في الخدمة العمومية . وفيم تقضي هذه المدة ؟؟ لا في حمل السلاح طبعا ولا في التدرب على اطلاق المدافع وحفر الخنادق ولا في شن الغارات وتدويخ المستعمرات . وانما تقضيها في التدرب على وظائف الامومة بين مدارس الاطفال وملاجىء المرضى ومستشفيات الولادة ومعاهد الفنون الجميلة وما هو من هذا القبيل .

ولا يبعد ان ينفذ هذا الاقتراح واغرب منه في امم الشمال ولكننا هنا لا ننتظر حتى يعلم نساؤنا واجباتهن من القوانين الموضوعة والاوامر المشروعة ، فان المرأة المصرية في وسعها ان تتدرب على اشق اعباء الامومة وان تؤدي اشرف الفرائض القومية دون ان تضطر الى المبيت في الثكنات والارتداء بالكسوة العسكرية ولو في جيش مسالم !!

وسيغضب عليّ انصار القديم . لا لأني قلت شططا في ابتهاجي بنهضة المرأة المصرية ، ولكن لامر صغير بسيط : وهو انني قرنت بين كلمة الحرية وكلمة المرأة وهم يكرهون جد الكره ان تقترن هاتان الكلمتان في وقت من الاوقات . لا في العصر الحاضر ولا في مستقبل قريب أو بعيد .

ولو سألتهم هل تحبون الحرية لانفسكم ؟؟ لقالوا نعم نحبها . ولابنائكم ؟ نعم ولابنائنا ، ولامهات أبنائكم ؟؟ هنا يسكتون .

فهم يتمنون لانفسهم العلم والحرية والجاه والسيادة والحول والطول ولا يجودون على نسائهم من هذه الدنيا الفسيحة بغير الحلى والثياب . وحتى هذه ما كانوا ليجودوا بها عليهم لو لم يكن لهم فيها حظ كبير .

يريدون أن يكونوا ملوكا مستبدين ولكنهم يأبون لامهات ولاة عهودهم أن يكن ملكات ، فسبحان الله !! هذا ليس من العدل ، هذا مخالف على الاقل لأحكام القصص المرعية وأصول الخرافات المدونة ، فاننا نعلم أن الملوك في تلك القصص يهبطون من سماء عليائهم ليحبوا الراعيات الفقيرات ويتزوجوا منهن ، ولكننا نعلم كذلك أن الطقوس المسطورة لا تنتهي هنا . ان الحب الملكي يرفع أولئك الراعيات الى مرتبة ملكات فيجلسن على العروش ويلبسهن التيجان ويتعلمن الامر والنهي كما يتعلمن السمع والطاعة ، وهذه سنة الخرافات وهي عندكم لها المنزلة العليا فوق كل منزلة فاذا نظرنا اليوم راعياتنا بالامس يمددن أيديهن الى التاج فيلبسنه ويتقدمن الى العرش فيرتقينه ، فمن مظاهر الابهة ان لم نقل من قواعد الانصاف أن نحييهن ونصفق لهن ، لئلا نكون ملوكا بغير ملكات ، أو لئلا يكن ملكات على رغم أنف الملوك .

ولكن ما لنا ولأنصار القديم نسود بهم بياض الصحيفة ، لقد خرجت نهضة المرأة المصرية من ايديهم وانتقل لواؤها من صفوفهم ، فليتقدم في ايدي رافعاته ورافعيه على بركة الله الى قبلته المنشودة . قبلة النجاح والرفعة ان شاء الله .

سر تطور الأمم

كتاب من الكتب القيمة وضعه عالم فرنسي جليل ، وعربه وزير مصري عامل . والكتاب على صغر حجمه وإيجاز أبوابه من الأسفار التي قل أن يلج مثلها الى عقول المصريين من جانب اللغة العربية . وأيسر ما يقال فيه انه سيعود القراء أسلوب البحث الجديد فلا يركنون الى تلك المباحث التي مدارها على التلفيق ، والتي هي براء من المعنى براءتها من صدق النظر والتحقيق . وما أكثر الكتاب الذين كانوا ينظرون عندنا الى أعضل مسائل الاجتماع وأغلق أبواب المستقبل ، فيشكلونها اشكالا كما يتخيل الواهم صور الجمال والثعابين والحيتان في قطع السحاب المذعذعة في السماء . وما هو الا أن تتم في ذهن احدهم صورة ملفقة على هذا النمط حتى يبرزها للناس قضية مسلمة ، ويبني عليها النتائج البعيدة والنظريات الخطيرة .

أفرد المؤلف اكثر فصول الكتاب لتجلية الفكرة التي يحوم حولها في أكثر كتاباته . وهي أن لكل أمة روحاً تسير أعمالها ، وأن هذه الروح هي التي تكيف أطوار الأمة وتشكل ملامحها الظاهرة ، واليها يعزى سبب كل حركة من حركاتها . وقد غالى في وصف ما لهذه الروح من الأثر في كافة أحوال الأمة الى حد يوهم أنه ينكر ما للعوارض الطارئة من الأثر الثابت في حياة كل أمة ، والحقيقة أن هذه العوارض ذات شأن كبير في تاريخ

الامم لا يحسن اغفاله ولا سيما من وجهة النظر السياسي ، لأن السياسي الحاذق يجلس مجلسه من السفينة ليرقب ما يهب عليها من الأعاصير ؛ ويثب اليها من الأمواج ، ولا يغنيه علمه بأدوات سفينته وفجاج البحر الذي تسلكه عن الدربة على قيادتها بين تلك العوارض ، والا فان ثورة واحدة منها خليقة ان تهوي بالسفينة الى القرار . وهل العوارض الطارئة الا الخيوط التي ينسج منها روح الأمة ويتكون من مجموعها سلسلة اختباراتها وذكرياتها الماضية !! فهي لا تجعل في الأمة شخصاً غير شخصها ولكنها تغير بنية ذلك الشخص ، ولا شك أن لروح الأمة دخلا في تاريخها ولكن بقدر ما للارادة في تاريخ الفرد ، وكثير ما تكون الارادة منفعلة بما يطرأ عليها ولا تكون هي الفعالة الا اذا جاءت الحوادث بما يوافقها . فالمؤلف مبالغ في تقدير طول الزمن الذي يرسخ فيه المبدأ فيصير عقيدةموروثةوجزءا من أجزاء تلك الروح ، وهي مبالغة غير محمودة لانها تقف المصلحين موقف الحذر الشديد عند كل حركة جديدة وتصغر من قيمة الفرص الوقتية في حسابهم . لا سيا اذا علمنا كما يقول المؤلف أنه لا سبيل الى تشخيص روح الأمة ومزاجها تشخيصاً يقطع الشك باليقين ، فيعتمد عليه السياسي دون الاعتماد على الفرص العارضة الوقتية ، وذلك واضح من غموض الفكرة في كتابه ومن إلمامه بها إلماماً لا يضبط دقائقها . حتى ان القارىء ليخرج من الكتاب وهو لا يدري حد الفارق بين روح الأمة الانجليزية والأمة الفرنسوية مع أن هذا المبحث يكاد يكون موضوع الكتاب الذي جاهد المؤلف غاية الجهد لتبيينه وتفصيله ، ولا ريب أن مثل هذه الفوارق التي لم يعتمد فيها المؤلف على الحس القريب لا يصح أن تكون أساسا للأحكام العريضة التي سجلها على أكبر مبادىء العصر بل على الدين الجديد في عرفه ونعني به الاشتراكية ، فان كان الغرض من

تقرير تلك الفكرة المبهمة الاشارة الى اختلاف الأمم في الأمزجة فذلك ما لانزاع فيه أما ان كان يرمي به الى أبعد من ذلك فالحق يقال ان قدمي هذه الفكرة لا تحملانها الى أبعد من تلك الغاية . اذ ليس في الكتاب ما يبين بياناً جازماً أن الحادث الذي يقع في هذه الأمة لن يقع مثله في أمة أخرى ؛ وليس فيه حجة دامغة تنفي القضايا التي قررها علم مقابلة التواريخ وأيد بها قول القائلين ان للأمم أطواراً تمر بها كل أمة حية ، وأنه اذا اختلفت الازمان بعدا وقرباً فذلك لاختلاف المناسبات والطوارىء ، ولشيء قليل من تباين الأمزجة ، ولكن هذا التباين لا يمنع الأمة أن تعتنق كل رأي في حينها المقدور لها ، وان كانت ربما دعته بغير ما يدعى به في الأمم الأخرى . تبعاً لاختلاف اللغات ، وتفاوت الأحوال والعادات .

فليس في مجلس انجلترا مثلا حزب اشتراكي كحزب فرنسا الاشتراكي ولكن فيه حزباً للعمال . وكلا الحزبين غايته واحدة ومطالبه متشابهة وهي انضاف طبقات العمال من أصحاب الأموال . والدكتور لوبون يقول مع ذلك ان الاشتراكية شاعت في فرنسا لأن مزاج أهلها يميل بهم الى الاعتماد على الحكومة ولم تشع في انكلترة لأن الانكليز أهل استقلال لا يعولون على غير أنفسهم ـ دع ذلك وانظر صوب المانيا فانك ملاق فيها شعباً اشتراكياً صريحاً وحزباً يمثل الاشتراكية في مجلسها هو أقوى الأحزاب وأوسعها نفوذا . والألمانيون كما تعلم شعب سكسوني قريب مزاجه من مزاج الأمة الانجليزية ، فما باله في هذه الحالة أشبه بفرنسا اللاتينية منه بانكلترة السكسونية ؟؟ وكأن الدكتور آنس ركة في تعليله في هذه النقطة فجعل الاشتراكية آفة أوربية عامة !! وعبر المحيط الأطلسي ليجد له في الدنيا الجديدة برهاناً يدعم به رأيه . فقال : « واذا أردنا أن نعرف بكلمة واحدة ما بين أوربا والولايات المتحدة من التفاوت

قلنا ان الأولى مثال ما يمكن أن تنتجه الأمة التي قامت فيها الحكومة مقام الفرد . والثانية مثال ما يمكن أن تنتجه همة الأفراد الذين خلصوا من كل ضغط رسمي . وليس لهذه الفروقُ الكلية منشأ الا الاخلاق ومن المحقق أن الاشتراكية الأوربية لا تجد لها مكاناً تنزل به في البلاد الاميركية . لأن الاشتراكية آخر دور من أدوار استبداد الحكومة فلا تعيش الا في الأمم التي شاخت بعد أن خضعت قروناً طويلة الى نظام أفقدها الأهلية لحكم نفسها . . » أهـ .

ولكنا نقول للدكتور ان الاشتراكية قد سبقته الى الولايات المتحدة أيضاً . وانها ليست في بلد من البلدان أجهر صوتاً مما هي هناك .

فقد طاردت حكومة الولايات المتحدة منذ سنوات أكبر شركات الاحتكار فحلتها وألزمتها غرامة فادحة . وكان الجمهور الاميركي يهلل لها ويثني عليها . وربما ظهر ميل الجمهور الامريكي الى الاشتراكية بمظهر أقوى من هذا في برامج الأحزاب أيام الانتخابات ، وفي تسابقها جميعاً الى ارضاء طوائف العمال ومهاجمة كبار الماليين ، وفي تحبير الصحف الفصول الطوال في تقبيح مطامع الأغنياء والعطف على الفقراء ، فان كان الدكتور يعنى بالاشتراكية فليهدأ بالاً فليس في أمريكا ولا في أوربا ، لا بل ولا في الدنيا بأجمعها اشتراكية .

***

أما فيما خلا وصف روح الأمة وشرح ما لهذه الروح من التأثير في تكوينها ، فالكتاب بجملته حملة منكرة على المساواة والاشتراكية ، يخيل اليك أن الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الأول أو لويس السادس عشر . وأنه يكتب عن الاشتراكية بايعاز من روتشيلد أو

روكفلر ، فتراه ينعي على مبدأ المساواة ولكنك لا تعلم منه كيف يكون عدم المساواة ، وتراه يتشاءم من الاشتراكية كما يتشاءم الناس من نعيب البوم . لا يعلمون لذلك التشاؤم سبباً .

فمن أقواله عن المساواة : « غاب عن بعض الفلاسفة تاريخ الانسان وتقلب ماهية قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون في الناس فكرة المساواة بين الافراد وبين الشعوب » .

« خلبت هذه الفكرة أذهان الجماعات فارتكزت في عقولهم ارتكازاً قوياً وآتت أكلها بعد زمن يسير فزعزعت أسس الجمعيات الاولى وولدت أعظم الثورات ورمت أمم الغرب في اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها الا الله » ثم يقول « الا ان العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وأن الهوة التي أوجدها الزمان في عقول الافراد والشعوب لا تزول الا بتراكم المؤثرات جيلا بعد جيل » . ثم يقول بعد ما تقدم : « ما من عالم نفسي ولا من سائح ذي نظر ولا من سياسي مجرب الا وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالي أعني مذهب المساواة الذي قلب الدنيا رأساً على عقب وأقام في القارة الاوربية ثورة ارتج الكون منها وأذكى في القارة الاميركية نار حرب الاجناس وصير جميع المستعمرات الفرنسوية في حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقل ما يوجد بين أولئك المفكرين من يقوم في وجهه بمعارضة ما . . » .

كل ذلك جرى من سريان مذهب المساواة !!! على أن دعاة المساواة لم يشطوا في مذهبهم ولا قالوا ان الناس طبعوا على غرار واحد في العقل والفضل . وهل ترى أن دعوتهم الى تساوي الناس في الحقوق أمام القانون تعطل تنازع البقاء بينهم وتذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم

وعاجزهم ؟؟ أليست هي أحرى أن تفسح المجال لهذا التنازع وترفع العوائق التي يضعها في طريق المنافسة استئثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستئثار ؟

يحق لاعداء المساواة أن ينكروا على دعاتها كل الانكار ، ويحق لهم أن يحتجوا عليهم بأن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة ، يحق لهم ذلك اذا كان دعاة المساواة في شك من هذه الحقائق ، أو اذا كان قد قام منهم قائم يمني العامل الجاهل بأن يتبوأ منصة الفيلسوف في الجامعة أو يسول له أن يطالب بوظيفة الطبيب أو المهندس . ولكننا نعلم أن داعياً كهذا لم يقم ولن يقوم لأن مديري البيمارستانات لا يفرطون في مثله اذا ظهر . وكل ما يمني به الداعي الى المساواة ذلك العامل الفقير انه يكون متساوياً مع سائر الناس في الامن على حياته . وهل في ذلك من ضير ؟؟ ومتى كان مبدأ المساواة لا يمنع انساناً حق التمتع بثمرة تفوقه في المعارف أو المواهب العقلية على سواه فأي ضير فيه ؟

يصم الدكتور هذا العصر بأنه عصر الجماعات وأنه يبيح الفرد الجاهل من الحقوق السياسية ما يبيحه المتعلم ، وأن صوت الدكتور الفيلسوف كصوت الزارع الغبي في إنابة النواب وانتخاب الحكام . . . . الى آخر ما يقول في تنديده بروح الديمقراطية ، ولكنه ينسى أن التساوي في أصوات الانتخاب ليس الا تساوياً صورياً وأن لكل انسان من الاصوات في الواقع بقدر ما له من العقل والقدرة على اقناع سواه باختيار من هو أفضل من غيره للنيابة ، وكذلك يصبح أكبر الناس عقلا واستعدادا للاقناع أكبرهم قسطاً في سياسة بلاده . فان كان بعض الموسرين يستعين بالمال على شراء الاصوات ويستخدم تلك الاصوات

المتعددة في غرض واحد . فذلك ما يشكو منه الاشتراكيون الذين ينقم عليهم الدكتور لوبون .

وهبنا أبطلنا اليوم مذهب المساواة . فمن يا ترى يحكم بين الناس ويقدر لكل منهم ما هو أهل له من الحقوق السياسية والأدبية ؟؟ أترانا نلجأ في ذلك الى الحكومة ؟ ذلك ما يأباه الدكتور لأنه يريد أن يقصر عمل الحكومة على الضروري الذي لا يسع الأفراد القيام به . فأولى به وهذه ارادته أن لا يدعها تتدخل بين الناس حتى في ترتيب اقدارهم وتمييز درجاتهم كانما هم كلهم موظفون في دواوينها ـ فلم يبق اذن الا أن نترك الناس يدعي كل منهم من الحقوق ما يقدر على تحصيله بذراعه ـ وبمثل هذا النظام نثوب الى الصواب ولا نكون قد تركنا أضغاث احلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا لأننا « اذا تركنا أضغاث احلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا كنا أول ضحاياها فما المساواة الا بين المنحطين وهي مطمح آمال صعاليك العقول يحلمون بها وهم بأحلامهم من التعساء » الخ الخ ـ اليس كذلك ؟؟

***

ذلك حديث صاحب الكتاب عن المساواة . أما الاشتراكية فهو كما يرى من الشذرات التي نقلناها عنه شديد الطيرة منها . وهو يمثلها تمثيلا مشوهاً . ويعمد الى شر مذاهبها فيعرضه على القارىء في حالة مشنوعة ثم يعمم حكمه على مذاهب الاشتراكية بحذافيرها . فتارة يحكم بأنها ستؤدي بالأمم الى أرذل درك الانحطاط حيث يقول : « نعم لا حاجة لأن يكون الانسان ضليعاً من علم النفس ولا من علم الاقتصاد لينبىء بأن العمل بمقتضى مبادىء الاشتراكية يفضي بالأمم الى أرذل درك الانحطاط وأخزى صور الاستبداد » .

وتارة يعرضها لك كما تتصورها اذهان الجهلاء الواهمين . فيسبق الى ظنك أن هذه الاشتراكية صنف من الأفيون استورده أئمة الاشتراكية من بكين . فهي كما يقول الدكتور « تمثل في ذهن النظري الفرنساوي صورة جنة تساوى الناس فيها فتمتعوا بالسعادة الكاملة في ظل الحكومة وتمثل للعامل الألماني حانة طبق دخانها وطفق رجال الحكومة يقدمون لكل قادم أطباقاً من لحم الخنزير والكرنب المملح ودناناً من الجعة.الخ »

ولا يخلو كلام الدكتور من بعض الصواب ولكن أي مذهب من مذاهب الاجتماع أو دين من أديان الأمم سلم مما تعرضت له الاشتراكية من التحريف والتشويه ؟؟ وأي فكرة كبيرة امكن أن تصل الى اذهان العامة على حقيقتها دون أن يمزجوها بأحلامهم ويضيفوا اليها من تفسيراتهم وخطرات اوهامهم ما هي بريئة منه ؟؟ فمن الظلم أن تعد هذه الأحلام اكثر من ظل للاشتراكية يقترن بها ويحاكيها ولكنه شيء آخر منفصل عنها . وقد تكون هذه الاحلام لازمة لها كما تلزم الاحلام كل نحلة ورأي ولكنه يجب ان لا يخلط في الحكم بينها وبين مبادىء الاشتراكية وقواعدها العملية . وهذه المبادىء والقواعد لا تدحض بالسفسطة ولا تنقض بالتعوذ والحوقلة ، لأنها نشأت من حاجة ضرورية شعر بها الناس وتكلموا فيها قبل أن يعلنها الفلاسفة وأهل النظر . وكيف تدفع الحاجة الى الاشتراكية بالسفسطة والمغالطة او بالمنطق والبينة وهي كما يقول الدكتور سر « لا يعرفه الا علماء النفس الواقفون على أسرار الحياة » و« لا تأتي الادلة التي تقنع به من طريق العقل » ؟؟

يقول بعض الكتاب كما يقول الدكتور ان الاشتراكية نذير الانحلال والضعف وانها لا تفشو في الأمم الا على وشك من ادبار مجدها

واختلال نظامها ونفاد ما فيها من قوة حيوية . وبين القائلين بما يقرب من هذا الرأي رجل يقتبس آراءه في الاجتماع من أطوار التاريخ المصري وهو العلامة فلندرس بتري الباحث الأثري المشهور . فهذا العلامة قد استخلص من ابحاثه في تقلبات الدول المصرية ان الدول تنشأ في مبدأ ظهورها على يد فرد قوي مستبد ثم تنحدر منه الى فئة من العلية والمقربين ثم تنحدر الى الحكم الديمقراطي أو حكم الطبقات الوضيعة فيعتريها من هنا الضعف فالسقوط في قبضة مستبد جديد . وهكذا دواليك . وقد طار أعداء الاشتراكية فرحاً بهذه الشهادة وراحوا يقذفونها في وجوه الاشتراكيين معتدلين ومتطرفين وحملوهم وزر اسقاط الدول والجناية على الحضارة . كأنما هذا الترتيب الذي استنبطه بتري ـ على فرض صحته ـ قاطع في الدلالة على أن الاشتراكية أو الديمقراطية هي علة السقوط الذي يعتري الدول وانها لا يجوز ان تكون عرضاً من أعراضه ونتيجة من نتائجه !! وكأنما يكفي لمداواة ذلك السقوط أن تمحى الاشتراكية ويمحق الاشتراكيون ولا يجوز ان يكون الدواء الناجع مرتبطا بدواء العلة الدفينة التي أطلعت الاشتراكية واطلعت أعراض السقوط معاً . . . واذا كانت الاشتراكية على هذا التقدير عرضاً للعلة وليست هي العلة نفسها فماذا يجدينا أن نمحوها ونكم أفواه الداعين اليها وماذا في محوها من الدواء للانحلال والتدهور الذي لا مفر منه ؟؟ ألا يكون ذلك كمعالجة الجدري بنزع قشور طفحه من ظاهر البشرة وترك جرثومته تسري في الدم وترتع في باطن الجسم ولا من يلتفت اليها فيعمل عمل الجد على استئصال شأفتها أو تخفيف ضررها ؟؟ فإن كان ثم دواء فليكن الدواء للعلة الأصلية والا فلا معنى للقدح في الاشتراكية ولا فائدة من اضطهاد دعاتها .

والحقيقة أن نظام مجتمعنا الحاضر مشتمل على نقائص ومثالب لا

ينفرد بالسخط عليها وطلب تبديلها الاشتراكيون . ومن العلماء من لا يحسبون انفسهم من الاشتراكيين ولا يحسبهم الاشتراكيون منهم وهم مع هذا يشكون ظلم النظام الحاضر شكوى غلاة الاشتراكية ويرون رأيهم في بعض الحلول التي يقترحونها ـ ومن هؤلاء العلماء السير اوليفر لودج ـ رجل لا يتهم في هواه ولا في تفكيره من هذه الناحية ولا شبهة عليه من جانب الاشتراكية ولا من جانب أي خزب اجتماعي آخر ولكنه يقترح في فصل كتبه عن وظائف المال أن تهتم الحكومة بشخصية الحائزين للمال كما تهتم بشخصية الحائزين للسلاح ، لأن المال ربما كان اخطر في يد الشرير من السلاح في يد القاتل ، وفي رأيه ان الثروات العظيمة خطر على المجتمع وان هذه الثروات تكثر من جراء انظمة مصطنعة يمكن تبديلها وليست هي مما تفضي به طبيعة سير الأمور ، وانه يجب ان يعاد النظر في قانون التوريث وأن ينقح او يقول في فصل آخر عن « الاصلاحات الاجتماعية » بعد التساؤل عن علة مصاعبنا الحاضرة في ملكية الأرض : « ولا يسعني الا القول بأن عادة السماح للأفراد بحق الملك المطلق على الأرض بدلا من المجاميع هي أساس كثير من هذه المصاعب » وليس السير اوليفر لودج بالوحيد بين العلماء المخلصين الذي يصفون أدوية الاشتراكية ولا يدخلون في غمار أهلها .

فالواجب على ولاة الأمر في كل أمة ان يعترفوا بنقائص المجتمع ولا تفتنهم عن اصلاحها عصبية الطبقات ، لأن الكثير من هذه النقائص قابل للاصلاح والتخفيف لولا تعنت من بعض الطبقات القوية يجر الى تعنت الطبقات الأخرى وتفاقم النزاع بينها على غير جدوى . ومن حق جميع الطبقات أن تنال كل حظها من المعيشة الصحية وأن يسوى بينها في فرص العمل التي تؤهلهم لها كفاءتهم الطبيعية ، ولا نذهب بالمساواة الى

أبعد من هذا الحد فان كل مساواة لا ينظر فيها الى الفوارق الطبيعية بين أخلاق الناس ومداركهم ومواهبهم المختلفة لا تكون عدلا ورحمة بل ظلما وإجحافاً معكوساً مناقضاً لسنن الطبيعة .

إن الاشتراكية الصحيحة ليست اسطورة من الأساطير ولا هي وعد خيالي يبشر الناس بالتعادل في الأقدار والتشاكل في المنازل والأرزاق . كلا ! فليست المساواة بين الناس من همها ولكنها انما تدعو الى المساواة بين الأجر والعمل وتطلب أن يعطى كل عامل ما يستحقه بعمله ، وأن ينتفع المجموع باكبر ما يمكن الانتفاع به من قوى الأفراد .

فان كانت الدنيا قد حم أجلها وكارب يومها لأن جائعاً يريد أن يشبع ، ومنهوكا يتمنى ان يستريح ومظلوماً يود لو ينتصف ، فلشد ما هزلت هذه الدنيا وضعف مزاجها وتبدل حالها بعد أن احتملت في ماضي العصور طغيان الجبابرة وبطر النبلاء ، وبعد أن صبرت على دسائس الدعاة وأكاذيب الدجالين ! !

ومن العجيب ان الدكتور لوبون لا يستقبح من انظمتنا الحاضرة شيئا الا كان له دواء حسن أو علاج لا بأس به في الاشتراكية ، فاذا تجاوز هذا الدواء الى غيره وقع في الحيرة والتضارب . مثال ذلك انه يصف الدواء لنهوض الأمم المائلة الى السقوط فيحيلها الى النظام الجندي ويقول «فأهم الشروط التي تلزم لنهوض الأمم المائلة الى السقوط تعميم نظام الجندية وجعله قاسياً جداً وأن تكون الأمة على الدوام مهددة بحروب طاحنة » .

ويعتقد الدكتور ان الجندية سوف ترجع للرجل المتحضر رجولته واستقلاله وتشفيه من مرض الاشتراكية التي هي « فناء الفرد في الدولة »

والتي« تفضي بالأمة الى أخس درجات الاسترقاق وتقتل في نفوس من خضعوا لحكمها كل همة وكل استقلال » . ولكننا لا نخاله يجهل إن الرجل أضيع ما يكون استقلالا في الجندية ، وأن الجندي في الجيش ليس الا آلة تتحرك باشارة من القائد وليس لها ان تعرف الى أين هي مسخرة ولا في أي غرض يسخرونها . فان كان في الجندية شيء من الخشونة فليست كل خشونة تغذ رجولة واستقلالا ، ولا نخاله نسي أيضا ان المانيا هي اكثر الأمم جندية وهي كذلك أكثر الأمم اشتراكية . فكيف اجتمع فيها هذان النقيضان المتباعدان في رأيه ؟؟

ويقول الدكتور في الفصل الرابع من الباب الأول : « أشار توكفيل الى تدرج الفرق الذي ببحث فيه بين طبقات الأمم في زمن لم تبلغ الصناعة فيه من الارتقاء مبلغها في الوقت الحاضر فقال « كلما توسع الناس في تطبيق قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وحد عقله وزادت تابعيته لغيره . فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل يوم بين العامل ورئيسه » .

وهي ملاحظة صادقة من توكفيل . إذ لا مراء في أن النظام الاقتصادي الحاضر قد صير العامل قوة آلية وسلبه كل وسيلة لاستخدام ذكائه وحذقه . فبعد أن كان العامل يصنع الاداة وحده فيفرغ ذكاءه في تجويدها ويتفنن في تكميلها وتحسينها . إذا هو الآن يتناول الجزء الصغير من تلك الاداة فيصنعه بلا روية . ويجيء المهندس أو رئيس الصناع فيؤلف من تلك الاجزاء تلك الاداة على الوجه الذي رسمه . فاذا خرج الصانع من المعمل لم ينتفع بصنعته وعجز عن العمل على انفراد ففقد مزية الاستقلال .

وهذا النظام الاقتصادي المودي بالمواهب ، المعطل للعقول ، هو النظام الذي تثور عليه الاشتراكية ، فما قامت الاشتراكية الا لترقي مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب المعمل ، وتجعله انسانا ذا رغبة في عمله وغيرة عليه . وليس كما هو الآن آلة تدير آلة . وخير للدكتور ان يفتش عن الاستقلال الذي يريده للفرد في مبادىء الاشتراكية من أن يفتش عنه في ثكنات الجنود .

***

والاشتراكية ليست من مصطنعات هذا الجيل ولكنها قديمة ظهرت في كل مكان يحرم فيه العامل ويغنم العاطل وتطور هذا العصر في فهمها وتوسع في تطبيقها تبعا للتطور الشامل لكل مرافق الحياة ومن بينها علاقات الأفراد والأمم .

وهكذا كانت تدور دورتها فيما مضى : ـ

كانت الأمم الغازية تفتتح البلاد فيستأثر قواد الجيش الفاتح وجنوده بأطيب الأرزاق، ويميزون أنفسهم عن سائر الأمة بمزايا يحرسونها بالقوة ويذودون عنها بالسلاح. ثم تؤول هذه المزايا بالوراثة الى أعقابهم فتصير حقوقا ثابتة . ويجنح هؤلاء الأعقاب الى الدعة والكسل جيلا بعد جيل فيجنون ثمرة ما لا يزرعون . ويجشمون غيرهم مشقة السعي وهم نائمون . وتفسدهم البطالة فيتمادون في اللهو والخلاعة ويتهالكون على المجون واللذة . ولا يزالون ذلك دأبهم حتى يضجر الناس منهم ويحنقوا عليهم . فتنقض عليهم في هذه الآونة جارة ترقب غفلتهم . فلا تصادف فيهم الا سراة لاهين ورعية ساخطين .

كذلك ثار ارقاء الرومان على سادتهم . وكذلك ثار الفرنسيون على

نبلائهم . فقال المؤرخون في الأولى عبيد تمردوا ، وقالوا في الثانية سوقة عربدوا ـ وما هي الا الاشتراكية تبدو وتخفى في تاريخ الناس من حين الى حين .

لسنا نحن في عصر يتحكم فيه سادة على عبيد ؛ أو يستبد فيه شرفاء على سوقة . ولكن المسألة ظهرت في طورها الجديد وكان ظهورها في هذه المرة بين أصحاب الأموال وطوائف العمال .

ومنذ أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة ، أصبح كل صاحب معمل يتمتع بتعب الألوف من الصناع الذين يستخدمهم في معمله . فكان التعب والحرمان من نصيب فريق والراحة والربح من نصيب الفريق الأقل ، فتجددت الشكوى القديمة ، وعادت الاشتراكية ، ولكن هل تراها عادت اليوم لتشهد خاتمة هذه المدنية وهل لا مفر من هذه الخاتمة بعد عودة هذه الاشتراكية الجديدة ؟ .

لا نظن ذلك ـ لأننا اليوم في مأمن من غارات القرون الأولى . ولأن العلم والنظام قد أصبحا في هذه العصور ملكا للانسانية عامة وليسا من خواص أمة يذهبان بذهابها .

***

واذا صح رأي نورد في كتابه التأخر والاضمحلال Degeneration فهذا الضعف الذي استولى على الجيل الحاضر أثر من آثار النظام الاقتصادي ، فلقد أفرط الناس في اجهاد ابدانهم افراطا حط من قواهم وأتلف أعصابهم . وكلما أحسوا بالضعف انكبوا على المنبهات من خمر وحشيش وتبغ وقهوة الى أشباه ذلك فزادتهم ضعفا على ضعف . ولو أنقصت ساعات العمل قليلا وزيدت الاجور زيادة تمكن العامل من

تعويض خسارته اليومية بالطعام وأسباب الراحة ، لكانت الاشتراكية قد انقذت الجيل القادم من غوائل هذا الاضمحلال . وبهذا الرأي - أي رأي نوردو - يسهل تعليل قول الدكتور في ختام الفصل الأول من الباب الثاني اذ يقول « فالأمم تموت متى ضعفت صفات خلقها التي هي نسيج روحها . وضعف هذه الصفات يكون على قدر حظ الأمة من الحضارة والذكاء » اذ لا تخفى علاقة بعض أنواع الضعف العصبي بالذكاء .

قال عبد الله بن معاوية « ما رأيت تبذيرا قط الا والى جنبه حق مضيع » وغريب أن يهتدي كاتب من كتاب القرن الثاني الهجري الى هذه الحكمة الجامعة . ولو شاء زعيم من زعماء الاشتراكية اليوم أن يتخذ لمذهبه شعارا لما زاد على تلك الحكمة حرفا . فالاشتراكية الصحيحة تقوم اليوم لتسترد ذلك الحق المضيع ، ولا مطمع لها في العدوان على انسان .

***

يتذمر الدكتور لوبون تارة «من انحطاط الخلق العام وفقدان أفراد الأمة ملكة ضبط نفوسهم وانصرافهم عن المرافق العامة الى حب الذات » ويأسف حينا لتلك الحقائق القاسية التي « جلبت على أهل العقول الصغيرة فوضى الأفكار التي يمتاز بها المرء في هذا الزمان . وغيرت تلك الشكوك أطوار الشبيبة المشتغلة بالآداب والفنون . فغرست فيها جموداً مشوباً بالكآبة وذلك افقدها الارادة ، ونزع منها القدرة على الاهتمام بأي أمر . وجعلها تعبد المنافع الذاتية الوقتية دون سواها » .

وقد تكلم ماكس نوردو في كتابه المتقدم عن هذا الخلق الذي دعاه الدكتور لوبون عبادة المنافع الذاتية . ومن رأيه انه ناشىء عن أمراض الاضمحلال التي ألمعنا اليها وانه شعبة من جنون الأنانية Egomania ، ونقول ان حب الذات ينشأ عن ضعف حاسة الواجب وهو مرض من

الأمراض العقلية . ولكن يزيده إعضالا تأكد الناس من فقدان التوازن بين حقوق العاملين وواجباتهم ، فيرون كيف يثري الوسيط ويعدم التاجر ، وكيف يكرم القوَّاد الوضيع ويهان العامل الأمين ، وكيف أن الكسب المباح يحسب بالدانق والسحتوت وأن ربح الاحتيال يعد بالدنانير والبدر ، ومتى رأوا ذلك فأي أمل لهم في الاعتراف بما لهم من حقوق ، وأي باعث عندهم على القيام بما عليهم من واجبات ؟؟ وكيف بعد ذلك لا تغلب عبادة المنافع الذاتية على روح الواجب وصوت الضمير ؟؟

لا أمل في الخلاص من هذه السوآت الا اذا ساد اعتقاد الناس بتضامن الانسانية . وأيقن كل فرد أن على حقوقه حارساً من أمته ، وأنه موضع عناية الانسانية أجمع ، بذلك تثوب الخواطر ويرعى الناس حرمة الواجب . والا فلو ظن الانسان انه ليس ثمت ضمير عام يؤنب الناس كافة على ما يحل به من الغبن والأذى ، وأنه لا حق له في الرحمة أينما يمم وجهه . فقد مات ضميره وغلبه الحرص فتعلق بالجشع ونبذ المبادىء والفضائل ، الا ما وافق منها هواه ، وفشت فوضى الاخلاق فارتفعت الحدود واندثرت معالم الشرائع ، إلا في الدفاتر والأوراق .

يقول الدكتور لوبون : « اليوم تميل الأمم القديمة الى السقوط فهي تهتز من الوهن ونظاماتها تتداعى واحداً إثر واحد وعلة ذلك فقدانها كل يوم شيئا من ايمانها الذي قامت عليه حتى الآن فاذا فقدته كله قامت حتما مقامه حضارة جديدة مؤسسة على معتقد جديد » .

نعم فلا بد للأمم من معتقد جديد . أفتدري ما هو هذا المعتقد ؟؟ نحسبه هو وحده الاخاء أو هو التضامن الانساني أو هو ـ في بعض مظاهره التي يفهمها سواد الناس ـ الاشتراكية .

ذلك انك اذا زرعت في قلب الانسان ثقته بعطف الانسانية اكبرته في عين نفسه ومسحت عن قلبه ذلة المخلوق الذي نبذته السماء ولم تعبأ به الطبيعة الا كما تعبأ بأحقر المخلوقات .

وينبغي أن يعتقد الانسان انه يعمل للانسانية لا ابتغاء المثوبة أو خوفاً من العقوبة ولكن مسوقاً بمحرض من غرائزه التي لا طاقة له بالخروج عنها . فاذا عمت هذه العقيدة رضي كل انسان بحظه ولم يطلب الجزاء على عاطفته النوعية في غير إرضاء تلك العاطفة ومطاوعتها فيما توحي به .

للانسانية اليوم حاسة تسمى « الضمير العام » ولكنها ضيقة الحدود لا يحتمي بها في كل أمة غير ابناء تلك الأمة . وقد أشار الدكتور الى ذلك في قوله « انك لا تجد بين ساسة الانجليز واحدا لا يرى جواز استعمال أمور في جانب أمة أجنبية لو أتاها في بلاده لأنزلت به السخط من كل ناحية » والحقيقة أن ذلك دأب ساسة الأمم كلها وليس الانكليز وحدهم . بيد اننا نرى حدود ذلك الحرم تمتد يوما بعد يوم حتى يوشك أن يشمل كل أمة جديرة بالدخول في لحمة الأخوة العامة . وكذلك كانت عهود الاخلاق في مبدأ أمرها ، فانها لم تكن مرعية الا في حق ابناء القبيلة وحدهم . قال داروين في كتابه أصل الانسان « ولكنها - أي أصول الاخلاق - لم تكن معتبرة الا فيما بين أبناء كل قبيلة على حدتها وكانوا لا يعدون مخالفتها في حق أبناء القبائل الغريبة جريمة مستنكرة ، ثم ما زالت هذه الأصول تنداح من نطاق الى نطاق أوسع منه حتى شملت أبناء الجنس الواحد ثم شملت ابناء كل دين على تباين أجناسهم ثم أصبح الناس يسلمون بها نظريا في حق نوع الانسان بأسره ، وان خالفوها عملا .

وهم سائرون في طريق الوحدة ، والطبيعة تقوم بعملها لهذه الغاية فتقرض الشعوب الذابلة ولا تذر منها الا ما هو أهل للرعاية والبقاء ـ تمهيدا لوحدة الانسانية وشمول أحكام الضمير العام .

***

لا يفوتنا بعد أن نقدنا ما خلنا فيه شيئا من الغلو من آراء الدكتور لوبون أن نعرض لما في كتاب (سر تطور الأمم) من الآراء الصائبة والأفكار القويمة الحقيقة بانعام النظر وطول التدبر . ونقول على وجه الاجمال ان المؤلف لو أخلاه من الأحكام والنتائج وقصره على الملاحظات والآراء لما كان فيه مأخذ ينتقد . فأنه لا العلم ولا الفن ولا الأدب جمع حتى الساعة الأدلة والمقدمات التي تكفي لاصدار تلك الاحكام المبرمة والنتائج المحتمة .

ومن تلك الملاحظات والآراء ما يهمنا نحن المصريين لأنه ينطبق على حالتنا تمام الانطباق .

فيظهر أننا لا نفهم بعد معنى الوطن حق الفهم . قال الدكتور « كان وجود الروح أولا في العائلة ثم انتشر منها في القرية ثم في المدينة ثم في الاقليم ولم يعم جميع السكان الا في أزمان قريبة منا . هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا في هذا العصر لأنها لا تصير واضحة الا اذا تم تكوين الروح ولهذا لم تترق فكرة الوطن عند الاغريق الى أبعد من فكرة المدينة ودامت مدائنهم في حرب مستمرة لأن كل واحدة منها كانت أجنبية في الواقع عن البقية . كذلك لم تعرف الهند منذ ألفي عام غير وحدة القرية فعاشت من ذلك الحين تحت حكم الأجنبي تقوم فيها ممالكه بسهولة كما تدول بسهولة » .

وذلك شبيه بمعنى الوطنية في مصر ، فانها لا تعرف غير وحدة القرية ، وما أظن هناك أن أمة غير الأمة المصرية تقام فيها المناحات لسفر قريب أو صديق من اقليم الى اقليم يجاوره ويقسم فيها الرجل بغربته وهو في عاصمة وطنه . ولا أحسب أن لهذه الحالة دواء أنجع من نشر الكتابة والقراءة وذيوع الأدب المصري بين قراء المصريين في كل قرية ومدينة .

والمصريون لا يكاد يؤلف بينهم شيء من وحدة المشاعر . ويكاد يكون أبناء النيل اثني عشر مليون فرد ولا أمة . ولا ريب أن ذلك انما نجم عن اختلاط العناصر وتوالي الأمم الفاتحة كما أنه يعزى الى سوء فهم الوطنية الذي قدمنا ذكره . ومن الحكمة استحياء أشد العصبيات أخذا بقلوب هذه الشراذم المبددة . ولا فرق بين أن تكون عصبية مصلحة أو عصبية تاريخية أو عصبية وطنية[1] ما دامت تفضى الى لمّ شعثهم وتوجيه نفوسهم الى وجهة واحدة .

ومن عيوب الأمة المصرية فقدان التخصص وشدة التقارب بين الصنائع والصناع وهو نقص بين « فإن مستوى العقل ـ كما يقول الدكتور ـ يكاد يكون واحدا عند جميع أفراد الأمم الدنيا ذكورا واناثا . . . . . واما عند الأمم الراقية فالقاعدة هي اختلاف الأفراد وكذا النوع اختلافا كبيرا » .

وقد نرى ان للخصوبة دخلا في هذا النقص . فان الزراعة في البلاد المخصبة لا تبعث الحاجة الى المنافسة كما تبعثها الصناعة : والمنافسة هي باب التفاوت والتنوع في الحرف والمصنوعات . ولن يطول الزمن

---

(١) وجدت هذه العصبية القوية والحمد لله في الحركة الوطنية الحديثة التي بدأت ظواهرها على أثر الحرب الكبرى .

حتى تضطر الأمة الى الصناعة لأن الزراعة لا تقوم في هذه الأيام بمطالب الناس . وربما رجعنا بشيء من احجام الأغنياء عن فتح باب المنافسة بانشاء المصانع وتبادل النفع مع الأمة الى احتفاظهم حتى اليوم بنحلهم الغريبة عن البلد فقد ظل أكثرهم الى زمن غير بعيد ينظر الى القطر المصري نظرة المهاجر الى هجرته ، ويعامل المصريين معاملة الاجانب عنه . وكان أهل الثروة من أبناء النيل في الجيل الماضي أقل شأنا من أن يستقلوا بعمل وأجهل من أن يقدموا على غير الزراعة . ولكنا أصبحنا نرى سراة مصر يستوطنونها ويولون وجوههم صوبها وترتبط مصلحتهم بمصلحتها فلا يبعد أن يكون شأنهم في المستقبل غير شأنهم في الماضي ولا سيما متى عمت الوطنية سكان مصر على السواء وعد من ابنائها كل من ينفعها وينتفع فيها من الوطنيين والنزلاء . فإن مصر بحاجة الى تآلف الأغراض الفة تشبه ما يعوزها من وحدة المشاعر .

***

ولا ننسى الأخلاق . فقد لحقتنا كل اضرار المدنية الغربية ولما نصل الى شيء كثير من مزاياها . ولا جرم فقد سهل على حواسنا أن تدرك ملذاتها فانغمست فيها وقصرت عقولنا عن ادراك معانيها فحيل بيننا وبينها . ولا يخفى ان اقتباس ظواهر المدنية سهل على من يريده لا يكلفه قسطا كبيرا من الدراية والمزايا النفسية . فلو انك حملت زنجيا حقيرا الى باريس لتمتع بكل رذائلها في أسبوع واحد ، ولكنه لن يقدر على التمتع بمعارفها وآدابها ولو طال عمره ، لأن الفرق في الحواس قريب بين أرفع الناس واحطهم ولكنه بعيد جدا في العقول والسجايا .

فنحن اليوم نعب من اباحية المدنية الأروبية ومنكراتها ، ولا نذوق

قطرة من عظمتها وطيباتها وما كنا لننتظر أن نجني ثمرة المدنية بغير شوكها . فان المدنية شباب الانسانية ، وفي سن الشباب تتولد الشهوات كما تتفتح القوى وتنمو المدارك . وليست طهارة الفطرة الا كطهارة الطفولة التي لا تأثم لأنها فارغة من الشهوات كما انها فارغة من القوى والمدارك . ولكن الرزيئة ان نضيع سلامة الفطرة ولا نبلغ رقى المدنية ، وذلك ما نوشك ان نصنعه .

ولقد أصاب الدكتور لوبون كل الاصابة اذ يقول : « الخلق لا العقل هو الذي تقوم عليه الجمعيات البشرية وتؤسس الديانات وتبنى الممالك وهو الذي يجعل الأمم تحس وتعمل وما كان كسب الأمم كثيرا من شحذ الأذهان والتعمق في التفكير » .

اي والله . فان الانسان بغرائزه . وان الحياة بخيرها وشرها لا شيء اذا نظرنا اليها من ناحية الطبع ولكنها من ناحية الغرائز كل شيء ، بل لا شيء سواها . وليست الفضيلة ما سلم به الانسان بتعليل عقله ولكن الفضيلة ما نشأ عليها وتضمنه طبعه وزجلته اليه فطرته .

فلتكن عنايتنا بالأخلاق فوق عنايتنا بالعلوم . ولتتضافر على هذا العمل المدارس والمحاكم والكتب . ومما يهون الأمر أن الاصابة محصورة في طائفة قليلة من ناشئة المدن ، فاذا وقيت الامة من عدواها كان الامل في الجيل القادم وثيقا .

ولا ننكر ان الامر يلزمه شيء غير يسير من التضحية والمفاداة . ولا بد له من قادة من عظماء الاخلاق والنفوس يقفون في وجه أهل الفساد ولا ييأسون من اصرارهم ، فانهم على التفافهم لتسرح فيهم كلمة الحق كما تسرح شرارة النار في الفاف الاجمة اليابسة .

يقول الدكتور لوبون « ان الفارق بين الاروبيين وبين الشرقيين هو اختصاص أولئك بفريق راق من العظماء دون هؤلاء » .

كلا . بل لكل نصيبه من العظماء . فللغرب عظماء العقول وللشرق عظماء النفوس . وما أحوج الشرق اليوم الى عظيم من أولئك العظماء الذين كان يجود بهم أحيانا . فيقوم من أوده . ويعزز من أيده . ويأخذ في طريق الحياة بيده .

الفضائل الجنسية[1]

كانت صيحة القرن الثامن عشر بتحكيم العقل صيحة قوية عاتية ، صاح بها فاقتلع من الجهالة أوتادا ، ودك من العقائد اطوادا ، واجترف دعائم وسدودا ، وأزال معالم وحدودا ، ثم غير من ذلك ما غير وابقى ما أبقى فأحسن كثيرا ، وأساء كثيرا .

أحسن بما ازاح من طريق الانسانية من ركام دارس كان يعتاق خطاها ويضل بصيرتها فخلا ما بينها وبين الفضاء ، واتسع لها سنن الهداية لو احسنت اليه الاهتداء .

وأساء بما هدم من قواعد راسخة ، واجتاح من حوائط شامخة ، ظنها القوم عراقيل فالفوها فيما بعد حصونا ، وحسبوها من عبث الخرافة فعلموا انها من تدابير الحكمة ، ثم عادوا يبنونها من جديد بعد جهد بذلوه في الهدم والبناء كانوا هم في أشد الحاجة اليه .

والفضائل الجنسية أول ما أصابه معول الهدم من دعاة ذلك القرن الكثير المعاول . فقد ولع بها ادعياؤه ومجانه يعرضونها لتهكمهم الأبله وضحكاتهم الخرقاء ؛ فظنوها من عسف رجال الدين وبقايا القيود الأولى ، وجعلوا يعجبون من الرجل الحر المستنير العقل كيف تقف بينه

(١) نشرت في العدد الحادي عشر من الرجاء

وبين تسويل نفسه ورقة يكتبها قسيس أو موثق يتعارف عليه القوم بلا مسوغ من الفكر ، ولم يروا لتلكَ الفضائل أصلا ابعد من العرف وأقوى من سيطرة الكنيسة ، فسخروا منها واستخفوا بها . ثم وجدوا مسلك الاباحة سهلا وطيئا فأوغلوا فيه وهم يزعمون انهم في وجهة العقل يوغلون وعن وجهة الوهم والجهالة يصدفون . فكأنما المؤتم بالعقل عندهم هو كل من لا يزعه من نفسه وازع ، وكأنما الواهم أو الجاهل عندهم هو كل من له خلق ينهاه أو عقيدة تكبح جماح هواه .

ولا أشك في انهم مصيبون في بعض الشيء ، على ما يشين صوابهم من العجلة وقصور النظر وخفة الاحلام . فهم مصيبون في قولهم ان الفضائل الانسانية يجب ان لا يكون معولها كله على ورقة مكتوبة أو أمر يمليه واعظ باسم خالق أو مخلوق ، ومن الزراية بالانسانية حقاً أن يكون التمايز بين فاضلها ومفضولها تمايزاً في باب الخضوع والتسليم الأعمى ، وإنما الذي يليق بالانسان أن يكون رجحانه رجحانا في خصائص النفس والفكر فان لم يكن كذلك ففي خصائص الخلق والجسد ، وهكذا يجب ان تكون الميزة بين كل صاحب فضيلة وكل صاحب رذيلة ، فهل الشأن غير ذلك في الفضائل الجنسية ؟؟ .

لست اعتقد ذلك ولكني اعتقد أن الفرق بين الناس في الأهواء الجنسية لم ينجم عن فرق في الانخداع للوهم أو التمرد على القيود ولكنه نجم عن فرق في مناعة النفس ووثاقة الخلق وفي الصلاحية للأبوة وبقاء الذرية ، بحيث يمكن أن يقال ـ بل يقال على التحقيق ـ ان الفضائل الجنسية الصحيحة كانت في أول نشأتها مزايا جسدية فزيولوجية قبل أن تكون مزايا أدبية أو دينية .

فالذي نراه أن لكل من الجنسين شروطا معلومة ، أو مجهولة ، يشترطها في الجنس الآخر حتى يتم بينهما الحب والتآلف ، وأن هذه الشروط هي بمثابة التعاقد الفطري على المزايا الضرورية للغاية التي تعنيهما معا ، وهي انجاب أوفق النسل وأمثله .

وكلما تعددت هذه الشروط كان تعددها في الأمة عنوانا على ترقيها ونضجها ووفرة مزاياها ووصولها من التقدم الى منزلة يضن بها على الضياع ويرجى النماء من بعدها . فلا يجيء نسلهم اعتباطا بلا احتراس ولا اعتصام كفعل الذين يعتقدون في قرارة غرائزهم ويشعرون من دخيلة أنفسهم بأن كل نسل لائق بهم ، وانهم بفطرتهم لا يأنفون من أن يكونوا آباء لأي صنف من الأبناء .

وأي قوام لتلك المزايا في أخلاق أصحابها المحسوسة ؟ وأي ضمان لبقائها مصونة في أهلها ؟؟ قوامها وضمانها هو العفة . ومعناها الترفع عن العلاقات التي لا تجمل بمزايا صاحبها .

فليس أدل على اضمحلال أمة أو على قرب اضمحلالها من سهولة الشروط « الفطرية » التي تبنى عليها العلاقات بين الجنسين وشيوعها في جميع الناس على السواء . فالرجل الذي لا يتخير لعاطفته الجنسية يقول بأصدق لسان ينطق به - لأنه لسان كل ذرة من ذرات جسمه - انه أب حقير لا خير للعالم في نسله ولا موجب للتمييز والتدقيق في ذريته . ولا يصدق هذا على الهمج والزعانف وحدهم ولا على الذين لا يشك في ضعة شأنهم وضعة شأن أبنائهم من باب أولى ، ولكنه يصدق عليهم كما يصدق على أناس غيرهم ممن تبوئهم الأمم مكانا عليا وتحتفي بهم وبأسمائهم وأعمالهم وتحسبهم خلقاء أن يكونوا أحسن الاباء لأحسن

الأبناء ، وهم على خلاف ذلك في الحقيقة . أولئك الذين ينخدع فيهم الناس والطبيعة بهم أعرف وأخبر ، ويضل فيهم حكم العقل ، والغريزة عليهم أدل وأظهر ، فربما شوهد بين المستخفين بالعفة أفذاذ من ذوي العبقرية او المعرفة أو اللسن أو الشهرة يبهرون النّاس بمواهبهم فيخالونهم أهلا لأكمل الأبوة وأنجب البنوة وينتظرون منهم أحسن الأزواج وأفضل الأصهار ، حتى اذا تركوا لأهوائهم نم فعلهم على مقدار استحقاق ذريتهم للاشتراط والانتقاء ، وأظهرت التجارب أنهم عقماء أو كالعقماء ، فيما يرزقون من ولد ضاوى وخلف ضعفاء .

وعلى الجملة فكل عيب مهما خفي في تكوين الانسان فله محك من هذه الشروط التي تتقيد بها ميوله الجنسية . فاذا كان عيبه هبوطا في مستوى الامة ظهر في أباحية الهمجي وتساوى النساء عنده وان اشتد اسره وتوثقت بنيته . واذا كان شذوذه في الخلق ظهر في غواية ذلك الشاذ وان أتى شذوذه بالفلق المعجز في معاريض الفنون والآداب . واذا كان نقصا في التكوين ظهر في إسراف الفتى الغر الذي لم تنضج ميوله ولم يكمل استعداده وان سلم من عيبي التأخر والشذوذ . واذا كان فسادا في مزاج الأمم ظهر في تهالك أبنائها على الرذيلة وان ظفروا من الحضارة بأوفى نصيب . وليس لواحد من هؤلاء نسل يستحق ان يبالى بالتمهيد والحرص عليه . فهم سواسية في طلاقة الميول الجنسية من القيود ، سواسية في كفاءة الأبوة ، سواسية في نقص المزاج على تباينهم في الأجناس والأذواق والأعمار .

فحيثما برز في الرجل أو المرأة امتياز يتلاشى ان لم ينتقل بالوراثة برز بإزائه شرط أدبي لضبط العلاقات الجنسية ، يترتب عليه بقاء ذلك

الامتياز عقبا بعد عقب ويتبعه حتما الاحجام عن بعض هذه العلاقات والرغبة في بعضها ، وحيثما امتنع الاحجام انعكست الآية وصارت الرغبة بلا ضابط دليلا على أن ليس في الفرد أو الأمة امتياز ينقل بالوراثة ، وقديما كان شيوع الرذيلة في بلد مؤذنا بانقراض الدولة وضياع الشوكة ومرادفا لقول الأمة بلسان حالها : إن جيلها المقبل همل لا يعتنى به ولا تصان حوزته .

على هذا ليس الاستعصام كما يزعم بعض المتفلسفة من الاباحيين تحكما فضوليا من وضاع العرف والشريعة . ولكنه أصل في خلقة الجسم يعاب فقدانه وينطوي على مغازي كثيرة : أقربها في الفرد أن له خلقا مكينا قادراً على صد ميوله والقبض على عنان أهوائه وأقربها في الأمة ان لها مستقبلا ناميا وخصائص لا تبذل جزافا . والذين يقولون انهم حكموا العقل فحكم لهم بنبذ الفضائل الجنسية يظلمون العقل ويتقولون عليه ما لم يقله ولن يقوله . لأنه لا يحكم العقل من لا يحصى جميع العوامل المختلفة ويدخل في تقديره حساب كل قوة مؤثرة في قضيته ، ومن العوامل المسيطرة على الحياة الانسانية ما يجهله العقل ولا يفقه من مراميه الا قليلا ، كالغرائز مثلا . فالذي يريد أن يخضع الناس لسلطان العقل دون سواه لا يهمل الغرائز وحدها ولكنه يكون أشد من ذلك اهمالا للعقل نفسه ، وهو يظن أنه باسم العقل يدعو وبدين العقل يدين .

مصطفى كمال[1]
بطل الشرق ورجل الساعة

رجل وثيق الايمان ، نقي الاخلاص ، محصد العزيمة ، حازم في مشتجر الفكر ، ناضج الرأي ، مجبول على الكفاح ، عزيز الأمل ، قيضه الله لوطنه في محنة مطبقة قلما تهوى الى مثلها الأوطان فنصره نصراً مؤزرا قل أن يذكر التاريخ مثله . وكان جهاده الوطني كله أعجوبة بل معجزة لو كان في نظام الوجود خوارق للعادات لقلنا انها من خوارق الطبيعة .

وللذين يتحدثون اليوم بنصر مصطفى كمال ـ والعالم من مشارقه الى مغاربه يتحدث به ـ أن يسألوا سؤال المعجب من توقف الحوادث الخطيرة بعض الأحيان على صغار الصدف : ما الذي كانت تؤول اليه حركة الأناضول لو لم يغفل الانجليز عن مصطفى كمال عند احتلال الاستانة فلا يعتقلوه مع من اعتقلوا من رجال الترك الذين كانوا يخشون صولتهم ويحترزون من تمردهم وانتقاضهم ؟؟.وما الذي كانت تؤول اليه هذه الحركة لو لم يهف فريد باشا على كره منه هذه الهفوة السعيدة التي ملكت مصطفى ناصية الأناضول والقت في يديه مقاليد مستقبله ؟؟ وكيف كانت تتقلب الحوادث لو لم يأمنه على قيادة جيش في قلب ذلك

---

(١) الأفكار ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٢

الوطن القديم الذي نشأت فيه دولة بني عثمان وما استمدت جيوشهم القوة الا منه ، فيطلقه من الآستانة في الساعة التي كان يصبو فيها الى الابتعاد عنها ، ويخلي بينه وبين ميدان العمل الفسيح كمن يبحث عن حتفه بظلفه ؟؟

ونظن أن الفضل في ذلك راجع الى صفة في مصطفى كمال هي سر عظمته كلها ، وهي « اكتمال جوانب العقل » ، فهذه الصفة جنحت به الى ايثار العمل المنظم القائم على أوطد الآساس وأبعد الغايات . فليس هو برجل القحم والقلاقل ولا ببطل الفتن والنزوات . ولو كان كغيره من المتهجمين القوالين الذين تغلب القوة المرتعدة على جانب واحد من جوانب عقولهم ونفوسهم فيندفعون في كل ثائرة ولا يزنون الأمور بميزان الحكمة وصدق النظر لسمع الانجليز من انباء هجماته وشططه ما خوفهم بأسه . ولكان عندهم حينئذ الرجل « الخطر » الذي يرهب شره وتخشى بوادره ولحبسوه مع من حبسوا فاضاعوا عليه فرصة هي فرصة الحياة لرجل عظيم ولأمة مستبسلة . وربما انقضى بذلك تاريخ هذا المجاهد الكبير وخسر الشرق بطلا من أجل ابطاله القدماء والمحدثين . ولكنهم جهلوا موضع « الخطر » الصحيح فاطلقوه ولم يحذروه ، لأنه مسالم موادع ، ولو دروا لأطلقوا كل معتقل واعتقلوه ، على أنه حظ للترك جاءهم من طريق المصادفة ، وما يعلم أحد كيف كانوا يعوضون عنه لو فقدوه .

ولعل هذه الصفة التي طبقت الخافقين بذكر بطل الأناضول هي نفسها سبب خموله وخفاء قدره في ابان القلاقل والطوارق التي كانت تجري على أيدي المشهورين من رجال تركيا الفتاة وجماعة الاتحاد والترقي . مع أنه كان من أوائل المنشئين لجماعتهم ومن أخلصهم نية وأسماهم مطلباً

وأشدهم عزماً، ولكنه كان لا يتهجم ولا تستخف حلمه الراجح صغائر الأمور ولا يزج بنفسه في أعمال مقتضبة لا يلم بأطرافها وحواتيمها ومواقع الحزم والتدبير فيها . فلذلك خمل ونبهوا وتأخر وتقدموا وتريث وتعجلوا وكانت له في آخر الأمر الفرصة العليا لحسن حظ بلاده . ومن غرائب جهل الناس بحقائق النوابغ الذين يعيشون بين ظهرانيهم ان هذا الرجل الذي كدنا نحسبه من (العمليين) الخالين من صفات النظر والخيال كان عند رؤسائه يعد من الحالمين تباع الخيالات حتى بعد الثورة الرجعية التي أثارها عبد الحميد على الدستور في سنة ١٩٠٨ . وفي ذلك العهد كان مصطفى كمال قد ناهز الثلاثين وأوفى على سن أتم فيها كثير من العظماء خيار أعمالهم . ولكنه كان يقترح الرأي البعيد وينظر النظر السديد فيهملونه ولا يعبأون به ، لظنهم انه من أبعد الناس عن ادراك الوقائع وسبر غور الحقائق ، وروى هو ذلك عن نفسه في حديث نقل عنه فقال : « كنت كثيرا ما أرفع الاقتراحات النافعة والانتقادات المفيدة لاصلاح شأن الجيش . فكان ذلك من الأسباب الجوهرية في حقد بعض القواد القدماء علي ، وقد ذهب بهم قولهم انني أقرب الى النظريين مني الى العمليين » . وكذلك يعدون كل رأي لا يفهمونه حلما أو وهما ولو كان في اعتقاد صاحبه من المحسوسات المتحجرة .

واكتمال الجوانب العقلية في مصطفى كمال ظاهر من تعدد ميوله ومواهبه وتيقظ الأذواق المختلفة في نفسه . فهو مع ميله الى الرياضيات مولع بالأدب والشعر ، ومع براعته في فن الحرب حسن الدراية بالسياسة ينفذ بنظر منه ثاقب في خلال شباكها المعقدة ومعضلاتها الملتوية ، ومع صلابته واصراره يأخذ بالرأي النافع اذا اقتنع بصوابه واصالته ، ومع

شظفه وشدة طبعه واعتياده الجلد والخشونة في معيشته لا يحرم نفسه جمال الطبيعة ولذة الأنس بخلائقها اللطيفة ، من طير صادح وزهر نافح ومحاسن لا تلج الى النفس إلا من أسلس مداخلها وأجمل نواحيها ، ومع احاطته بحقائق الحياة ونقائص الطبائع البشرية وثاب الأمل يخيل اليك أنه مسلوب الروية عازب اللب اذا نظرت الى مرمى بصره ومطامح قلبه .

وليس على شخصية هذا البطل حجاب غامض أو سر من الأسرار كما يغلب على كثير من عظماء الرجال . فأنت تسمع بأعماله فتعرف من هو ويغنيك ظاهرها عن باطنها وآثار الرجل المسموعة عن ترجمته المجهولة . وكذلك عرفناه حين سمعنا بمآثره . عرفنا أن الرجل الذي يجمع من الفلول المبددة جيشاً منظما خطيرا لا بد أن يكون قائداً قديرا . وان الرجل الذي ينشيء من الفوضى حكومة دستورية يستخرج لها الثروة من بلاد محصورة مجتاحة لا بد أن يكون ادارياً خبيراً . وان الرجل الذي يبرم المعاهدات ويعقد الاتفاقات ناظراً في ذلك الى مصالح بلاده وعلاقاتها بأمم الشرق والغرب لا بد أن يكون سياسياً حازما . وأن الرجل الذي تأبى عليه حميته مطاوعة التيار الطاغي فيجازف بمغاضبة سلطانه وأكبر دول اوربا من ورائه لا بد أن يكون وطنيا مخلصاً . وان الرجل الذي يقف ساعات في مجلس الأمة يبسط الخطط ويسوغ التدابير لا بد أن يكون خطيباً مبينا . وان الرجل الذي تسبق حكومته الأمم الأوربية الى اتخاذ الوزراء من النساء لا بد ان يكون مستنير الذهن بصيرا بعوامل التأثير في نفوس الأوربيين الذين يتهمون أمته وينعون عليها الشهوانية واحتقال المرأة ـ واذا عرفت من رجل انه قائد قدير واداري خبير وسياسي حازم ووطني مخلص وخطيب مبين وبصير مستنير الذهن فالسر الذي خفي عليك من

ترجمة حياته قليل

ووضوح الشخصية نافع في المواقف العصيبة التي يجب انقاذ الأمة منها ودرء أخطارها في حينها . فليس يجدي في هذه المواقف رجل لا تظهر آثار شخصيته في حياته ولا يحس سواد الناس معالمها حين ظهورها ، أما مصطفى كمال فمن هؤلاء الذين يشهد كل من لمحهم ولو لمحة واحدة انه في حضرة رجل فوق مستوى الرجال . ولسيماء الرجل هيبة ناطقة ولا سيما نظرات عينيه فأنى ما قرأت وصفاً له الا رأيت في مقدمته التفات الواصف الى وقع تلك النظرات . فهي نظرات تنفذ من خلال زرقة العينين حادة كالسهم كما قال مكاتب « اللستراسيون » الفرنسية ، وهكذا وصفته الأميرة قدرية في قولها « وهو مربوع القامة رقيق أبيض اللون مشرب بالحمرة الوردية . له عينان زرقاوان حادتان . نظراتها تكتنه الخفايا وتخرق الحجب الكثيفة ، وجبينه العالي آية النبوغ » وهكذا وصفه كلود فارير الكاتب الفرنسي المعروف والجنرال تونشند القائد الانجليزي ، فدلالة تلك النظرة واحدة في نفس الرجل والمرأة والكاتب الأديب والقائد الحربي على اختلاف في الجنس والنحلة .

وقد جرت العادة عند ترجمة رجل عظيم من رجال الحرب المحدثين أن يقارن بينه وبين رجل يعد أعظم اساتذتها في العصور الحديثة ، وهو نابليون بونابرت ، ويتخذون هذه المقارنة محكا لكفاءة كل قائد كبير ومقياساً لمواهب النابغين ممن جمعوا بين الخبرة بالفنون العسكرية والقدرة على زعامة الشعوب . ونحن لا نرى حرجاً من المقارنة بين مصطفى كمال ونابليون أو أي عظيم من العظماء المخلدين الذين أنجبهم العالم قديما وحديثاً . وليس يعنينا في اظهار فضل مصطفى كمال وتقدير شخصيته

النبيلة أن نعقد المفاضلة بينه وبين نابليون في اساليب القتال والمعرفة بفنون تعبئة الجيوش ورسم الخطط وابتداع الحيل ، فهذا خارج عن بحثنا وليس هو مما يتيسر لنا ولا مما يرتبط ارتباطا وثيقاً بالابانة عن شخصية الرجل وعظم نفسه ، ولكننا نقول ان مصطفى **كمال** لا يخسر شيئاً في أي مفاضلة تعقد بينه وبين نابليون من وجهة الصفات النفسية والعظمة الخلقية . بل لعله يربح كثيراً ويرجح عليه رجحاناً ظاهراً .

إن نابليون خان بلده (كورسيكا) وخذله في النزاع الذي كان قائماً بينه وبين فرنسا . ولما شرع في فتوحاته ومغازيه الفى أمامه روح الثورة تكاد تلتهم الدنيا وحيوية الشعب الفرنسي تتفزز للنهوض والعمل ، فاستغلها اسوأ استغلال واتخذ منها وسيلة لاشباع نهمته وتشييد مجده وتأثيل ملكه . ولم يأت منه النفع الا عفواً أو على سبيل الاضطرار .

أما مصطفى كمال فماذا استغل من الفرص ، وأي أمل كان أمامه يغريه بالعمل ساعة شمر لتلك الغاية البعيدة التي تكلُّ عنها الهمم وتظلع دونها الآمال ؟؟ انه استغل الضعف والفوضى والفقر ودسائس الخونة في داخل بلاده قبل دسائس الأعداء في خارجها . انه استغل الهزيمة الفاضحة فاستخرج منها فوزا باهرا ومجدا سامقا . ولكنه فوز لقومه لا لنفسه ، ومجد دولة لا مجد زعيم ، لم يصبه منهما الا ما لا بد منه من فخر يعود على صاحب العمل الصالح الضخم . أراده أم لم يرده ، وسعى للوصول اليه أم سعى للتخلص منه .

وهذا الرجل على اهتزاز الشرق كله وجل أوروبا بقوة حركته لا يعرف الصخب ولا الخيلاء وقل أن يرى في أوقات فراغه الا ساكنا

صامتاً . توالت عليه كما تقول الأميرة قدرية « عوامل الاخفاق وخيبة الأمل والمرارة اللازبة وأحوال شتى تركت لها أثراً بيناً في حياته إن لم تكن قد غمرتها برمتها فصارت عاملا مهما في تكوين خلائقه » على أنه قد يبتسم فيريك الحديد يفتر فجأة عن الورد كما يقول كلود فارير ، وربما شبهه بعضهم بالنمر كما يقول مكاتب اللستراسيون ويحسبهم المكاتب مصيبين في هذا التشبيه « إلا أن ابتسامات كابتسامات الأطفال تغير أحيانا ذلك الوجه وتكسبه عذوبة مدهشة » وهذه الابتسامة الطفلية معروفة على أفواه كثير من العظماء ، حتى الذين تمرسوا منهم بآلام الحياة واكتووا بنارها ، ولا غرابة فيها فان النابغ لا يزال عمره كله طفلا ، لأن شباب عقله ونفسه لا يقترن بالتجارب الشخصية والسنين المحدودة التي يحياها على هذه الأرض ، وانما يقترن بحياة أمم متجددة بل بحياة العالم أجمع في بعض الأحايين ـ وأظن تلك الابتسامة الصغيرة التي تتردد على شفتي مصطفى كمال أدل على عظمته من كل ما تجشمه من الأهوال ، وما امتاز به من كرائم الخصال .

هذا هو الرجل الذي تدوي الدنيا باسمه في هذه الأيام . والذي يشعر الآن بسعادة ما مثلها سعادة في هذا العالم المترع بالهموم . ويكرع من كأس نشوة نادرة هي نشوة الشعور بأن الحق ينتصر بين مصارع الشهوات والمطامع . وما أندرها من نشوة سماوية !!ـ السعيد من ظفر برشفة من كأسها . ولكنها سعادة لا يستحقها الا القليلون ، ولا ينالها الا الأقل من هؤلاء القليلين .

مهاتما غاندي[1]

١

لا يجد الكاتب بعد الكتابة عن مصطفى كمال صورة هي أبعد منه شبها من صورة الزعيم الهندي ، أو النبي « غاندي » سجين الحكومة البريطانية اليوم . وليس بين الرجلين بعد جامعة الدعوة الوطنية من مناسبة تذكرك بأحدهما ان ذكرت الآخر غير مناسبة التباين في نوع القوى النفسية والصفات الخلقية . فكلاهما زعيم وكلاهما عظيم ، ولكن شتان نبعاهما من الزعامة والعظمة . والفرق بينهما في الحقيقة هو فرق بين نموذج عال من الجنس التركي ونموذج عال من الأمة الهندية ، فهذا مثل الشجاعة والبأس ووضوح الشخصية والأخذ بالحقائق الملموسة ، وهذا مثل التضحية وانكار الذات من نوع آخر ، وما شئت بعد ذلك من غموض في قوى النفس وأسرارها يتصل بغوامض الهند القديمة الأسرار ـ أحدهما بطل والآخر نبي ، وما البطولة في أعم أشكالها عند الهنود الا ضرب من النبوة لا معجزة له غير القدرة النفسية الخارقة . فاذا طلب السامي أو الطوراني من الرسل المبعوثين اليه أن يقيموا له البرهان على صدق دعواهم بنقل الجبال وتحويل الأفلاك والانباء بما يجري في الأماكن البعيدة أي بما يستطيعون عمله لو تضاعفت قدرتهم المادية أضعافا معينة

---

(١) الأفكار ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٢

كأن يزدادوا في الطول أو القوة أو السمع أو البصر آلافا مؤلفة من الأضعاف ـ.فالهندي لا يطالب نبيه ببرهان كهذا ولا يكلفه هذا النوع من القدرة . إنما يكلفه معجزة نفسية بحتة تسبر له غور قدرته على قدع شهواته واحتمال آلامه وانكار جسده ففريق يميل الى التسليم بحاسته وفريق يميل الى التسليم بضميره .

إن أعمال مصطفى كمال تدل عليه كما قلنا ولكن أي دلالة على غاندي تصل اليها من مجمل أعماله ؟ إنه حمل فريقا عظيما من الهنود على الاعراض عن زخارف المدنية الغربية والف في كثير من المواطن بين أصحاب الديانات المختلفة ونصح وخطب ونقلت عنه أخبار شتى من بعيد ، ولكنها في جملتها أعمال قد يأتي بها عشرة من الرجال مختلفون لا يشابه احدهم الآخر وكلهم من الزعامة بالمنزلة المطاعة ـ قد تجتمع فيهم الشجاعة والمراوغة والدهاء والصراحة والنبل والضعة والاخلاص والرياء والطمع والعفة والانتقام والمروءة ، وقد ترى أحدهما من البعد عن الآخر بأقصى ما يكون عليه الرجلان المتباعدان . ولا سيا في بلاد قديمة شاسعة الأطراف مختلطة كالهند يتسع فيها المجال لعوامل متناقضة . فأي هؤلاء العشرة يكون غاندي يا ترى ؟؟

لم يظهر بعد « طيلاق » الزعيم الهندي الذي مات في الأعوام **الأخيرة زعيم كان أجل خطراً وأبعدصيتاً وأكثر أتباعامن غاندي هذا الذي** لقبه قومه بالنبي أو القديس . وقد اعتاد غاندي ان يقول عن سلفه الراحل : « إنه لو ظهر في القرون الغابرة . لأنشا له دولة وعرشا » وهو انما قال فيه هذا القول لما عرفه من شدة مراس « طيلاق » وقوة شكيمته وبعد امله واعتداده بنفسه وبروز شخصيته . ولا نظنه الا كان شاعرا

بالتفاوت بينه وبين صاحبه في هذه الخلال حين التفت اليها ونوه بها أكثر من مرة . فان الاختلاف في الخلق من هذه الناحية هو أوضح مواضع التباين بين الرجلين صاحب العرش الذي تأخر به الزمن عن عرشه والنبي الذي لم يتأخر به الزمن عن شرف النبوة !!

والعهد بالأغلب الأعم من أبطال النهضات وقادة الحركات الاجتماعية والسياسية أن يكونوا صعاب الطبائع ضخام الأنانية أولي طماح وكبرياء ، وانهم الى أخلاق الغزاة الفاتحين أقرب منهم الى أخلاق الأنبياء والنساك ، ولو قدر للهند ان لا يتولى الزعامة فيها أحد من غير ذلك الطراز الذي نبغ منه طيلاق لما سمعنا باسم غاندي قطولما كان له دور يؤبه له في رواية الهند الحديثة ـ نعم فليس غاندي بذلك الرجل الجبار بشخصيته الغلاب بجبلته ! ولا هو بالمزاول المداور القوي العارضة الخلاب الفصاحة ، ولا هو بالرجل الذي تروعك هيئته وتستحوذ على اعجابك هيبته . لا بل خلاف ذلك يراه واصفوه من أتباعه وغير اتباعه . يقولون انهم يبصرونه في ضواه ونحافة جسمه ورخامة صوته ووداعة نظراته فكأنما يبصرون طفلا صغيرا لا بطلا مسموعا يقود الملايين وينهض لمناوأة اكبر دولة في الأرض . وقد رأيت له عدة صور مطابقة لهذا الوصف وقرأت اخباره مع حكومة الهند وأساليبه الغريبة في مصاولتها فلم أشك في أن رؤساء الحكومة هناك كانت تمر بهم لحظات لا يتمالكون فيها من الابتسام من هذا القدر الذي امتحنهم بكفاح هذا النبي السياسي ، فأصبحوا أمام حملاته التي كان يصبها عليهم صباً لا يدرون في أي باب يسلكونها : أفي باب اللدد في الخصومة أم في باب عناد الطفولة الطاهرة البريئة ؟؟ ولا يكادون يعلمون هل يجدّ هذا الخصم العنيد أم هو يداعب

حكومة الهند برهة ثم هو تاركها وشأنها حين يلهمه هواه .

الى هذا الحد يتصور الفكر غاندي غير مطبوع على اثارة البغضاء ، وهي خصلة افادته أجل فائدة في مهمته التي قيضته الظروف لها ، وما كانت لتقيض لها رجلا هو أخلق بها منه . انها كانت مهمة صاحبها في غنى عما يتصف به الزعماء الجبابرة من خلق غضوب يستنفرون به في جانبهم وجانب خصومهم أقصى ما عند الفريقين من نعرة الجنسية وعداوة العصبية ، فهي مهمة جهاد سلمي : سلاحها الرفق والصبر وأصلح الناس لقيادتها ذلك الرجل المسالم بطبعه الوديع بحكم تكوينه الذي يحذر اتباعه أشد الحذر من مقارفة العدوان والعنف ويقول لهم : اذا كان لا بد من العدوان فكونوا انتم ضحاياه ولا تكونوا أنتم جناته ، ويعظهم أن يعلوا بأنفسهم عن غضب السباع وشراسة الحيوانية . وهي كذلك مهمة تأليف بين عنصرين فرقتهما ترات تاريخية كانت الى عهد قريب تسيل الدماء وتذكي ضرام البغضاء وتبعث الانفة والاعتزاز بالآباء ، فكلما كان القائم بها سهل العريكة بعيداً عن الكبرياء الشخصية والخنزوانة الدينية كان ذلك أعون له على الاصلاح والتوفيق ومسح الترات ولم الصفوف .
وهي مع هذا وذاك مهمة قناعة واعراض عن لذات المدنية وغواياتها ، ومن لها غير غاندي المتواضع المتقشف القانع باليسير من الغذاء والرخيص من الكساء ؟ ولو أنه كان من رجال المطامع وعشاق الدنيا المفتونين بجاهها وزينتها ولذاتها وملاهيها أتراه كان يخطر له أن يتخذ نفسه قدوة لاتباع دعوته فيغدو ويروح في ثياب من أرخص ما تنسج الهند أو يعيش على الفاكهة والأرز المسلوق ؟؟ ولقد صار للدين ومكارم الأخلاق كل ما عمله غاندي ونطق به . حتى الدعوة الى نبذ مظاهر المدنية الغربية وجد لها

حجة من مكارم الأخلاق تحث عليها !! فكان يقول لجماعته : « إنني لأستحي أن اخاصم رجلا يمن عليَّ بنسج ملابسي » وما هو بهازل ولا متكلف في ما يقول .

ويخيل الي أن ضمور الشخصية أفاد غاندي أكثر مما أضر بنفوذه وأكسبه من الأنصار أكثر ممن أبعد عنه . إذ كانت الشخصية الضامرة هي التي ساعدته على بلوغ تلك المنزلة الدينية الرفيعة التي مهدت له سبيل التمكن من أقوى جوانب النفس الهندية ـ وهو جانب الشعور الديني ـ ومن أبرز سمات النساك والروحانيين بساطة المظهر وخشوع النفس والجسم والبعد عن صور السطوة والوجاهة الدنيوية . بذلك يتسم النساك الصادقون . وكذلك يتراءى للناس النساك المتصنعون ، فصاحبنا غاندي في بنيته النحيلة وقده الصغير أصدق عنوان للزهد والورع وأقرب صورة الى الصلاح والتقوى . ويمكن أن يقال على سبيل المجاز ان الطبيعة تورعت في تركيبه فلم تعمد الى البذخ والروعة : فكان الرجل متقشفا في الحياة وكانت الحياة متقشفة فيه !!

وكثيرا ما رأينا الكبراء من ذوي الصلف والنفوذ يقبلون الطاعة لأمثال غاندي ممن لا سلطان لهم في ذواتهم ولكنهم مظهر من مظاهر سلطان الله الذي لا يتعالى على سلطانه عظيم ولا حقير ، يقبلون الطاعة له ولا يقبلونها لمن يتقدم اليهم بمزايا من جنس مزاياهم ، لأن الأول يترك لهم الدنيا التي هي موضع تفاخرهم وتناحرهم ومثار التنافس والحسد بينهم فيخرجونه من ميدان المنافسة ولا يرون على أنفسهم غضاضة من تقديمه عليهم جميعا . والثاني يتقدم اليهم بحظه من تلك المزايا لينافسوه أو ليستكبروه عن منافستهم فيسلمون له عند العجز مجبرين و مختارين كمجبرين .

وللضعيف الهيئة في بعض الأحيان أن يغتبط بضعفه الظاهر ويحمد عواقبه . لأن الناس لا يكلفونه ما يكلفون القوي ولا يقيسون أعماله بمقياس ذوي القدرة والخطر . يستكثرون منه القليل اذ يستقلون من غيره الكثير ، ويعجبون منه بما ليس يعجبهم من سواه . مثله في ذلك كمثل الطفل الصغير يرفع اللبنة فتسير بحديثه الأمثال وليس هذا ولا اضعافه مما يذكر للرجل الكبير . وتراهم قلما يستغربون الاساءة من الضعيف اذا أساء ولا يلتفتون الى اساءته الا عاطفين أو غير مبالين . واذا أحسن لم ينفسوا عليه إحسانه لقلة ما يحفزه من دواعي العداء في النفوس .

مهاتما غاندي

ـ ٢ ـ

ظن بعض قرائنا اننا غمطنا البطولة حقها وأصغرنا من قدرها حين قلنا في عرض الكلام على مصطفى كمال ان البطل لا يزال طول عمره طفلا ، وخيل اليهم ان الاخلق بالبطولة والاشرف لها أن توصف بالحنكة والحصافة والنضج قبل الأوان . فكتب الينا قارىء أديب يستغرب ما قلناه ويستفسره ويحسبنا أخطأنا الرأي فيه وعدونا الصواب . ولو فطن الى حقيقة ما أردناه لرأى ان الغمط لحق البطولة والاصغار من قدرها هو ما توهمه وقاراً جديراً بها حين خطر له انها أسرع من غيرها الى ادراك تلك الحكمة الدنيوية التي أساسها أن لا يدخل المرء في ما لا يعنيه وأن لا يعنيه الا ما يعود على شخصه من خير وشر . فان هذه الحكمة الرخيصة انما يجاد بها على من ليس يرجى منهم خير لغير أنفسهم ولا تفضل من قواهم بقية تزيد على مصالحهم . وأما الذين ندبهم الله لنفع أممهم أو لنفع الناس عامة وأنساهم في الغيرة على هذا النفع العام غيرتهم على أنفسهم فقد سلبوا ـ والحمد لله ـ هذه الحكمة وجردوا من هذه الحصافة ولم يسلم منهم أحد من مظنة الجنون والغرارة ، لا لانهم أقل من غيرهم عقلا وأبطأ

---

(١) الافكار ١٨ ستمبر سنة ١٩٢٢ .

ادراكا ولكن لانهم أكبر نفساً وأبعد مطلباً وأعلى شأواً في الحياة من عامة الناس .

ولسنا نند عن موضوعنا اذا نحن فصلنا هذا الرأي بعض التفصيل على القدر الكافي لدفع الالتباس والخطأ ، فان غاندي أيضاً ممن شرفتهم العناية الالهية بروح الطفولة الخالدة . فلننظر هنا ما معنى الغرارة التي يوصف بها الابطال ، ولننظر قبل ذلك في معنى غرارة الطفولة ومعنى الحكمة الفردية التي تؤدي اليها التجربة .

يكون الطفل غراً لانه لم يزن طاقته ولم يقس نفسه على القوى المحيطة به . فهو لا يعرف أين يقف بهواه ولا كيف يكبح شوقه لانه لا يعرف القدرة الضرورية لتحصيل مطالبه . ولا يزال يصادم « الظروف » والظروف تصادمه حتى يقيس ذرعه بمعيارها ويلائم بين قوته وقوتها ولا يذهب الى أبعد من الحد الذي عرفه لقوته ، فيقال حينئذ انه رشد ونضج عقله وتعدى طور السذاجة الاولى . لانه وفق بين نفسه والوسط الذي يعيش فيه . ولكن هل هذا النضج الذي يتاح لعامة الناس مما يمكن أن يتاح لنوابغ الابطال ؟؟ وهل في وسع بطل أرسلته العناية لاصلاح وسطه أن يوفق بين نفسه وهذا الوسط الذي ليس يرضى عنه ولا هم له الا أن يغيره ويهذبه على حسب ما يبدو له أنه الكمال والصواب ؟؟ انه ان فعل ذلك لم يكن اكبر من بيئته والتهمته البيئة كما تلتهم اللجة غريقها فلا يخرج من جوفها ولا يبين له أثر في غمارها . وما كان العظيم عظيما الا لانه أكبر من البيئة المحيطة به وأعلى مطلباً من أن يندس فيها كما يندس سائر الناس . فاذا رأيته بعد تجربته للحياة« غراً » يقدم على تجربتها مرة أخرى وثالثة ورابعة فذاك لان قوته لا يحدها زمنه ولا ينتهي أملها عند معرفة ما

يطلبه لنفسه . وما هو في الحقيقة بغر الا من وجهة النظر الى مصالحه الخاصة . أما اذا كان مقياس الحكمة في اعتبارنا هو أن يقيس الانسان قوته على قوة بيئته فالبطل هو المثل الاعلى للعقل الحي لانه في الحقيقة لا يمنعه أن يخضع للواقع الا هذا السبب . وهو انه قاس قوته على القوى المحيطة بها فوجد ـ شاعراً بذلك أو غير شاعر ـ انه قمين أن يكافحها ولا يخضع لها ، وما دام بينه وبين دنياه هذا الكفاح فهو الطفل الكبير الذي تعاوده الغرارة ولا يفرغ في التجربة .

***

ونستأنف الكلام على غاندي فنقول :

ان غاندي كما رأينا مما تقدم صاحب زعامة خاصة بموقفه ومهمته ـ أي أنه لم يخلق ليكون زعيما على كل حال . ولا نقول ذلك بخساً لشمائل الرجل ولا تنقصاً من قدرته ، فانه فضلا عن فصاحته وسهولة اجتذابه للسامعين حاصل كما نعتقد على صفتين من ألزم صفات الزعامة على الناس ، بل هما ألزم صفاتها قاطبة ولولاهما لما أفلح داع قط ولا استحق الكرامة زعيم . وهاتان الصفتان هما الاخلاص والايمان .

فاخلاص غاندي فوق كل شبهة ، وايمان غاندي قد صفته المحن ومحضه النسك وتنزه عن الشكوك الهادمة والوساوس القائمة . عرف له اخلاصه وايمانه ابناء قومه فعظموه وأكرموه ورفعوه بينهم مكاناً لا مطمع فوقه لطامع . وما أدراك ما مكانه عندهم ؟ انهم يلقبونه النبي أو الروح العظيم (ماه ـ آتما) وهي منزلة ليس بعدها ولا أرفع منها في دين البراهمة الا منزلة واحدة . هي الروح الكلية (بارام ـ آتما) وهي روح برهما : روح الله .

ولم ينفرد بتنزيه غاندي عن التهم أبناء وطنه من البراهمة والمسلمين . فقد شهد بنزاهته كذلك كل من رآه من الاوربيين ، حتى أنصار الاستعمار من الانجليز ، بل شهد له قاضيه الذي أمضى الحكم بالسجن عليه . ورأينا بين كتاب الانجليز من يقول في مجلة « نيشن » غير متلعثم ولا محترس « انه ليس من التجديف أن يقارن بين غاندي والمسيح » وهي كلمة كبيرة من انجليزي مسيحي !! ولم يستطع السير فالنتين شيرول أن يلقي عليه الغبار الاسود الذي لا يعييه القاؤه على مخلوق يناهض الاستعمار البريطاني ؛ فقال انه في الحركة الهندية « بلا فأس يشحذها لنفسه » وهذه الفأس عندهم هي كناية عن المصلحة الشخصية والاغراض المريبة ، وكم من فأس خلقها شيرول وشحذها على حسابه لأناس لا يحملون الفؤوس !!

وغاندي الآن يمشي في أول الحلقة السادسة من عمره ولا يدري أحد كيف يتم هذه الحلقة . أيعود الى الحياة العامة قريباً أم يتم أيامه في السجن فيكاد ينقضي من الآن دوره في سياسة بلاده ؟. على انه قضى في هذه الحياة العامة ما هو حسبه ـ قضى ثلاثين سنة في أشرف الاعمال وأطهرها لم تؤخذ عليه في أثنائها سيئة واحدة تشينه ولم يخامر الشك أحداً في صدق نيته ، واذا كان لابد من الاستقصاء فنحن نستثني تلك الحادثة التي جرت له في افريقية الجنوبية في أول عهده بالاعمال العمومية . فقد قيل ان الهنود كادوا يقتلونه هناك لسوء ظنهم به واتهامهم اياه بالخيانة وانهم أوسعوه ضربا حتى أغمي عليه وتركوه وهم يحسبونه قد مات . وهي ريبة غريبة يعذرون عليها لفاقتهم وحاجتهم الى الانصاف . ولعلها خامرتهم من فرط تشدده في انكار العنف وكثرة الحاحه بتوخي المسالمة والتزام حدود الاعتصاب الرصين . وكان القوم لا يفهمونه يومئذ فاتهموه

وأضمروا له السوء ثم ألفوا منه هذه الدعوة فزال ارتيابهم فيه .

ولقد رأيت أناساً كثيرين كانوا يعتقدون حتى بعد محاكمته انه انما كان يوصي بالسلم والمودة احتيالا على القانون وهرباً من العقاب ، وليس أظلم للرجل من هذا الاعتقاد . فانه لأرفع من أن يخشى عقابا وهو الذي يدين بانكار الذات والصبر على الالام ويرى المثل الاعلى للحياة في الاستخفاف بأكدارها وشرورها . وعدا هذا فان وصايا غاندي قد نشأت قبل ان يولد غاندي ، وقبل ان يضع الانجليز قدماً في الهند ، وقبل ان ينشق حجاب التاريخ عن كيان الدولة الانجليزية - نشأت من عبادة بوذا المبشر بدين الرحمة والاخاء القائل لتلامذته « ان الواصل الى الله لا يغش أحداً ولا يضمر حقدا لاحد ولا يحركه الغضب الى الاضرار باحد » وان « عليه أن يطوي قلبه على حب لا يحصر لجميع المخلوقات ، يحبهم كما تحب الوالدة ولدها الذي تحميه بحنانها . ومن فوقه ومما دونه ومن حوله فليمدد رواق حبه ، وليكن حباً لا تعترضه الحواجز والعقبات ولا مسحة فيه من قسوة أو تحزب ، وعليه واقفاً كان أو قاعداً أو ماشياً أو مضطجعاً الى أن ينام ان يظل فكره عاملا على الخير لجميع العالم » .

وهذه وصايا تكررها كتب الهند المقدسة بلا ملل ولا اختلاف ، ولنذكر ان غاندي رجل متعبد ولدته أم متعبدة في أمة الديانات والنساك ، فليس يجوز لمنصف أن يؤول كلامه على غير معناه الصريح .

بيد أننا لا نعجب من هذا الخطأ عجبنا من كتاب الصحف الاوربية الذين يأبون الا أن يضطروا غاندي الى اقتباس قواعد دينه من كتاب أو قصة يخترعها الغربيون او اشباه الغربيين . فانه لمن المضحك حقاً أن يسترسل هؤلاء القوم في الغرور بمدنيتهم الى هذا الحد فلا يسلمون لشرقي

بمأثرة لا يكون لواحد مس أبناء الغرب أصبع فيها . وهل تدرون من صاحب الفضل على غاندي في فلسفته وآدابه ومن الذي لقنه أصول دين البراهمة ؟؟ انه هو تولستوي !! كذلك قال شيخ صحافتهم لورد نور ثكليف غفر الله له بعد عودته من الهند !!

وما لنا نلوك كتاب الصحف وهذا رينان المؤرخ اللبيب والباحث النزيه يقارن بين الشرقيين والغربيين فيخالف المعروف المتفق عليه ويميز الغرب على موطن الاديان ومهبط الوحي بخلوص النية وصفاء العقيدة وبراءة العاطفة الدينية من الزغل والمواربة !! ويقول في هذا المعنى في صدد كلامه على معجزات السيد المسيح : « اننا نحن بما لنا من طبائع باردة مترددة قلما نفهم كيف تستحوذ على الانسان الى هذا الحد فكرة كان هو صاحبها الذي ندب نفسه للدعوة اليها . فنحن أبناء الشعوب التي تأخذ الامور مأخذ الجد نفهم ان الاقتناع معناه اخلاص الانسان بينه وبين نفسه . ولكن الاخلاص للنفس شيء ليس له كبير معنى عند الامم الشرقية ، فاليقين الصادق والادعاء نقيضان في عرفنا لا يقبلان التوفيق ، أما في الشرق فالمنافذ الخفية والسراديب الملتفة التي تصل بين هذين النقيضين كثيرة لا تحصر . وكم من رجل من أرفع الناس نفوسا كاصحاب الاسفار الدينية الضعيفة السند ـ ولنذكر منهم مثلا دانيال وأخنوخ ـ قد اقترفوا بغير حرج من ضمائرهم أعمالا قصدوا بها تأييد دعوتهم لا يسعنا نحن الا ان نسميها افتراء ؟؟ فالتدقيق في الصدق الحرفي خصلة قليلة القيمة جداً في نظر الشرقي ، وهو مفطور على أن ينظر الى كل شيء من خلال خواطره ومصالحه وخوالج نفسه » .

واذا كان هذا رأي مؤرخ بعيد عن الشبهات السياسية كرينان فالحق

آن نور ثكليف وغيره من سماسرة السياسة لهم العذر الواضح اذا هم خلطوا بين الحقائق والاهواء وعبثوا بحرمة التواريخ والوقائع الملموسة واقترفوا بغير حرج من ضمائرهم أعمالا قصدوا بها تأييد دعوتهم لا يسعنا نحن الا أن نسميها افتراء !!

وعلى أنه ان كان لابد من فضل للمدينة الغربية على غاندي فانه فضلها اذ علمته كيف يشمئز منها ويحتقر أباطيلها وما يستوعب نفوس أبنائها وعقولهم من صغائرها وشهواتها . وهذا وايم الله فضل ليس بالقليل ، وما فتىء النبي الهندي يشكره لها الشكر الجدير به .

المتأنقون

في التاريخ حوادث عظام لا تعد ، أحدثها رجال على حالات مختلفة من الاخلاق والمواهب ولكن لم يكتب لاحد من المتأنقين أن تجري حادثة منها على يديه ولا أتيح لاحدهم أن يكون ذا قوة منشئة أو أثر دافع في تاريخ عصره ، وقد يصل منهم من يصل الى مقاوم الرفعة والنفوذ بفضل النسب والحسب أو بفضل المال أو الصدف ولكنه يظل بعد وصوله الى تلك المقاوم ذلك العاجز الحصر الخابي النفس والعقل الميئوس من همته واجتهاده . وتراه في دست الاحكام كما تراه في مجلس المدام : انساناً مستظرف المحضر ، ان كان به ظرف ، والا فمشجب حي عليه من أدوات الزينة ما كان قبل هنيهة على مشاجب أخرى من الخشب والحديد .

وفي تاريخ الكياسة والتأنق والادب مثلان واضحان على هذا العجز الذي يبدو عند التصدي لعظائم الامور وجسام الاعمال ممن جعلوا همهم في الحياة التأنق واللباقة واتخذوهما وظيفة في الدنيا ينصبون لها ويزدهون بها ، أحد هذين المثلين عصري والآخر أقدم منه بنحو قرنين .

فأما الاول فهو « دي شانل » الاديب السياسي الكيس الذي ارتقى الى رئاسة الجمهورية في فرنسا بعد بوانكاريه . كان هذا الرجل كاتباً

بارع الانشاء مصقول العبارة وسياسياً يسمع له رأي في دوائر الاحزاب ، وكان متأنقاً جد التأنق تتوجه اليه الانظار ويقتدي به أنداده في هندامه وآدابه ، فلما صعد أو صعدت به الظروف الى دست الرئاسة ظنوا به خيراً وانتظروا منه الشيء الكثير ، ولكنه لم يوفق لسوء حظه الى تصديق ظنونهم وارضاء تشوفهم ولم تمض عليه هنيهة حتى ظهر عليه ضعف العقل الذي كان مكنونا فيه قبل ذلك ، والذي هو من طبيعة هذه الامزجة المشغولة بالاناقة والمظاهر .

أما الآخر فهو لورد شسترفيلد الذي يعرفه كل دارس لآداب الانجليزية ، صاحب الرسائل البديعة التي خطها لولده دستور الكياسة والظرف ، فجاءت طرفة من طرف البلاغة وآية في جمال اللفظ والاسلوب ، وُلد هذا الاديب في بيت من بيوت المجد والغنى وتثقف عقله كأحسن ما تثقف العقول في عصره ، ووصل الى مجلس النواب فحسب عارفوه ممن كانوا يلتفون به ويكبرون لباقته في الاندية ومجالس السمر انه سيشرق على المجلس نجما ساطعاً وسيرقى منه الى أرفع منزلة في المملكة بجده واناقته وحسن تخريجه للامور !! فما كان الا أن خيب فيه كل أمل ولم يسمع له صوت يذكر في المجلس ، وقد لزم الصمت في دور نيابته ، وكان خطيباً مقبولا ، لسبب مضحك مزر لكنه ملائم لطبيعة مزاجه . ذلك أنه كان بين الاعضاء رجل هزأة يحسن محاكاة الخطباء في حركاتهم وجرس أصواتهم ولهجاتهم ، وكان اذا خطب الخطيب قام فرد عليه بصوت كصوته ولهجة كلهجته وايماء كايمائه فيعرضه للضحك والسخرية أحياناً ويتغلب على سخريته الاعضاء الاقوياء كثيرا . . .

فمن هذا الرجل خاف لورد شسترفيلد وقبع في المجلس لا

يتكلم . فكان هذا السكوت منه خوفاً من الضحك ، كتلك العناية الدقيقة التي يعنى بها في انتقاء كل قطعة من ملابسه لئلا تعاب أو لا يستحسنها الناظرون .

ليس بعجيب أن يخفق أمثال دي شانل وشسترفيلد في عالم الجهاد السياسي أو يظهر منهما ضعف العقل عند المعمعة . اذ ما هي طبيعة التأنق في لبابها ؟؟ أليست هي أنّ يعيش الانسان عندما يستحسنه الناس منه ويلفت أنظارهم اليه ؟؟ فالمعقول في هذه الحالة أن لا تكون للمشغولين بالتأنق تلك القوة الدافعة المتجبرة التي لا تحفل بآراء الناس ولا يكرثها رضاهم وغضبهم ولا يصدها عن طريقها استحسانهم واستهجانهم ، والمعقول أن لا يكون منهم زعماء فاتحون لعهود جديدة أو معتسفون أطوارا كانت مجهولة ، لان الزعامة لا تتم بغير تلك القسوة الدافعة ، فلا جرم يكون محل المتأنقين في السياسة اذا ولجوا بابها محلا خاملا لا يؤبه له . نعم ان التأنق يستدعي بعض الغرابة للفت الانظار فيخيل اليك ان أصحابه على نصيب من الجراءة ، ولكنها جراءة كاذبة وغرابة مرجعها الى ما يرضي الناس ويبهرهم ويروقهم . فهي منوطة بهم ومولية اليهم .

ان التيار الجارف هو الذي يشتق لنفسه طريقه ويقذف فيه بأمواجه أما الماء الفاتر فلا محيص له عن الوقوف عند الشطوط يدور معها وينحصر في نطاقها ، ومهما ظهر لك من مظاهر المتأنقين وقيامهم بما يغضب الناس منهم أحياناً وصبرهم على المخالفة في بعض المعضلات فلا يغرك هذا من أخلاقهم وأذواقهم فانما أساسها كلها فقدان تلك القوة الدافعة التي يقدم بها المرء على اقتحام العقبات ، وقرارها كلها ذلك الماء الفاتر في طباعهم

الذي يقف بهم أبدا عند الشطوط .

والمتأنقون لأجل هذا كانوا أقل الناس صلاحية لقيادة الامم ولا سيما في عهد النهضات القومية . لان النهضة تحتاج في كل عصر الى المجددين المقتحمين لا الى الفاترين المتدللين ، وتريد النفوس الطامحة القلقة ، ولا تريد النفوس الوادعة المترفقة . وليس من قوانين النهضات التوفيق بين الانسان وبين ما يجده من ميسور حاله ، وانما قوانينها أن يتمرد الانسان على حاضره شوقا الى ما يرجوه من مآله .

ولعلماء الجرائم الذين ليس أمامهم مثل للشذوذ ومخالفة البيئة غير أمثلة المجرمين وحثالة الناس أن يعتبروا الملاءمة بين المرء وبين بيئته نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه آداب الفرد في الجماعة ، ومثالا للحياة المستوية السليمة ، ذلك لانهم يطلبون سلامة المجتمع ويحرصون على أن تجري الامور في مجراها ويحسبون ذلك غاية الامم التي لا تنزع الى أبعد منها ، وقسطاس الشرائع والانظمة الذي لا يقبل التغيير والتحول . لكنهم يظلمون العلم ، ويظلمون أنفسهم ، ويظلمون الحياة اذا جعلوا الملاءمة بينها وبين البيئة التي هي فيها قانونها الاسمى أو حسبوا هذه الملاءمة طبيعة عنصرها والمحرك الاول لها. فانما قانون الحياة الاسمى وعنصرها الاصيل قائمان على الشذوذ لا على مشابهة البيئة ، وأول ما نشأت الحياة كانت شذوذاً مخالفا لما حولها ، وكذلك أول كل ارتقاء فيها كان اختلافا مباينا لسنة البيئة وثورة قائمة على النظام المألوف في الطبيعة ، فكلما كان الانسان أقرب الى الحياة وأبعد عن الآلة الميتة كان شوقه الى التجديد والاقتحام أشد وأقوى ، وكلما كان أعمق مستقى من ينبوع الحياة وأوفر نصيبا من دفعة تيارها كان الاختلاف بينه وبين عامة الاحياء

كبيرا بعيدا ، والاندفاع فيه الى التغيير ملحا شديدا ، تلك سنة الحياة منذ نشأت وتلك هي الروح الالهية التي تستفزها الى طلب الكمال وتحثها أبدا على التوغل في أسرار الوجود والتزيد من حظوظه وأفراح فتوحاته . ولولا هذه الروح لركدت الحياة وأسن ماؤها وانعزلت في بؤرة حاضرها عن المجرى المطرد بين الماضي والمستقبل ، ولولاها لكانت الحياة كالتربة القاحلة تلقى فيها الحبة فتأخذها كما ألقيتها حبة واحدة لا تزيد ولا تتغير ، اللهم الا أن تكون زيادتها وضرا ورجسا ، وأن يكون تغيرها تعفنا ويبسا ، وانما وظيفة الحياة أن تعطي أضعاف ما تأخذ وأن تكون في داخلها أكبر مما يحيط بها من خارجها . لا أن تجعل ما تعطيه على قدر ما تأخذه ولا أن تكون هي وما يحيط بها على حال سواء .

أليس من الغريب اذن أن يكون الوادع المتأنق الذي لا يشغله من الدنيا الا الرضى من نفسه ومن غيره ، قائدا للامم في نهضاتها وقدوة لها في ابان انطلاق آمالها ونشاط حياتها ؟؟

بلى والله انه لغريب طريف ، وانه لبدع في التأنق ولكنه غير جميل ولا ظريف !!

تقدير الشيخ علي يوسف

لا يقنعني بان الصحافة المصرية لم تتجاوز بعد سن الحداثة مثل آفتين مما تبتلى به كل صحيفة : إحداهما مماطلة المشتركين والثانية إعارة الصحف والمجلات .

وكثيراً ما سأل الصحفيون : ما بال الصحافة المصرية مبتلاة بداء المطل من مشتركيها حتى لا تكاد تظهر صحيفة الا صادفها من ذلك عقبات تقضي عليها أو تلجئها الى غير مواردها ؟؟

ولا علة لذلك سوى أن الصحافة لم تدخل بعد في عداد الضروريات في حساب المصري ، وانه لا ينتظرها كما ينتظر الرجل شيئا لازماً لاغنى عنه ، ولا يتعقب آراءها تعقب من يعتقد أن لتلك الآراء مساسا به ودخلا في حياته .

تبلغ الصحافة هذه المنزلة في « البلاد الاجتماعية » وأريد بالبلد الاجتماعي ما تتكون فيه جامعة قومية محسوسة تربط بين سكانه بصلة من التضامن في الشعور والمرافق العامة ، وليس للمصريين هذه الجامعة اليوم ، ويكاد لا يدور لها خيال في أذهان الكافة من ابناء هذه الديار . فانهم لا يزالون يرددون اسم المصري ويقصدون به المولود في مدينة

نشرت في يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٣ باحدى الصحف الاسبوعية .

القاهرة ، وليس عندهم الى اليوم كلمة للقومية المصرية اللهم الا ما تلقفه بعضهم أخيرا من مستحدثات الكتابة ، وما هم بالكثيرين .

أما في الاوطان الاجتماعية فالصلة بين أهلها أقرب من ذلك ، هناك يترقب القارىء الصحيفة كما يترقب الرسائل الشخصية ويرى في كل خبر رسالة من الامة اليه أو منه الى الامة . فلا يخطر لمثل هذا القارىء أن يماطل الصحيفة في أجرها ، ولا يستحسن احد أن يستعير منه صحيفة ليقرأها كما يفعلون هنا ، لان الناس يخجلون من استعارة الشيء الضروري الذي يعتقدون انه لازم لكل فرد من الناس .

ليست المماطلة من طبيعة المصري ، ولا الاستعارة من ديدنه ، فإننا لا نسمع بالمماطلة في ثمن الخبز الا نادراً ، ولا نراهم يستعيرون الملابس مثلا ، الا أن تكون محلاة أو نادرة (وذلك في القرى التي تعد الحلى من قبيل الزينة الكمالية) . ولكن النفوس مجبولة على أن لا تحسب حسابا لغير ما يلزمها . والمصري اليوم لا يحس الحاجة الماسة الى الصحافة ، فلا جرم نراه يسقطها من حسابه ولا يفرد من دخله قدراً يدفعه الى الصحيفة متى طالبته بحقها عليه .

نقول ذلك بمناسبة موت ذلك الصحفي الذي قال بعضهم في رثائه انه كبر بالصحافة ، وانه استمد نفوذه منها ، لنقول ان الصحافة المصرية ليست من القوة بحيث تكسب صاحبها نفوذاً صحفياً كالذي يكسبه بأقلامهم كتاب الافرنج . وانه على كون الصحافة الافرنجية لا تنهى ولا تأمر ، ولا تنصح ولا تزجر ، فالكاتب فيها اكبر شأناً من الوجهة الصحفية من كاتبنا الذي لا يعول في الصحافة على غير قلمه .

ليس الشيخ علي يوسف صحفياً كبيراً . كلا ولا هو بالرجل

الكبير . وان كنا لا ننسى انه ولد خاملا فمات شهيراً . ونشأ نشأته الاولى متربا ثم قضى نحبه مسموع الكلمة وجيهاً .

ولكن هل ذلك حسب الرجل من حياته ؟؟ أو ليس على المرء الا أن يسعى لينجح فيذكر اسمه على كل لسان ثم لا يسوغ لاحد بعد ذلك أن يذكره لغير المدح والتبجيل ؟

ذلك ما لا يقوله قائل . فإنما للنجاح وسائل كثيرة واكثر من وسائله غاياته . وقد ينجح الرجل فلا يكون له حظ من العظمة غير اسمها وزيها . وينجح غيره أقل من نجاحه فيكون نجاحه عرضاً غير مقصود لذاته وكانه مخرج لما يمتلىء به صدره من الرغبة في النفع وكراهة النقص وحب الكمال .

كنا ليلة دفن الشيخ علي يوسف في مجلس مع بعض الاصدقاء فقال واحد منا : اليوم يحزن فلان وفلان ، وعدّد أسماء جماعة ممن كان الشيخ علي سبباً في إيصال النفع اليهم ، وتمهيد سبيل الوظائف لهم . قلت بل اليوم فليفرح هؤلاء لانهم لا يدينون للشيخ بالحب والاخلاص ولكنهم يدينون له بربا ذلك النفع ، وقد استراحوا اليوم من الغريم الذي كان يستأديهم ذلك الربا . وما مساعدة هؤلاء الناس لاصحابهم الا كمقارضة المقامرين . يقرض أحدهم زميله ليسترد ماله وقرضه قبل أن يبرح مكانه ، فلا بدع أن كان احدهم يفرج عنه بعد صاحبه كما يفرج عنه بعد الغريم الملحاف .

قال بعض الجالسين : لكأنك سمعت معي ما قاله أحد أصدقاء الشيخ الاقربين ، فقد سمعته يعجب لنفسه كيف لم يغتم لوفاة رجل كان

موضع سره . وشريكا له في اكثر مساعيه ، ويقول انه على جلده لفراق الاصحاب وصبره على كوارث الموت ، ما كان يحسب أن يقابل موت ذلك الصديق بمثل هذا الفتور .

وقال : لقد حضرت اليوم الجنازة فرأيت فلانا يتأبط ذراع بعض اخوانه وهما يتغامزان ويضحكان ، وكنت أتوقع أن أراه في ذلك المشهد باكيا أو خاشعاً ـ أما فلان هذا الذي زآه محدثنا فرجل جرى له على يد الشيخ رزق لا يقل عن خمسين جنيها في الشهر .

ولا عجب في هذا الكنود ، فان الناس يحبون من ينفعهم اذا كان بره بهم صادرا عن حب لهم ، أما ان كان لغير ذلك فهم يقبلون بره ويحافظون على ظاهر الود له ليستزيدوه منه ، ولكنهم لا يحفظون له جميلا ، إذا كانوا يعلمون أن جدواه عائدة عليه قبل أن تعود عليهم .

فالشيخ علي قد أفاد بعض الناس ولكنها فائدة لا تنتمي الى عاطفة من حب الخير ، فلم يفجع الموت فيه صديقا مخلصا ، ولم يقم له من أسدى اليهم البر بحق الوفاء . وفرق بين هذه الحالة وحالة العظماء الذين يخرجون من الدنيا وما تركوا فيها صديقا يبكيهم . لأن الناس ربما جهلوا قدر أولئك العظماء فلم يفهموهم ولم يحزنوا لفقدهم ، وأما هؤلاء فليس جمود الناس عن بكائهم الا لأنهم قد فهموهم حق الفهم .

ولقد أراد أكثر من كتبوا عن الشيخ علي يوسف أن يستدلوا بوصوله الى منزلة يضر بها وينفع على نبوغ عظيم فيه ، وهذا جهل عظيم بمعنى النبوغ ، فما يليق بهذه الهبة السماوية وهي ثمرة الانسانية جمعاء وبنت الخلود بأسره أن تقاس بمقياس المهارة في الوساطة عند فئة من الناس في فترة

من الزمن ، ومن شاء فلينظر الى أضراب الشيخ علي ممن وصلوا معه الى مثل منزلته يجد بينهم من ليس له في النبوغ اقل دعوى ، ومن ليس هو من رجال الادب ولا من رجال العلم او العمل ، ومن لم يفكر قط في ان يكون واحدا من هؤلاء . ولكنه مع هذا ينفع ويضر ، والناس يزدرونه وان كانوا يرجون منه ويخشون .

انما يعين هؤلاء على النجاح نشأة نشؤوها لم تجعل لمبادىء الكرامة سلطانا على عقولهم ، فخف على اقدامهم وقر الذمم ، فنهضوا ، وهذه سير العظماء الاجلاء نراجعها وننعم النظر فيها فنرى ان اصعب ما كانوا يعانونه من العراقيل والعقبات انما هو ما ارصدته لهم ضمائرهم واقامته امامهم وجداناتهم ، لا ما يقيمه في طريقهم اعداؤهم ومنافسوهم . ولذلك يقل بين ذوي الخصال الكريمة والسجايا النفسية العالية من ينجح في هذه السبيل نجاح أناس هم دونهم ذكاء وقدرة واخلاقا .

ولا ننكر على الشيخ علي ذكاءه واستنارته ، لكنه ذكاء رخيص المعدن ونور مختلس كالمصباح الذي يحمله المدلج المتسلل في الظلام . فليس هو من النبوغ المشرق ولا مما يلحق بسموّ اللب وسعة الذهن . وعندي انه اشبه بالحذق في حرفة من حرف الكسب ، وأقرب الى السر المحتكر الذي يحتفظ به صاحبه منه الى المواهب المباحة التي يشرك فيها غيره ، وهناك نسبة بين هذا النوع من الذكاء وتلك الحيلة التي يبثها الله في طباع مخلوقاته لتستعين بها على مراوغة أعدائها والأمن على حياتها .

لو كان الرجل سامي اللب واسع الذهن لكان تقديره للعظمة اسمى وأكبر من تلك الغاية التي نصبها غرضا له في حياته ، وبذل كل ما يعز على النفس بذله لاجل دركها .

ولو أن الشيخ علي جدد سيرته هذه الايام لما قدر على أن يعيدها كما بدأها ، ولما كان مستطيعا أن ينال من السمعة مثل ما ناله بين أرباب الاقلام ، أو قريباً منه .

أصدر الرجل جريدة الآداب في أول نشأته ، وكان كل من يكتب من أبناء مصر يومئذ كاتباً كبيراً . لانه لم يكن ثمة من هو أصغر منه ، وكان الادب لذلك العهد في حضيض من الضعف والتدلي يقرب من الموت . فلا كتاب في البلد ولا شعراء ، ولا تصنيف فيها ولا قراء . ولم تكن المطابع قد أخرجت دقائق الأدب العربي القديم فيتخذها الناس معيارا يقيسون عليه مقدرة الادباء اذا أعوزهم المثل من كتاب عصرهم وأدبائه فكان الذوق الادبي معتلا والحاجة الى الكتاب شديدة . وفي ذلك العهد كتب الشيخ علي يوسف فاستحق التفات رياض باشا ، وفتح له ذلك الالتفات باب الامل ، فلم يقصر في السعي الى غايته .

وكان الشيخ علي يقرض الشعر ليمدح به السراة والاغنياء ، فلما حصل من الكتابة على ما يزهده في طرق هذه الابواب رأى انه استغنى عن الشعر ولم تعد به حاجة اليه ، فتركه ومضى في الكتابة ، وكانما صارت هذه له حرفة رابحة بديلا من تلك الحرفة الكاسدة ، لا أكثر ولا أقل ، فأصبح بعد مزاولتها عشرين عاما اخصائيا في الباب الذي اختاره من الكتابة الصحفية . اذا تخطاه زلت به القدم .

وقد عنف بعضهم عليه في حياته لانتقاضه على رياض باشا ، وقالوا : لقد رأينا الرجل أياما لم يبق أحد من أصحاب الايادي الا أحسن اليه ثم رأيناه أياما لم يبق فيمن أحسنوا اليه أحد الا قد أساء اليه بقلمه أو بكيده . ونحن لا يهمنا نكرانه جميل هذا الانسان أو ذاك ، ولكننا نعيب

عليه هذه الخلة . ثم نحن نرى له بعض العذر في الارتداد على فريق ممن أسلفوا له الخير ، لانهم ساعدوه وهو فقير خامل فلما أصبح من أهل الرتب والوجاهة أبوا ان ينسوا خموله وفقره وظلوا يرون فيه ذلك المجاور القديم الذي كانوا يعرفونه من قبل . وأبى هو أن ينسى مكانته الجديدة التي جاهد لها ذلك الجهاد كله ، فقلب لهم ظهر المجن ، وكانوا في امتنانهم عليه أحق باللوم منه في جحوده لاياديهم عنده .

واني ليشق علي ان لا أجد له عذرا من نقيصة غير هذه ، وأن لا أراني قادرا على ان أنعته بتلك النعوت التي جمع فيها مؤبنوه كل مزية من المزايا الموزعة بين كبار رجال العالم ، يفعلون ذلك وهم لا يؤمنون بصدق ما يكتبون ، ولماذا ؟؟ لان الرجل ليس بحي اليوم ، فهل حقيقة أمس وغد تتغير اليوم ؟؟ وهل يسوي الموت بين جميع الاعمال ؟؟ أما أنا فلست أعلم كيف يمحو الموت السيئات ويكبر الحسنات . ولا لأي شيء ندع الحكم للتاريخ البعيد الذي يجهل الرجل ونحن أقدر على أن نرى الحقيقة كما هي عن كثب ، وعلينا قبل غيرنا واجب الصدق في تأبينه وتقديره .

ألا ان أحق موقف بأن تقيد فيه السيئة الى جانب الحسنة هو موقف الرثاء . وأولى الاوقات بان تتمثل فيه عبرة الحياة هو الوقت الذي تنتهي فيه الحياة . وذلك أمر هدي اليه الناس منذ فقهوا معنى الثواب والعقاب ، الم تكن عقيدة الحساب بعد الدفن من أوليات العقائد التي تخيلها الناس في أقدم الاديان الوثنية ؟؟ فلو تغاضينا عن النقائص والمعائب لبطلت حكمة الذكر ولحق الخبيث بالطيب . وما كان التساهل في النقد والمؤاخذة محمودا في وقت من الاوقات ، فكيف به في وقت طمس

معالم الضمائر وضلل الابصار والبصائر ـ فحسبنا هذا ولا يبلغن من فساد وقتنا أن يغنم فيه المرء غفلة الفضيلة حيا وميتا .

وغاية ما يقال ان الشيخ علي يوسف جد في حياته وراء مآرب تستهوي امثاله فاستطاع قضاءها . ولم يستطع أن يكون عظيما حتى في قلوب أشياعه واتباعه .

البخيل[1]

كان في من أعرف من الناس رجل لا يعرف الناسُ أبخل منه . كان هذا الرجل اذا اشتهت نفسه الشيء مما تشتهيه الأنفس من طيبات المأكل والملبس أخرج القرش من كيسه فنظر اليه نظرة العاشق المدنف الى معشوقه ثم رده الى الكيس وقال : هذا القرش لو أضيف اليه تسعة وتسعون مثله لصار جنيها ، والجنيه بعد الجنيه يجلب الثروة العريضة ويجمع المال الحير[2] وهبني تهاونت بانفاقه اليوم وسمحت نفسي به فلا آمن أن تسخو بغيره غداً. فانما القروش كلها واحدةفي القيمةوليس قرش بأغلى من قرش . والشهوات حاضرة في كل وقت ، فكأنني انفقت اليوم بانفاقي هذا القرش جميع ما سوف أملكه وأدخره من المال . وفتحت على نفسي باب الفاقة الدائمة والعوز المستمر مطاوعة لشهوة حمقاء ، ان أنا وقمتها[3] الآن ماتت واسترحت منها وان آتيتها على ما تدعوني اليه كل ساعة كنت كمن يرمي الوقود في النار ليخمدها ، وكنت كمن يشتهي الفقر ويتمنى الاعدام ، وتلك والله الحماقة بعينها .

وكان اذا تم عنده الجنيه على هذه الكيفية أسقطه في صندوق ثقب

---

(١) من مقالات الشذور التي طبعت سنة ١٩١٥ .

(٢) مال حير أي كثير جدا .

(٣) ردعتها .

له ثقبا في غطائه ، ولم يجعل له مفتاحا لئلا يتعود الفتح والاقفال ، ويجرأ على ذلك الذخر بالكشف والابتذال ، وخوفا من أن تراوده نفسه لفرط شغفه بالذهب على مس جنيه من تلك الجنيهات فيجر المس الى التحريك ويجر التحريك الى الأخذ فالاخراج فالصرف ، وهناك الطامة العظمى والداهية الشؤمى ، ويقول ان سلما أنت واقف على قمته حريٌّ أن تصل يوما ما الى أسفله . ومالك أن لا تغلق الشر من بابه وترقع الفتق من أوله وتتلافى الامر في بدايته قبل أن تتعذر عليك نهايته !! وكان يرى الفقر من بعيد فيظنه أدنى اليه من حبل الوريد . فالفقر عنده محيط بكل مكان ، شامل لكل زمان ، ومادام في الارض درهم فهو فقير اليه وما دام فقيرا فالاطمئنان محال عليه .

ولقد ألفنا أن نسمي البخلاء عبيد الذهب . وكان الأصوب أن نسميهم عبيد الفقر لانهم يضحون الذهب للفقر . وهم يحبون الفقر ويخشونه . يحبونه فيعيشون عيشة المعدمين والبؤساء ، مع تمكنهم من الثراء ويخشونه فيتقونه ، وعندهم له من كل دينار وقاء .

فاذا سقط الجنيه في ذلك الصندوق .... لا بل في تلك الحفرة ، كانت تلك السقطة آخر عهده بالهواء والنور ، وآخر عهده بالهبات والبيوع ، وآخر عهده بالأنامل والكفوف ، وهوى من ذلك الصندوق في منجم كالمنجم الذي كان فيه . وشتان المهد واللحد . ومات ميتة لا تنشره منها الا يد الوارث ان شاء الله . وقد فعل .

ولو أتيح لتلك الجنيهات أن تتحادث في ذلك السجن المطبق عن ماضيها كما يفعل السجناء ، اذن لسمعت من أحاديثها العجب العجاب . بين جنيه رحالة جواب ، يتنقل بك من السويد الى الكاب ،

وينبئك عن الاعاجم تارة وتـارة عن الاعـراب . وجنيه فرار غدار ، ما سلـم بالليل الا ودع بالنهار ، وجنيه نشأ في الحانات والمواخير ، فاسترق رنته من رنات الـكؤوس والقـوارير . وجنيه عاشر الابـرياء والجنـاة ، ورافق النساك والغـواة ، وجـاور المعـوزين والسراة ، ومـر بالمسـاكين والعتاة ، وطفر من الاصدقاء الى الاصدقاء ، ومن العداة الى العداة . وكلها تشهد شهادة لا بهتان فيها أن مالكها الاخير أقدر من قنص الدينار ؛ من الابرار والفجار ؛ وأخبر من صاد النضار ، من الشطار والاحبار ، وأول من راض هذا المعدن السيار ، على السكينة والقرار .

ولو أتيح لك أن تشهد ذلك البخيل وقد مثل عند صندوقه وألجأته الضرورة الى الاستمداد منه ـ وناهيك بها من ضرورة ـ اذن لحسبت انك تشهد في جنح الليل الأعكر سارقا ينبش القبور عن أكفانها ، وقد تملكه الهلع من حراسها وسكانها ، أو لحسبت انك تشهد كاهنا متحنثا يقوم عند صندوق النذور يهم بأن يمد يده اليه فيتحرج من أن يستحل ودائعه لئلا يحل عليه قصاص الله ويحيق به غضبه ، فان ألحت عليه الحاجة أقسم أن لن ينام ولن يهدأ أو يرد الى الصندوق ما استعاره منه . وقد لا تجد بين ألف كاهن كاهناً واحدا يقسم هذا القسم ويبر به ، ولكنك لا تجد بين الف بخيل بخيلا واحدا يحنث في هذه اليمين .

ففي وقفة من تلك الوقفات اقترض البخيل من صندوقه جنيها وآلى بالطلاق من عرسه أن لا يدخل البيت الا والجنيه معه . وذهب الى السوق فكدح فيها ما كدح واحتال حتى استرجع الجنيه نصفا ذهبا والنصف الباقي قطعا فضية . وكانت تلك عادته اذا أبدل الفضة بالذهب . كي تكون كل قطعة صحيحة صماماً حديديا يحبس فيها ما تحتويه من القطع

الصغيرة أن تتناثر وتتسرب الى احداها نزغات الجـود ووسـاوس النفس الامارة بالجميل ، والخبيث يسيء الظـن بنفسـه ويتهمهـا بالسخـاء عن القليل الطفيف مداعبة لها وإدلالا عليها . والا فقد وثق وثـوق المؤمـن بايمانه انـه لو انثالـت[1] عليه نقـود المشرقـين والمغربـين دراهـم ودوانـق وسحاتيت لما سولت له نفسه أن ينفق سحتوتا منها في غير ما يدفع التلف جوعا والهلاك عريا فما تمهل حين صار الجنيه في يده الا ريث أن هرع الى الصيرفي فناوله اياه مفرقا وقال أعطني به جنيها ذهبا .

قال له الصيرفي : هات خمسة ملليمات .

قال البخيل : وعـلام هذه الملليمات الخمسـة : انـك تأخـذ هذا الجعل من الناس على أن تنقدهـم الفضة بدل الذهـب . وأنا أعطيك فضة وأطلب ذهبا أفلا تحمد الله على انني صفحت لك عن حقي وجئتك ساعياً الى مكانك ؟؟

فما زاد الصيرفي على أن وكزه في صدره وكزة قذفت به الى الجانب الآخر من الطريق . فما تململ الرجل ولا تأفف . بل وقف حيث قذفت به الوكزة صامتا والصيرفي لا يشك في أنه ينتظر أن يمر الشرطي فيستعديه عليه . فمر شرطي وثان وثالث لا يدعوهـم ولا يبرح مكانـه . والنـاس يظنون انه يحدث نفسه بالانقضاض على الصيرفي فيوسعه ضربـاً ولـكماً فيخطئونه ويلومونه وينصحـون له بأن يعتـذر اليه ويسترضيه وبينـا هو كذلك اذ أقبل على الصيرفي شيخ ريفي ، فكذب البخيل كل ظن وعاجل الشيخ فكان أسبق من يده الى جيبه وصاح به : رويدك يا هذا . انك تريد أن تبدل جنيها وهذا اليهودي يتقاضاك خمسة ملليمات ، وأنا أقنع

---

(١) انهالت .

منك بمليمين ، فهاك الفضة وهات الذهب . والتفت الى الصيرفي فقال بارك الله فيك ، فقد قيضت لنا رزقا كنا في غفلة عنه ولا يزال هذا دأبنا كلما اجتمع جنيه عندنا ثم ولى والصيرفي يكاد ينشق عن جلده من الغيظ والناس يضحكون .

وكأني بك أيها القارىء تظن أن الرجل آلى بالطلاق وحرص على أن لا يمين فيه وفاء لزوجه وضناً بذات فراشه واحتفاظاً بأم بنيه - ، فاياك أن تظلم الرجل بهذا الظن . ان الاحتفاظ والضن بشيء غير المال ضعف يربأ بنفسه عنه . ولكنه تحرى أفدح الايمان كفارة وأصعبها كلفة ، فرأى أن كفارة الحلف بالله سهلة وربما كان في الصيام من الاقتصاد ما يغريه بالحنث كلما أقسم بالله . فاختار يمين الطلاق يهدد نفسه به ويخوفها من مؤخر الصداق ومؤونة الاولاد ومصاريف القضايا ثم لابد له من زوجة تكفيه نفقة الخادم وشراء الطعام من السوق وهذه الزوجة لابد لها من مهر قل أو كثر ، دع عنك الاعراس وما تستدعيه من الخروج عن العادة في الانفاق ليلة أو ليلتين . فاذا آلى بالطلاق ذكر كل ذلك وأكثر منه فكان قيدا لا يستطيع منه فكاكا . ولا يفوته مع هذا أن يصانع نفسه بأنه من القابضين على دينهم الذين يجتنبون حدود الله ولا يلعبون بيمين كيمين الطلاق . والحقيقة انه لا يجتنب حدود الله الا لان اجتنابها يوافق هواه . ولو كلفه خوف الطلاق معشار ما يصون من ماله لجار عن كل حد لله وللخلق . وعلى انه لم يضطر يوما الى امتحان دينه ولم يقف بين ارتضاء الطلاق وجرائره وانتهاك حدود الله وأوامره . لأنه لم يكذب على صندوقه مرة . فاذا استعار منه في الصباح سدد له الحساب في المساء .

ومرض هذا البخيل مرض الموت فجزع جزعا شديدا ، وكان

جزعه لانه سيموت عن أقل من عشرة آلاف جنيه كاملة ، وكان ذلك كل أربه من الحياة . واستحضر الطبيب بعد أن نهكته العلة ودب السقم في أوصاله وعظامه ، فأمره أن يتعاطى دواء وأن يقصر طعامه على لحم الطيور . وكان صاحبنا على مذهب النباتيين اقتصادا لا فلسفة . فتملص يحايل الداء ويتملق الطبيب عسى أن يعدل عن وصفته ، والداء يأبى الا لحوم الطير والطبيب مصر على رأيه . ولما كان أربه في العيش لم ينته والعشرة الآلاف لم تكمل فقد رضي أهون الشرين وأصاخ لقول الطبيب وصار يأكل كما أمره وهو يتلهف ويتغصص ويتبع كل لقمة يزدردها بعملية حساب . . . . وهل أصعب في الهضم من الحساب وأثقل على المعدة من الارقام الصماء ؟؟ ولم يزل يقول بعد كل أكلة : الله الله على الصحة !! لو كنت الآن صحيحا أما كانت تكفيني أكلة بدرهم !! فلم يسعفه الدواء ولم يمرأه الغذاء . وما ذاك الا لأن الطبيب داواه بالطب الذي يداوي به الناس ووصف له ما كان يصفه لكل مريض مصاب بمثل مرضه ، ونسي انه يداوي داءين لا داء واحدا ، وفاته ان داءين أحدهما مزمن والآخر طارىء لا يصلحان بفرد دواء ، ولو سمعه كيف كان يأسف على الصحة ولماذا كان يأسف عليها لعلم أن صحة هذه البنية غير صحة سائر البنى وأن لها مرضا غير أمراضها ، وان الغذاء الذي ظن انه يشفيه ويقويه قد حز من بدنه وأضاف مرضا على مرضه . فقد مات المسكين بدائه ذاك ، وما أحسبه ندم على شيء وهو يفارق هذه الدنيا ندمه على تلك الدراهم التي أطاع فيها الطبيب جزافا . وماذا عليه لو قد عصاه فلم يفقد سوى حياته ؟؟ !!

ولهذا البخيل نوادر عديدة يذكرها معارفه ، فكان لا ينقضي له يوم الا على نادرة ظريفة مع بائع أوزميل أو شريك أو مدين ، وكنت أستظرفه

فأتودد اليه وأشايعه على مذهبه فلا اقتصد في اطراء الاقتـصاد ولا أبخل بكلمة في مدح البخل ، واذا طارحته الادب أو طالعت معه في الكتب لم يكن أحقر على لساني من اسماء هرم بن سنان وحاتم طيء وكعب بن مامة ومعن بن زائدة وأبي دلف وغيرهم من أجواد العرب ، فأشنع بهم وأسأل الله السلامة من مثل مصيبتهم في عقولهم وأموالهم ، وأقول : ما أجدر مادرا بتمثال من الذهب !! فيقول أي وأبي ! لولا ما في ذلك من الاسراف .

ولشد ما كان يتهلل وجهه حين أتلو عليه نكبة البرامكة . فيقول حيا الله الرشيد ما أحكمه وأحزمه ، وقبحهم الله ما أخرقهم وأحمقهم . بادوا وخلفوا وراءهم للناس مثلا سيئاً وقدوة ذميمة . وكانت له في أسباب نكبتهم فلسفة خاصة لم يفتح الله بها على أحد قبله . يقول لك لا تصدق ما يتمشدق به كذبة المؤرخين عن أسباب نكبة البرامكة . فوالله ، ما نكبهم ولا قتلهم الا الاسراف والتبذير . أسرفوا في البذخ وبذروا أموالهم في الصلات فحسدهم الموصول وسخط عليهم المحروم ، فترصدت لهم العيون وتوغرت عليهم الصدور واستعظم الرشيد عليهم ما هم فيه فمثل بهم ذلك التمثيل وفجعهم في أرواحهم وأموالهم وآمالهم فلم يغن عنهم صنائعهم وذووهم . ولو أنهم بخلوا لنامت عنهم الأنظار وخرست عنهم الافواه ، لان من نعم الله على البخلاء انه يجمع لهم بين مزيتي الغنى والفقر ، فلهم من الغنى المال الكثير ولهم من الفقر الامان من حسد الحاسدين . ولهم من الغنى القدرة على ما يبتغون ومن الفقر القناعة بيسير ما يأكلون ويلبسون . وهما مزيتان لا يجمعهما الله الا لمن رضي عنه من عباده !!

بيد انني في صحبتي له كنت لا أستطيع ساعة أن أفكر بأنني

أصاحب انسانا له علي مثل الذي لي عليه ، وكنت أحمل نفسي على أن تصدق أنه من البشر كما تراه عيني فلا تذعن . وكيف وهي لا تحس أدنى اختلاف بين ملاطفتي اياه وملاطفتي الكلب أو القرد الأليف ليأنس بي ولا ينفر مني ؟؟ ولقد ضل والله من يتألف الكلاب والقردة ويلهو برؤية الحيوانات العجيبة وعنده البخلاء يضمهم واياه جنس واحد ومدينة واحدة فلا يتألفهم ولا يخف الى رؤيتهم . أليس لو جاءك رجل فأخبرك بان في مدينة كذا دابة تموت من الطوى(١) وبين يديها الطعام الفاخر ؛ ويفرش لها المهاد الوثير فتجفوه الى الارض الخشنة . وتطلق في الفضاء الفسيح فتزمجر وتئن وتسجن في قفص الضيق فتضطرب وتطمئن ، وقيل لك ان هذه الدابة منفردة بهذه الاطوار بين بنات جنسها . أما كنت تبادر الى تلك المدينة أو تتمنى أن تساق اليك تلك الدابة ؟؟ فالبخيل هو تلك الدابة الغريبة في تكوينها الشاذة في أطوارها ، التي تعد من الناس وليست منهم ، وتجانسهم في الصورة والقوام ولا تشاكلهم .

ان الناس يعرفون البخل بأنه الحب المفرط للمال وهذا تعريف ناقص من جميع أطرافه . فهل العلاقة بين البخل والمال الا كالعلاقة السطحية بين العلم والاوراق ، وبين الشجاعة والسيف ، وبين الزمن والساعات ؟؟ وقد وجد البخل قبل أن تحتجن الاموال وتسك النقود ، كما سلف العلم قبل أن تصنع الاوراق ، وتقدمت الشجاعة قبل أن تطبع السيوف ، ودار الفلك قبل أن تخترع الساعات . ولو أصبحت الدنيا قد انقرضت منها الاموال وفني من أيدي الناس الذهب والفضة لما قضى ذلك بفناء البخل من قلوب البخلاء ، لما قدمنا من أن البخل شيء بمعزل عن المال .

---

(١) الجوع .

وانما البخل عاهة تحجب الفكر وتفسد الطبع وتفرد المرء عن الفطرة العامة بين بني جنسه بفطرة منكوسة عوجاء . وتذره خلقا عجيبا كل حظه من الحياة أن يحرم نفسه حظوظ الحياة . يستغرق الوسع في طلب الوسيلة ثم لا هو يقنع بالوسيلة ولا هو يطلب بها الغاية . وليس البخل عاهة واحدة بل هو جملة عاهات ممثلة في هذه العاهة . فهو مزيج من الجبن الدنيء الذي يصور للمرء الخطر المستحيل كانه قضاء حتم لا مرد له ، ومن الخسة التي يتساوى عند صاحبها الفخر والعيب .-وتلحق عنده مراغة الهوان بمقاوم السؤدد ، ومن التلادة التي تميت فيه كل أريحية حتى لا تهتز في نفسه أمنية أو عاطفة تقوى على كسر قيود شحه وجبنه .

وقد ظهرت هذه الخلال للناس قبل أن يتمدينوا بآلاف السنين ومقتوها فمقتوا البخل متفرقا قبل أن يمقتوه مجتمعا . وغاية الفرق بيننا وبينهم انهم كانوا يستضعفون من تكون فيه خلة من هذه الخلال فينبذونه عنهم ويهضمون حقه ويدوسون حرمته ولربما طلوا دمه وتبرأ منه ولاة ثأره وأما في مدنيتنا هذه التي وضعت سنة المال موضع سنة الحياة فقد صار البخيل فيها يحل ويبرم ، ويؤخر ويقدم ، ويحلل ويحرم ، ويستشفع اليها بيد فيها المال ويد فيها جبنه وخسته وبلادته فتقبل منه هذه لتلك . وانها لعمري لمن الخصال التي انحطت بها المدنية عن الهمجية ، وما هي بالقليلة ، فكم من خصلة في المدنية يستحب المدني الهمجية لاجلها ويأنف الهمجي بحق أن يتصف بها ؟؟

اللغات والتعبير[1]

لولا أن الناس من أصل واحد في الخلق ، ومن لحمة قريبة في النسب ، بحيث ان ما يعرو أحدهم يعروهم جميعا وما يصدق على جميعهم يصدق على كل واحد منهم ، لما أجدت عنهم اللغات في كتابة أو كلام ولاعتقلت ألسنتهم عن كل فهم وافهام .

ولو كان التقارب بينهم تاما ، والشبه في السن والميل والسليقة محكما لما افتقروا الى اللغة ، ولكان يستشعر أحدهم في روعه ما يقوم في روع الآخر من غير حاجة الى الشرح والبيان .

ولا ريب ان الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم ، وان لاح لنا أن الامر خلاف ذلك ، لطول عهدنا باستخدام اللغة في الاعراب عن مرادنا ، فما اللسان الا الموضح والمفسر لما عساه أن ينبهم على السامع من مجمل سر المتكلم ومما قد تحتويه أفكاره ولا يمكن أن تعبر عنه تمام التعبير وجداناته . أما حالته النفسية فهي أفصح من أن يفصح عنها اللسان بل أفصح من أن يخفيها اذا حاول اخفاءها .

وما كان الانسان قبل آلاف الحقب أيام هو بعد بهيم سارح في مراتع العجمة ـ يعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ؛ ومن صدقه أو مكره

---

(١) من مقالات الشذور التي طبعت سنة ١٩١٥ .

ومن أمانته أو خيانته ، على شيء غير ما يتفرس في أسارير وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه . وكان اذا كلمه لم يكد يثق بكلامه ويأمن اغتياله أو[1] يطابق مدلول أقواله ما وقر في قلبه من مغزى اشارته ومعنى ملامحه ، فهو يأتمن السليقة ويرتاب في اللسان . وهذا سبب اعجاب الناس بالاشعار والخطب والكتب التي مصدرها السليقة وامترائهم فيما تعبث به يد الصنعة . لانهم يقرأون نتاج السليقة فينفذ الى سلائقهم ويصيب مواقعه منها ويحرك من نفس القارىء مثل ما حرك من نفس الشاعر أو الكاتب ، فيعلمون أنه صدقهم وحسر لهم عن سريرته فيركنون اليه .

ويقرأون نتاج الصنعة فلا يجاوز ألسنتهم ؛ وكأنهم يقرأونه وهم ينظرون الشاعر أو الكاتب وهو يتعمل للظهور لهم بغير مظهره ، ويتنقب لهم بنقاب يخفي وجهه أو يبديه في غير صورته ، أو يرائيهم بتجميل هيئته وتدميم طلعته فيخالجهم الشك فيه ويعرضون عنه ، الا اذا كان القارىء من الغرارة بحيث يصدق كل ما يقال أو من الجهل بحيث لا يميز بين السليقة والصنعة ، فانه يقبل حينئذ كل قول على علاته ، فلا تمنعه المماذقة عن المصادقة ، وتنكسر خزانة نفسه بمبرد اللص أسهل مما تنفتح بمفتاح صاحب المال .

ولقد والله أحسن جولد سمث اذ يقول في احدى رواياته : « لسنا نستعمل الكلام للافصاح عن حاجاتنا بقدر ما نستعمله لمداراتها » . فقد طمس الكلام الى اليوم من الحقائق أضعاف ما فند من الاكاذيب . وضلل من المهتدين أكثر مما هدى من الضالين ، وانك ربما تقترب من الرجل

---

(١) أو هنا بمعنى حتى .

فتطلع من سيماه على ما يريبك فتتوجس منه فاذا سألته وكان من ذوي اللباقة والبراعة في المراء والمخادعة لبس عليك الحقيقة وأزال الريب من نفسك ، فينصحك لسان حاله ويغشك لسان مقاله . وكان آمن لك لو انك صدقته ساكتا ولم تصدقه ناطقا .

هذا فيما يملك الناس أن يبينوه أو يكنوه . وان هناك لافكاراً تلتوي على اللغات وتشمس عن التقيد بالكلمات . فما فضل الناطق في هذه الافكار على الاعجم ؟؟ وما زيادة الفصيح على الابكم ؟؟ لافضل ولا زيادة .

ومن الافكار ما هو أعوص من أن يعبر عنه ولكنه أقوى من أن يكتم السكوت عنها ممض والتعبير عنها ممتنع . لم يتغلغل الكلام الى أعماقها فيخرجها ، وليست هي بالتافهة الضئيلة فتدفنها في مهدها وتدرجها ، وقد خصت ولم تعم فلم يكن لها حظ من اللغات العامة ، وتفرقت ولم تجتمع فليس بين أصحابها المتفرقين لغة متبادلة . فاعلم انه لا يريحك من هذه الافكار الا سكوت كالخطاب . وذلك أن تجد ولو على البعد من يعاني مثل هذه الافكار فيحيط بكتابك من عنوانك ، وتلهمه الكلمة العاجلة ما تضيق به الفصول المذيلة ويسبح معك برهة في عالم لا ألسنة فيه ولا آذان . . !!

يتحادث الرجلان وبينهما تنافر في الاماني والاذواق فيفرغ أحدهما جعبة بلاغته ، ويمتهي غرار حجته ، ويستنفد أفانين حيلته ، ويحسب انه أقنع جليسه واستولى على لبه ثم ينهض هذان الجليسان وإن بينهما من البعد لما هو أبعد مما بين الميت ومناديه ، والنجم ورائيه ، ويجلس غيرهما وقد توافيا على أمنية ، وتمازجا في الطوية ، فيقضيان الساعات لا

ينبسان الا بالكلمة بعد الكلمة ثم ينهضان وقد نقل كلاهما الى أخيه خلاصة نفسه وطبع صورته في صدره . وما منا من لم يشاهد الحالتين فتبين له لغة الصمت أحيانا مقدار حداثة لغات الكلام .

واني لاصغر شأنَ هذه العلوم والآداب القائمة كلها على تفاهم اللغات كلما تأملت فرأيت الاشياء الكثيرة التي تقوم بوجدانات الانسان ولا يحس بها ، والتي يحس بها ولا يعبر عنها ، والتي يعبر عنها ولا تصل برمتها الى عقل سامعها ، فيتأكد لي ان الناس في حاجة الى تفاهم أرقى من هذا التفاهم اللغوي . ولعل هذا النقص هو علة كثير من المشاكل التي تقع بينهم أمما وافراداً ، وتزول لو كان التفاهم بينهم كاملا .

فليتخذ الناس اللغات رموزاً وأشارات تنوب عن المعاني لمن يعرفها ، ولا تمثلها لمن لا يعهدها أو يأنس بها . وليعلموا انهم ما داموا لا يقولون كل ما يريدون أن يقولوه فهم خرس وان نطقوا . وانما البليغ المبين من الناس رجل يجيد الاشارة بلسانه أو يراعه . ولن تغنيه هذه الاجادة عن أن يكون سامعه ممرنا على التنجيم والتخمين . وأما من أخطأه هذا المران ، فسيان عنده الاشارة باللسان ، والاشارة بالبنان !!

قوة الارادة[1]

خطر لي أن أبتدع في التجارة بدعة حسنة فاخترت أن أتاجر بالاخلاق النافعة للمصريين . فاقتديت بأولي الخبرة والنظر البعيد من التجار اذا عزموا الاتجار بسلعة من السلع في بلد من البلدان ، توخوا حاجة السوق واستقصوا عادات أهل البلد ثم يقدمون على بصيرة من عملهم وأمل وطيد في رواج بضاعتهم . فتوخيت حاجة السوق في مصر وتقصيت عادات المصريين وفتشت عن الخلق الذي ينقصهم أكثر من أي خلق سواه فعلمت أنه قوة الارادة فعولت على أن يكون اشتغالي بهذا الصنف من الاخلاق .

وراقني هذا الخاطر فمنيت نفسي رواجاً سريعاً وربحاً جزيلا وأنني سأكون أنفق تجارة وأكثر عائدة من المتاجرين بيننا بالوطنية والدين ، لأن حاجتنا الى الوطنية والدين أقل من حاجتنا الى الاخلاق ولا سيما قوة الارادة . وفي مصر كثير من الوطنيين والمؤمنين ولكن قل فيها من كملت عليهم نعمة الأخلاق فغنوا فيها عن المزيد . وذهبت أحصي أرباحي ومكاسبي في السنة الأولى فالسنة الثانية وفي السنين التالية فضاق بها الحصر ولم يستوعبها الحساب . وسرني أن أحلم بأنه سوف لا يكون في الاثني

---

(١) من مقالات الشذور التي طبعت سنة ١٩١٥ .

عشر مليونا الذين يسكنون وادي النيل مصري واحد الا لديه مقدار كبير أو صغير من تجارتي ، فقلت انها والله للتجارة التي لا تبور .

واكتريت الدكان في أوسع أحياء العاصمة وأحفلها بالسابلة والقطان وزخرفته أيما زخرفة فصفحته بالبلور وغشيت جدرانه بالذهب وصنعت رفوفه من خشب الهند ونقشت عليه لوحة من أجمل ما خط الكاتبون كتبت عليها « هذا دكان قوة الارادة . يعطيك على نفسك سلطانا لاحد له » ثم جلست على بركة الله أشمر للتعب والعمل وأخففها عني بما أرجوه من المنفعة لي وللناس .

فكان أول من سنح لي في صباح أول يوم فتحت فيه الدكان رجل سكران قد تخالعت أعضاؤه من الوهن واحمرت عيناه من السهر وانعقد لسانه من الخمر فوقف قبالة الدكان يترنح ذات اليمين وذات الشمال وأوشك أن يميل على ألواح البلور فيحطمها ويكدر علينا صباح الاستفتاح بطلعته المشؤومة. ولو كنت ممن يتطيرون لأغلقت دكاني لساعتي وجزمت بالفشل ولكنني تصبرت ولبثت ألاحظه وهو تارة يحملق الي وتارة يتهجى العنوان حرفا حرفا حتى أتى على حزوفه بعد شق النفس ، ثم قال لي وكأن روحه تصعد مع كل كلمة .

أأنتَ صاحب الدكان ؟ قلت نعم قال أنت بعينك ؟ قلت أنا هو بعيني لا سواي . . . قال وتبيع قوة الارادة ؟؟ قلت من جميع الاصناف والاثمان . قال ولنا أيضاً تبيعها ؟؟ . . . لا تؤاخذني فاني أحب أن أسأل قلت أجل . الك ولكل من يشتريها .

قال : فأنا أسهر كل ليلة كما ترى وأسكر وأقامر وأجيء في هذه الساعة فيثقلني النوم ولا أحب أن أنام . فهل عندك صنف من الارادة

أتسلط به على النوم ويقويني على السهر ليل نهار ؟

قلت : ليس هذا الصنف من الاصناف الموجودة ولو وجد لما بعناه ونحن باعة الاخلاق لانقل في الامانة لصناعتنا والحفاظ بذمتنا عن الصيادلة . وقد تعلم أنت أن الصيادلة لا يبيعون كل دواء لكل طالب ولكن عندنا أصنافا أصلح لك من هذا الصنف فهل لك فيها ؟

قال أرنيها .

فسردت له أسماء الاصناف التي في الدكان وأريته كل صنف منها في علبته ولم آله تفصيلا لفوائدها وترغيباً فيها ، وبسطت له أسماء الارادة المانعة وخواصها منع الناس عن مقارفة العادات الضارة ، من التدخين الى المقامرة ومن الكذب الى الوقيعة . وتختلف المقادير والاثمان ، باختلاف الادمان والازمان .

وأصناف الارادة العاملة وخواصها ايلاء الناس عزيمة وصبرا على تذليل مصاعب الاعمال وتحقيق همامات الانفس . وأرخصها قضاء المرء واجبه ، وأنفسها قضاؤه واجب أمته ونوعه . وهي أغلى من الارادة المانعة لان القدرة على أداء الواجب أندر من القدرة على اجتناب المحظور . وأعلى من هجرك ما تؤاخذ به فعلك ما تحمد عليه . وعددت له أسماء نفر من عظماء الرجال الذين دفعتهم قوة الارادة ودفعت بهم أممهم الى ذروة من الشرف تتقاصر عنها الذرى . وأطنبت في الوصف والتحسين وهو يصغي الي بما بقي في حواسه من الانتباه ، فأطمعني اصغاؤه في أن يكون أول تجربة ناجعة وأصدق اغلان عن الدكان . ورأيته يطرق مليا ثم قال : ولكن من يضمن لي جودة الاصناف ويكفل نقاوتها من الاخلاط والاوشاب .

فقلت في نفسي سبحان الله : هذا الذي يذهب كل ليلة الى الخمار لا يسأله أيسقيه سماً أم خمرا ، ويغشى موائد القمار يخسر كل ليلة صحته وماله ثم ينساق اليها بغير سائق لا يريد أن يشتري قوة الارادة الا بضامن ؟؟ ولكنني جاريته وقلت له لا خوف عليك من هذه الجهة ، فسأعطيك علبة نموذجا فجربها وسل من شئت من التجار . ولك بعد ذلك الخيار .

***

انصرف السكران بالعلبة ذلك اليوم وعاد الي في اليوم الثاني مفيقاً صاحيا فجلس بتؤدة وأدب وقال لي : لقد تعاطيت أمس علبتك ولم أعاقر ولم أقامر ولا أدري أبفضل العلبة ذلك أم لنفاذ المال مني . وكنت اذا نفد المال مني اقترضت ، فلم أقترض أمس ، فلا أدري أيضاً أكان ذلك قوة في الارادة أم حياء من الرفض . وكنت لا أستحي فلا أدري والله أكان حيائي خلقا جديدا اكتسبته منذ تعاطيت قوة الارادة أم هو لتكرار الطلب واليأس من الاجابة

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

على انني سألت التجار تاجراً تاجراً فاستغربوا اسم الصنف ولونه ورائحته ومعدنه واتفقوا على أنهم لم يسمعوا به لا في الشرق ولا في الغرب ما عدا التاجر فلانا فقد عرفه وفحصه قليلا فرده الي مشمئزاً وهو يقول : خذ يا شيخ ! فقد سئمنا هذا السخف والتدجيل ! وهل فرغ الناس من سلطان الهموم فيسلطوا عليهم قوة الارادة أيضاً ؟؟ واذا كانت عوائق الدهر تحرمك شطراً من ملذات الحياة وأنت تحرم نفسك الشطر الباقي فأنت لا شك الذي يقال فيه انه عدو نفسه . . فخل عنك هذه الاضاليل

ولا يغرنك ما تقرأ من العناوين وما تسمع من المواعيد ، فلو كان في هذه التجارة خير لما غفل عنها الناس الى اليوم ، ولم ينسها دهاقين التجار الازمان المتطاولة لتكون بدعة من بدع هذا الزمان المنكود .

فأسكت هذا المهذار وندمت على التفريط في العلبة ، وكان أعجب ما عجبت له كلام ذلك التاجر لعلمي بأنه ممن يميزون أمثال هذه الأصناف ويحسون نقص السوق فيها . ولم يكن بيننا مجاورة أو مشاركة . فخفي عني غرضه من تبغيض الناس في بضاعة ليس بيني وبينه منافسة عليها . ولكني وقفت فيما بعد على سبب ذلك وهاك بيان ما وقفت عليه : ـ

***

رأى فلان المذكور هذه التجارة المستحدثة فقدر لها الربح الطائل والرواج السريع ورأى أنه ليس أيسر عليه من تقليدها . شأن الاعلاق النادرة : تزييفها كثير والغش فيها جائز ، وذاك لأن عارفيها معدودون ولأن جاهليها يحكمون عليها باللون والرونق . وليس بالثمرة والجوهر . فقرر بينه وبين شيطانه أن يستفيد من هذه الفرصة ويختص نفسه بذلك الربح فما وني دون أن فتح له دكانا تجاه دكاني وتأنق في تزويقه وتنظيمه ، وكتب عليه « هذا دكان قوة الارادة الصحيحة . يعطيك سلطانا لا حد له على ملذات الحياة » .

فتح الدكان واستأجر له دلالا سليطا يفتأ سحابة النهار يصرخ بصوت كقصف الرعود أو قرع الطبول : يا طالب الارادة الصادقة ، حي على الغنيمة قبل فواتها ؟؟ يا عشاق العزيمة الماضية ، هلموا الى أعظم معمل للعزيمة الماضية من معدنها ، هيا الى ارخص سلعة سعرا واسرعها

فعلا وأصمدها على الطوارىء أثراً . ارادة لا تتكاءدها[1] عقبة ولا تصدها عن غايتها طلبة . فمن اشتهى السكر فصدته عنه مرارة الراح فليشتر من هذا الدكان فيستعذب تلك المرارة ويعاف عندها كل حلاوة ، ومن صبا الى الشهوات فأشفق من عقابيلها ومغباتها زودناه بقوة ارادتنا فأصبح لا يحفل بالعذل والملام ، ولا يبالي بالضيم والسقام . ومن تورط في القمار ثم تهيب خشية الاملاق والدمار ، ومخافة الفضيحة والعار ، فعندنا ما ينزع منه تلك المخافة ، ويضحكه من هواجس تلك الخرافة . وعندنا لكل مريد ارادة ، ولكل ارادة شهادة . فالبدار البدار ! قبل غلاء الاسعار ؛ فاليوم بدرهم وغدا بدينار .

فما شككت في ان المسكين معتوه قد خسر رأسه وسوف يخسر رأس ماله وتوقعت له الخراب الجائح القريب ، اذ من أين له أن يزاحمني في تجارتي وأنا مبتدع التجارة وهو المقلد . وأنا أبيع ارادة الجد والعمل ، وهو يبيع ارادة اللهو والكسل . ولكن سرعان ما أخطأ حسابي وارتد عليَّ تكهني . وما راعني الا الجماهير على أبوابه يتكوفون[2] وبضائعه في كل واد تسير ، بحيث لم تخل منها المدينة والقرية ، والبيت والحانوت ، والحانة والنادي ، ولم ينته الشهر حتى فتح دكاناً جديداً الى جنب دكانه ، ودار الحول فكان له في الحي خمسة دكاكين وأصبح أعظم تاجر في الديار .

اما انا فقد اعطيت في اليوم الاول تلك العلبة لذلك السكران فكانت اول وآخر ما صدر من دكاني . ومرت ايام وايام . وتلتها شهور وشهور ، وتمت ثلاث سنوات مجرمات[3] ، وانا بتلك الحال اراقب

---

(١) تكاءدته العقبة وقفت في طريقه .
(٢) يجتمعون .
(٣) السنة المجرمة الكاملة .

التلف يدب في بضاعتي واعاين السوس ينخر في ارادتي ـ وما الارادة الا كالسيف يصدئه الاهمال ويشحذه الضراب والنزال ـ فدهشت وغضبت ، ثم صبرت وتعللت ، ثم يئست وسلمت ، فأقفلت الدكان وطلقت التجارة ، وها انا ذا اسأل عن المحكمة لاودعها الدفاتر والمفاتيح .

مواضع الملاحة[1]

مهما تعمقوا في تعريف الملاحة ووصف محاسن الوجه وقالوا فيها ما يشبه قولهم في السحر او الروح واليوم الآخر ، فلا اخالها ترد في بادىء امرها الا الى انها شارة في اظهر عضو من الجسم - اعني الوجه - كانت ولا تزال في بعض الاحيان تدل على فضيلة جنسية في جسم الرجل او المرأة .

ان اظهر ما تظهر الملاحة من معارف الوجه في العين والشفة ، لانهما الجارحتان اللتان ترتسم فيهما حالة النفس واحساسها بغاية الوضوح والجلاء ، وبهما تختلف امة عن امة وجنس عن جنس . فالعربي والمصري والصيني والانكليزي والالماني وغيرهم من الملل والامم يتماثلون في كثير من ملامح الوجه وقسماته ويندر أن يتماثلوا بالعيون والشفاه . وكذلك الرجل والمرأة . واصدق وأوجز ما يقال في هاتين الجارحتين انهما نافذة النفس ، فمنها تطل على العالم ومنها يطل العالم عليها . ولعل ما تكشفه منا للناس أكثر مما تكشفه من الناس لنا .

لابد من صلة محكمة دقيقة بين العين والرأس لأن نظرة العاقل غير نظرة المجنون . وقل مثل ذلك في الغادر والامين ، والفظ والوديع ، والسقيم والسليم ، والشهوان والعفيف ، فان لكل منهم نظرة غير نظرة

---

(١) من مقالات الشذور التي طبعت سنة ١٩١٥ .

الآخر . أما صلة الرأس بالجسم وما يندمج فيه من الطبائع فمعلومة ملحوظة ، فالعين بهذه المثابة هي عنوان صفة النفس ومزاج الجسد .

ولا بد من صلة بين الشفة والاحساس لان الشفة هي ملتقى اعصاب الوجه وهي ادق اعصاب الجسم . فلا تهيج في الجسم هائجة ولا تسكن به ساكنة الا يبدو لها أثر على الشفة . فتفتر أو تتهدل أو تنقبض أو تتقلص أو ترتجف . وترى الاحساس في الشفة يتوق الى مقابلة مثله ، لأن الاحساس يبلغ فيها أشده ـ وهذا هو الميل الى اللثم والتقبيل .

نعم ان الاعضاء كلها تميل الى المماسة ، ولكن الميل انما يكون على قدر احساس كل عضو . فلا تميل اليد الى اليد كميل الشفة الى الشفة ، لان الفرق بينهما في الاحساس كالفرق بين المصافحة والتقبيل .

وقد وضعت هذه الحساسية في الفم لأنه هو باب الجوف ، والجوف بحاجة الى حاسة ظاهرة تجيد له جس الاشياء قبل وصولها اليه ، ولهذا نرى الاعمى اكثر ما يعتمد في جس الاشياء على شفتيه لانه حين فقد البصر وأصبح معتمده على الحس وحده لا يشعر في جسمه بما هو ألطف على المس من شفتيه .

فالشفة هي ترجمان الاحساس ومجس العواطف . واذا كان في الانسان خاصة تتصل بالاحساس فهي أحرى الجوارح أن تظهر عليه تلك الخاصة .

فقليلا ما يلتبس عليك الصابر الكظوم بالقلق اللجوج أو الأريب الكيس بالحميقة الابله . من التأمل في شفاههم وهيئة أفواههم ، وربما التبسوا عليك ساعة الهدوء والصفو ولكنهم لا يلتبسون ساعة الغضب والاهتياج .

ولرب وجه صبوح جميل يروقنا استواء خلقه واعتدال تقسيمه ويحيرنا نقد معارفه وقسماته . ولكنا يؤلمنا أن لا نتملى من ذلك الوجه بحظ الاستحسان الذي شوقنا اليه منظره . ووجه أقل منه جمالا وصباحة وأخفى روعة ورواء لكنه يسبينا ويثير بلابلنا ويستولي على اعجابنا ، وهذا ما نعلله أحيانا باختلاف الاذواق أو خفة الدم ، على أننا لو انعمنا النظر في ذينك الوجهين لم يطل بحثنا عن السبب وعلمنا أن ما نسميه تارة باختلاف الاذواق وتارة بخفة الدم هو معاني تتضمنها العيون والشفاه ليست هي من جمال الصورة ، ولكنها هي شطر الجمال الاكبر . وهي التي تفيض على ذلك التناسب الهندسي المملول روحاً حياً جذابا .

ان لكل عضو جماله الخاص به وجمال العيون والشفاه عام لا يجمل الجمال الا به . ولو نظرنا الى مزية في العيون والشفاه تجعل لها هذا الشأن في تقدير الجمال غير اتصالها بالاحساس ذلك الاتصال الذي المعنا اليه لما أبصرنا لها أية مزية سواها . فلماذا لا نقول ان الاصل في حب الجمال هو امتحان قابليات الجسم بأظهر أجزائه للناظر ؟؟ أفي ذلك بخس للجمال ؟؟ ما الجمال الا صبغة لا تفارق الجسوم ، فكيف نوفق بين احتقار الجسم وتنزيه صبغته .

هذا كلام لا يرضي عشاق الجمال ، وليس يروق هؤلاء العشاق أن يكون حبهم له نوعا من جس النبض وفناً من الفراسة . فان كان ارضاؤهم لابد منه فليذكروا أن جمال أجدادنا لا يستحق أكثر من ذلك ، واننا لم نرث جمالنا وعواطفنا من غير أولئك الاجداد .

تمثال نهضة مصر[1]

في ميدان باب الحديد حيز من الارض يبنون فيه تمثال نهضة مصر ليكون غداً عنوانا خالداً للفن المصري ومثالا باقياً لما يفهمه المصريون من مقدرة الفن ومن معنى التخليد بآثار الفنون .

وتمثال نهضة مصر هو كما يعلم القراء من صنعة الشاب المجتهد محمود افندي مختار أحد شباننا المشتغلين الآن بالفنون الجميلة . وقد رحبنا بصنعته ورحبت بها الامة يوم عرضت في معرض باريس وسكتنا يومئذ عن عيوبها وعما فيها من مواطن الضعف لاننا أردنا أن نرى فيها باكورة يانعة يحق لها التشجيع والتحبيذ وأن تعفيها الاقلام من النقد الممحص حتى تنضج وتقوى على احتماله والانتفاع به . فأما وقد عنَّ لهم أن يرتفعوا بها عن قدرها ويحملوا على الامة زينها وشينها فقد وجب أن تقال فيها كلمة على غير ذلك المنحى الذي قوبلت به عند ظهورها . فاليوم لا نرى صنعة مختار افندي أمامنا ولكننا نرى ذوق الامة وادراكها يراد بهما ان يمثلا الى ما شاء الله في صورة ذلك التمثال . فمن الواجب ان نبرىء ذمة الامة بكلمة نقد لا ننظر فيها الى تشجيع أو مجاملة .

فكرة التمثال مسروقة . وهذا أول ما ينبغي لنا أن نتحرى التنبيه

---

(١) نشرت بعدد جريدة الافكار الصادر يوم ٢٠ اغسطس سنة ١٩٢٢ .

اليه ونتوقاه . لان مصر المقدسة بفنونها وآثارها لا يحسن بها اذا هي شاءت أن تصور نهضتها الحديثة أن تختلس الفكرة التي تصورها بها اختلاسا من فضلات الفن في أمة أخرى ، وانها لبئس النهضة نهضة تسجل في تاريخ الامم بفكرة مختلسة . . . وليس بنا ههنا أن نشهر بسرقة لمختار افندي فان سرقاته وسرقات أضرابه غلطات فردية يحاسبون عليها وحدهم ولكننا لا نجيز لانفسنا أن نسكت عن سرقة تلصق بالامة على غير علم منها فيلزمها منها سبة في فنونها وعار على اخلاقها .

أما الفكرة التي بني عليها التمثال فمأخوذة من صحيفة مصورة نشرت في أوائل الحرب العظمى، صورة رمزية تمثل موقف انجلترا حيال فرنسا . وكان الجيش البريطاني في ذلك الحين يستكمل أهبته ويرسل المدد الى فرنسا فرقة بعد فرقة فمثلت الصحيفة هذا الموقف في صورة رمزية هي صورة الحرية تضع يدها على رأس الاسد البريطاني الرابض وتستنهضه للمعونة ، وهو يتحفز من مربضه في بطء رّصين وتعازم مخيف ، وهذه كما لا يخفى على القارىء هي فكرة تمثال نهضة مصر بعينها لولا أن لهذه الصورة معنى وأن الصورة كما اقتبسها مختار افندي لا معنى لها .

فأما معنى هذه الصورة فظاهر لمن يعرف أن في فرنسا تمثالا للحرية كاد يكون من الاعلام الفنية على الامة الفرنسية وان رمز الاسد يدل على الدولة البريطانية بين الدول كما كان يكنى بالمدب عن الدولة الروسية والنسر عن الدولة الالمانية . ولا نعلم ما هو أدق في تمثيل استنجاد فرنسا بانجلترا من تصوير الحرية تهز نخوة الاسد ، ولا سيما حين نذكر ان فرنسا كانت تنادي في هذه الحرب باسم الحرية والمدنية وان انجلترا كانت في

ذلك الوقت بالاسد الرابض المترفق اشبه منها بالاسد الصائل المهتاج ، فالفكرة على هذه الدلالة دقيقة والتمثيل جميل .

وليست كذلك فكرة « نهضة مصر » ، لاننا لا نعلم ماذا تمثل الفتاة فيه وماذا يمثل ابو الهول . فان كان ابو الهول هو مصر الناهضة فمن تكون الفتاة الماثلة بجانبه ؟؟ وان كان ابو الهول هو مصر الاولى فما معنى حركة تاريخها الباقي وهو مصون مجيد سواء نهضت مصر الحديثة او لبثت قيد الجمود والهوان ؟؟ ونعود الى تفسير آخر فنقول ان الفتاة هي مصر بتاريخها القديم ونهضتها الحديثة فهبها كذلك فما شأن ابي الهول ؟؟

ومن ثم ترى ان فكرة التمثال مسروقة او مسبوق اليها وانها على ذلك غير متقنة ، وهذا هو التمثال الذي يقيمونه باسم الامة المصرية ليصور نهضتها لا لهذا الجيل وحده بل لكل جيل يأتي عليه في المستقبل ، ولا لمصر وحدها بل للعالم قاطبة .

***

وفي التمثال عدا هذا عيب آخر يحسب من عيوب النظر الفني والنظر التاريخي معاً . ذلك ان أبا الهول المصور فيه لا يشبه في شيء من ملامحه أبا الهول القديم الذي بناه الفراعنة وانما هو صورة منقولة عما في معابد البطالسة من هذه النصب ، وانه لمن الخطأ في فقه الفن والتاريخ أن يختار لتصوير نهضة مصرية نصباً بنته في مصر أسرة أجنبية وعندنا تمثالنا ذاك العريق المهيب قائم لمن يريد النقل عنه بلا حاجز ولا رقيب ، ولكننا نحسب صاحبنا مختار افندي لما عقد النية على اخراج تمثاله رجع الى كتاب المسيو ماسبيرو ففتحه على صفحة تماثيل أبي الهول فاختار أقربها اليه ثم

أقفل الكتاب وحمد الله على الظفر بنموذج سهل لا يكلفه انتقاء ولا أجراً !!

وعيب آخر في التمثال أنه يوهمنا كأنما ابو الهول الرابض كان رمزاً الى الجمود والتأخر ، لانه يتخذ من نهوضه وتحامله رمزاً الى الحياة والتقدم وليس أضل من هذه الفكرة لان ابا الهول قد بني رابضاً هكذا في دولة مصرية كان لها من البأس وعلو الكعب في الفنون والصناعات ما لم يكن لدولة غيرها في تاريخ الاسر العشر الاولى . وقد أرادوا ان يرمزوا بربضته هذه الى الركانة والثبات والمهابة فليس من دقة المغزى الفني ان نقابل الثبات بالجمود والهيبة بالمذلة ، والا فلو شاء احد ان يقارن بين ابي هولنا القديم وابي هول النهضة الحديث فأي معنى يتجلى في هذه المقارنة ؟

***

كل هذا ـ لابل بعضه ـ كاف لفتح الاعين وتنبيه أصحابنا الذين يحسبون انهم يكرمون الفن او يشرفون مصر باقامة هذا التمثال مقام العنوان الخالد على نهضتها وشعور الفن في نفوس اهلها . وما هم بمكرمين الفن فيه ولا بمشرفين مصر ! انما هذا عنوان على فقر في الفن قد نسلم به طائعين لولا ان يضاف اليه فقر في الادراك لا حاجة بنا الى التسليم به.فاجعلوا تمثال نهضة مصر باكورة محمودة وافيضوا عليه ما يروقكم من التشجيع والاستبشار ولكن لا تنصبوه في الميادين العامة ، اذ ليست ميادين الأمم محلا لعرض خطوات التدرج في تعلم الفنون وترتيب النماذج في اطوار مرانها . محل هذا في مدارس الفن او في المتاحف الخاصة . اما الميادين فلا تتسع لغير الاعمال الصحيحة التامة التي تجاري الامم في حياتها وتستمد حقها في البقاء من المقدرة الخالدة لا من التغاضي والمحاباة .

ريا و سكينة[1]

« بين لومبروزو واناتول فرانس »

من عادة الناس أن يربطوا بين باطن المرء وظاهره بسبب ، فاذا اعجبتهم أو أدهشتهم مقدرة فائقة من رجل أو صفة شاذة في خلقه تاقوا الى رؤية وجهه ليعرفوا من تقاسيمه وملامحه أي رجل هو ويشهدوا مكان تلك المقدرة أو الصفة من ذلك الوجه . فان لم يتمكنوا من رؤيته عياناً سألوا عن أوصافه وبحثوا عن صورته ، وكلنا نعلم مقدار أسف الادباء على انهم لا يرون اليوم صور ملوك العرب وشعرائهم وعظمائهم ممثلة الى جانب سيرهم وأخبارهم ، مقرونة بأشعارهم وآثارهم . وهم لا يستفيدون من صورهم شيئاً وانما هي العادة بل نكاد نقول الغريزة تشعرهم بالحاجة الى مشاهدتها واجالة النظر في معارفها . وأنت قد تسمع المغني يردد غناءه فتلتذه وتطرب له ولكنك اذا حال حائل بينك وبين وجهه استشرفت له ولم تقنع بسماع الصوت الذي هو بغيتك منه ، وربما كان دميم الوجه لا يزيدك النظر اليه سروراً بغنائه بل قد تعرض عنه ان رأيته صامتاً ولكنه الانسان قلما يشغف بمعنى مجرد أو صفة محجوبة ولا غنى له عن تشخيصها وتجسيمها في شكل من الاشكال المنظورة . ولو

---

(١) نشرت هذه المقالة في الاهرام يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠ .

شئنا لرددنا الى هذا الطبع فيه تخيل أربابه الاولين ورفع النصب والاصنام لعبادتها بل لرددنا اليه حبه للجمال في الوجوه الآدمية لاننا مهما أبعدنا في تفسير هذا الجمال فلن نخرج به عن كونه مظهرا تتعلق به غريزة حب البقاء والخلود في نوع الانسان .

ولا نغالي اذا قلنا ان هذا الطبع عريق في الحيوان قبل الانسان ، فانك قد ترى حيوانين يتقابلان فيحدق أحدهما بصاحبه ويطيل النظر الى عينيه كانما يريد ان يستشف منهما نيته وكمين قوته . وهي عادة ترجع في الحيوان الى غريزة حب الذات والحيطة لسلامتها ، وتترقى في الانسان وراء ذلك مراحل شتى .

ولا أظن هذا الميل وجد في الانسان عبثا ، اعني به الميل الى رؤية أولئك الذين يسمع عنهم ما يدهشه ويلفت عنايته . فلا بد ان تكون ثمة صلة بين البواطن والظواهر ، وبين قوى النفس وملامح الوجه . أقرب مظاهرها الى الحس الفرق بين نضرة الصبا وغضون الشيخوخة ، واخفاها الفرق بين نظرة العالم ونظرة الجاهل ، والاختلاف بين سمة الرزانة وسمة البلادة . وصدق لافاتر منشىء الفراسة الحديثة اذ يقول ان بين لحظات الفيلسوف ولحظات النجار الساذج تباينا لا يستطاع انكاره ، فان لم ينفذ العلم اليوم الى سر هذا التباين أو تعذر على الباحثين تقسيم حدوده وترتيب أنواعه فليس لاحد منهم أن يجزم بانكاره أو يقلل من شأنه . وربما كان تقسيم تلك الحدود وترتيب تلك الانواع مستحيلا ، بيد أن الفرق بينها يبقى مع ذلك ثابتاً محققاً كثبوت الفرق بين الاجناس البشرية مع استحالة تمييزها بفواصل قاطعة في العصر الحاضر .

اشتغل لمبروزو العالم الايطالي الكبير بهذا البحث في عصرنا هذا

والف فيه كتباً عدة أشهرها كتاب « الرجل العبقري » وكتاب « الرجل المجرم » وفي كلا الكتابين يثبت المؤلف علامات في الوجوه والاجسام يستدل بها على العبقرية أو طبيعة الاجرام . ولقد استرسل في التعميم حتى تناول الجسم جارحة جارحة وأظهر ما يتوسمه فيها من الخواص المميزة . فأتى بحقائق لا نقول انها كل الصواب ولكننا لا نراها كذلك كل الخطأ . فالى أي حد يا ترى تفيد حقائقه وتجدي ملاحظاته ؟؟

أسأل هذا السؤال وبين يدي صور أربعة من كبار المجرمين : اربعة لم نسمع بابشع من جرائمهم واثامهم في بلدنا هذا وفي وقتنا هذا ـ تهافت الناس على صورهم كما يتهافتون على صور العظماء . لا حبا في اقتنائها ولا اعجابا باصحابها بل لكي يروا كيف تكون تلك الوجوه التي تخفي وراءها قلوبا تعيش فيها شياطين الجرائم وأسرار الدماء وتستقر فيها الجيف في هاوية عميقة من الشرور ـ[1] يسألون أنفسهم : اتكون تلك الوجوه كوجوه الناس ؟؟ تلك هي صور المرأتين سكينة وريا ، وزوجيهما محمد عبد العال وحسب الله سعيد ، وهم المتهمون في جرائم اخفاء النساء بالاسكندرية . فماذا يتوسم الناظر فيها ؟؟

يخيل الى بعض القراء انه سيرى في تلك الصور وجوهاً يفر منها هلعاً ورعباً كما يفر من أشباح جرائمهم وبشاعة نفوسهم . وهذا هو مصدر الخطأ في انكار الفراسةونفي العلاقةبين سمات المرء وأعماله . فقد يقترف المجرم أشنع الكبائر ثم لا يكون ذلك متأتياً عن نفس مرعبة تغلي بالشر وتتوثب الى العدوان بل يكون كل ما في الامر انها نفس ميتة يمر بها الناظر فينقبض لمرآها كما ينقبض لمرآى العظام النخرة والجثث المشوّهة ،

(١) كان هؤلاء المجرمون ومن معهم يقتلون النساء ويدفنونهن في حجر النوم ويأكلون ويقصفون فوق رفاتهن .

فاذا لم يجد في صورها من بواعث الرعب والهلع مثل ما تبعثه في خياله جرائمها وذنوبها توهم الخطأ في آراء القائلين بالفراسة وخفي عنه مصدر الخطأ من تصوره .

وكذلك صور هؤلاء المجرمين فانها لا تشف عن طمع قوي أو غيظ سريع أو حيوية ضالة جهنمية وانما تشف عن بلادة الموت وخمود العقل . وكلما اندس منظرهم بين المناظر العادية التي تشاهد في كل يوم كان ذلك أدل على اختلاف طبائعهم وتميز نفوسهم لان الذي يقترف افظع الآثام ولا تبدو على وجهه آثارها جلية شاخصة لا يكون مخلوقاً عادياً من عامة الناس .

ولا يفوتنا أن ننبه هنا الى الذي نعنيه بكلمة الجريمة في هذا البحث فنقول اننا لا نعني جرائم العرف لانها مما يتغير بتغير القوانين والمجتمعات التي تسنها . فما يكون جريمة في عصر من العصور أو مجتمع من المجتمعات قد لايكون كذلك في عصر آخر أو في مجتمع غير ذلك المجتمع . ومن البديهي أن مثال هذه الجرائم العرفية لا يلزم أن تصدر عن طبيعة خاصة ولا أن تبدو لها على ظاهر الجسم علامة موسومة . لانها جرائم ترجع الى مصطلحات الوقت لا الى طباع الناس . ونحن لا نعنيها كما قلنا حين نذكر الجريمة ولكننا نعني تلك الجرائم التي ينافي شيوعها سلامة الانسانية بأسرها والتي يستنكرها جميع الناس بالفطرة ولا يتعلق استنكارها بعصر دون عصر ولا بقبيل دون آخر .

يتساءل اناتول فرانس : « انقول مع مودسلي ان الجريمة تستكن في الدم ، وان في المجتمع طائفة مجرمة كما ان بين الغنم شياهاً سوداء الرؤوس ، وان تمييز الاولين من السهولة بحيث لا يختلف عن تمييز تلك

الشياه من قطيعها ؟؟ انخوض في آراء رجل من أشد الباحثين اقتناعاً بمذهبه ؟! ذلك الايطالي مؤلف « الرجل المجرم » ؟؟

ثم يقول : « الحق ان الباحث الايطالي لن يوفق الى حصر جميع المجرمين في صنف معين ، وعلة ذلك ان المجرمين بطبيعتهم مختلفون بعضهم عن بعض وان الاسم الذي يجمعهم لا يحضر في الذهن شيئاً واضحاً . والسنيور لمبروزو لم يفكر في تعريف كلمة المجرم فلهذا تراه يقبلها على معناها الدارج ، وبهذا المعنى يسمى الرجل مجرماً اذا اقترف بدعا خطيرا في الاداب وشذوذا عن أحكام الشريعة . ولما كانت الشرائع كثيرة والاداب غير محدودة فقد صارت اصناف المجرمين بلا قيد ولا حد . والواقع ان ما يسميه السنيور لمبروزو مجرماً ان هو الا مرادف لكلمة السجين ولا بد أن يتشابه السجناء فان تشابههم في المعيشة يحدث بينهم على الاقل تماثلا يميزهم عمن يعيشون احرارا . وقل مثل ذلك في جميع الطوائف المستقلة بأزيائها فاننا قد نعرف أفرادها وان خلعوا ملابسهم » .

وفي هذا القول الذي يقرره أشهر المنكرين اليوم جانب صحيح وهو تعذر الفصل بين طبقات المجرمين وحصرهم في صنف واحد . أما قوله ان التشابه بين مجرم ومجرم يأتي من تشابه المعيشة في السجن فرأي سطحي بعيد عن الحقيقة لان الاستعداد للقتل أو السرقة أولى بأن يخلق الشبه من الاشتراك في المطعم والمسكن سنة أو عدة سنين .

على أن أناتول فرانس يوغل في الانكار الى أبعد مداه فيقول : « ان الجريمة في أصلها ملتبسة بالفضيلة وهي لم تنفصل عنها الى اليوم بين القبائل السوداء في أواسط افريقيا . فهنالك كان يقتل الملك متيزا ملك

طوارج ثلاثا أو أربعا من نسائه كل يوم ، وقد أمر باحدى نسائه أن تقتل لانها أجرمت بتقديم زهرة اليه . على أن متيزا هذا حين اتصل بالانجليز أظهر ذكاء عجيبا واستعدادا يذكر لفهم أفكار الشعوب المتحضرة . ولعمري كيف نستطيع الانكار ؟؟ ان الطبيعة لهي التي تعلم الجريمة . فالحيوانات تقتل مثيلاتها لتلتهمها أو غيرة منها أو لغير سبب قط . وان بينها لعدداً عظيما من المجرمات ، **تلك هي الجريمة** ، فان كانت العجماوات المسكينة غير مسؤولة عنها فلا مناص من اتهام الطبيعة » .

هنا نرى أن تعميم لمبروزو مهما توسع فيه أجدر بالمتابعة من تعميم أناتول فرانس لان الاول يقول شيئا والثاني لا يقول .

وليس يزعم أحد ان الصفات التي يذكرها العلامة الايطالي ستغني الحكومات عن الشهود والقرائن والتحقيقات وتتخذ أدلة ينص عليها في القوانين . بل لا أنكر أن صور المجرمين الذين نتكلم عنهم قد تمردون أن يلتفت اليها ، ولا سيما صورتي الرجلين . فان بلادة الشر على وجهي المرأتين أظهر منها على وجهي زوجيهما وأثر الادمان فيهما أقبح وأبلغ . ولكن الامر الذي لا أشك فيه أن بلادة الحس ظاهرة على وجوههم جميعا ظهورا لا يتخطاه النظر أحيانا الا لان البلادة من طبيعتها أن لا تلفت الانظار ولا حاجة بنا الى أكثر من هذا الاثر البارز للدلالة على ما وراءه من النفوس .

ضروب الالحاد

يقولون ان نواميس المادة غفل من القصد الادبي ، فالنار تحرق من يقتحمها سواء أكان المقتحم متطوعا للخير رحيما بالضعفاء يغيثهم ويجازف بحياته من أجلهم أم كان لصا أثيما يسطو عليهم ويسلبهم متاعهم ، والسيل قد يسقي الارض البور وقد يجرف الارض العامرة ، ولا حساب في حركة من حركات هذا العالم لوجود الاحياء كأنما هم واغلون فيه ينزلون من ساحته في غير العنصر الذي خلق لهم . ليس يختل قانون من قوانينه قيد شعرة لإعفاء نفس صالحة من احكامه الصارمة ولا للابقاء على امة كاملة ولا نوع باسره . يقولون ذلك ويستدلون به على خرق هذه النواميس المادية وجريانها على حكم الضرورة العمياء ثم لا يقفون عند هذا الحد بل يتخذون منه دليلا على خلو الكون من الحكمة المدبرة والنظام المقصود !!

والظاهر من قول هؤلاء المعترضين انهم يريدون من المادة أن تحابي وان تقف موقف الحكم بين الاخيار والاشرار فتساعد على عمل الخير وتمانع في عمل الشر . وحينئذ يخرج الرجل فيقتحم النار اذا نوى الخير فلا تحرقه ويخوض الماء فلا يغرقه وتصادفه العقبات فتتطامن له ، والمصائب فتتنحى له عن طريقه . ويخرج الشرير فيجد أمامه من السهل جبلا ومن الفضاء أسدادا ويجرد السلاح الرميض فيكل في يمينه ويعالج تسخير المادة

فتلتوي عليه ، فيتوب مجبرا عن نيته .

هب ذلك كان ، فهل يسمونه حينئذ نظاما مقصودا وحكمة مدبرة ؟؟ وهل يكون الخير خيرا والشر شرا على هذا التصريف ؟؟

كلا ! بل الذي يكون أن تنتقل حرية الارادة من النفوس الحية الناطقة الى المادة الميتة الصماء ، ويصبح الانسان في العالم وهو أحط ما فيه من الاشياء ، تختار له وهو لا يختار لها وتحكمه وهو لا يحكمها ، وتسوقه فينساق ، وتوصد أمامه الطريق فيعتاق . فلا مشيئة له بل لا حياة . فهل هذا ما يؤثرون ؟؟

ويقولون ان الانسان نفسه لا يتبين في حادثة من حوادث العالم ما يشتم منه علو الخير على الشر ورجحان الحق على الباطل . فقد يعيش الرجل كئيبا محسورا ثم يموت بغصة المغبون وهو في صف الحق عاش وفي صفه مات ، وقد يعيش سعيدا موفقا الى النجح ثم يموت ظافرا قرير النفس وما قرت نفسه بغير التشفي من ذي حق ولا نجح الا في مؤازرة باطل ، فاين الله وما هي الغاية ؟؟

وكأن هؤلاء يرضيهم أن يعيش كل انسان حتى يرى حادثة يغلب فيها الخير غلبا تاما ويفشل فيها الشر فشلا تاما وتكون الوقعة الفاصلة التي لا يخشى بعدها مساجلة ولا تنتظر لها بقية ـ إذن يؤمنون بالغاية في الوجود !!

ولا نجيب هؤلاء بان تحققهم من غلبة الخير دائما ، وفي كل حالة ، هو تحقق ينفي معنى العقيدة ويخالف طبيعة الثقة بالمجهول ، ويثبط بواعث الجهاد في الحياة ، ولا نقول لهم ان بواعث العمل في الحياة لا تتوقف على ما يطلبون وان الرغبة في التحقق من غلبة الخير انما هي رغبة

عقيمة لا تؤدي الى عمل . لان الشكوكيين الذين تعوزهم الادلة لا يعملون ، واليقينيين الذين يعملون لا تعوزهم الادلة ـ لا نجيبهم بهذا ولا بذاك ولكنا نسأل : هل البرهان الذي يطلبونه ليؤمنوا معقول وجيه ، وهل البصيرة الرشيدة تحتمه ولا يقر قرارها الى سواه .

ولكي نجيب على ذلك نفرض ان الانسانية كتب لها من العمر على هذه الكرة مليون عام . فالمعقول هو ان الغاية من هذا العمر القصير في سياق الأبد لا تتحقق الا في اواخره ، وانه اذا وضع نظام لسياسة هذه الانسانية كلها فانما يحسب في ادواره وتقلباته حساب مليون عام لا عشرة ولا مائة ولا الف . فاذا طلب كل انسان ان يرى تحقق هذه الغاية ليوقن بها في اثناء حياته ، ألا تراه كأنما يطلب ان تنتهي سياسة الكون ثم تبدأ من جديد مرة في كل ستين أو سبعين سنة ؟؟ لا بل مرة كل يوم بل كل ساعة !! لان السنة التي توافق السبعين من حياة انسان قد تكون السنة الاولى من حياة انسان آخر والعاشرة من حياة غيره وهلم جرا .

وفيم كل ذلك ؟؟ فيم يختل اطراد القوانين الطبيعية وفيم تنشأ الحوادث ليستدل بها الانسان لا لتعمل عملها ؟؟ في شيء هو الى العبث والتلهي والفرجة اقرب منه الى الجد والحكمة ، في منظر عارض تتوق اليه نفس فارغة ، في حجة جدلية اذا كانت هي المؤسس الوحيد لبواعث الايمان في هذه الدنيا فلا حاجة اليها ، لان الدنيا على ذلك لا تكون مستحقة ان يؤمن بها ولا تكون في ذاتها الا دليلا ناقصاً على لا شيء . واذا لم تكن النفس من التمكن من ينبوع الوجود بحيث يسري اليها الايمان به من داخلها كما يسري عصير الحياة الى الشجرة اليانعة من مغرسها ، فسريان الايمان اليها من الخارج مستحيل .

ان القلب ليشك ولكنه اذا شك بحق فلن يلبث ان يؤمن بحق اكبر وأعلى ، وليس بقليل عدد أولئك الذين سلكوا هذه الطريقة من الايمان الاعمى ، الى الشك ، الى دفع الشكوك ، الى الايمان البصير .

ومن المنكرين غير من أشرنا اليهم آنفا من يغريه الخيال بالالحاد ، فلا يجيء الحاده عن بحث ولا وسواس ضمير ، وذلك اذ يسترسل الخيال في تصور هذا الكون متروكا الى نفسه متخبطا في دياجير الابد المجهول ، لا عين تزاه ولا رائد يرسم له خطاه . كون ضال حائر في ظلمات اللانهاية !! يا لها من صورة يرتع فيها خيال الشاعر فترة فتلهيه عما وراءها من اليبوسة والعقم والخواء . وما من شاعر ألحد الا كان له من تلك الصورة **شراك خلابة واستهواء** .

ومن الالحاد ما تدعو اليه الرغبة في التمرد وحطم القيود الموضوعة . وكلما كانت القوة التي يناصبها الملحد أهول وأعظم كانت المعركة أجل وأشبه بالبطولة الرائعة المعجبة التي يسمع عنها في أساطير المردة ووقائع الجنة والشياطين . وهذا إلحاد يفرض صاحبه وجود القوة التي ينكرها ليوثب نفسه بمعاندتها وتحديها . وهذا أيضاً من الالحاد الشعري . وهو إلحاد لا يدفع بالحجة وانما يدفعه الخيال الذي أتى به .

***

ولحكمة ما شاعت كل هذه الضروب من الالحاد في القرن الماضي . فقد كان الناس في حاجة الى من يقيمهم على صراط الايمان السوي . كانوا يؤمنون بالله ولا يدركون عظمة الكون ولا يفقهون شيئاً من أسراره ولا يشعرون بجمال الله في خلقه ولا يملؤون نفوسهم من نشوة هذه الحياة التي يبثها في وجوده . ولكنهم كانوا يؤمنون به على النسيئة

انتظارا لعالم آخر تتجلى فيه قدرته ويرون فيه من آياته ما لا يرونه هنا . كانما ليس في هذا العالم الكفاية للايمان القوي الصحيح ، وكانما ليس لله حق الايمان عليهم الا من طريق ذلك العالم الذي ينتظرونه ، وهذا ضلال شنيع . بل هذا هو الكفر بعينه . اليس الكفر هو الجهل بالله ؟؟ فاي جهل بالله أشنع من هذا الضلال الذي يتراءى لنا في ثياب الرشاد ؟؟ وانما الايمان الذي يبنى على غير تقدير من النفس كالاعجاب الذي يبنى على السماع ، وكالحب الذي يبنى على الوهم ، كلها شعور فارغ لا يصدر عن صميم النفس ولا يدل على عطف بعيد الغور ، ولكنه عبث وقشور . وتعالى الله ان يرضى من أحد بالعبث والقشور ، ولا سيما في الايمان بأسرار الحياة ولباب الوجود .

اذن كيف كانت النفوس تهتدي الى الصواب وتتجه في عقائدها الى الوجهة المثلى ؟؟ كان لابد لها من الالتفات بكل ما تملك من أمل وشعور الى هذه الحياة . كان لابد لها من أن تقصر عليها الرجاء زماناً لترجع الى كهوفها المهملة وسراديبها المهجورة ومحاسنها المجهولة فتنقب عنها وتجلو الغبار عن نفائسها وتدفعها الحاجة الى الرضى بخيرها وشرها فتعرف قدر ما كانت تزهد فيه من غير تجربة ، وقيمة ما كانت ترفضه من غير روية . وتستكشف من ثم هذه الحياة التي كانت تعيش فيها وكانها من غير أهلها ، فتنكشف لها معالم الايمان الصحيح من هذه الطريق ، ولا طريق سواها الى الله .

وهذا ما تكفلت به المادية في القرن التاسع عشر ،وتلك هي رسالتها في هذا العالم !! وهكذا ما من شيء في هذا العالم الا له رسالة يدعو اليها ، وعليه فريضة يقوم بها . حتى الكفر فد تكون له رسالة يؤديها في

سبيل الايمان الذي لا ايمان اصدق منه ولا أسمى . لانه ايمان بعظمة هذه الحياة . وكل شعور بعظمة الحياة فانما هو شعور بعظمة الله الحقيقية ، وهو الايمان الحق المقصود ، وكل ما عداه فمن جرثومة الكفر وان هتف باسم الله ، ومن معدن الالحاد وان صلى وصام .

في الزورق[1]

جولة في الماء محدودة وجولة في السماء غير محدودة . مسافة على الارض تذرع بالاشبار والاميال ومسافة أخرى في عالم لا تعرف أوائله ونهاياته ولا تقاس أعماقه وآفاقه . تلك هي الرحلة المزدوجة التي أقضيها كلما ركبت الزورق الصغير على النيل .

وربما استخدمت هذا الزورق كما كان « دارون » يستخدم سفينته « البيجل » ، أي لتبديل الهواء وجمع المواد الاولية لتبديل المذاهب والاسماء ، ولعمرك أين الزورق النكرة من (البيجل) المعرفة ؟؟ وأين راكبه من (دارون) ؟ شتان شتان ، وهيهات هيهات ، ولكن فيما عدا ذلك فجولتي في زورقي هذا رحلة ، وجولة دارون في سفينته تلك رحلة مثلها !! وقد أتى هو بنتيجة ولم أعد أنا بغير نتيجة . فماذا كشف دارون في سفينته ؟؟ ألا يقولون انه احتقب في أوبته الف حجة وحجة على أن الصالح للبقاء يبقى وان غير الصالح للبقاء لا يبقى ؟؟ الا يقولون ان الاحياء يتخاصمون كثيراً ويتنازعون البقاء فيما بينهم كبيراً وصغيراً ؟؟ ألم يقولوا .. لا أظنهم قالوا أكثر مما تقدم .

اذن اؤكد لهم أن الزورق الصغير قد يصل بهم اذا شاءوا وشاءت

(۱) نشرت في العدد العاشر من الرجاء .

لهم الاقدار الى حقيقة أصدق من حقيقة دارون وأرفع مثها قدرا وأقدم منها عهدا ، والطف على السمع وقعا . وان الزورق الصغير لا يبعد عليه الكرسي الذي تسأل أمامه الطبيعة عن أسرارها ، ولا المنبر الذي تخطب من فوقه قائلة بأفصح ألسنتها وأجهر أصواتها : ان الصلاح للبقاء كلمة لست أعرفها لانني لست أعرف الصلاح للفناء !! وان الاحياء لا يتنازعون ولكنهم يلعبون ، نعم يلعبون بملء نفوسهم مرتاضين رائضين كما يتصارع الصبية جذلين ضاحكين ، وكما يتناجز ممثلو المسرح جادين أو هازلين . وان استغراقهم في اللعب حتى تخال لعبهم جدا ، ونسيان أنفسهم في تمثيل الخصومة حتى تحسب خصومتهم حربا ، ان هو الا الشغف باجادة الصنعة وبراعة الاتقان ، وانه هو هذا الذي يجعلهم أحق بنشوة الرياضة وتصفيقة الاستحسان . . .

لم تقل الاعشاب ولا الهوام ذلك لدارون !! ولكن هل تراه سألها عنه أو استقصى خبرها فيه ؟؟ لو طلب منها أن تقول لقالت ولكنه اكتفى بما وعى فسكتت . وهي لا تجيب حتى تسأل ، ولا تبذل جوابها كله لاول سؤال .

نعم يلعب الاحياء ولا يتنازعون ، وليس الامر بمجهول فيعلم ولا بمخفي فيظهر ولا بمردود فيقام عليه البرهان . الا نرى الفرسان يتهالكون شوقا الى قصبة منصوبة في العراء يسعد بها من يحرزها ويتحسر عليها من يخذله الجد دونها ؟؟ بلى نراهم فلا نقول ان اولئك الفرسان المغاوير يقلقون بالهم ولا أن الناس يهللون لهم ويعجبون بهم من أجل تلك القصبة . ولعلهم بعد اذ يحرزونها يلقونها في التراب .

وهذه السماء والارض وما بينهما تنبثق كلها عن حياة لا نظير لها في

تراكيب هذه الاكوان ، ثم يذهب أبناء الحياة يتخاطفون بينهم لقيمات من الخبز أو اشبارا من الارض أو قطعا من الحجارة اللامعة فماذا يقول الناظرون ؟ يقولون انها بغيتهم التي فيها يتنازعون ، واليها يتسابقون ، ومن أجلها يخلقون - يقولون انهم يجدون ولا يلعبون . . .

فحذار ! فلعلهم ايضا يلقونها بعد اذ يحرزونها في التراب .

***

زورقي الصغير لم يغير خريطة الارض ولكني قانع به وراض عنه . فما كشف لي موقع قدم لم تطأه قبلي الف قدم وزيادة ، ولا مر بي على حبة رمل واحدة يحق لي ان اطلق عليها اسمي دون اسماء الرحالين من قبلي . ولكنه ضاق من ناحية واتسع من نواح لا عداد لها . فكم من بقعة في السماء ضللت عنها فهداني اليها ، وكم من ساحة من ساحات الرفيق الاعلى قربني اليها وكان قد اقصاني عنها غبار الدهر وعجاجة وقائعه !! ولقد افسح الرحالون رقعة الارض وضيقوا شقة الخيال ، فاليوم تسكن اصغر جزيرة في اقصى الدنيا ولكن لا جبال قاف بمأهولة ولا قصور المردة بمعمورة . كلا ولابحار العجائب بمطروقة الاثباج ، ولا هي بزخارة الامواج ، من وراء ذلك الرتاج . تداعت واقفرت ونضبت فهي اليوم طلول دارسة وبلاقع خاوية وبقايا متصدعة وحاشا لزورقي ان يصنع ذلك الخراب إو يغير على ذلك العالم العجاب ، فلا يزال له الى عالم الخيال منفذ وبينه وبين وادي الجنة سلام ، ورب قارة رهيبة يحار فيها الدليل ويسكت فيها سليمان طرقتها به ولم يعرف لنا خبر ولم يسمع لتسليمنا ولا لتوديعنا نأمة او صدى ، ولئن صدقتني الذاكرة لقد عرفت في جولة من جولات هذا الزورق اين كان مولد الجن الاولى او عرفت على

الاقل كيف ينبغي ان يكون .

ففي مفترق الجزائر الثلاث[1] ولدت بلا شك قبيلة كبيرة من قبائل الجن الوسيمة الوادعة ، وفي تلك البقعة بلا شك هي قائمة الى اليوم تعيش وترتع وتتوالد وتقضي حقوق الحياة ، وانها وايم الله بقعة خليقة بالجن والجن خليقة بها . يشارفها القادم من بعيد فيغلبه الصمت فلا يتكلم الا همسا ولو كان من أصخب خلق الله لساناً وأطوعهم للثرثرة عناناً ، وانه ليضحك ويطرب ويتغنى ويصفق ويهلل ما شاءت له خفة الهواء في انطلاقه ومرح الماء في اصطفاقه حتى اذا اقترب من تلك البقعة الحرام تبدلت حاله حالا ونزع عن خفته مختارا ، وسرى الى أجزاء نفسه السكون مسرى النعاس في مفاصل النائم المكدود ، فاذا هو مقبل بجوارحه كلها ينصت ويصغي ، ثم ينصت ويصغي ، ثم ينصت ويصغي : درجات من الصغو تهبط كل طبقة منها الى طبقة أعمق منها غورا وأظلم جوفا وأبعد ركزا ـ وهل يصغي الانسان الى لا شيء ؟؟ ان اللاشيء يصبح شيئاً متى أصغى اليه الانسان .

وأذكر انني طرقت مرة ذلك الوادي الصامت . أذكر كيف احتوانا نطاقه المسحور كما تحتوي حبائل الطلسم اسيرتها وشملنا منه ما يشمل وراده من سكينة مخيمة على جوانبه ومن همسات تتخلله تزيد الصمت صمتا والهيام هياما وتسمعها أو هي تسمعك نفسها على غير انتباه منك فكأنما ترد عليك في الحلم بين وسوسة خافتة من جانب الشجر ، أو هتفة مفردة من طائر محلق في الجو لا يكاد يتبعها بثانية ، أو خفقات الفراش فوق ورقة طافية تتهادى في النهر ، أو غمغمة الماء على قاب ذراع منك

(١) كتبت هذه المقالة بأسوان .

وكأنه في أقصى الارض : حركات ترسلها الاذن قبل أن تمسكها ، وتعليقات على حواشي السكون تمر لحظة بعد لحظة وكانما هي الجيل يمر بعد الجيل .

وفاضت هذه السكينة على نفس النوتي فتسايلت منها في صورة حكاية مبتكرة لطيفة . حكاية ذات وقائع ومفاجآت جرت له مع الجان في هذه البقعة ، على مشهد من أمه التي ماتت وأخيه الذي لا يزال صبيا . وقد أطمعه السكوت مني فأطال واطنب وافتن واغرب . ثم رابه هذا السكوت فأردف حكايته باقسام كثيرة على صدق كلامه .

قلت لا عليك يا أخا النوبة ولا ريب عندي في صدقك . ان المكان مهيأ لسكنى أصحابك كما أرى ، فإن كانت الدنيا تعوزها بعد هذه الخلائق المقنعة فأي ذنب في ذلك عليك ؟؟ انه ذنب الدنيا . . .

***

وفي ذات يوم ، قبل مرسانا على بر المدينة شاء الله أن يختبرنا بمحنة من محن السندباد البحري ، فتغير الجو وغامت أطراف الافق واختلف مهب الريح فكثر قيام النوتي وقعوده بين مقدم الزورق ومؤخره وراح الزورق يترنح ذات اليمين وذات الشمال ويتكفأ بين الشرق والغرب تكفؤ السكران ، واصبحنا نتقدم عشرين خطوة في كل ميل نعبره من هذا الشاطىء الى ذاك ، فقلت للنوتي مالك لا تستقيم في السير ؟؟

قال لو استقمنا لغرقنا ، اولا ترى الريح ؟؟

لو استقمنا لغرقنا !! ذكرتني كلمته هذه برأي في الاصلاح الاجتماعي والادبي لعالم من علماء القطرين المعدودين مثله لي على اثر

اختلاف على طرق الاصلاح ومذاهب الناس فيه فكان يقول : أعرف لعبور التيار طريقتين . فطريقة المجازفة وهي أن يلقي الانسان بنفسه في غمار اللجة فيندفع من جانب الى جانب لا تثنيه زمجرة الموج ولا خديعة الذوامات ، وليس يرتد عن عقبة ولو كان فيها الهلاك ولا يحيد قيد خطوة عن الخط القويم الا مغلوبا على أمره ، فقصاراه بعد الجهد ان يلتهمه الماء غريقا أو يبلغ الشاطىء منهوك الجسد خائر العزيمة وقد أضاع من راحته أضعاف ما كسب من الوقت والمسافة .

والطريقة الثانية طريقة الاناة والهوادة وهي أبطأ سيرا وأقل جرأة ولكن نجاحها مضمون والخطر فيها قليل . وهي أن ينزل السابح في الماء على مهل فاذا احس صدمة من التيار انحرف عن طريقها واذا بصر بموجة عالية لا مفر منها تطامن لها . واذا قذفت به اللجة بعيدا عن وجهته لم يعاندها مخافة أن تعطبه ، واذا استوثق من السهولة والرفق عاد فاقترب مما كان يزور عنه ، فقد يطول على ذلك صبره ومحاولته ولكنه بالغ في نهاية الامر مكانا قريبا أو بعيدا من الشاطىء الآخر وهو على يقين من السلامة .

أصاب ذلك العالم الحكيم . فان للسلامة طريقا غير طريق الغيرة ، ولقد نظرت الى النيل في تلك الساعة فكأنني اتمثل فيه لجة الاصلاح الدافقة تزأر زئير الضياغم في غابها ، وكأنني اشهد سباق المصلحين فيها من قديم العصور : فسابح جاش تيار الدم الحي في عروقه بأقوى واجسر من تياراتها فخرج ظافرا على استقامته يهزأ بالعطب وبالتعب ، وآخر يتخبط يائسا ثم يهوي الى القاع صامتا لا تفلت منه صيحة استغاثة . هذا على مدى وثبتين من الغاية يجمد كالمشلول لا ترفع

يده لتناول كأس النجاة . وذاك على حافة البداية يسرف في ضرباته ولا يدخر منها ضربة لساعة كلاله وفتوره . واينما ارتمت عيناك قابلتك اذرع ممدودة توشك ان تلحق باجسادها ، وجثث طافية اغمضت اجفانها على هذه الحومة الصاخبة ، وغائصون تأكلهم الحيتان فلا تبقي لهم أثرا ، وسابقون يسترهم مثل العثير من رشاش ضرباتهم العاتية ، وصرخة واحدة تسمعها من جميع الجهات وهي : الى الامام ، الى الامام .

تلك هي لجة الاصلاح .

واني لشارد اللب في غوامض هذه اللجة اذ صفرت باخرة ثم أرسلت الينا من دواليبها العريضة موجا كغليان القدر ترك زورقنا المسكين يعلو ويهبط كأنه كفة ميزان خبطتها يد هوجاء . ثم خرجت في طريقها تشق النهر شقا ولا تلتفت يمنة ولا يسرة . فقلت للنوتي : ما بال هذه الباخرة تستقيم في سيرها ، الا تخشى الغرق ؟؟

فابتسم أخو النوبة ولم يزد ـ ولو أنه اطلع على ما في نفسي لزاد قائلا : نعم ان للاصلاح طريقتين : طريقة الزورق وطريقة الباخرة ولكن الاقوياء لا يعرفون الا طريقة واحدة وهي طريقة الباخرة .

***

على أنه يحسن صنعا اذ لا يطلع على ما في نفسي . فانه يحاسبني الآن على رحلة واحدة ، ولو أنه عرف الى أين اذهب بزورقه في رحلتي الثانية لعظم الاجر وطال الحساب .

الحياة القلقة

ما اتعس حياة الفطناء المسترشدين باحساسهم المهتدين بعاطفة

الميل الى الجمال في نفوسهم الذين يرون في كل شيء حسنا ويرون في كل شيء عيبا .

انهم يرغبون في كل شيء لانهم يعرفون حسنه ولا يرضون عن أي شيء لانهم يلمسون قبحه ويحيون حياة لا تستقر بين الطلب والنفرة والشغف والزهد والراحة والألم والغبطة والندم .

في الخطابة

الخطباء اثنان : خطيب يسوق الكلام وخطيب الكلام يسوقه . والاول يملك السامعين ويتصرف بهم ويلعب بعقولهم وأما الثاني فلا ينال منهم أكثر من اعجاب كإعجاب الاستاذ بتلميذه أو ثناء يلفظه اللسان ولا يتحرك له الوجدان .

الدين بين الخاصة والعامة

ما حاجة السابح في الجدول الى نجم القطب ؟؟ انما يحتاجه الماخر في المحيط وكذلك العامة لا يحتاجون الى الدين احتياج الخاصة اليه .

لحظة مع نيتشه[1]

أيام من التوعك نحب أن نشرك القارىء في خيرها ونسأل له الله أن يجنبه شرها . وما خيرها الا صفحات من القراءة المتفرقة نزجي بها الوقت ونسري عن الفكر بقدر ما تستطيع النفس العازفة والطبيعة المنحرفة . وليست هي والحمد لله من القراءة السياسية فاننا نعتد جو السياسة كجو المدن مما ينبغي أن لا يخوضه المرء أو يقر فيه الا على أكمل صحة، لانه جو تختلط فيه الانفاس وتزدحم المناكب وتكثر الجلبة والصخب وينتشر عليه من مجاجة النفوس الكريهة ونفث الضمائر الموكوسة ما يحتاج الصبر عليه الى مناعة وحيطة لا يطيقهما من يطلب العافية والمعافاة . وأي جو من الاجواء السياسية هو أكدر وأسرع عدوى وأخبث جرثومة وأدنى الى تغثية النفس من جو مصر السياسي في هذه الأيام ؟؟

وسنقتصر في ما نورده هنا على خلاصة مما تصفحناه من مجلة أمريكية قديمة وقعت في أيدينا مصادفة ، وهي مجلة أسبوعية ممتعة تقرأ في العدد الواحد منها ما لا تقرأه في مجلات مختلفة من طرف الادب والعلم والفن ، ويجمع لك ناشروها على سبعين صفحة أو قراب ذلك موضوعات بينها من الاختلاف والتنوع ما بين الكلام مثلا على التصوير

---

(١) الافكار في أول اكتوبر سنة ١٩٢٢

الياباني الحديث ووصف زيارة لنيتشه في مرضه ، أو ما بين « توجيه دورة الحياة » ومقال في نقد المواطن الضعينة من الادب الامريكي ، أو ما بين « مشاهدات ماكس نوردو » في اسبانيا والنظر في مآل المانيا الجديدة . وهكذا مما ينشط النفس الى القراءة ويدفع عنها سآمة التشابه . وقد نكتفي بما نورده في هذا المقال وقد نعود وقتاً بعد وقت الى موضوعات أخرى اذا رأينا في العودة فائدة ، وأبى القارىء الا ان يشركنا في محصولنا كله .

أما حديثنا اليوم مع القارىء ففيم يظنه يكون ؟؟ لا نخاله يجهل ما هو حري بان يقع عليه اختيارنا لاول وهلة من بين هذه الموضوعات ـ اذ ماذا عسى أن يكون أدعى الى السلوى والاعتبار من وصف مريض نابه كان في كتاباته من أشد الناس قسوة على المرضى وكان في حياته من أحوج المرضى الى العطف والرحمة ؟؟ ذلك هو فردريك نيتشه المفكر الالماني الذي حارب المرض أعنف حرب حتى غلبه هذا العدو الغاشم فصرعه بعد أن قيده في أسره اثني عشر عاماً مجرمات من أعوام الجحيم ، وبعد أن سلبه كل ما منحته الحياة والصحة : حتى فكره وقلمه الذي كان أمضى أسلحته في هذا العراك الوبيل .

وليس نيتشه بحاجة الى التعريف ـ ولا سيا بعد الحرب الكبرى ـ فنعرفه الى القارىء ، ولكنا نومىء الى أسباب مرضه الذي لزمه هذا الزمن الطويل . وهي على الجملة سوء الهضم المزمن وكد الذهن وما كان يقاسيه من صراع عاصف في أعماق نفسه ومن عنت ملتف بين أبناء قومه ، وقد يضاف الى ذلك أثر من الوراثة . اذ كان أبوه كما جاء في بعض الاسانيد مصابا بمرض في الدماغ . وظلت هذه الاسباب تتعاوره حينا حتى القته طليح آلامها فخولط في عقله ثم جن جنوناً مطبقاً وظهرت

عليه دلائل هذا الجنون في أوائل سنة ١٨٩٩ عقيب نوبة عصبية . ومن ثم بقي مذهوب العقل منهوك الجسد ، لا يفيق فترة حتى يتنكس ويعود الى ما كان فيه أو الى شر منه . ولبث على هذا الحال من الضنى والعذاب اثني عشر عاماً طوالا كان في أثنائها كالطفل الرضيع لا حول له ولا حيلة موكولا الى ما يشمله من حنان أمه وأخته وعطف الاصدقاء من مريديه والمعجبين به . حتى أدركه الموت براحته في أواخر شهر أغسطس من سنة ١٩٠٠ فقضى بذات الرئة . وكانت خاتمة علله .

والمقال الذي نشير اليه يصف زيارة قصيرة له في خلال هذا المرض . كتبته مؤلفة ألمانية معروفة في قومها اسمها جابرييل روتر ، وهي كما قالت ممن اتخذوا نيتشه معبوداً أدبياً لهم . ولا يخلو من بعض العجب أن يكون لنيتشه عابدات بين النساء المطلعات ، لما يعلمه قراؤه من سوء رأيه في المرأة وتعييره للمخدوعين بدعواها ودعاوى أنصارها . فقد كان يستصوب في كلامه عليها آراء الجامدين من الشرقيين ، وكان يستكثر عليها الاشتغال بالعلم وطلب الحق ويقول « ما للمرأة وللحق ؟؟ انه من مبدأ الامر لم يكن شيء أغرب عن طبعها ولا أكره مذاقا لديها ولا أعدى لها من الحق . وانما صناعة المرأة الكبرى التزييف وهمها الاعظم الظهور والجمال » وكان من قوله في موضع آخر « ان الرجل الذي يجمع بين عمق الروح وعمق الشهوات والذي فيه من الخير العميق ما هو أهل للقسوة والخشونة وما يسهل اختلاطه بهاتين الخلتين لا يسعه أن يرى في المرأة الا ما يراه الشرقيون ، لا يسعه ان ينظر اليها الا نظره الى قينة مملوكة وحرز مدخر ومخلوق مقضي عليه بالخدمة واداء واجبه بهذا الاعتبار . ولا مناص له من أن يتخذ موقفه في هذه المسألة من مرتقى الحكمة الاسيوية الزاخرة معتمداً على تفوق ما في آسيا من بداهة . . . الخ » .

فما الذي أعجب المؤلفة الذكية من هذه الآراء في بنات جنسها ؟؟ اتراها شعرت في صميم وجدانها بصدق حكمه فكان ذلك من بواعث اعجابها به ؟؟

ولكن ترجمة نيتشه وفلسفته وحياته كثيرة المتناقضات ، فليست هذه ولا غيرة تلميذاته الاخر على التبشير بفلسفته بأغربها وادعاها الى الدرس والتأمل . وكفى انه هو نفسه ابن قسيس وامراة متعبدة يشن الغارة على الدين ورجال الدين ويقول في النعي على عقيدة آبائه ما لم يقله احد قبله . واليك كلام المؤلفة الالمانية في ما وصفته من خلق امه وسمتها . « وكانت ارملة القسيس لا تريك في بادي هيئتها أعوامها السبعين ولا يتخلل شعرها الاسود أثر من الشيب وقل أن تلمح على جبينها القوي تغضن الاسارير . وكانت جالسة الى مائدة للخياطة فاحمة اللون على مقربة من النافذة . وعلى النافذة لوحة مكتوب فيها هذه الآية (ان الجبال تزول والهضاب تتحول ولكن لا تزول عنك رحمتي ولا يتحول عنك عهد سلامي) وهي تذكار عطف أرسله اليها بعض الاصدقاء حين علموا بمرض ولدها الشديد . ولطالما استقرت على هذه الاسطر عينان غشتهما الدموع والتفت أمامها ذراعان مطويتان للصلاة !. » .

فكم من نقيضة في الحياة يقرأها الفكر في هذه الكلمات القليلة !! أم تناهز السبعين ولا تشيب وولد تبرح به الاسقام في عنفوان الصبا . . . . بعزاء تجده الأم في تلك الآية يخفف عنها ما يكرب نفسها من رزيئة ولدها ، وقد أطار البحث في هذه الآية وأشباهها صواب الولد وأقلق راحة نفسه وجسمه ورمى به في ظلمة لا يغني عنده فيها ايمان ولا

عزاء ـ والنفسان بعد أقرب ما تكون احداهما الى الاخرى !؟

ومما حدثتنا به الكاتبة أن هذه الأم الصبور كثيرا ما خطر لها أن تلتمس الغفران في الدار الآخرة لولدها باحراق مخطوطاته التي لم تطبع . وكادت تفعل لولا ان ابنتها عادت اذ ذاك من أمريكا فألفت أمها على هذا العزم تهم بابادة كل ما فيه خروج على الدين من تلك الكتب . فلقيت عناء كبيرا في صرفها عن هذا العزم وأقنعتها بعد مشقة بترك هذه المخطوطات في صندوقها . لان كتابة العبقري ليست بملك لاهله ولكنها ملك العالم أجمع .

ثم تعود الكاتبة فتحار في اختلاف اهواء القلب الانساني وتعجب لزهو الام بشهرة ولدها التي كانت تسوق الى منزلها كثيراً من الزوار المعجبين به . وما كانوا يعجبون من آرائه الا بما كانت تود هي احراقه ومحو آثاره !

أما الزيارة التي قصدت الكاتبة وصفها فقد جاءت اتفاقا على غير انتظار . وكانت لا تطمع هي فيها ولا تطلبها . اذ كان المريض معزولا وحده في حجرة منفردة لا يدخلها غير أمه وأخته والطبيب الذي يعالجه ولا يسمح بالدنو منها لاحد غير هؤلاء . وكان لا يسمع له صوت في المنزل غير ما يتردد بين حين وآخر من أنين خفيض مكتوم ينطلق منه على غير ارادة ولا شعور في معظم الاحيان . وسبب الزيارة أن أحد المصورين رغب في تصوير نيتشه في بعض فترات صحوه حيث كان يجلس ساعات طويلة تحت دالية من دوالي الحديقة الصغيرة . فأجيب الى طلبه ولكنه لم يوفق الى ارضاء أم المريض ولا أخته وجاءت أعراض السقم في الصورة أظهر مما أحبت تلك الام المسكينة أن تراه على ملامح ولدها الذي انقطع الرجاء من

شفائه ـ وكان لا يزال من أسباب العزاء لقلبها انه على خطورة سقامه وثقل وطأته كان في ما ترى من ظاهره مشرق الطلعة وضاح الجبين لا تشف سحنته عن داء كمين . فلما كملت الصورة أرادت أن تتحقق صديقتها بالمشاهدة خطأ المصور وتقصيره ، فدعتها الى زيارة حجرته .

قالت الكاتبة : « فتبعت السيدة العجوز على الدرج الى الطبقة الثانية وكانت ركبتاي ـ ولا أكتم ذلك ـ ترتعدان ، وفتحت الأم باباً وقالت وهيْ تدخل الحجرة : اقتربي : انه لن يشعر بك . فدنوت فاذا بي أرى قبالة الباب بحيث يتجه بصري عند دخولي فردريك نيتشه جالساً على كرسي مائل الى الوراء . فوقفت لحظة اتأمل تلك المعارف المسمرة من لفح الشمس البالغة في لطافتها على ما فيها من القوة . وانظر الى لحيته الغزيرة وانفه الدقيق الاقنى وجبهته النبيلة . وكانت عيناه الواسعتان مصوبتين الي بنظرة نافذة ملحة جادة ، وكانت يداه الشاحبتان البديعتان مكتوفتين على صدره كأيدي الصور المنحوتة على المقابر القديمة . وقفت ثمة ارتجف من وقع نظرته التي كانت تنبعث الي كأنما هي شعاع يومض من هاوية للالم والعذاب بعيدة القرار . ثم ارتخت عيناه بعد هنيهة وأغمضهما أغماضة خفيفة فلم يبق بادياً منهما غير البياض يروغ تحت الاجفان المسدلة في عماية مخيفة » .

« ونادت أمه وكانت واقفة بجانبه : تعالي ـ فنظرت فاذا على ذلك الجبين الذي يحكي جبين الموتى خلجة مؤلمة تخفق عليه ، واذا بصوت يقول : « لا . لا يا أماه ، كفى ! كفى ! » وكأنه يخرج من اعماق ضريح . وما كان في الدنيا من قدرة كانت تستطيع هنالك أن تسول لي ازعاج ذلك المناضل في سبيل الحق وهو في سكينته تلك يفنى على مهل .

فتراجعت . ومضت برهة قبل أن تثوب إليَّ نفسي وأقوى على مفاتحة أمه بكلمة » .

وهكذا كانت خاتمة أيام هذا الداعية الناقم على الرحمة والرحماء ، القائل أن ليس للضعفاء من معونة لدينا الا أن نهديهم الى طريق الفناء ، شاءت الاقدار أن ينفق من عمره المنغص المضطرب اثنتي عشرة سنة لا معول له فيها على شيء غير ما كان يحوطه من رأفة ذويه وأصحابه . ولسنا ندري كيف كان ينظر نيتشه الى تلك الرأفة لو قدر له أن يتناول قلمه مرة أخرى ويكتب فلسفته من جديد : أكان ينظر اليها من جانب أنانيته فيحمدها ويزكيها أم ينظر اليها من جانب فكره فيأسف لها ويشكوها ؟؟ ولا ندري كذلك أيهما كان خيراً له في الحقيقة : أن تزهقه القسوة لاول عام من مرضه أم أن يثوي في قبضة المرض معذباً ميئوساً من صلاحه هذا الثواء الذي يمل فيه النعيم والدعة فضلا عن المحنة والبلاء ؟؟ تلك مسألة فيها نظر .

على أنه مما لا شك فيه أن الطبيعة لا تستغني عن فضيلة الرحمة . ولو كان يسعها أن تستغني عنها لما احتاجت اليها في أهم أغراضها ، وهو حفظ النوع ، فأودعت قلوب الوالدين هذه الرحمة الخالصة بالبنين .

تهويل المصلحين

معظم المصلحين ـ حتى الكبار منهم ـ لا يقدرون مناعة الانسانية حق قدرها ولا يحيطون بقوة قابليتها للتوليد والتشكل على حسب الاحوال ولا يعرفون ذلك الينبوع الزاخر الذي منه استمدت وجودها ومنه تستمد العون كلما تقطعت بها الاسباب وخيف عليها الهلاك ـ تلحظ جهل

المصلحين هذا في شدة وجلهم على الانسانية وهول انذارهم لها كلما رأوا منها ما يحسبونه انحرافا أبديا عن الصواب أو شططاً بائنا عن سبيل النجاة . وشكراً لذلك التهويل منهم . فانهم لو فطنوا الى قوتها وصلابة عودها وأن لها بنية على طول الزمن تهضم الادواء كما يهضم الشاب القوي وعكات الهواء لتبدلوا من غيرتهم تراخيا ومن غضبهم تغاضياً . وأنى يكون لهم أن يفلحوا في دعوة خير بغير تلك الغيرة وذلك الغضب ؟

معرض الصور المصري

للفن دلالة على مزاج الامة وخواصها لا يدلها العلم ولا الصناعات ، لان العلوم تنقل والصناعات تقتبس فتتساوى فيها الامم من علم منها ومن تعلم ، واذا هي تفاوتت فيها فشبيه ان يكون تفاوتها في المقادير لا في الصفات والكيفيات . لان القضايا العقلية كالماء الطهور لا لون لها ولا طعم ولا رائحة . والمصنوعات اليدوية آلية يكاد يتماثل فيها الانسان والاداة الجامدة ، فلا فرق بين نظريات اوقليدس يدرسها السويدي في أقصى الشمال أو الافريقي في أقصى الجنوب ، ولا خلاف بين الآلات يركبها الامريكي من مواد معروفة وبمقادير محدودة أو يركبها الزنجي من تلك المواد وبتلك المقادير ـ وانما تتفاوت خصال الامم وتتمايز ملامحها الباطنة بالفنون والاداب . فالنغمة الموسيقية تترنح لها أعطاف امة طربا وزهوا والصورة البارعة تتراءى فيها نماذج الجمال في نفوس ابناء تلك الامة والقصيدة البليغة تلمس بها مكامن شعورهم ونجوى ضمائرهم والرواية الصادقة تعرض لك علاقاتهم وأواصرهم وتمثل لنفسك طبائعهم ومآلفهم ـ هذه المبدعات الفنية أو واحدة منها تنبئك عن اخلاق الامم ومبلغ رقيها النفسي بما لا تنبئك عنه جميع علومها وصناعاتها ومخترعاتها ، فلا تؤمن برقي أمة بلغت فيها المعارف العقلية والصناعية أوجها الاعلى اذا هي كانت مع ذلك مقفرة الفنون ضئيلة الآداب ، اذ لا عبرة في رقي

الشعوب بغير الرقي الذي تشترك فيه المشاعر والخوالج النفسية ولا فائدة من علم سام لا تستخدمه نفس سامية . وعلى انه هيهات يتقدم شعب في علم أو صناعة ان لم يصحب تقدمه هذا تقدم في فنونه وآدابه ، لان نهضة العلوم لا تتأتى بغير دوافع نفسية وهذه الدوافع لا تكون حيث لا تفقه النفوس محاسن الحياة ومغازي الشعور الصحيح ثم تعرب عنها فيما تتغنى به أو تنشده أو تصوره أو ترمز اليه .

لذلك يسرنا ما نراه من بوادر النهضة الفنية في مصر ونستبشر بمظاهر هذه النهضة لانها الدلالة الصحيحة على تطور الامة المصرية في مشاعرها الباطنة . وليس من اتفاق المصادفات هذه النهضات نراها في آن واحد تظهر في غنائنا وتمثيلنا وتصويرنا وشعرنا الحديث ـ فالشعب المصري اليوم يفهم ما يغنيه فلا يجعل الكلمات مطايا بكماء لا معنى لها الا ان تحمل الى اذانه الالحان السقيمة والنغمات الفاترة ، وهو يشهد على مسرحه تغيرا يتدرج الى الوصف الاجتماعي الصادق ، ويرى من ابنائه من يشتغل بالتصوير ويعنى باتقانه والتبريز فيه حباً في الفن لا طمعا في الكسب ولا تطلعا الى الشهرة بين الجماهير ، وقد أخذ الشعر المصري ينطق بلسان آدمي بعد ان كان يروي عن تماثيل جوفاء صاغتها البلادة والقدم ـ حدث هذا الانتقال في أوقات متقاربة ترجع كلها الى أوائل العقدين الاخيرين من الجيل الذي نحن فيه فكان التوافق في تنفس الفنون كلها تنفس الحياة واستيقاظها دليلا على تنبه قد شمل الامة بأسرها ، وحق للمتفائلين ان يستشفوا من وراء هذه اليقظة الفنية روحاً قومية ناشطة من سبات الجمود كما يستدل الفاحص على جيشان الماء في جوف الارض بانحباس ينابيعه في الاماكن المختلفة دفعة واحدة .

ومن أقرب شواهد هذه اليقظة الفنية افتتاح معرض الصور المصري

الذي اعده في هذه الايام عشاق التصوير وطلابه وقصروه على الصور من صنع المصريين وحدهم ليكون عنوانا خاصاً تمتزج فيه الروح الفنية بالروح القومية ، فأحسنوا صنعاً ودلوا على ذوق سليم .

زرت هذا المعرض أمس فرأيت زرعاً ينجم في منبت خصيب وأملا يشرق في سماء صافية . فاذا سلم الزرع من لوافح السموم وخلت السماء من دواهم الغيوم ، أصبحنا بعد قليل ولنا فن مصري رائع يذكر كلما ذكرت فنون الامم ، ويسمع الناس اسمه فلا يكون عندهم وقفا على مخلفات مجدنا القديم وبقايا فن الفراعنة المهجور .

لا أقول ان معرض الصور المصري بلغ الغاية وتنزه عن المأخذ فهذا ما لا يقال في معرض من معارض العالم . ولكني أقول انه في طريق التقدم والاتقان وفي النهج القويم الى التكمل والنضج ، وهذا كل ما يطلب منه اليوم .

وعندي ان فن التصوير يترقى في ثلاث درجات لا يصعب على مصورينا الاماثل بلوغ ذروتها العليا مع المثابرة والتوفيق . فاول هذه الدرجات درجة النقل البحت والثانية درجة النقل بتصرف يوحي الى الناظر احساس المصور بما ارتسم في نفسه وجرت به ريشته . والثالثة درجة الابتداع والرمز المعنوي وهي القمة التي لا يتسنمها مقلد ولا يسمو اليها انسان من غمار الناس مهما بلغ من فرط تعلقه بالفنون واعجابه بظواهرها .

في الاولى يظهر نظر المصور ويده ، وفي الثانية يظهر ذوقه وشعوره ، وفي الثالثة تظهر روحه وعبقريته . ولعل هذه المرتبة هي التي يقصدها جيتي بقوله : « ان أسمى وظائف كل فن هو تمثيل صورة لحقيقة

سامية في زي شكل محسوس » والقدرة كل القدرة انما هي في ادراك الحقيقة السامية ، فانها لا تحتاج الى حاسة مضافة في الانسان ولكنها تحتاج الى فطرة تحسن تصور المحسوسات المدركة رفيعها ووضيعها . فمن استطاع تمثل الحقائق السامية وتمثيلها كان لبصائر الناس بمثابة المجهر لابصارهم : يريهم ما كانوا يحسبونه ضباباً مبهماً فاذا هو أمامهم نجوم واضحة مستقلة تدور في افلاكها بحساب ونظام مقدور . فلا يلتمسن الناس نفائس الفن النادرة في عالم الضباب والاوهام ولا في عالم الانفاق والسراديب فان عالم الفن مشرق السماء واضح النهار ، لا تلوح الاشباح والعفاريت في لياليه الا لاطفاله وجهاله ، وانما هي آفة النظر القصير ترى صاحبتها الضباب حيث تسطع النجوم وتبدي له الخيالات الوهمية حيث تبدو الحقائق السامية .

وفي المعرض المصري الكثير من صور النقل المحكم وليس بالقليل بين معروضاته ما توخى فيه أصحابه التصرف المؤذن بالنجاح والاتقان المبشر بالاختراع والابداع . فنهنئهم بما بلغوه ونرجو لهم المزيد المطرد . ونقول لهم ان بين أيديهم وأيدي عشاق التصوير عامة أمانة كبرى يؤدونها لمصر فليبذلوا جهد المطيق وليؤدوها على أحسن ما يستطاع من الاخلاص والوفاء .

لقد كان لمصر فن جليل نشأ في حجر الموت المقدس والخلود فخلا من بهجة الفن الاغريقي ورشاقة الفن البيزنطي وبذخ الفن الفارسي وتنسيق الفن العربي . ولكنه امتاز بالضخامة ومسحة الدوام والثبوت فلم يضارعه في هذه الميزة فن من الفنون . بيد أن مصر اليوم غير مصر الفراعنة الاقدمين ، فمن الرجوع الى الوراء أن نبني على أساسهم وننسج

على منوالهم ونحن في القرن العشرين .

نشأ الفن المصري القديم في ظلال الموت والخلود فلينشأ الفن المصري الجديد في كنف الحياة والمثل الاعلى . وانه لن يخسر بذلك ، بل هو لا شك يكسب وينمو ويقوى لان الحياة أعمق من الموت والمثل الاعلى اسمى من الخلود .

الوصف الشعري

تذكرني آراء كتابنا في الوصف الشعري بقصة ذلك الحاكم الامي الذي جيء له برجلين يمتحنهما في الخط ، فأمرهما بكتابة كلمة ثور وكان أحدهما أميا مثله فرسم الثور رسما ساذجا وكتب الثاني الكلمة بأجود خط وأحسنه فاستجهل الحاكم صاحبنا هذا وقضى للاول عليه لانه رأى قرني الثور وذنبه وأظلافه في ورقة الامي ولم ير أثرا لذلك في ورقة الكاتب الخبير .

وكذلك يظن كتابنا عفا الله عنهم أن الوصف الشعري من شأنه أن يمثل المناظر للعين فيغنيها عن النظر ويجهلون في أميتهم الفكرية انه وصف يرمز الى العواطف والاحساسات التي في النفس كرمز الحروف الى الصور المعنوية ، فاذا وصف الشاعر الوردة فليس المقصود من وصفها ان تعلم أي شيء تشبه بل المقصود أن تعلم أي شيء هي في النفس . والشاعر المطبوع لا يعنيه أن يشبه حبيبه كما يشبه الشرطة المجرمين في اوراق تحقيق الشخصية وانما يعنيه أن يشبه كلفه به وهيامه بمحاسنه . وما يأتي في خلال ذلك من تمثيل تلك المحاسن فانما يأتي عرضاً لاظهار مبلغ ذلك الهيام أو للدلالة على استحقاق المحبوب له ان كان لتلك الدلالة قيمة .

الحق والباطل

كثيرا ما يكون الباطل أهلا للهزيمة ولكنه لا يجد من هو أهل للانتصار عليه .

كتاب الاخلاق(1)

هو عجالة مفيدة في الاخلاق ألفها لطلاب هذا العلم الاستاذ الفاضل الشيخ أحمد أمين المدرس بمدرسة القضاء الشرعي وسن بها سنة محمودة لمدرسي الاخلاق في مدارسنا ومعاهدنا العلمية ، فقد كان العهد بالفصول الاخلاقية ان تكون موضوعات انشائية فارغة يفتتحها مؤلفوها بابيات من الشعر أو مقتبسات من الحكمة في الحث على هذه الفضيلة أو التنفير من تلك الرذيلة ، وكثيراً ما يمدحون الخلة الواحدة ويذمونها في صدد واحد ويعدون ذلك من آيات البراعة والافتنان . وكانوا اذا كتبوا في مناقب النفوس أو مثالبها نظروا اليها كانها أجزاء مودعة في النفس بعناوينها كما تودع العلب والحقاق رفوف التجار . وكانما ليس عليهم الا أن يرفعوا حجاب النفس فيروا فضائل الشجاعة والصدق والعزم والمروءة ماثلة في أماكنها أو يروا هذه الاماكن خاوية منها تنتظر ايابها اليها . وما أحقر علم أخلاق يكون على هذا المثال .

أما العجالة التي بين أيدينا فقد خالف فيها مؤلفها ذلك النمط العتيق وعالج رد الاخلاق الى عللها الطبيعية فجمع بين النفس والجسم بسبب ، ولحظ طبائع الحيوانية وهو يتكلم في خصائص الانسانية ،

---

(1) الاهرام ١٠ مايو سنة ١٩٢٠ .

ورأيناه يكتفي بالقواعد المجملة ولا يستطرد الى ما وراءها من المسائل الخلافية والشكوك التي لا آخر لها ، وحسنا فعل ، فان خليقا بالطالب أن لا يتعلم طلاسم وشكوكا تضل لبه وتبلبل قلبه وحسبه ان يجد من مادة التعليم ما ينتهي منه بحثه واطلاعه وتجربته وتفكيره الى حيث يقوده استعداده .

ومع ثنائنا على هذا النحو الذي نحاه المؤلف ننبه الى تساهل في العجالة وددنا لو خلت منه ، وهو تحميل التعريفات والضوابط فوق ما يتحمله لفظها ، ومثال ذلك قوله في تكوين العادة « كل عمل خيرا كان أو شراً يصير عادة بشيئين ميل النفس اليه واجابة هذا الميل باصدار العمل مع تكرار ذلك كله تكراراً كافياً . **أما تكرار العمل الخارجي وحده اعني** مجرد تحرك الاعضاء بالعمل فلا يفيد تكوين العادة . فالمريض يتجرع الدواء المر مراراً وهو في كل مرة كاره له يتمنى اليوم الذي يشفى فيه فلا يتجرعه ولا يصير شربه الدواء عادة له . » .

ولقد كان يصح اطلاق هذا القول لو أننا شاهدنا رجلا يكرهونه على تجرع الافيون فيتجرعه مرة بعد مرة كارهاً مجبراً ثم لا يرغب فيه مختاراً بعد الامتناع عن اكراهه عليه ، أو لو رأينا رجلا يصاب بالصرع فتجري منه أعمال وأقوال تعودها كلما أخرجته النوبة عن طوره واستطعنا أن نقول انه يميل ويجيب داعي الميل في هذه الحالة ، أو لو أمكننا أن نجزم بأن مشي النائم في نومه لا يسمى عادة يصدق عليها كل ما يصدق على العادات من مران الاعصاب على تكريرها وسهولة اتيانها بها . فاما قبل ان يثبت شيء من ذلك فلا يصح ان نجعل العادة رهينة بالميل والاجابة باصدار عمل . ثم ان المعروف أن العادة تكون في العجماوات كما تكون في الانسان ،

فاذا سيرنا حيواناً في طريق واحدة مرارا متوالية صعب تحويلـه منهـا الى غيرها ولا نحسب نظرية الميل واجابته باصدار العمل تفسر العادة في هذا الحيوان .

ومما يؤخذ على المؤلف استشهاده بغير الثقات أحياناً ونقلـه أقـوالا لرجال مشهورين كتبوها في اعمار لا يحتج فيهـا برأي الرجل مهما كان نصيبه من العبقرية وخصوبة الذهن ، من ذلك ما استشهد به من كتاب آلام فرتر للشاعر جيتي اذ يقول « ما أولى انقباض النفس ان يكون غيظاً كميناً من نقص كفاءتنا وسقوط قدرتنا وسخطاً على أنفسنا مصحوباً برذيلة الحسد التي تهيج فينا الزهو الشديد والعجب المفرط الخ الخ » .

فقد يستظرف المقال أو القصيد يصنعه الشاعر النابـغ في الرابعـة والعشرين من عمـره يصف فيه عشقـه وهـواجس فؤاده ، ويتمنـى فيه ويتخيل ما شاء له الصبا ونجابة العقل ، فاما الحكم على حالات النفوس وأصول الاخلاق فمما لا يستفاد من فتى في هذه السن ليلقى على الطلبة أو يدرس لهم كما تدرس صفوة الحقائق وخلاصة التجـارب ، ولا سيما اذا كان ذلك الفتى يسوق بطل روايته الى بخع نفسه حزناً وانقباضاً وأسفاً على شيء يفوت الكثيرين ولا يقتلون انفسهم أسفاً عليه .

الرجاء[1]

ان الرجاء طبيعة الحياة. ، لا بل هو اسم آخر من أسمائها ، فما كانت الحياة الا املا يتحقق لصاحبه على غير ارادة منه ، وما كان حي قط الا أمنية في ضمير الغيب ، غلب فيها الاقدام على الاحجام ، والتوفيق على الحبوط ، وسنة الخلق على فوضى الاهمال . فاذا هي ذات سوية ، ونفس شاعرة ، ظهرت يسبقها الرجاء ويحدوها الرجاء ويستاق ركابها الرجاء ، ولو كان غير الرجاء عنواناً للطبيعة لما كان لنفس حية من سبيل الى الوجود .

أرأيت حبة البر الضئيلة متروكة في حيث يترك الرفات السحيق ؟؟ أين هي في قلتها وصغرها من عناصر الشك المحدقة بها ، وزواجر الخوف المترصدة لها ، تثقلها الارض بأديمها ، وتنذرها الرياح بسمومها ، ومن فوقها منجل للحصاد كم حصد من قبلها سنابل وحبوبا ، لابل قبائل وشعوباً ، والوانا من نبت الحياة وضروباً ، فما كان يعوزها في كل ذرة من التراب نذير جهير ، وفي صوب من الفضاء عدو قدير .

تلك الحبة لو وقفت لحظة في مكمنها تزن قوتها الى تلك القوى ، وتقسم جرمها على تلك الاجرام . وتقيم حقها في النماء على ما يظهر لها من

---

(١) العدد الثالث من الرجاء .

هذه الفروق وتبنى أملها في الفلاح على ما أصاب الـزروع الفـانية من قديم ،ـ فأي مثـوى كانـت تراه لمداراة ضعفهـا وذلتهـا ارأف بهـا من التراب ؟؟ وأي مقر كان أحق بها من ذلك القبر المستور ؟؟

انه مأمنها الذي لا تخاف فيه . . وفي القبر يأمن الاموات !!!

***

لكن الرجاء لا يدين بهذا المنطـق العقيم. انـه يقـول لهـا إنهضي فتنهض ، مزقي غلافك فتمزقه ، وشقي أديم الارض فتشقه ، وكافحي الرياح فتكافحها ، وابلغي حظك من التمام فتبلغه . فاذا هي زرع بهيج مستو على سوقه يعجب الزراع .

وما أحسن حظ الاحياء !!

ان تلك الحبة لا تستشير الفلاسفة ولا تأخذ بنصح الحكماء ـ انها لا تسمع لاولئك القادة المفكرين ، الذين انما يبيحون أممهم من حق الحياة على حساب ما بينها وبين القوى المقاومة لها من الفروق ، والذين يقولون لأممهـم في كل مطلـب تطلبه انـك ضعيفـة وانهـم أقـوياء ، والـذين يستحمقون تلك الحبة في مجازفتها ولو انها كانت مثلهم في حذرهم وأناتهم لما نبتت على ظهر الارض نابتة ، ولماتوا جوعا قبل أن يولدوا في هذا العالم الطائش المجنون !!

***

أيها الرجاء !

ما أحوج الناس اليك وما أسهل طريقك اليهم ، ، كذلك عهدنا بألزم حاجات الاحياء : الهواء والماء والضياء ، ولعمـري ان حاجتهـم

اليك لاكبر ، وان طريقك اليهم لاسهل وأيسر ، لقد تخطيت بهم سدود الموت فمددت لهم من ورائها رواقا رحيبا ينعمون بانتظاره قبل أن ينعموا بجواره ، وفتحت أبواب السماء فعمرها الانسان بأحبابه وأنصاره ، واتجه اليها بصلواته وأفكاره ، واستأنست له أعالي الكون وأسافلها فكانما هو منها في قرارةداره. وكأنما انت الاثير المفروض لا يخلو منه فضاء، بل أنت أثير الروح لولاك لما أشرق عليها ضياء ، ولما جال في نواحيها جمال السماء .

ولقد قيل لاحدهم . كيف تكون جهنم ؟؟ فقال مكان لا رجاء فيه . وقد صدق . فحيث يسود القنوط فهناك عذاب اليم وشيطان رجيم . وحيث يقيم الرجاء فهناك جنة نعيم ، ووحي من الله وتسليم .

حزن المصريين

يعجب بعضهم لشدة حزن قدماء المصريين على موتاهم وفرط تعلقهم بذكراهم ولا يرون ذلك يوافق الاعتقاد الثابت بخلود الروح وبقاء الحياة بعد الموت ، والحقيقة أن هذا التعلق الدائم هو الدليل على الاعتقاد بوجود الميت واتصال حقوقه على ذويه فلا ينسونه ولا يهملونه . كأنما هو قريب مغترب لا تنقطع عنه الرسائل والهدايا .

العصرية في الشعر

ان وصف الطيارة لا ينم على روح عصرية الا كما ينم وصف قطار من الجمال دخل مدينة لوندرة أو باريس على جاهلية الشاعر الانجليزي أو الفرنسي ، فاذا مثل الطيارة بدوي قادم من جوف الصحراء فليس

يستخرج أحد من ذلك أنه حديث الذهن مدني النفس . اذ ليس المعول في معرفة عصرية الشاعر على وصفه الاختراعات العصرية . ولكن على كيفية الوصف ووجهة النظر .

فائدة من افكوهة[1]

ذكرني الجزء الثاني من كتاب الرافعي بجزئه الاول . وكنت قد رأيته ولم أقرأه الا الماما . فلما تناولته هذه المرة كان أول ما انفتح لي فيه فصل في مناطق العرب .

فقرأت منه الى قوله : « وكذلك وجدوا اللغة الهيروغليفية القديمة . وهي من أقدم اللغات المعروفة ليس من حروفها في المنطق (ب ج د ز ظ ض) بل أنت ترى الدليل الذي لا سبيل الى رده في هذه الحروف الطبيعية الخالدة التي لا يزاد فيها ولا ينقص منها وهي ما يتهيأ في منطق الحيوان السائم فإنها على قدر الحاجة الحيوانية مما لا يتجاوز معنى الاحساس الذي هو النطق الباطني » .

وكانما بدا للمؤلف أن بين القول بصدور اللغة في الحيوان عن الاحساس وبين كونه يتعلم حرفا أو أحرفا من لغة الناس ، تناقضاً ولبساً لا يحسن ان يترك بغير تفسير واستدراك فكتب في الهامش : « أما الحيوان المروض المأخوذ بالعناية والتعليم والتلقين فقد يقتبس جملة من حروف اللغة التي يعلم بها وبذلك تأتي لبعض الالمانيين أن ينطق كلبه بألفاظ خالصة من اللغة الالمانية ولكنها في الجملة من حاجات الكلب الطبيعية

---

(١) المؤيد ١٦ مايو ١٩١٤ .

كالاكل والشرب فلا تخرج عن معنى الاحساس أيضاً » .

وهذه أفكوهة لا ضير على الاديب الرافعي ولا على أحد سواه في أن نتخذ منها فائدة أو نقيس عليها مثلا نبين به طريقة بعض الناس في القياس .

***

الكلام في مخارج الحروف . فكان سبيل الرافعي بعد أن ذكر لغة الهمج وأتى على ما ينطقونه من الحروف ومالا ينطقونه ثم أطب فذكر لغة الحيوان (الطبيعية الخالدة) أن يقارن بين اللغتين ، فان توسع فليبين كيف ترقت لغة الهمج عن لغة الحيوان ويظهر منزلة الاصول الصوتية الاولى من اللغات قاطبة ، والى أي حد تتقارب فيها أصوات الحيوان وأصوات الانسان . ولكنه جاء الى هذا المسلك المأبور فاغلقه حين قضي على حروف الحيوان بأنها لا يزاد فيها ولا ينقص منها . وانما كانت جملة معترضة جاء بها لتحلية الكلام فاعترضت كما ترى بينه وبين سبيله . وأحب الرافعي أن يكون عميقاً في حكمه ، بعيد الملاحظة في رأيه فاعرض عن آلات النطق في الحيوان ونزل الى مقر الاحساس منه . فمد بسبب بين خفة الحرف أو ثقله على اللسان وبين ما سماه النطق الباطني ، ولما علم أن العلماء سهلوا على جهاز النطق في الكلاب أن يتحرك ببعض الالفاظ الاوربية لم يعلل ذلك بأن جهاز النطق في الحيوان مهيأ للتحسن والاكتمال ولا بأن الاصوات الحيوانية أصل نمت منه فروع اللغات الانسانية . بل رأى ان ذلك انما كان لان الكلمات التي تعلمها الكلب « كانت في الجملة من حاجاته الطبيعية كالاكل والشرب فلا تخرج عن معنى الاحساس ايضا » .

وعلى هذا فالكلب لم يع من الالفاظ الا ما هو من معنى الطعام لان احساس الحيوان قاصر على ما يتصل بمأكله ومشربه وما ناسب ذلك من الشهوات التي يضيق نطاقها كلما انحط المخلوق في مرتبة الخلق ، وليس لان العالم الالماني خفف عليه نطق الكلمة بالتعود والمران . كذلك يقول الرافعي !! فلو ان العالم عالج تلقينه اصطلاحا هندسيا او أخلاقيا لما نبس به لانه ليس من حاجاته الطبيعية . نعم ولو كان هذا الاصطلاح قريبا في حروفه من كلمة في معنى الطعام كالمقاربة التي بين كلمتي سمك وسمك وعظم وعظم !! كذلك لو عالج العالم الالماني ايضا ان يلقن نملة أو برغوثا ما لقنه ذلك الكلب لما استعصى عليه ذلك ، لان الاكل والشرب من حاجات النمل والبراغيث كما انها من حاجات الكلاب ، ولا عبرة بالبون البعيد بين آلات النطق في الكلب وبين آلاته في النملة او البرغوث فان هذا لا يضعف من ذلك الاحساس الطبيعي او النطق الباطني !!

وكما سهل على الكلب أن يتلفظ بكلمات الاكل والشرب في اللغة الالمانية كذلك يسهل عليه أن يتلفظ بما يقابل هذه الكلمات في لغات العالم أجمع ـ وهي كلمات يتألف من مجموعها معجم ضخم يشتمل على مخارج الحروف الآدمية من اثقلها الى اخفها . فمن اين للكلب هذه القدرة ؟؟ أو يكفي انه يسغب ويظمأ لتكون قوة النطق فيه كما هي في الانسان ؟؟

***

هذا مثال من اقيسة الرافعي . وان الرافعي ليعلم كما نعلم انه منشىء مكين ولكنه يحس من نفسه اضطراب القياس ويظن ان الناس يحسون منه ما يحسه من نفسه ، فيكثرمن القياس كما يغالي الفقير بظاهره

ليستر فقره ، وهو كلما عمد الى الاستقراء والاستنتاج وقع في مثل هذا الخطأ .

ونحن لم نقل عبثا في مقالنا عن جزئه الثاني انه اعمل القلم ولم يعمل الرأي ولكننا نقول الآن انه ما كان ليستطيع ان يصنع غير ذلك . فان شاء عددنا كتابه كتاب أدب ولكنا لا نعده كتابا في تاريخ الادب . لان البحث في هذا الفن متطلب من المنطق والزكانة ومعرفة (النطق الباطني) ما يتطلبه الرافعي نفسه ولا يجده في استعداده .

الظواهر والبواطن

ليس بين ظواهر الاشياء وبواطنها حد فاصل . فكل البواطن ظواهر مكشوفة لو أحسن النظر اليها من الجهة المثلى ، وكل الظواهر بواطن خفية لو اسيء النظر الى تلك الجهة منها . ومن البديهات عند قوم ما يعد اسرارا مغلقة عند قوم آخرين .

الشر الدخيل

من الناس من يفعل الخير لأنه لا يجد حجة يسوغ بها عمل الشر أو يواري بها فعل السوء وليس يزعه عن اختلاق تلك الحجة الا بلادة حس وجمود عقل . أما من هم أمهر من ذلك من الاشرار وأطبع على الأذى فيخلقون الحجة في كل حين ويفعلون الشر كلما وجدوا حجة له .

ذم الحياة

ان الذين يذمون الحياة هم الراغبون في حياة خير منها لا الراغبون

في الموت كما يتوهم الكثيرون وربما كان ذو النقمة والسخط على الحياة أرغب فيها ممن يرضون عنها ويرتعون في صفوها ونعيمها . كما يكون المقامر الخاسر أرغب اللاعبين في ملازمة مائدة اللعب الى النهاية .

كل ذي عاهة جبار

يؤثر الانسان أحياناً أن يكون عرضة للمقت والغيظ على أن يكون عرضة للرحمة أو الاستخفاف ـ وهذه علة ما يرى من أصحاب العاهات والمثالب المقبوحة من تعمد اسخاط الناس واستنفاد صبرهم . يحاولون الهرب من رحمتهم الى نقمتهم ، ومن احسانهم عليهم بالعطف الى مساواتهم لهم بالمنازلة

خطرات وشذور[1]

الشرق والغرب

الفروق بين أساليب الشرقيين والغربيين في التفكير كثيرة ، ولكن لعل أوجزها وأجمعها فرق واحد : هو أن الشرقي طبع على النظر الى غايات الاشياء ، وأن الغربي طبع على النظر الى عللها ، وربما كان سبب هذا الاختلاف أن الشرقي وجد ثمرات الطبيعة مجهزة أو سهلة التجهيز فنظر الى معناها وفحواها ، وأن الغربي احتاج الى استخراجها فنظر الى أسبابها ومناشئها .

العدل والقوة

أيهما خير للناس جميعاً وللاقوياء والضعفاء معاً : أن يكون القوي عادلا ينصف الضعفاء من نفسه ولا يستأثر بحظ من حظوظ الحياة دونهم فيظل قوياً بلا منفعة له من قوته ويظلون هم ضعفاء بلا ضير عليهم من ضعفهم ، أم ان يكون مفتئتا طاغياً يؤرث باستعلائه وكبريائه نيرانهم ويتغلغل بسطوته في دخيلة نفوسهم وفي حيث يخامر الذل قلوبهم فلا يدع ثم موضعا من مواضع الدعة الا زلزله ولا عدة من عدد النهضة الا

(١) نشرت طائفة من هذه الشذرات في صحيفة الرجاء .

شحذها ، حتى يضطرهم اضطرارا الى تنكب أسباب الضعف والاخذ باسباب القوة ؟؟

الذي يحصل هو هذا والذي يتمناه الناس هو ذاك ولكن الذي يحصل هو الخير والرحمة والذي تمنوه هو الضير والوبال .

ما دام في الارض ضعف وقوة فمن الرحمة بالعالم ان لا يتساوى الضعفاءوالاقوياء .

نشر الدين

الغيرة على نشر الدين مقصورة على الموحدين ولا أظن الوثنيين كانوا يرتاحون الى مشاركة الاجناس الاخرى لهم في نحلهم واديانهم ، لانهم يعتزون بامتيازهم بدين خاص لهم اعتزازهم بجنسهم ونسبهم ولغتهم . ويرون آلهتهم كآبائهم وأجدادهم ينبغي أن تكون لهم بلا شريك .

محاكاة الطبيعة

القول بان الشاعر يغني محاكاة للطير في شدوه لا يقل في الغرابة عن القول بان الانسان يطهي الاطعمة محاكاة لاكلة البرسيم ونهشة اللحوم من الدواب . ان حاجة الشاعر الى الغناء كحاجة الطير الى التغريد فلم يكون أحدهما حاكياً ؟؟

حكم طبيعة المرأة عليها

الله مذكر في اللفظ . ولو أمكنك أن تخطف أجوبة الرجال والنساء من قرارات أفكارهم وعلى غير انتباه منهم وسألتهم : هل الله مذكر أو

مؤنث لأجابوك على الفور : بل هو مذكر . فللإله صفة الذكورة الوهمية في بدائه الرجال والنساء على السواء ؟ ونعني بالبداثه ذلك الجانب الذي لا يعيه الذهن ، حيث مستودع التصورات والأخيلة التي لا سلطان للبحث ولا للروية عليها . فالمرأة لن تستطيع أبداً أن تتصور في أبعد خبايا نفسها ان يكون هذه الاله الفرد بصورة الانثى ولن ترى من حق تنزيه الاله عليها أن تتصوره كذلك . فكيف تراها تصدق في الاعراب عن حكم طبعها اذا قالت انها لا ترى فرقا بين الرجل وبينها ؟؟

شواغل الحاضر

شواغل الحاضر الضئيلة قادرة على أن تحجب عن بصيرة الانسان جلال الازل والابد بما تهيج من عواطفه وتبلبل من خواطره . كما تحجب الكف القريبة من العين اتساع الفضاء الذي لا نهاية له .

أمن الصغير

لا يهز الاعصار الجارف ماء الحوض الصغير ولكنه يقيم الخضم الواسع ويقعده .

المجاملات

الصادقون في عواطفهم لا يبالون بالتحيات ومظاهر المجاملة . والذين لا يشعرون بصدق العاطفة يحسبون ان هذه المجاملات هي الاخلاص بعينه والحب في لبابه . وقد يتفق ان يرغب المخلصون في مجاراة الناس فيتكلفوا المجاملة فيبدو عليهم كانهم يراءون في اشاراتهم واقوالهم

وكانهم يظهرون من العطف للناس غير ما يبطنون لهم . على أن غيرهم يجامل بلا كلفة فيلوح عليه الاخلاص والصدق وهو بعيد عنهما .

ولسنا نقصد بالاخلاص هنا ما يقابل الختل والغش. وإنما نقصد به اشتمال العاطفة على النفس وشيوعها في كل جزء من أجزائها . ونقصد بما يقابله ذلك الشعور السطحي الذي لا تعرف النفوس الضئيلة نوعا من الشعور غيره . وهو شعور لا يبالي صاحبه قبلته منه أو رفضته لان محوه أو استئصاله لا يكلفه الا أن ينزع عن نفسه غشاء رقيقا مفصولا عنها لا يمس نزعة اللحم والدم . أما شعور الاخلاص الحق فشديد على نفس صاحبه أن يفارقها . لانه يخرج منها خروج الحياة من أوصال الجسم فيزعجها من أعماقها ـ وكثيرا ما يساء الظن بالمخلصين فيكون احتقارهم لمن يسيء بهم الظن شديداً ويزيدهم احتقاراً للمرتابين فيهم أن يروهم يحسنون الظن بغير المخلصين ـ ومن ثم خرج أصلح الناس للحب الطاهر من هذه الدنيا وهم متهمون جهلا باحتقارهم الناس وبغضهم اياهم . وقل في عارفيهم من يعلم أن لهذه الجفوة سببا هم منصفون فيه غير ملومين .

الشر النافع

لا يندر أن يكون القضاء على رجل شرير قادر في شره أضر بالعالم من القضاء على رجل غفل لا يرجى نفعه ولا يرهب له أذى .

العصبية

لا يقدر أحد على أن يخدم الناس جميعا . واذا نصب نفسه لذلك أوشك أن لا يخدم أحداً . فلا بد من العصبية التي تجعله قوة فاعلة في

جانب من الجوانـب فيؤدي ما عليه من واجـب عام من طريق الواجـب الخاص .

انانية الانسانيه

العالم الانساني شديد الأثرة . فهو لو علم أنه ينـال الخـير ممـن يسديه اليه ولكن بعـد تحطيمـه واتلافـه لم يحجـم عن ذلك ولـم يذكر للمحسـن اليه حق الشـكر ولا خطـر له أنـه مدين به لذلك المحســن المغمور . وكثيراً ما يكون الانتفـاع بالخـير واهـلاك جالبه أقـرب طرق الانسانية الى اغتنام ذلك الخير .

بين الموت والحياة

اقمت زمنا في « الامام » ، وكنت أرى الموت هناك في كل ساعة فكان يتمثل لي كأنـه وحش فاتـك لكنـه من الدواجـن التـي تقيم بـين البيوت ، وكان يخالجني في معظم الاوقات شعور لا ادري اهو الاستهزاء بالموت أم الاستهزاء بالحياة ، ولعل الشعورين بعد متقاربان ، فما استهزأ أحد بالموت الا كان للحياة نصيب من ازدرائه .

وكان يوم عيد . فقيل لنا ان هذه المدافن كثيرا ما تكون مواخـير للفجور يغشاها الفساق أيام الاعياد والمواسم قضاء للبانات الهـوى بـين العظام النخرة والجثث البالية والذكريات المحزنة ، فقال احد الحاضرين ولعله كان متهكما : هذا حسن ! هذا انتصار للحياة على الموت .... أليست الشهوة من الحياة ؟؟

ولا أدري بعد : لم لا يكون هذا الفجور في المقابر انتصارا للموت

على الحياة ؟؟ أليس هو انتصاراً للدعارة على الخلق الوثيق والطبع السليم ؟؟ نعم وما اقرب الدعارة من الموت وما اضيع الحياة بغير خلق وثيق وطبع سليم .

ارادة الراحة

لو كانت الراحة غرض الحي من الحياة لوجب أن يكون الكسل أصلح حالة يستقيم عليها نظام الجسم ، وهذا خلاف المشاهد فان الكسلان المتراخي تتداعى قواه النفسية والعقلية والجسمية ويهبط شيئاً فشيئا الى الضعة والعته والسقم .فاذا كان قولهم ان المادة تقتفي الطريق المريح صحيحاً في الجمادات فليس بصحيح ان تقاس حركات الحياة على هذا الحكم كما فعل سبنسر ، ولابد من تعديله عند النظر الى الاحياء ، ومع هذا ارى أي قول من الاقوال في بيان المحرك الاكبر للحياة سواء أكان قولهم بإرادة الوجود أم بإرادة القوة أم بإرادة المعرفة أو السعادة أو الاتصال ، خيرا وأشرف من القول بإرادة التطفل التي ذهب اليها « نوردو » غلوا في تطبيق رأي سبنسر . لان الاقوال الآنفة تعين لنا أغراضا نسعى اليها واما قول سبنسر أو قول نوردو فلا يعين لنا الا مهرباً من اغراض شتى . والا فماذا في قولك ان الانسان يريد ان يستريح من العمل او يريد ان يعمل له غيره ؟؟ ثم ماذا يعنينا أن نعلم ان المادة في الانسان خاضعة لأحكام المادة العامة اذا كنا نعلم أن الحياة هي قوة تحرك مادته فتنقاد لها وأن هذه القوة لا تملك زمامها حيال قوى أخرى مجهولة ؟؟ نعم ماذا يعنينا ان نعلم ان الحجر يؤثر السكون وهو لا يملك لنفسه الحركة أو السكون ولا مناص له من قوة تقذف به مرة من المرات لانه لا يقذف بنفسه ؟؟ ان الذي ينبغي أن نبحث عنه هو طبيعة هذه القوة لا طبيعة

الحجر . فهل هذه القوة تؤثر الراحة ؟ كلا فالذي يبني علم الاخلاق على حب الانسان للراحة ويجعلها مرمى كل حركاته وسكناته هو كمن يبني علم « الميكانيكا » على طبيعة الثقل في الاجسام ، لاعلى احكام القوى المحركة لها . وهذا الذي فعله سبنسر ومن حذا حذوه في علم الاخلاق .

حب المرأة

كل اهتمام قوي وشيك ان ينقلب في نفس المرأة الى حب ، حتى الاهتمام بالاحتقار . . . على أن الاحتقار شعور قلما يتفق للمرأة أن تطيل فيه الى أن يبلغ حده . لانها اذا أخذت في احتقار رجل لم يلبث أن يتحول احتقارها الى مقت أو شفقة وبين المقت والشفقة وبين الهوى في نفس المرأة حجاز لا تطول شقته ، ولا سيما اذا كان المحتقر رجلا لبق اللسان بصيراً بأهواء القلوب .

الانانية

اعتاد الناس أن ينظروا الى الانانية كأنها احبولة ينصبها الحي ليصطاد بها الحياة . فلماذا لا ينظرون اليها كأنها احبولة تنصبها الحياة لتصطاد بها الحي ؟؟ اننا نعلم أن الحي لم يطلب الحياة ولم يدعها اليه ولكنها هي التي طلبته ودعته اليها . فالاولى ان تكون هي التي تخدعه بالانانية لتقنعه بانه رابح منها وتضطره الى الصبر على ملازمتها . وليتقرر ذلك في افهامنا نفرض ان الاحياء خلقوا بلا انانية الا تراهم حينئذ يخلعون ثوب الوجود لاول صدمة يلقونها في سبيله ويرونه أهون عليهم من ان يصبروا له على الم او يتعللوا من اجله برجاء ؟؟ واذا فعلوا ألا تكون

الخسارة اذن كونية عامة لا انانية محصورة ؟؟ فالأنانية الصحيحة هي الايثار الاكبر في هذا الوجود . والذي يعمل « لمصلحته » انما يعمل لشيء اكبر منه في الحقيقة ، ولهذا تتقارب الانانية والغيرية في النفوس العظيمة حتى يوشك أن لا يختلفا ولا يمكن الفصل بينهما .

جناية آداب المدنية

كل اضطراب نفساني شديد لا يظهر اثره على العضلات والاعضاء ينقلب الى شعور مكظوم . ومن هنا نرى جناية المدنية على الاخلاق اذ تضطر الناس الى كتمان غضبهم وامتعاضهم فتغرس في نفوسهم الحقد والضغينة وتبدلهم من عدوان الغضب عدوانا هو شر منه واضعف . وعندي ان كظم الغيظ ما لم يكن مظهرا من مظاهر ضبط النفس وغلبة الارادة على الاهواء فهو هزيمة لا انتصار ورذيلة اضطرارية لا فضيلة مختارة .

طلب السعادة

ان طلب السعادة ـ ان صح انه العامل الوحيد في حياتنا ـ لا يفسر في الترفيه عنهم . فلا بد ان يكون هناك غرض آخر وراء السعادة اذا اصطدم بها اهملها الانسان مختارا او مكرها لأجله . وقوام هذا الغرض الضمير .

الرياء والصراحة

بعض الرياء خير من بعض الصراحة . اما الرياء الذي يفضل على

الصراحةفهو رياء من يحس في قلبه مثلا اعلى للاخلاق ويشعر من نفسه بالتقاصرَ عن شأوه فيتجمل بستر عيوبه ليظهر للناس على مقربة من مثله الاعلى . وهو رياء مبعثه حب الكمال وحسن الظن بمستقبل الانسان .

واما الصراحة المذمومة فهي صراحة من لا يرجو للناس املا وراء حاضرهم المحسوس . يرى العيوب فاشية والعصمة معدومة ولا يجد احدا براء من نقيصة ، او مستجمعا لكل ما يحمد من فضيلة ، فيخلع العذار ويجهر بالفجور كانه في حل من اتيان ما يشتهي من منكر اذ كان الناس لا يخلون من مثله ، وهذا خلق اشبه بالرياء منه بالصراحة لانه يجعل قوام الفضائل كلها موافقة الناس ، فلا يشعر صاحبه في قلبه بحب الفضيلة لذاتها ولكنه يحبها اذا وجد حوله من يشاركه في حبها .

فذاك رياء اصحاب الطبائع الصادقة الذين ينظرون بعين البداهة فيعلمون ان للناس على نقصهم الحاضر املا في الكمال وانهم مازالوا يتكملون منذ خلقوا .

وهذه صراحة اصحاب النفوس الناضبة التي تمشي ضمائرها وراء حواسها ولا تسبقها ، فعالمها كله مشاهد محسوس وليس لها عالم مغيب مأمول ؛ وخلائقها تستمد القوة من خارجها وليس لها من قوة دافعة في باطنها .

لهذا لا نعجب من اقتران رياء الانجليز بقوة السليقة في الشعر والدهاء البديهي في السياسة ، ولا نعجب من اقتران الصراحة الفرنسية بالفصاحة المزوقة التي لا عمق لها والجري في السياسة وراء « النظريات » التي تعوزها الخبرة العملية والاصالة الفطرية وتتعالى عن منطق الطبائع الفعال في شؤون الامم على ما فيه من غرارة ظاهرة وبساطة مضحكة .

الكد والترف

ان في الشغل الشاق من البهيمية بقدر ما في الترف والتهالك على الشهوات ، وما اقرب الكادح المستغرق في عمل بدنه من المترف المخلد الى لذاته !! ذاك يحتمل التعب لانه جسد صرف وهذا يخلد الى الدعة واللذة لانه كذلك جسد صرف . فهما شبيهان على بعد ما بينهما في الظاهر . ولذلك يوجدان جنباً الى جنب في المدنية المضمحلة . وكلاهما تنبئك حاله عن روح ميتة لا مطلب لها وراء مطلب اللحم والدم .

الدم المهدر

كان الملوك الاقدمون يهدرون دم من يغضبون عليه فلا يطالب أحد بحقه وهذه العادة باقية . فالعرف اليوم يهدر دم من يخرجون عليه ولا يقرونه على عيوبه ، فاذا حقوقهم كلها مضيعة واذا الاساءة اليهم محللة لمن يشاء . وكانما الناس لا ينتظرون الا الترخيص من العرف ليستجيزوا هذه الاساءة التي لا تجوز .

المذبذبون

اذا كان الرجل خليطا من الشرف والنذالة لم يكد يصنع في الحياة شيئا ذا خطر لان الخلقين يتجاذبانه من ناحيتيهما فيقف في موضعه كالمشلول أو كمن شد الى الحبل بين متنازعين على قوة متقاربة وانما يندفع الى الاعمال الكبيرة من غلب عليه الشرف أو غلبت عليه النذالة .

السخر بالحياة

من الناس من يسخر بالحياة سخر الممعود بالمائدة . ومنهم من

يسخر بها سخر المتخوم المكتظ بطعامها . فالاول بسخر بالحياة لانه لاحظ له فيها والآخر يسخر بها لانه أصاب منها جميع حظوظها . وربما كان الاول افطن الى العيوب وأسرع وقوعا على القبائح المتوارية من صاحبه لان رغبته في اظهار هذه العيوب والقبائح مقرونة بألم السخط والحرمان .

خداع الاغبياء

ان خداع الاغبياء قد يحوج الخادع الى قسط كبير من الغباوة . والا لم يكن سبيلاً الى التفاهم، ولم يتح له التسرب الى جهات الغفلة التي يؤتى المخدوع من قبلها وينفذ منها الى شكوكه وظنونه ومهاد ثقته وطمأنينته ، فالاوربي مثلا لا يتأتى له خداع الزنجي كما يتأتى ذلك لزعيمه الجاهل ، لا لانه أضيق من ذلك الزعيم عقلا وأقصر حيلة . ولكن لانه أوسع منه عقلا وأرفع حيلة . وما يقال عن هذا الزعيم يقال عن زعماء الغوغاء في كل أمة فانهم أقدر على اقناع اتباعهم من أقوى المناطقة حجة وأصدقهم بياناً .

العقل الصحيح

العقل الصحيح في الجسم الصحيح - كلمة حق - ولكن لها تعقيبا يجب أن يتبعها ويتممها ، وهو أن العقل الصحيح والعقل الممتاز ليسا بشيء واحد .

قد يكون العقل صحيحا ولكن غير ممتاز وقد يكون ممتازا ولكنه غير صحيح . ولابد للناس من تصحيح الاجسام والعقول ، ولاغنى لهم عن ثمار العقول الممتازة . فلنطلب كلا منهما فى موضعه ولا نرجح الصحة على

الامتياز اذا كانت لا تغنينا عنه ولا تبلغ شأوه في كل حال .

الطـاعة

الطاعة من دلائل النظام وفضائل الامم القوية ، والامم التي لا طاعة فيها لا يعرف أفرادها الواجب ولا يلتزم أحد فيها حده . اذ الطاعة هي أن يعرف كل انسان حدا لنفسه يلتزمه وحدا لغيره يحترمه ، وحيث لا واجب ولا تبعة لا يكون عمل شريف ولا فضيلة نبيلة . على أن هناك فرقا بين الخوف والطاعة فان الخوف اضطراري والطاعة اختيارية .

الحقائق والشعر

ليس الشاعر مطالبا بالقضايا العلمية ولا بالدقة التاريخية ، ولكن هل هو مطالب بنقض القضايا المقررة ومسخ الاخبار الثابتة ؟ ليس من الضروري أن يقول لنا الشاعر ان (٥ + ٥ يساوي ١٠). ولكن هل من الضروري أن يقول ان (٥ + ٥ يساوي ٨ مثلا او ١٢) ؟ واذا لم يذكر الشاعر في قصيده ان نابليون ولد في سنة ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا فليس من يلومه على هذا الاهمال ، ولكن هل لو ذكر انه ولد في القرن الخامس للميلاد ببلاد اليابان أتراه كان يسلم من اللوم لانه ليس بالعالم الممحص للقضايا ولا بالمؤرخ المحقق للاخبار والاقدار ؟

يجب أن لا يخالف الشاعر ظاهر الحقيقة الا ليكون كلامه اوفق لباطنها ، فاما ان يتخبط في أقاويله يميناً وشمالا مخالفا ظاهر الحقيقة وباطنها ، مدابرا أحكام الحس والعقل والصواب لغير غرض تستلزمه خدمة الحقائق النفسية ، أو تصوير الضمائر الخفية فذلك سخف ليس من

الشعر ولا من العلم .

المذاهب الحديثة

اذا نجم للمذهب أعداء فقد ولدت فيه جرثومة الانتصار لانه لا يثير العداوة إلا القوة ، والقوة تجذب وتدفع .

طرق المزاحمة

طريقتان للمزاحمة في الحياة : أن تجذب مزاحمك الى الوراء فلا تمكنه من سبقك ، وأن تتجاوزه في خطوه فتسبقه . والظاهر أن أولى الطريقتين هي الطريقة الغالبة في بلاد الشرق .

اليأس والأمل

اليأس الكبير خير من الامل الصغير ، ومن العجائب أن الامم الممعنة في الضعف والاضمحلال لا يكثر بينها اليأس فيما تزاوله من شؤونها لان مطالبها صغيرة ، والوسائل الى هذه المطالب خسيسة لا تعجزها، بل هي مما يعين عليه الضعف وفسولة الطبع .

الزهد المريض

قد تمرض النفس فلا تشتهي شيئا فاذا شفيت طلبت غذاءها كما يمرض الجسد فيعاف الطعام فاذا اشتهاه كان ذلك من علامات الابلال .

مزية الخطأ

ان الحيوانات لا تخطىء في أعمالها وانما الخطأ مزية الارتقاء ـ وكلما

عظم الانسان كثر تعرضه للخطأ في أعماله لانها تعظم وتتعدد جوانبها وتتباعد أقيستها فيطرقها الزلل من حيث تداخلها أسباب الكمال .

تنازع البقاء

رجلان دخلهما متساو وبيئتهما واحدة . أحدهما يفقه مطالب الحياة فيربي أبناءه تربية حسنة ويروح عن نفسه ويروض جسمه وعقله ويلتذ جمال الفنون والاذواق . والآخر غبي ثقيل الطبع يدخر ثلثي دخله ولا يفهم للرياضة والمطالب النفسية معنى - أي هذين يصرع صاحبه في ميدان الحياة ؟؟

خطأ المذاهب

مصدر الخطأ في مذاهب الاصلاح الاجتماعي أو الديني أن دعاة هذه المذاهب يبنون مذاهبهم على النظر الى غرض الانسان من أعماله لا الى الدافع الذي يستاقه الى الاتيان بتلك الاعمال ، ولو فطنوا الى قوة سلطان الدوافع وان أغراض الانسان بنت دوافعه في الحقيقة لأصلحوا كثيرا من أغلاطهم النظرية او لالتفتوا على الاقل الى الجهة التي يجب الالتفات اليها والصدور عنها .

الكتب

ان الكتب قماقم سليمانية لا تزال الارواح والوجدانات محبوسة فيها حتى تفك ارصادها فتنطلق من معقلها وتنشب في قارئها فتستعيد حياتها فترة قصيرة في نفسه . ولو كانت تلك الوجدانات والعواطف تجيش في

صدور الكتب كما كانت تجيش في صدور أصحابها لاحرقت صفحاتها زفرات الوله والوجد ، ولسودت وجوهها لواعج الغم والعذاب ، ولأصم الآذان ما ينبعث من أحشائها من التأوه والانين ، وفتت الاكباد ما يرتفع من جلودها من النشيج والحنين ، بل لكان يفزع الناس منها فزعهم من أشباح الموتى . ويهون عليهم أن يمروا بساحة الوغى بعد مقتلة شنعاء ولا يمروا بباب مكتبة .

لذة المطالعة

إننا نقدر الكتاب بما يوحيه لا بما تدل عليه حروفه ومعانيه . وان القارىء وهو يتلو الكتاب قد يؤلف في ذهنه كتابا غير الذي يقرأه ويفهم فيه من المعاني غير ما أراده مؤلفه ولكنه يحسب انه يقرأ كتاب المؤلف وينسب الفضل فيما يشعر به من اللذة اليه ، وربما تناول أحدنا الكتاب الثمين في ساعة ضجره ثم أقفله وهو يتأفف ، ويتناول الكتاب الغث وهو منشرح الخاطر مفتح نوافذ الذاكرة فيرتاح اليه وتتوارد على ذهنه الخواطر والطرف من كنوز الذاكرة المدفونة ، فيثني على الكتاب وكاتبه وانما اللذة لذاته لا لذة الكتاب أو صاحبه ، ومن ثم كان الكتاب لا تعرف قيمته البتة من قراءة واحدة . ووجب على الناقد أن يكرر قراءته في حالي سآمته ونشاطه قبل أن يحكم عليه .

وأذكر أنني أعوزتني الكتب يوما فعمدت الى قائمة بعض المكاتب الافرنجية فجعلت اتصفحها بشوق وتأمل كأنها سفر مفعم بطلي الأخبار وحلو الفكاهة .

وكنت إذا استوقفني اسم كتاب فيها تمثل لي مصنفه وسنحت لي

آراؤه ومواقفه في حياته ولطائف ما يؤثر من نكاته واعماله . فكنت كانني عاشق قديم يراجع اسماء أحبابه فيقف عند كل اسم منها وقفة تسترسل فيها نفسه ويهيم خياله في فجاج الماضي ، فيجمع تاريخ اشواقه في لحظة ، ويستشعر لذة كل قبلة والتزامة ، وغبطة كل نظرة وابتسامة ، ولو أننا نحكم على الكتاب بما يولينا من المسرة والرضى لكان طابع تلك القائمة من أئمة الكتاب في العالم .

كلام الناس

من الناس من يعلم براءتك من وصمة ، فاذا سمع قوماً يصمونك بها صغرت في عينه وهو أعلم بكذبهم وافترائهم عليك .

المكابرة

المكابرة قرينة الضعف في كل حال ، وهي تمويه لا حقيقة ، وحيلة لا قوة ، وتسليم لا مقاومة . وكل الفرق بين مكابرة وتسليم ، أن التسليم صريح واضح ، ولكن المكابرة تسليم مراء يخاف ظهور ضعفه فلا يعترف بنفسه ، مثلها كمثل الدخان الذي يفشيه المنهزم بينه وبين عدوه مداراة لهزيمته ، ومن عكف على أن يقول : لست ضعيفاً لست ضعيفا ، فانما يقول بلسان أفصح وأصدق : لست قوياً لست قوياً ، وما رأيت انساناً يكابر فاحتجت بعدها الى دليل على صغر عقله وضعف نفسه .

شارلي شابلن

عجبت احدى الصحف الفرنسية من الحفاوة التي قوبل بها شارلي

شابلن في لندن وقارنت بين فتور الجماهير قبل أصحاب الفضل عليها من المخترعين والمصلحين وبين شغفها بالمضحكين وتهليلها لهم واقبالها العظيم عليهم ، وضربت الصحيفة مثلا بالطبيب فنسان صاحب لقاح التيفوس فقالت وهي تستغرب ما تقول : ترى لو كان هذا الطبيب بين الجموع المهللة لشارلي شابلن أما كانوا ينحونه عن الطريق ويزورون عنه ليقبلوا على بطلهم العزيز ؟

نقول ليس ذلك ببعيد . ولكن هل من الظلم حقا أن يظفر شارلي شابلن بذلك الاعجاب وأن يحرمه أمثال فنسان في حياتهم ؟ لعمري ان الانسان ليرى شيئاً من العدل في هذه الأطوار التي تشاهد في الجماهير ، فان الممثل الهزلي لن يظفر بعد موته بكثير ولا قليل من الاعجاب الذي هو حقيق به . فمن الانصاف أن يكافأ في حياته هذه المكافأة على اضحاك الناس وتسرية همومهم وتنشيط عقولهم وقلوبهم وما هو بالعمل الحقير ولا القليل الشأن في هذه الدنيا المفعمة بالشواغل والهموم ، والأمر على خلاف ذلك مع فنسان وأمثاله فان ذكرهم لا ينسى بعد موتهم والاعجاب بهم يبقى زماناً وهم تراب في لحودهم . وليس هذا الاعجاب بالعملة الزائفة وانما هو عملة صحيحة مقومة يقبلها كل انسان جزاء لاعماله .

وهناك ضرب من الاقتصاد الشعوري غير مقصود في حركات الجماهير من هذا القبيل . فالطبيب فنسان يفيد بعلمه ولو لم يلق هتافاً وتهليلا ، أما شارلي شابلن فهل تراه يسخو بمواهبه بغير الهتاف والتهليل ؟ أو هل يمكن التفريق بين الوقت الذي يضحك الناس فيه والوقت الذي يهللون له فيه ويهتفون ؟ .

عباس محمود
العقاد

الديوان في النقد والأدب

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فإن كان للسكوت عن الخوض في أحاديث الأدب داع فقد زال ذلك الداعي اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة في أصوله وفنونه : أخصها الأمل في تقدمه ، لالتفات الأذهان الى شتى الموضوعات ، ومتنوع المباحث ، والحذر عليه من الانتكاس ، لاجتراء الأدعياء والفضوليين عليه ، وتسلل الأقلام المغموزة ، والمآرب المتهمة الى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل ، وتوقي تلك العلل ، وهو كتاب يتم في عشرة أجزاء ، موضوعه الأدب عامة ، ووجهته الإبانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة . وقد سمع الناس كثيراً عن هذا المذهب في بضع السنوات الأخيرة ، ورأوا بعض آثاره وتهيأت الأذهان الفتية المتهذبة لفهمه ، والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي وكتابه ومن سبقهم من المقلدين ، فنحن بهذا الكتاب في أجزائه العشرة ـ وبما يليه من الكتب ـ نتمم عملا مبدوءاً ، ونرجو أن نكون فيه موفقين الى الافادة ، مسددين الى الغاية .

وأوجز ما نصف به عملنا ـ إن أفلحنا فيه ـ أنه إقامة حد بين عهدين ، لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما وأقرب ما نميز به مذهبنا أنه مذهب انساني مصري عربي : إنساني ، لأنه من ناحية

يترجم عن طبع الانسان خالصاً من تقليد الصناعة المشوهة ، ولأنه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الإنسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصري ، لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية. وعربي، لأن لغته العربية ، فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت ، إذ لم يكن أدبنا الموروث في أعم مظاهره الا عربياً بحتاً ، يدير بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيدة أصناماً عبدت قبلها . وربما كان نقد ما ليس صحيحاً أوجب وأيسر من وضع قسطاس الصحيح وتعريفه في جميع حالاته ، فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادىء الحديثة ، ووقفنا الأجزاء الأولى على هذا الغرض . وسنردفها بنماذج للأدب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لأقدارها . فإن أصبنا الهدف والا فلا أسف ، وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بياناً .

شوقي في الميزان

توطئة

كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتاً كما نمر بغيرها من الضجات في البلد لا استضخاماً لشهرته ، ولا لمنعة في أدبه عن النقد ، فإن أدب شوقي ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا أهون الهيئات ، ولكن تعففاً عن شهرة يزحف اليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طي الضريح ، ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئاً لسبب يقنعهم ، لم يبالوا أن يطبق الملأ الأعلى والملأ الأسفل على تبجيله ، والتنويه به . فلا يعنينا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة .

وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغداً لولا ان الحرص المقيت ، او الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفاً يستثير الحاسة الأخلاقية من كل انسان ، وذهب به مذهباً تعافه النفس ، فإن هذا الرجل يحسب ان لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء الى أعلى مقاوم السمعة الأدبية والحياة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين ان الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة ان يشتري ألسنة السفهاء ويكم أفواههم ،

فإذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير ، والطبول والزمور ، في مناسبة وغير مناسبة ، وبحق أو بغير حق ـ فقد تبوأ مقعد المجد ، وتسنم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ، وسحقاً للمقدرة والإنصاف ، وبعداً للحقائق والظنون ، وتبًّا للخجل والحياء ، فإن المجد سلعة تقتنى ، ولديه الثمن في الخزانة ، وهل للناس عقول ؟؟ .

ومن كان في ريب من ذلك فليتحققه في تتابع المدح لشوقي ممن لا يمدح الناس إلا مأجوراً ، فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق المنتنة ، نعني بها بعض الصحف الأسبوعية ، وعرف من لم يعرف أنها ما خلقت الا لثلب الأعراض ، والتسول بالمدح والذم ، وأن ليس للحشرات الآدمية التي تصدرها غير فضلات الجبناء ، وذوي المآرب والحزازات ، خبر مسموم تستمرئه تلك الجيف التي تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الأرض ، في بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لاتوا جوعاً ، ، أو تواروا عن العيون . هذه الصحف الأسبوعية ، وهذا شأنها ، وتلك ارزاق اصحابها ـ تكيل المدح جزافاً لشوقي في كل عدد من أعدادها ، وهي لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها في تمحل الأسباب ، واقتسار الفرص ، فإن ظهرت له قصيدة جديدة وإلا فالقصائد القديمة المنسية في بطون الصحف . وإن لم يكن شعر حديث ولا قديم فالكرم والأريحية والفضل واللوذعية . وإن ضاقت أبواب الدعاء والاطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر اخر فيستطال عليه بالشتم ، ويعير بالتقصير عن قدر شوقي والتخلف عن شأوه . وهكذا حتى برح الخفاء وانهتكت الدسيسة .

والعجب أن يتكرر هذا يوماً بعد يوم ، ويبقى في غمار الناس من يحتاج الى أن يفهم كيف يحتال شوقي وزمرته على شهرتهم ، ومن أي ريح نفخت هذه الطبول .

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ، ويعلمون أنها آفة وأي آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقيمها وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصري وصمة ـ إلا شوقي ؛ فإنه يعتدها آلة شرف ، وأحدوثة حسنة ، فهو يغمس نفسه في تقريظها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى أن ينصب عجاجات من أوباشها للتكريم بين الناس : ولو عمدة قرية في مثل ثروته بصر به يمد يده بالسلام الخفي لأولئك الأوباش في خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزى لها ، ويود أن تكتم عليه . ونقول في مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ، ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الإنسانية وشمم أفذاذ العبقرية . فأما أن تكرم البطالة كما تكرم جلائل الأعمال ، وأن يدعى الناس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروءة ، وأن يتنادى الى الاحتفاء بناهشي الأعراض كما يحتفى بمهذبي الأرواح وهداة العقول ، وأن يؤيد نفاية المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور ـ فتلك الهاوية التي لا يبدو قرارها . . . وواخجلة مصر !! من الذي يصنع ذلك فيها ؟؟ شعراؤها ـ الشعراء في كل مصر عشاق المثل الأعلى ، وطلاب الكمال الأسمى ، لا يرضون بما دون غاية الغايات مطمحاً لاعجابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا يزكي شعراءنا من يعد رفق السجانين بهم ضعفاً ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلماً ، واتساع المجتمع لهم رزءاً . . . ألا إنه واللّه للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقي بجمهوره ،

واستخف واستخف حتى لا مزيد ، ما كفاه أن يسخر الصحف سرّاً لسوقه اليه ، واختلاب حواسه ، واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ؛ وحتى يكون الجمهور هو الذي يؤدي بيده أجرة سوقه واختلاسه . وأقسم لو فعلها رجل في أوربا لما قدر ان يمكث بعدها أسبوعاً واحداً في بيئة محترمة ، ولئن لم يعرف شوقي مغبتها أدباً زاجراً وجزاء وافراً يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر ـ ليكونن بلدنا هذا بلداً يجوز فيه كل شيء ولا يؤنف فيه من شيء ، ولا يصد المرء أن يخلع فيه عارياً إلا اتقاء طوارىء الجو وعوارض الحر والبرد ، أما الحياء فلا ولا كرامة .

إن امرأ تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندري مم يستنكف في سبيل بغيته ؛ وأي باب لا يطرقه تقرباً الى طلبته ، والحقيقة أن تهالك شوقي على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ، ورد به كل مورد ، وأذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحاً للتفصيل ، ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ، ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم ، نقول : إن تهالك شوقي على الشهرة قديم عريق ، وقد وجد في مركز أمكنه من قضاء هذه اللبانة ؛ إذ كان أشبه بملحق أدبي في بلاط أمير مصر السابق ، وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط . فكانت لا تبخل عليه بالتقريظ والتهليل ، وتتحاشى أن توسع صفحاتها لنقده ، كما توسعها لنقد غيره .

وأنت إذا قلبت الصحف القديمة رأيت فيها مئات المقالات في نقد الأدباء المشهورين كتاباً كانوا أو شعراء ، ولا ترى اسم شوقي عرضة لمثل ذلك من حملاتها ، واستثن مقالتين أو ثلاثاً بدأ بها المويلحي نقده في

صحيفته « مصباح الشرق » ثم قطع سلسلتها وهذا آدعى الى الريبة .

وكان في أمانة شوقي وموظفين آخرين بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والأدباء ، فكان شوقي يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالأدب ، ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه في الصحف ، ويلغطوا في المجالس بتفضيله وتقديمه ، ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحداً واحداً وأكثرهم أحياء يرزقون .

أضف إلى هؤلاء من يمدحونه لمشاركتهم إياه في العادات الخصوصية والمنادمات الليلية وهم غير قليل .

وأضف اليهم من اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والألقاب فمن هؤلاء من كنت تسألهم ترتيب الشعراء فيقول لك :

أولهم محمود سامي باشا البارودي (لأنه باشا عتيق) ، وثانيهم اسماعيل صبري باشا (لأنه أحدث عهداً بالباشوية والوزارة) ، وثالثهم أحمد شوقي بك (لأنه بك متمايز)، ورابعهم حافظ ابراهيم (لأنه أحرز الرتبة أخيراً) ، ويلي ذلك خليل أفندي مطران (لأنه حامل نيشان) ، فطائفة الأفندية والمشايخ وهلم جرّاً .. كأنما يرتبونهم في ديوان التشريفات ، لا في ديوان الآداب !!! فبذلك وما شاكله اعتاد الناس أن يسمعوا اسم شوقي مشفوعاً بأفخم الألقاب ، غارقاً في صيغ الإطناب والإعجاب ، وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه الا أن تكرر تلك الصيغ في كل مرة يذكر فيها اسمه ففي كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب ، وشاعر العرب والعجم ، وأمير الشعراء ، وسيد الأدباء ، وليت شعري ما ضرورة هذا التكرار كله إن كان مفهوماً بذاته ؟ .

ولما رسخت هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة وأشباه العامة ، ومن يجاملون السمعة والوجاهة ، فتناقلوها وردودها ـ ولم لا يصدقونها ويرددونها وأكثرهم لا يعنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم إنما يعرفه بالسماع ويلقنه بالإشاعة ؟ فإن كان في الأمر موضع للعجب فهو أن تسمع ثناء متكرراً ولا تسمع نقداً ، مع أن الإغراق في الثناء أحجى أن يغري بالمناقشة ، ويكثر من النقاد ، ومتى علمت علة السكوت فقد زال موضع العجب .

وأظن السن قد فعلت فعلها في نفس هذا المعذب بمرض الصيت ، فغلبه الشك وزاده شحّاً وقلقاً ، فأصبح لا يقنعه أن يعلل بالدهان ويؤكد له التفرد والرجحان حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ، فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن الى شهرته شهرة ، وإلا فعقوبة من يرتكب جريمة الإجادة معروفة ! وما أطول عذابه إن لج به هذا الوسواس ! وإن المحنة لتستدر الرحمة ولكن أرحم الناس خليق أن يضحك ممن يخال أنه يعقم بطن الطبيعة ، ويسد الآذان ويضيق رحب الفضاء بالأجرة .

ولو شئنا لاتخذنا من كلف شوقي بتواتر المدح دليلاً على جهله بأطوار النفوس ، فإن الآذان أشد ما تكون استعداداً لقبول الذم اذا شبعت من المدح ، وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النغمة ، وإذا تعود الناس أن يسمعوا ضرباً واحداً من الكلام عن إنسان تاقوا الى سماع كلام عنه من ضرب آخر ، ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة ، وأكبر ذنبه عندها أنها أفرطت في محاباته ؛ فهل يدري شوقي أنه يؤجر أذنابه على النيل منه حين يبذل الأجر على المبالغة في مدحه ؟ إنه لا يدري ولا يبرىء

المريض أن يدري بدائه . وعلى نفسها جنت براقش . فنحن نكتب هذه الفصول ، لنظهر لشوقي ومن على شاكلته عجز حيلتهم ، ووهن أسلحتهم ، ونضطرهم الى العدول عن أساليبهم المستهجنة يأساً من صلاحها في هذه الأيام ، إذ يعلمون أنها لا تعصم من النقد الصحيح ، ولا تموه على الناس أقدارهم الا ريثما تنكشف أسرارهم .

ونقول لشوقي إن سنة الله لم تجرِ بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجري بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر . فإن كان يكربه أن يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ، ولا يشتفي الا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ، ولا أبرد عليها وغرة قيظها ، وإنه ليلذ لنا أن نكون نحن حربه وبلاءه ، وأن نستطيع الإدالة للحق من الباطل في غرض من الأغراض ، فإنها لذة نادرة في هذا العالم .

وإنه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فإن أبلغ ما يكون العيب اذا كان فاشياً ، وأضر ما يكون إذا كان متخذاً نموذجاً للاحسان ، وقياساً للإتقان . وليس قصارى الأمر أن يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن إنها قصيدة رديئة فإن الذوق والتمييز اذا اختلا لم يكن اختلالهما في الأدب وحده .

وأنت إذا استطعت أن تهدي الطبقة المتأدبة من أمة الى القياس الصحيح في تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح في كل شيء ، ومنحتهم مالا مزيد لمانح عليه . وإن الأمم تختلف ما تختلف في الرقي والصلاحية ثم يرجع اختلافها أجمعه الى فرق واحد : هو الفرق في الحالة النفسية ، أو بالحري الفرق في الشعور ، وفي صحة تمييز صميمه من

زيفه اذا عرض عليها فكراً وقولاً ، او صناعة وعملاً . فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر المحدود ، أو المقصور على القشور ، ولكنه من أعم أنواع الاصلاح وأعمقها .

وسنتناول شعر شوقي قصيدة قصيدة ، أو معنى معنى ، حتى نتبين الأثر جلياً في تحول الآراء ، وسلامة القياس ، وسيرى القراء أننا نغلظ له البلاغ ونصحه صحّاً شديداً وكذلك ينبغي أن يجزى الزيف والدسيسة ، والاستخفاف بالعقول ، والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الأفواه وتسخير المأجورين .

على أننا لا نحتاج ان نقول ان ذلك ليس بمانعنا اعتزام الحق ، والتزام الصواب ، وفي غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارىء ليقتنع بما نقول فإننا لا نسأل أحداً اقتناعه ، ومن كان يحتكم برأيه الى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه ، فما تعودنا أن نوجه لمثله كلاماً وإنا لبادئون .

رثاء فريد

أصاب شوقي حين قال إن قصيدته في رثاء فريد من خيرة قصائده . فإنها في مستوى أحسن شعره الأول والأخير ، وهي صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهتف لها المخلصون من المعجبين به ، والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجراً في بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذي كان يشتهر به الشاعر في تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضي عهد

ركاكة في الأسلوب وتعثر في الصياغة تنبو به الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق الى جملة مستوية النسق ، أو بيت سائغ الجرس ، فيسير مسير الأمثال ، وتستعذبه الأفواه لسهولة مجراه على اللسان ، وكان سبك الحروف ورصف الكلمات ومرونة اللفظ أصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الأساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة ـ فإذا قيل إن هذه القصيدة يتلوها القارىء « كالماء الجاري » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . وإذا اشتهر بالإجادة فليس للإجادة معنى عندهم غير القدرة على « الكلام النحوي الحلو » وهذه هي قدرة شوقي الذي مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هي مزية قصيدته في رثاء فريد وفي أحسن قصائده .

مضى الجيل الفائت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة . والرسائل الرصينة ، وأخرجت المطابع مئات الكتب التي صاغها اكبر كتاب العرب وشعرائهم ، وانتشرت الصحف ، فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » ، وترجمت الأسفار الافرنجية او اطلع عليها الناشئة في لغاتها ، فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفني والأدبي ؛ وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت على الأسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال ، فتعود القارىء أن يبحث عن المعنى ، بل لا يكفي القارىء المطلع ان يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله ؛ فمزية شوقي عند هذا الجيل الناشىء من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لتبحث عما وراءها .

ولهذا انطلق يلقي اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لها رنة ذلك الصدى . وطفق أذكياء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة في ذيل

قصيدة فيعجبون لتغيره . اغتراراً بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا أصاب شوقي ؟ » ويغالط قراؤه الأقدمون أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيراً من هذا الشعر ، وقد يعزون الاختلاف الى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ، ولو كلفوا أنفسهم مئونة المقارنة بين قديمه الذي يعجبون به على الذكرى ، وحديثه الذي يغصبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون ـ لعرفوا موضع وهمهم ، ولعلموا أن شوقي الأمس هو شوقي اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب في ذلك ولا في بقائهم على إحلال شوقي محله الأول مع انحدار شعره في نظرهم فانهم يرون منزلة شوقي بالعادة التي لم تتغير منذ قدروه للمرة الأولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذي نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمد شوقي في مكانه لأنه جعل اطراء الناس غايته ، فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطاً للنمو . ثم لا تنس ان القارىء يرتقي في الاختيار أضعاف ما يرتقي الشاعر في الأداء والابتكار . وقلما يرتقي الشاعر بعد الأربعين فإن أخصب أيام الشعر أيام الشباب . وإذا ارتقى فانما يكون ذلك باحتثاث الطبع ، وإدمان الاطلاع . والتزيد من المعرفة ، وشوقي لم يجد من نفسه ولا من الناس داعياً الى ابتغاء المزيد ، وقد علم أصحابه ان زاده من القراءة لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد أحس شوقي بالتغير من حوله فآده أن يستدركه ، وأعيته الزيادة في سن التقهقر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزاد ترويج السلعة كلما

خيف عليها الكساد ، ولما سئل عن غرضه من قصيدته في فريد ، وقرىء له في نقدها ما لا يحب بهت على ما سمعت ، وقال : تلك قصيدة أردت بها الكلام في فلسفة الموت .

فلننظر اذن فلسفة الموت التي استنبطتها حكمة شوقي . .

تعود أيها القارىء الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين إلا كل ما هو أخس من بضاعتهم وأبخس من فلسفتهم : كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز ، إذ ينادون في الأزقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ، الذي عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئاً التقاه » إلخ إلخ .

تلك أقوال الشحاذين ، وهذه أقوال (أمير الشعراء) :

كل حي على المنية غاد ... تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الأولون قرناً فقرناً ... لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم ... غير باقي مآثر وأيادي

إلخ . . إلخ . .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار ، ونزع فيه الى الاستقلال بالرأي ، فمعناه أحط من ذلك معدناً ، وأقل طائلاً ، وأفشل مضموناً ، والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق التمرينات الابتدائية : « كالزبيب من العنب » و « ٢ + ٢ = ٤ » وهلم جرّاً . وأكثره أتفه من هذه الطبقة . فالقصيدة إما بيت حذفه واثباته سواء ، أو بيت حذفه أفضل ، مثل إخباره بأن جر النعش في مركبة أو حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زيدت جلالاً منذ كانت، ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذي ما أحسب أحداً يمر بقبر فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيبة في نفسه هزءاً وعبثاً . وذلك حيث يقول :

كل قبرمن جانب القفر يبدو علم الحق أو منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقي الأخروية : « إنه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموت الى طريق الآخرة ، لئلا يضل أحدهم النهج ، أو يصطدم بصخرة في دروب الموت ! » ومثل تحذيره الناس من تربص الأجل بهم أيقاظاً ونياماً ، كأنما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهوة :

وعلى نائم وسهران فيها أجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تيئيسه من رجعة الميت الى أهله ، وتخطئة الذين يزعمون غير هذا الزعم ، يقول ذلك بلهجة العارف لما يجهله غيره ، كأنها مسألة خلافية طال فيها الجدل ، وانشطرت عليها أحزاب الفلسفة ، ولم يفرغ الناس يوماً من بحثها وتقليب وجوهها ، والتنقيب عن أسانيدها وشواهدها حتى جاء شوقي ففض الخلاف ببيتيه هذين :

سر مع العمر حيث شئت تئوبن وافقد العمر لا تؤب من رقاد
ذلك الحق لا الذي زعموه في قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان أهل الميت اذا مات في برلين أو لندن أو الهند لا يزالون يترجون يوم أوبته ، ويعدون أيام غربته ، وكان العلماء في كل

قطر وبلد يتساءلون : أفمن مات غريباً عن دياره ، أيؤوب إلى أهله يوماً ناضر الصفحة ، متهلل الجبين ، ممتعاً بالعافية ، أو لا يؤوب ؟ فكان فريق منهم يقول : « نعم » ، وفريق يقول : « بل لا » ، إلى أن جاء شوقي فأفتى فتواه الجازمة ، وقال « بل لا يؤوب » فانحسم الاشكال وقطعت جهيزة قول كل خطيب .

قال ناقد أديب : إن الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه قائل المثل العامي : « اعطني عمراً وارمني في البحر » وإنه كان أسوأ منه تعبيراً وأقل ظرفاً ، إذ يخاطب القارىء بقوله : « أفقد العمر » وذلك العامي يتلطف أن يجبه الناس بهذا الخطاب. ونقول: إن توارد الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فإن من يتجشم لأجل الانسانية أن يغوص على هذه المسائل العويصة ، ويسهر الليالي في فض مغلقاتها وحل مشكلاتها ، لحقيق بأن يتجاوز له الناس عن حسن المخاطبة ولا يكلفوه أن يأبه لمثل هذه الهنات !!

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل أبيات شوقي التي لم يرد في فلسفة الشحاذين مثلها ، فمن هذه الأبيات نبأ عجيب فحواه أن في العالمين نعشاً واحداً تنقلهم أعواده من عهد عاد :

تستريح المطي يوماً وهذي تنقل العالمين من عهد عاد

فإن لم يكن يعني هذا ويزعم أن الأمم لا تملك منذ وجدت غير نعش واحد تنقل عليه موتاها فسبحان من يعلم مراده . وإلا فإن كان يعني أن هذه الخشبة التي ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى وتجدد ـ فأي شيء لا يمكن أن يقال فيه ذلك ؟ أية مطية تنقل العالمين من عهد عاد كما

ينقلهم النعش ، وما بال أي انسان لا يقول اليوم أو بعد مئة جيل انه ركب مركبة فرعون ونام على سرير قيصر ؟

ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجاناً وطوت من ملاعب وجياد

شاعر عصري ولا شك ! ألا تراه يدين بكروية الأرض ؟ ولكننا نخشى أن لا يكون شوقي قد ذكر الكرة الا ليذكر بعدها الصولجان والملاعب والجياد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منه . فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟ إن الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة ، لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها . وأنت إذا نقلت هذا البيت الى أية لغة لم يكن معناه الا هكذا : « هذه الغبراء أسقطت من أيدي الملوك قضباً كثيرة .ودمرت ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وأبادت خيلاً لا تحصى » ـ فما أشبه الحكماء بالمرورين إن كانت ثرثرة كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة ، ويقول :

تطلع الشمس حيث تطلع صبحاً وتنحي لمنجل حصاد
تلك حمراء في السماء، وهذا أعوج النصل من مراس الجلاد

اليوم لا تخشى بغتة الأجل في كل حين !! فالشمس لا تضرج بدم قتلاها الا حيث تطلع صبحاً (أي حين تطلع حمراء وفي السماء . أما إن طلعت في الأرض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلاً حصاداً إلا في أيام الأهلة او المحاق ، وفيما عدا هذه الأويقات لا قتل ولا حصاد ، فمن مات ظهراً أو عصراً أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا تصدقوه فإن موته باطل . .

ألا إن شعراً يسف الى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب الا زغل الصناعة لا جزى الله صانعيها خيراً . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ، ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به ، كأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية ، وكأن الناس فقدوا قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو اعوج معقوف ، فطلبوا له شبهاً ، وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسي ، لأنه لن يهرب يوما فنقتفي أثره ، ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه ، وإن كان لا بد من التشبيه فلنشبه ما يبثه في نفوسنا من حنين أو وحشة او سكون أو ذكرى ، ففي هذا لا في رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر ، طلبوا ذلك الشبه فقال قوم : هو كالخلخال ، ثم رأوا أن لا بد للخلخال من ساق فقالوا : هو في ساق زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشببوا بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الأوهام ، وافتن قوم فقالوا : هو كالمنجل ، ثم التمسوا له شيئاً يحصده ، فقال ابن المعتز :

أنظر الى حسن هلال بدا   يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة   يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل ، وقد صيغ من فضة ، وهو يحصد النجوم ، والنجوم نرجس ؛ ولا حصد هناك ولا محصود ، فماذا وراء هذا كله ؟! هذر في هذر . وجاء شوقي فقال إنه منجل يحصد الأعمار فأخطأ حتى التشبيه الحسي ، لأن الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب ، وأما سائر الأيام فلا يكون فيها القمر منجلاً في شكل ولا في حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الأرض :

والغبار الذي على صفحتيها   دوران الرحى على الأجساد

وذلك من قول أبي العتاهية :

الناس في غفلاتهم   ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ، ولا بأس بهذا التمثيل ، وافترض للطحن رحى ، وجعل المنية الطاحنة . فبلغ حدّاً لا يحتمل بعده الاستطراد ، فعز على شوقي إلا أن يكون لهذا الطحين غبار ، وأن يكون الطحين كله غباراً ، وأن يكون الغبار هو دوران الرحى ، عند هذا يركد العقل ويجم الكلام .

ولم أفهم البيتين الآتيين بعد قوله : « تلك حمراء في السماء إلخ » .

ليت شعري تعمدا وأصرا   أم أعانا جناية الميلاد ؟
كذب الأزهران ما الأمر إلا   قدر رائح بما شاء غاد !!

يعني الشمس والقمر ، فما التعمد والإصرار ؟ وما إعانة جناية الميلاد ؟ وما الفرق بينهما ؟؟ أيريد أن يطبق على الأزهرين المادة القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق إصرار ؟؟ وفيم كذبا ، وكيف يكون جريان الشمس والقمر في حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما نفياً للقدر الرائح الغادي ؟؟ وهل التعمد والإصرار وإعانة الميلاد الا رواح القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم في ذلك على شاعر الإنس والجن فلعل هذه من أبياته التي صنعها لإخواننا الجن واختصهم بها دوننا .

ويقول في نعش فريد أو حقيبة الموت كما سماه :

لـو تركتـم لهـا الزمـــام لجاءت وحدهـــا بالشـــهيد دار الرشاد

أما دار الرشاد فهي مصر كما قالت القافية ، لا كما أراد شوقي ولا كما أراد التاريخ والأثر . وأما معنى البيت ، فيقول شوقي : إن نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسعى وحده الى مصر !! فلله ما أقدر رائي الشموس على إحالة الجليل مضحكاً والتقديس زراية : نعش يسعى وحده في البرور والبحار ويجوس خلال المدائن والديار يعتدل وينعطف ويمضي ويقف ، حتى يستقر ملهما عند قبره ، جاداً لا يلوي على شيء قبل بلوغه ، والناس متنحون عن طريقه ، تاركيه يتهدى لطيته . . . أفمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والإجلال ؟؟ ألا ساء ما أصاب ذكرى الرجل من إجلال شوقي ، أراد أن يقول كما قال البحتري :

ولـو أنَّ مشتـاقـاً تكلَّف فوقَ ما في وسعـه لسعـى اليـك المنبر

فكبا كبوة حاطمة .

ولقد طمح شوقي الى معارضة المعري في قصيدة من غرر شعره لم ينظم مثلها في لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا في شعر الغرب على خير منها في موضوعها . والمعري رجل تيمم هذه الحياة محراباً ، واجتواها غاباً ، وصدف عنها سراباً ـ لابس منها خفايا أسرارها ، واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غوابر آثارها وحواضر أطوارها . فإذا هو نظم في فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله وتلك سبيله . وأين شوقي من هذا المقام ؟؟ إنه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره ، وأعمق ما هبط الى نفسه من آلامها إعراضة امير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر في فلسفة الموت والحياة .

ولكي لا يسبق الى وهم شوقي اننا نكبر قصيدة المعري تعصباً للقديم ، وإيثارا للعرب على العجم ـ نلقي اليه ها هنا درساً في الشعر قد ينفعه .

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء ، لا من يعددها ويحصي أشكالها ، وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبه. ، وإنما مزيته ان يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا في أشواط البصر والسمع . وإنما همهم ان يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم في نفس إخوانه زبدة ما رآه وسمعه ، وخلاصة ما استطابه أو كرهه ، وإذا كان كدلك من التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أشياء حمراء أو خمسة بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان ، فإن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس الى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه . ولهذا لا لغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً ، وكانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه . لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآةالنور نوراً ، فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليك من الشعاع فتضاعف سطوعه ، والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجوداً إن صح هذا التعبير . ويزيد الوجدان إحساساً بوجوده . وصفوة القول ان المحك الذي لا يخطىء في نقد الشعر هو

إرجاعه الى مصدره : فإن كان لا يرجع الى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حيّاً ووجداناً تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية الى الدم ونفحات الزهر الى عنصر العطر ـ فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما إخال غيره كلاما أشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فإن تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعري التي اجترأت على معارضتها .

نظر المعري الى سر الموت فلم يره في مظهره الضيق القريب ، حادثاً متكرراً تختتم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة العميقة . رآه كما بدا منذ القدم لبداثه الحكماء وأصحاب الأديان ، وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس وماني : حرباً سَرْمَدِيّة قائمة بين قوتين خفيتين ، ميدانهما كل نفس حية ، وكل ذرة في طباق الأرضين وأجواز السماوات ـ هاتان القوتان هما الخير والشر ، أو هما النور والظلام ، أو هما الحق والباطل ، أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، وأعوان لا تني تقبل وتدبر ولا تتمهل ، والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغداً ، ولتشهدنها الى ختام الزمان إن كان للزمان ختام .

نظر المعري الى العالم الأرضي فلم يكن سريراً محتضراً ما رأى ، ولا نحباً مقضيّاً ما أحس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائماً في كل كيان قائم ، متقادماً في كل ركن متقادم :

كل بيت للهدم ما تبتني الور   قاء والسيد الرفيع العماد

وعلم أن القوتين اللتين هذا أثر نضالهما في الأرض فاعلتان هذا الفعل لا محالة في أشرف كواكب السماء وأسماها وأضوأ عوالم النور وأذكاها :

« زحل أشرف الكواكب داراً   من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حدثان الد   هر مطفٍ ، وإن علت في اتّقاد
والثريا رهينة بافتراق الشمـ   ـمل حتى تعد في الأفراد»

لا ، بل رأى الكون[1] والفساد متصاحبين متلاحقين في كل حال :

« واللبيب اللبيب من ليس يغُتر   بكون مصيره للفساد

وكانت العبرة التي استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمد ، فوق أفراح الإنسان وأحزانه ، ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :

« غير مجدٍ في ملتي واعتقادي   نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعيِّ إذا قيـ   ـس بصوت البشير في كل ناد »

وإذا ذكر متاعب الحياة فكأنما يذكرها ليصرفها عنه بنظرة القانط المستخف فيقول :

«تعب كلها الحياة فما اعـ   ـجب الا من راغب في ازدياد
إن حزناً في ساعة الموت أضعا   ف سرور في ساعة الميلاد
أسفٌ غير نافع ، واجتهاد   لا يؤدي الى غناء اجتهاد »

---

(١) الكون هنا وفي البيت مصدر « كان » بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم .

كذلك كان إحساس المعري بسر الموت ، وهو أوسع إحساس قدر لبشري أن يحسه من ذلك السر الرهيب .

أما أنت فقد نظرت فماذا رأيت ؟؟ لعلك أدرى بما تنظر وترى ، ولكنا نقول لك ما لست تدريه . إنك لم تر شيئاً يحتاج الناظر في رؤيته الى غير الحواس ـ إنك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد » حيث يسوي المعري بين وكر الورقاء ومعاقل العظماء ، وبين منازل الأرض ودارات السماء . أردت ان تعمم كما عمم ، ففاتك مغزى تعميمه ، وجئت بكلام لا لباب له ، ولا ترضى قشوره ، إذ ما علمنا بين الحضر والبدو من فرق في التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما في حكم الموت . وإنما يقولون « هذا خبر سمعه الحاضر والبادي » لأن أحدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار أو انقطاع الأخبار ، ويقولون « يتسابق اليه الحاضر والبادي » لمثل هذا السبب . وأما قولك يموت من في الحاضرة والبادية فكعدك الناس اسماً اسماً ، وقولك عن كل واحد إنه يموت ، وعلى أنه لو صح أن يقال هذا فأي فضل فيه لغير الحواس ؟ وأي دليل فيه على اللب الحكيم والطبع القويم ؟؟ وتقول في القبر : إنه منار المعاد :

وزمام الركاب من كل فج ومحط الرحال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق في هذا الحكم ؟؟ وتقول :

وعلى نائم وسهران منها قدر لا ينام بالمرصاد

وهذا كذاك بل أضعف ، أما قولك :

لبد ساقه الردى وأظن النسـ ـسر من سهمه على ميعاد

فما أحسبك تدعي فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .

وإذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمدنا الى مقارنة الأبيات المتشابهة في القصيدتين ألفيناك تخطىء في كل بيت تسرقه من المعـري ، أو تأتـي بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .

المعري يقول :

رب لحـد قد صار لحـدا مرارأ ضاحـك من تزاحـم الأضداد
ودفـين على بقـايا دفين في طويل الأزمـان والآباد

وليس أجل ولا أصدق من هذا الشعر ، وإن تعبيره عن تعاقب الدفين بعد الدفين في الموضع الواحد بتزاحـم الأضـداد ، وقولـه : إن اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام - لأبلغ ما ينطق به اللسـان في وصف تهكم الموت بالأحياء ، وعبث التزاحم على الحياة ، ويسلط اللّه عليك نفسك فتسول لك أن تحاكي هذه المعجزة البيانية بقولك :

هل ترى كالتراب أحسن عدلاً وقيامـاً على حقـوق العباد
نزل الأقـوياء فيه على الضعـ ـفـى، وحـل الملـوك بالزهاد
صفحـات نقية كقلـوب الر سل مغسولـة من الأحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم أحسن صيانة لأنه يبيدهم جميعاً !! فبحقك يا هذا ، كيف يكون تضييع الحقوق ؟؟ وما الذي لقيه أضعف العباد من أقواهم وأظلمهم أشد من هذا الإنصاف والصيانة ؟؟ ويخيل اليك أنك ابدعت حين قلت : إن الملوك يستضيفون الزهـاد في

التراب ، وهذا من فضائل المـوت !! فهل تعني ان الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟؟ فإن كنت لا تعني ذلك فقد قلت ما تعلم أنه خطأ ، وقلته لغير غرض ـ أما المعري فقد أحاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئاً من الصدق أو بلاغة الأسلوب حين قال :

وعــزيز على خلــط الليالي رام أقدامــكم برم الهوادي

وهذه هي البلاغة الجادة التي لا لعب فيها .

وعندك أن طهارة القلب هي موته . فإذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيّاً مغسولاً كقلوب الرسل . أفليس من موت القلـب أن لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟؟

يقول المعري :

خفف الـوطء ما أظـن أديم الأ رض إلا من هذه الأجساد

وأنت تقول :

والغبــار الذي على صفحتيها دوران الرحــا على الأجساد

المعري يسأل :

أبــكت تلــكم الحمامــة أم غنْـ ـنَـت على فرع غصنهــا المياد

وأنت تأبى أن لا تكون لقصيدتك حمامة تغني وتبكي فتقول :

ضاق عن ثكلها البـكا فتغنت رب ثكل سمعتــه من شاد

ثم يروقك وأنت تباري المعري مباراة المضحكين أن تزعـم لمن حولك ولنفسك أنك نظمت في فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة في آية من آياته !!

على أنك قد تعذر بعض العذر في قصورك من هذه الناحية لأنك مجبز فيه لا مخير . أما الأمر الذي لا نعلم لك منه عذرا فأن ترثي رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضاً ، وأن لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس . ولو كان ذاك لضيق في مضطرب القول، أو لنقص في بواعث الأسى على الرجل لما خفي تعليله ، ولكنك تعلم كما نعلم أن مصر الحديثة لم تنجب من دعاتها رجلاً لقي في حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن ويطيل مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك في قضاء حقه وتوفية قدره لا يكون الا لعجز أو كنود ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلإحنة لا تزال تغلي في نفسك على الرجل بعد موته . وأنت بأسبابها أعلم .

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق أن يقصد المرء المدح فيقذع في الهجاء ، أو ينوي الذم فيأتي بما ليس يفهم منه غير الثناء . وأشد من ذلك إيغالاً في سقم الذوق ، وتغلغلاً في رداءة الطبع ـ شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو في موقف التأبين والرثاء والعبرة بالفناء .

ولست أدري أي ماجن من نظّامينا قال هذا البيت في رثاء إحدى القيان :

رحمة العود والكمنجا عليها وصلاة المزمار والقانون

ولكن لا ريب أن قائله ـ مهما سمج منه الهذر في مثل هذا الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بفن الغناء وأقدار ذويه ـ أسلم ذوقاً في بيته هذا من شوقي في رثائه لعثمان غالب ، لأنه تعمد الهزل فقاله ، وما كان شوقي كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء :

ضجت لمصرع غالب في الأرض (مملكةالنبات)
أمست (بتيجان) عليه من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لغيبته، وأقعدت الجهات!!
في مأتم تلقى الطبيعة فيه بين النائحات
وترى (نجوم الأرض) من جزع موائد[1] كاسفات
و (الزهو) في (أكمامه) يبكي بدمع الغاديات
حبست (أقاحي) الربا والعهد فيها مومضات!
و (شقائق النعمان) آبت بالخدود مخمشات

بل مما لا مراء فيه أن صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء وبر بوعده لنفسه ، واغتبط بما دب عليه من المعاني الدقيقة ، والنكات الأنيقة . . . لأنه استطاع أن يذكر الزهر بمناسبة ولو في غير موضعها ، ولعمري كيف يكون شاعراً من لا يذكر الزهر أو الثمر كما يذكر العابد الله ، والعاشق ليلاه . يذكرهما في غضبه ورضاه ، وفي لهوه وبلواه ، وفي فرحه وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته وكراه ، ويذكرهما حين يذكر الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينةالآهلة ، وحين يروي عن النعمة السابغة ، أو يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة ؟ وكيف يكون مطبوعاً على الفن ، مدلها بفتن الجمال ، من إذا وصف الجثة الحائلة لم يقل انها صفراء كالأقحوانة ، أو المتميز من الحنق لم يحسب انه يتفلق كما تتفلق الرمانة ، أو المتدلي من المشنقة لم يره أنه يهتز اهتزاز البانة ، أو قطع الرقاب ـ والعياذ بالله ـ لم يشبهه بقطف الريحانة ! وشوقي لم يوف بهذا الغرض فحسب ، بل أرانا أن الأزهار لا تجري على

---

(١) موائد جمع مائدة أي مضطربة .

سنن المجاملة في النواح ، فعل النساء ، وإنما تحزن على من هي غرس يده ، وجنى معرفته ، ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلاً بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة ان تريق دمعة أسفاً لفرقته ، وإنما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والذوق المليح ؛ فكان يجعل اسوداد الفحم حداداً عليه ؛ وصلابة الحديد جموداً لهول المصيبة فيه ، وكان يجعل اصفرار الذهب وجلاً ، واحمرار النحاس احتقاناً ، ولين القصدير ذوباناً ؛ إلى آخر ما هناك من ألوان العذاب التي تلم بالمعادن الصلاب . ولو كانت النكبة في عالم « جيولوجي » لما قال شيئاً من ذلك ؛ بل كان يقول ـ مثلاً ـ إن الطبقة الرملية في ناحية كذا تحثو التراب على رأسها فزعاً وزعباً ، وإن الطبقة الجيرية في موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وإن هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض او تزلزل بها الكمد ؛ وناهيك ما كان يقول لو نفذ القضاء في شاعر جليل فإنه ـ أبقاه اللّه ـ لن يقنع بأقل من إلحاق الزحاف والإقواء والخبن والسناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت ، أو تقال ، من يوم خلق الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذي ألحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون . وأي تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر الندابة في صهيل الخيل ، ومواء القطط ، ونهيق الحمير ، وعواء الكلاب ، ونقيق الضفادع ، لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات او صاغة الكلام ؟؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه ، فإننا ان احتملنا حداد الألوان والأشكال فلن نطيق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن واأسفاه !! لا بد من التضحية ، لا بد من الفقدان والخسارة في هذه الدنيا الفانية !! وليس من السهل أن يقول الانسان : إن الأشجار قامت على « ساق » وأقعدت الجهات الست التي ما برحت

قاعدة في مكانها منذ الأزل ، وليس من الهين ان يحشر الطبيعة « لا أكثر » في مآتم تكون فيه احدى النائحات « فقط » ولا من اللعب أن يصل في كل ساعة الى إبكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار ـ ولا سيما النفيسة منها ـ كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل . ولكي يقول الرجل الفاني مثل هذا القول ، ويهبط الى قرار هذه المعاني العميقة ـ لا غنى له عن التضحية بالذوق السليم ، والوصف الصادق ، والتخيل الصحيح ، والشعر الجدي ، والشعور القوي ، وهذه كلها ضحى بها شوقي على مذبح فنه ، فما تأوه ولا صرخ ، ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقي ولا مبالاة . . . تقول : ولكنه مع ذلك كان سخيفاً غثّاً ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . ونقول : هذا صحيح ، ولكنه قال ما أراد أن يقول ، وتفنن وروى .

أجل !! إنه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذي يرثيه أولئك السذج البلهاء ، الذين يحسبون الاخصائيين اذا ماتوا فجعوا احداً غير المواد التي تفرغوا لدرسها ، وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا اودى احد اولئك الاخصائيين اسفوا ، ووصفوا اسفهم هم عليه « مباشرة » ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة ، وعلى غارب السنجاب تارة اخرى ، أو يكلوها الى الطبيعة كلها بأرضها وسمائها وأمواتها وأحيائها ، ويجعلوا النفس الانسانية ؛ أو نفس المصاب بالبلية ـ آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز !!

ولقد كنا نود ان نقف عند هذا الحد في الإبانة عن براعة شوقي وافتنانه ، والإشادة بخلابته وبيانه ، لو لا أن آثرنا أن لا يفوتنا سؤاله عن

أنواع من النبات لم يسمها في تلك المناحة التي أقامها ـ ماذا كان من شأن القطن بأصنافه ؟ وماذا صنع القمح والشعير ؟ بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والقثاء في ذلك المأتم العميم الذي كانت الطبيعة فيه احدى النائحات فقط ؟ إنه سكت عن هذه الأنواع وغيرها ، فهل ذاك لأنها لم تكن من أتباع النباتي الكبير ؟ أم لأن من خواص تلك الأنواع التي يعلمها الشعراء ويجهلها النباتيون أنها مضيعة للعهد ناكرة للجميل ؟ أم لعلها لا تنتمي الى عالم النبات ، وإن ردها الناس اليه ، كالمرجان يحسبه قوم نباتاً ، ويحسبه آخرون جماداً ، وهو من عالم الحيوان ؟ أم هو الصدق في الخبر والأمانة في التبليغ أوحيا أليه ما قال ، فذكر فريقاً وسكت عن فريق؟ رأى الرجل الأقاحي باهتة ذابلة على غير عهدها ، وأبصر شقائق النعمان تخمش خدودها فأبرأ ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئاً ، فربأ بشعره عن شهادة الزور والتخرص ، وسجل عليها ما سجل من جمود الطبائع وقسوة القلوب ؟ تلك اسئلة ما كنا نسألها لولا اهميتها وخطورتها ، ولولا اننا تعلمنا منذ الآن أن نرقب أعين كل جامد ونابت وحي ، حاشا الإنسان ، تعرفاً لجلائل الأنباء ، واستطلاعاً لخفايا الحوادث قبل ان تنبض بها أوتار البرق ، ويطير بها النجابون ، ولولا أننا عرفنا ماذا ينبغي ان تحذر الأمة من موت الأخصائيين من رجالاتها ، وأنها مسؤولة ان تضن بأرواحهم مخافة ان تمتقع نرجسة او تسود فحمة . .

انتقل شوقي من رثاء العالم النباتي الى رثاء العالم الطبيب ، فقال مفصلاً منقساً :

أما مصاب الطب فيـ ـه فسل به مَلأ الأُساة

أودى الحِمامُ بشيخهم ومآبهم في المعضلات
ملقى الدروس المسفرا ت عن الغروس المثمرات

والقارىء يرى أنه لم ينح نحوه الأول . وما كان ذلك - بلا ريب - استهجاناً له ، أو توبة عنه ، وإنما خانته القريحة ، وخذله الاختراع ، وإلا فماذا كان يمنعه من أن يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة - مثل هذه الأبيات :

طربت لمصرع غالب في الأرض رسل الحمياتِ
قد مات (غالب) جندها فتمردت بعد (المهات)
أمست جراثيم الملار يا من سرور (ظاهرات)
وتفرق التيفوس والتيفود في كل الجهات
وتألب المكروب والـ ـبكتريا بعد الشتات
وبكت قوارير الصيا دل بالدموع السائلات

فهذه أبيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا فليقل لنا فيم أخطأنا المحاكاة ، وخالفنا الاحتذاء . ونددنا عن القياس ولكأننا بصاحب « الامتياز » الأصلي يعض بنابه ندماً على فوات هذه التتمة الصالحة ، فإنه ليس أغص للنفس من فرصة يلوح تأتّيها بعد معالجتها واليأس منها . .

كذلك يؤبنون يا من خلقتهم ، فكيف تراهم يتهكمون ؟؟ وأما واللّه لو توخى هذا الذي شمر لتأبين « عثمان غالب » أن يمازح الرجل بكلام يعرض له فيه بعمله وصناعته ، مسترسلاً في الدعابة ، مستهتراً بالمجون ، متبسطاً في الفكاهة - لما استطاع أن يضرب على أوقع من هذه النغمة . فليت شعري بأي ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين

تباعد القطبين؟ . أبذوق الشاعر المفطور الذي يميز بين شبهات السرائر، وهجسات الضمائر، والذي لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟ يقولون : إن أذن الموسيقي المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ، ولو قلنا : إن فطرة الشاعر ينبغي أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس المتوشجة المتنوعة لما اخطأنا ، فما ظنك بأمير الشعراء لا يميز بين احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان ـ أحدهما لا تحسه النفس الا في أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط والانشراح . والثاني إنما يخامرها في أقدس مواقف الموت وأجلها : موقف تمجيد العظيم الراحل ، والعظة بسيرته . . ! ألا هكذا فليمت الاحساس النبيل الصادق ، وإلا فلا موت ، بل نحن في دار الخلود .

مه ! مه ! إن من السخف لما تعافه الجبلة وتتقزز منه النفس تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذي تمنونا بلادة الأغبياء بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع وأقذره ، لأنه كالورم الذي يخيل الى الغِرِّ من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن ورونق الصبا ، فيهوي يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززاً أن يرى الدمامل مقبلة مرموقة .

ومن نظر الى عشرة ممسوخين في بقعة واحدة فاشمأزت نفسه من رؤية عاهاتهم ومقاذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوي العاهات النفسية البارزة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره بل هو لا يروقهم الا لما فيه من غثاثة وعوار ـ خلائق كل ما نستطيع أن نعلل هذا الاعوجاج في طبائعها وأذواقها أنها تلفت لفرطما أخلدت الى الكسل والضعة ، وتلوثت لحقارة المشاغل التي

بقي لها أن تعنى بها وتكثرت لها ، ونغلت لشدة ما توالى عليها من عنت الدهر ، وذل الحوادث ، وإلحاح الإحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء اللازب شر ما تمنى به نفس بشرية . أعقبها العجز عن احتمال الجد ، والتمادي في الهزل ، واللجاج في السلوى الكاذبة ، حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدناً لها ، بل كادت تكون خلقاً ثابتاً فيها . وساء فهمهم للذوق السليم ، فأصبح جهد الذوق في زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنث الطرف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط عنواناً على ارتقاء الذوق الإنساني ، وحسن استعداده ، وإنما هما نقيض هذا الذوق ، وأقرب الى الوحشية منهما الى الإنسانية . ألا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم . وتنهش احشاءهم ، وتقضم عظامهم ، وتلغ في دمائهم ، وهم يسمعون أنينهم ، ويتلذذون بأوجاعهم ، كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب . فإذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد !! كانوا في عهدهم الذي بلغوا فيه من الترف ونعومة الأخلاق ما لم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

***

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الذوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات : ألا وهو الإحالة وعقم الفكر ، بيد أنه وفق هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية   اللّه أحيا الموميات

يأمر الشاعر المرثي أن يقوم من الموت ، ولماذا ؟؟ ليرى آية . . .

فيحسب السامع أن الآية التي سيراها الدفين بعد بعثه أعجب وأخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم أن الأعجوبة التي يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هي النظر الى ميت يبعث . . فهل سمعتم في العي والاحالة ما هو أحمق من هذا اللغط الفارغ الخاوي ؟؟ أليس هذا كإيقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ ، وكحمل المقعد الى أوربا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يعرض في المسارح للمتعجبين ؟ وعلى أن بعث العلامة المدرج في أكفانه أغرب وأشد استحالة من بعث الموميات التي يعنيها شوقي ، لأن موت الأمم مجازي لا تستغرب الرجعة منه ، وموت الأفراد حقيقي لا رجعة منه في هذه الدنيا . وعدا هذا فإن كان القصد من بعث الأستاذ غالب أن يرى « الموميات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر ، فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه في ضريحه ، لا لشيء إلا أن يرى المعجزة التي قد رآها . وبعد فليذكر شوقي أن الذين يدعوهم بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ، ونفذت فيهم دسائسه ، وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فإن كان هو شاعراً لأحد فهو شاعر الموميات ، وإن كان لشهرته حد فهو اليوم الذي يقال فيه عن تلك الموميات :

خرجت بنين من الثرى وتحركت منه بنات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » بإقامة الأموات ! فهو ينادي عثمان « قم ترَ آية » ويصيح بسليمان « قم بساط الريح قام » ويهتف بالأستاذ الامام شامتاً « قم اليوم فسِّر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم إن اسطعت في سريرك » وغير ذلك مما لا تحصره ولا نود أن

نحصره . . . أفلم يكفه قيام الأحياء حتى يقوم له كل من في التراب !!

ولم ينس شوقي براعة المقطع فختم القصيدة بأليق بيتين يتمان ما فيها من خطل الادراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام :

الفكر جاء رسوله فأتى بإحدى المعجزات
عيسى الشعور اذا مشى رد الشعوب الى الحياة

ففي كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كل منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة ، فتسمع منهم من يقول أحياناً « ليست هذه المسألة مسألة عقل ، هذه مسألة احساس » أو ما في معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يفطن الى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئاً واحداً ، ثم يعكس الآية فيقول : إن الشعور يرد الحياة ، وكلنا يعلم أن الحياة هي التي تنشىء الشعور ، ولا بدع فإن من لا يفكر الا سهواً ، ولا يشعر الا لهواً ، ولا يمارس أسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفواً ـ لحري أن يجهل الفرق بين التفكير والإحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به أنها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون ، وكان فيها مقلداً للمقلدين في استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك أيها القارىء شاعراً من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعاً أول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكنافها .

ويتحرى عجائبها ، ويستكنه أخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفنونها ، إلى أن سيق إليه صنيعة من صنائع شوقي ، فأسمعه أن ها هنا شاعراً يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقباً مزدوجاً ، فهو إما شاعر الشرق والغرب ، أو شاعر الأرض والسماء ، أو شاعر الإنس والجن ، أو شاعر الأقدمين المحدثين ، أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين- الى أشباه هذه الألقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحد كائناً من كان في العالمين . وقد تعلم أيها القارىء أن أذكياء الغربيين وخاصتهم لا يألفون الاطناب والتهويل ، وأنهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم ، فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الأقدمين والمحدثين عندهم ، بل الإنس والجن ، والأرض والسماء ، وإن كان لأحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتي أو هوجو أو جيتي بشاعر أوربا ، وإن كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه ، وكثرة المعجبين به ، وتداول طبعات كتبه ـ مسوغ لهذا اللقب . فلا بد أن يلمح الشاعر الغربي في تلك الصفات التي سمعها مغالاة وشططاً ، بيد أنه يجب ان يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية ، وأن يعرف المعاني والمثل العليا والخيالات التي اذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وان يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوي عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية ، والتقدم الاجتماعي ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هي قصيدته في استقبال اعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجباً فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق ، وانج

من جماعة الظباء السائرة في الرمل ومن جماعة الظباء . . » وهو ترجمة قول شوقي :

إثنِ عنان القلب واسلم به من ربرب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانّاً انه من مقتضيات التنبيه والتحذير ، كما يقال : « النار ! النار ! » و« الحصان !! الحصان » ، إلا أنه يتوهم أن فصائل الظباء والأيائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم في هذا الجانب من الأرض ، فيتقونها ويهربون منها لضراوتها وعرامها ، ويود لو يرى هذه الأوابد الافريقية ، فما هو إلا أن يسأل صاحبه في ذلك ، فاذا الجواب حاضر يلقى اليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجهول « كلا ، كلا ، ليس في بلادنا ظباء مخيفة ولا أليفة ـ ما الى هذا قصد شاعرنا ، وإنما هو يعني النساء » .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغرباً فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فإننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية » .

نقول : ولا يبعد أن يرتضي الشاعر الغربي هذا التشبيه على أنه منقول عن العرب ، وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكني لا أدري لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلاء ؟ ولمَ تكون شوارع مصر تلولاً إن كان لا بد ان تكون حسانها ظباء ووعولاً ؟؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : إذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! » .

وما أشد ما تكون دهشته إذ يقول له محدثه ـ وقد زم شفتيه ، ومد عنقه ، كمن لا يرى داعياً لذلك الافتراض ـ «ولماذا؟؟ إن الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة ، سنة وضعها الفحول من الشعراء الأقدمين » .

فيفاجأ الرجل ، ويجد أنه قد أحال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضاً أن يحيل التقليد في الغزل على اختلاف الخلقة ، وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك في نهضة الأمة ليكونن اذنْ بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز في العقول : فإما أن الشرقيين ركبت قلوبهم ، وأشرجت شهواتهم بحيث اذا احب السلف العربي أتى الخلف المصري متغزلاً بعد عدة قرون . . وهو مستحيل . وإما أن هؤلاء الشرقيين يعيشون في إبان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما ويحيا ، ويموت الآخر حتى ما يحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهي غريزة العشق الجنسي . وما خلق الله لامرىء من قلبين في جوف واحد .

على أنه يجنح الى حسن الظن ، ويخيل اليه أنه أخذ يفهم بعض الفهم ، ويقول لمترجمه : « إخالني قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسراً : « إن الغربيين كما يتسلون أحيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الأقدمين ، ويتزينون بزي الفرس والهنود ـ كذلك يخطر للشعراء عندهم أن يتسلوا باحتذاء أسلوب الشعراء في الأمم النازحة والأجيال الغابرة ، رياضة وتفكهاً لا جدّاً والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية

ما فيه أنه رياضة مقبولة » .

فيفغر المسكين فاه تحيراً مما يدخل على ذهنه من كلمات يحسبها أحاجي والغازاً ، ويظن أنه يذب عن شاعره المزدوج الألقاب حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل ، فيخبر الشاعر الغريب بالغرض من نظم القصيدة وأن قائلها لم ينظمها محاكياً ولا مستريضاً ، وإنما نظمها في مستقبل أمة ناهضة . . . وتحية لزعمائها . . الى هنا ينتهي العجب باليقين ـ فإن كان الرجل قد ارتضى التقليد في التشبيه والغزل ، واغتفر نقض المدينة العامرة يباباً . وقلب الشوارع الممهدة هضاباً ـ فمن وراء عقله أن يرتضي استهلال الكلام في نهضات الأمم بالغزل صادقاً كان أو مستعاراً ، وأن يفهم الابتداء بوصف محاسن النساء وإطراء العيون الكحلاء ، تمهيدا للثناء على مآثر العظماء ، ومناقب الزعماء ، وأن يئن ويتوجع ، في حيث يفخر ويترفع ، وأن يوائم بين موقف الوجد والصبابة وموقف النصح والإهابة ، فذلك مالا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وإن اعوزته دلائل الحكم على منحى افكارنا . وقيمة آدابنا ، ومدارج نفوسنا ـ فكفى بما سمع برهاناً يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج ان يظلم او يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معذوراً .

***

ونحن لم نمثل في الحديث المتقدم بشاعر غربي ، لأن فهم هذه البسائط وقف على الغربيين ، ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم بساطتها ان يفهموا على أي وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت عقولهم من سلطان تكرارها ، وجريانها مجرى القواعد المصطلح عليها . وإلا فأي انسان تجرد من الانخداع بالتكرار ، وخلع ربقة التقليد ـ لا يشعر

لأول وهلة بالخلط الشائن في هذا الضرب من الشعر ؟ ما الشعر الا كلام ، فإن كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته أنه أجمل وأبلغ وأحسن وضعاً للمعاني في مناسباتها . فهل يتكلم الرجل في السوق والبيت ، فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام ، وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل ان يخلط في قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام في نسق واحد ؟ فلو أنه كان صادقاً في عشقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان !!

***

لقد كان الرجل من الجاهلية يقضي حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ، ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نُوْي تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكي هواه ، هجيراه كلما راح او غدا حبيبة يحن الى لقائها ، أو صاحبة يترنم بموقف وداعها ، فإذا راح ينظم الشعر في الأغراض التي من اجلها يتابع النوى ، ويحتمل المشقة ، ثم تقدم بين يدي ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وغسان وفارس ، وينتجعون الأمراء والأجواد في أقاصي بقاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح : يبدأونها أحياناً بوصف ما تجشموه في سبيل الممدوح من فراق الأحبة ، وألم الشوق ، وطول الشقة ، وأحياناً كانوا يصفون الناقة التي تقلهم ، وخفة سيرها ، وصبرها على الظمأ والطوى ، ومواصلتها الليل بالنهار سعياً الى الممدوح . كناية عن الشوق الى لقائه وكان الغرض في الحالتين واحداً :

وهو تعظيم شأنه ، وتكبير الأمل في مثوبته . فكان الابتداء بالغزل ووصف المطي في قصائد نظمت في المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة ـ لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع ان يحتاج الى النموذج والأستاذ ، فأقاموا المتقدمين أساتذة . واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها . وكان شعراء البادية لا يزالون يفدون على الأمصار فينهجون نهج اسلافهم مطبوعين او مقتدين ، فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الأدباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدماً حسناً فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وأفرد كثيراً من الغزل في قصائد قائمة بذاتها . وأشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ، ويتجنب ذلك في العظائم ، كما صنع أبو تمام في بائيته المشهورة التي مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية وفي رائيته التي أولها :

«الحق أبلج، والسيوف عوارِ فحذارمن أسدالعرين حذار»

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة ، وذكر نهوضه الى الروم ، فقال مفتتحاً :

«ذي المعالي؛ فليعلونْ من تعالى هكذا، هكذا، وإلا فلا، لا
حال أعدائنا عظيم، وسيف الد ولة ابن السيوف اعظم حالا»

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

« الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول ، وهي المحل الثاني »

وكما صنع الشريف وأضرابه في كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم .

ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الأمير في المدينة ، وإنه لعلى خطوات من داره ، فكأنما قدم عليه من تخوم الصين ، لكثرة ما يذكر من الفلوات التي اجتازها ، والمطايا التي انضاها ، وحقوق الصبابة التي قضاها . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله في مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث المدلهمة والجوانح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون .

والآن وقد بادت الطلول والقصور ، ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه ، وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال . . . يجيء شوقي فيتماجن ويتصابى في مطلع قصيدة ينتظر بها مستقبل أمة ، ويقول فيها :

قد صارت الحال الى جدها   وانتبه الغافل من لعبه

ويجيء أناس ممن طمس اللّه على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين : إنه مجدد وإنه عصري بل إنه شاعر العصر ! » .

وهل تعلم ما الغزل الذي استحل لأجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعاً فيه أقل ابتداع ، وإن حق عليه اللوم لوضعه في غير موضعه ـ ولكنه هو الغزل الرث الذي ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأي سوقة من صعاليك الوزانين لم يغسل رجليه في وعاء هذه المعاني التي نضح بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد

لو فتشنا عن واحد من مقطعي العروض لم يقل في وصفه : « قد يثنى كالبانة » ، « أرداف مرتجة كالكثبان أي كأكوام الرمل » ، « خد كالورد » ، « حسان كالأقمار او كالنجوم » ، « مشية كمشية القطا » ، « عينان لهما سحر هاروت وماروت » ، « ظبية الرمل » إلى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة ، وهذه هي روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته الى موضوعه : فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها الصحف يومئذ لولا انها متناقضة متدابرة ، وأنها خلو من الأسباب والحجج التي بنى عليها الكاتبون رأيهم ، وأما الكلام الشعري فيه ففي بيت القصيد أو بيتيه وهما :

« قطارهم كالقطر هز الثرى وزاده خصباً على خصبه
لولا استلام الخلق ارسانه شب فنال الشمس من عجبه »

وإنه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح . ولو كان للشاعر فضل في التناسب المحكم بينهما لكان اشعر الشعراء ولكن « مكره اخوك لا بطل » .

ولا أسهب في التعليق على البيتين ، ولكني أروي مشاهدة يتبين منها القارىء مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وأن في الأطفال اللاعبين خيالاً أفطن ، وتمييزا أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الأميريكية منها مناظر خاصة لإطراب الصغار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن أشدها غرابة المطاردات

الجامحة التي تجري فيها خوارق العادات ، فتتحرك الدور والجواسق ، وتتطاير الكراسي والأواني ، وهي كثيرة لا أظن زائراً من زوار الصور المتحركة لم ير واحداً منها . حضرت منظراً من هذه المناظر فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ، ومقتف يتعقبه ، واستمر الكر والفر ، والهجوم والمراوغة ، إلى أن وثب الهارب في منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه في سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد ، عند ذلك لم يبق في الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكاً . وما إخالهم كانوا مصدقين ما يرونه ، وإنما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال . فليت شاعرنا الكبير الذي قرع أبواب الخيال نيفاً وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع ضحك الأطفال من سيارة تطير ، فيعلم أن طيران القطار بقاطرته ومركباته في الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل ان يتبع الصور الذهنية خطوة ، فيرى القطار شاباً فوق الرؤوس في طريقه الى الشمس ، ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرسانه يمنعونه ويكبحونه - لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالإغراب . والأمر بعد لا يتطلب خيال شاعر ، فإنه من مدركات العامة السذج ، ولولا أنهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعت بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية . « الحمد للّه الذي لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتكم إلخ إلخ » .

أما أن القطار كالمطر يزيد الثرى خصباً على خصبه فتشبيه لا أصل له . ولو امكن أن يشبه القطار بالمطر بأي قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة . على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ، ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس في

الحروف وهكذا تتعلق أشعار المقلدين بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعاني . وشوقي كما قلنا في أول المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا في غنى عن نقد هذا النشيد ، إذ كنا لم نلق أحداً يتقبله ويحله المنزلة التي أحلته فيها لجنة الأغاني والألحان . فإن ألممنا به إلماماً في طريقنا فقد يكون لذلك فائدة ، وهي توقيف بعض القراء على قيمة أحكام اللجان ، وأنها في أكثر الأحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والأدب في مصر ، فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما في أوربا فربما بلغ من تهاون الأدباء بشأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهور التي كتبها في الأخلاق وقدمها الى جامعة كوبنهاجن ، ففضلت عليها غيرها ، فكانت سقطة الأبد .

تصدت لجنة الأغاني للحكم في أناشيد الشعراء ، وأولت نفسها هذه الكفاءة ، وإنها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جمة ، قلّ بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة في واحد منها . فمن شروط الحكم في الأناشيد القومية أن يكون عارفاً بالشعر ، خبيراً بتوقيع الألحان على المعاني ، مطلعاً على أناشيد الأمم ، بصيراً بأخلاق الجماعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأي والعدل والجهل بأسماء من يحتكمون اليه . فهل بين أعضاء اللجنة كثير ممن تتوفر فيهم الشروط ؟؟ إننا نعرف من بين أعضائها أناساً نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم في علومهم ، ونراهم أهلاً للحكم في أعضل المشكلات التي تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق في شيء لا يفيد التفوق في كل شيء . وإذا علمت أن الرجل من الأخصائيين يقضي العمر

في فنه باحثاً منقباً ، ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطىء ، . ويبرم اليوم ما نقض أمس . فأحرِ بك ان تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما لم يتفرغ له ولم يدع الحذق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى إنكارها ، وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة وقبلها نشيد شوقي المقدم اليهم غفلاً من الإمضاء ، ولا ندري لم تكلفوا إغفال اسمه ، ورأوا ذلك شرطاً ضرورياً لنزاهة الحكم ، ثم سمحوا لأحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر في الجلسة باسم صاحب النشيد ، بعد ان تبين الميل من أكثر الأعضاء الى رفضه ؟ بل لا ندري لماذا أرجأت اللجنة اجتماعها موعداً بعد موعد ، وتمهلت حتى يتم شوقي نشيده ، وبين يديها نيف وخمسون نشيداً ؟ أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع أنشودة واحدة ؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين في احدى الفرق يلحنونه ويروضون أنفسهم على إلقائه ، واللجنة تطبع الأوراق وترسل الدعوات ، وتستقدم أعضاءها للنظر في أناشيد مجهولة ، وأسرار مكتومة ؟ فهل سعى النشيد وحده الى دار التمثيل ؟

ومما نذكره أن اللجنة ـ لفرط برها بشوقي ، وحرصها على اختيار نشيده ـ قبلته على ما فيه من مآخذ وعيوب نبه اليها بعض الفضلاء ، وردته الى صاحبه ليجتهد فى اصلاحه قبل اذاعته من قبلها : وذلك أن عضواً عاب قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا   فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادي النيل عدن   إلخ .... الخ

وقال إن البيت الثاني منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادي النيل بعدن ، والنيل بالكوثر ؟؟ فوافقوه على انتقاده ، وأنكر بعضهم تأليف البيتين الآتيين ومعناهما :

جعلنا مصر ملة ذي الجلال وألفنا الصليب على الهلال
وأقبلنا كصف من عوال يشد السمهري السمهريا

فانتقدوا قوله « ملة ذي الجلال » ونقل اليَّ أن أحدهم قال : « إننا نجعل مصر وطناً يشترك في حبه أبناؤها ، وأما ملة ذي الجلال فهي الملة التي يدين بها كل إنسان بينه وبين ربه « ذي الجلال » وهو انتقاد سديد ، فإننا إن سمينا الوطن ملة ذي الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟

وإنما يقال : « اتحدوا في الوطن واتركوا الدين للديان » . ولا يقال : « اجعلوا الوطن ملة الديان » . ولم يستحسنوا قوله « ألفنا الصليب على الهلال » ، ولا ذكره السمهري . وقال آخر : إن عبارة « كصف من عوال » إفرنجية التركيب ، ونحن نروي الانتقاد ولا نحمل تبعته . ويظهر أن الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع المحافظة على المعنى فأصلح بيتاً واحداً وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت :

نموت اليك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المفدي حيا

وكانوا قد أخذوا عليه قوله « نموت اليك » لأنها لم تسمع في كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت رضاك مصر .. الخ » . وقد نشر كذلك في صحيفة الأخبار ـ فلم يقتنعوا ، فجعلها أديب في النسخ الأخيرة « نموت فداك » فاقتنعوا !

ونذكر أيضاً أنه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين جيء بهم ليحكموا في أي الأناشيد أصلح للفخر القومي ، وأشد اعتلاجاً في النفس ، وابتعاثاً للحمية ، ومطابقة لنفسية الأمة، وليديروه في اللحن الذي يثبت القلوب الخائرة ، وينهض بالهمم العاثرة ، ويسمعه الواني فتضطرم نفسه عزماً ، واليائس فيهجم الى الأمل قدماً ، والعدو فيتضعضع قلبه رعباً وغمّاً . . وليكون اللحن صوت الأمة في سمع التاريخ ، ونجواها في المواقف والأزمات ، فانظر أين ذهبوا بهؤلاء المظلومين ! هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة ؟ وهل فيهم من يروي بأنغامه عن جلال الحياة وجمالها ، وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغي ان تكون الموسيقى ؟؟ لقد علم كل انسان أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى ، ولكنها أصوات الذل والضراعة ، وألحان ينشدها النائم فلا يستيقظ ،ويسمعها الصاحي فينام .

ثم نذكر تبرع شوقي بالجائزة لنادي الموسيقى ، وكان هذا وعده المعروف ، ولو أنه لم يعد لما داز بخلد أحدهم أنه على غناه يطمع في مئة جنيه يحتجنها لنفسه ، فكان يهم الأعضاء أن يفوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادي الموسيقى . والنادي بحاجة الى إعانة المتبرعين .

ولا ننسَ أن اللجنة حكمت المويلحي ، وهو رجل تصل اليه هدايا شوقي . على أنه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال رأيه اضطراراً . وحكمت حافظاً وقد عرف أصحابه أنه يتقي ان يرمى بالحسد إن أومأ بالنقد الى قرينه . ومن غرائبه أنه كان ينحي على النشيد في الجلسة ،

وقبل اجتماع الأعضاء ، فلما أعلن الأستاذ عبد الحميد بك إسم شوقي سكت . وعلمنا غير ما تقدم أموراً لا نحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة في جملتها . فلنعد الى النشيد غير آبهين للحكم له أو عليه ، وليكن قياسنا إياه أن نلتمس فيه أبسط الخصال التي هي قوام كل نشيد ولا يجوز أن تخلو منها الأناشيد القومية .

يشترط في النشيد القومي قوة العبارة وسهولتها ، وألا يكون وعظاً بل حماسة ونخوة ، وأن يكون موضوعاً على لسان الشعب وموافقاً لكل زمان . وهذا أبسط ما يطلب في أناشيد الأمم . فهل نشيد شوقي على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟!

فأما قوة العبارة فليس في النشيد بيت يدب له الدم في عروق منشده ، وكل مفاخره أفرغت في قالب هو أقرب الى الأخبار منه الى الحماسة ، وأقواها قوله :

لنا الهرم الذي صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالي نمانا أوائل علموا الأمم الرقيا

وليس في هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لا تجد مثلها في قول من يقول « كان لي بيت سعته كذا من الأذرع ، بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، إلى آخر أوصاف المساحة . . » فأي فرق بين قص المعلومات والحماسة إذن ؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمية ، ولكنه نم عن إعنات المقيد المجهود ، فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفاً معيباً ، واستعصى الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت » و« سيلت » ، و« تهيأ » تهيا ، « وشيئاً » شيا :

نعوذ بالله من الشي .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

« بنـي مصر مكانـكمُ تهيأ   فهيا مهـدوا للملك هيا
خذوا شمس النهار له حليا   ألـم تك تاج أولـكم مَليا

***

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا   فليس وراءهـا للعـز ركن
أليس لكم بوادي النيل عدن   وكوثرها الـذي يجـري شهيا »

فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟؟ أأجنبـي يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد استوطأ شوقي مطية الفلسفة والمواعظ بعد أن ركب حمارهـا ببيت واحد سوقي المعنى وهو قوله :

وإنما الأمـم الأخـلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهـم ذهبوا

فراح يجري عليه ذهاباً وإياباً في كل مكان ومقصد ، حتى طلع لنا بأذني حماره الفلسفي هذا في موعظته « على الأخلاق خطوا الملك » ولـم يجد على الباب من يقول له : « يمينك أو شمالك . . » فكأنما كان شوقي على رهان أن يخالف قواعد الأناشيد ما أمكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق ، لا لأن نشيده كان كما وصفته اللجنة « أكفاها وأوفاها بالغرض ، وأجمعها للمزايا التي ينبغي ان تتسق لنشيد قومي مصري » فإنه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للأناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق في هذا المضمار .

وفي المقطوعة الأولى خطأ تاريخي ما أظرفـه في نشيد أمـة تفتخـر

بتاريخها القديم ، فإن الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر مصر ، وإنما كانت معبوداً لهم ، وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها . وأما تاج الفراعنة الأول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد وتاج ملوك الوجه البحري ، ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الأولى في المدارس الثانوية ، ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور المعبودة ، أو التي يرمز بها الى العبادات ، ولم تكن الشمس قط حلية لهذه التيجان . . . فيا حبذا النشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعه عنوانا على جهلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارىء أن نأخذ على شوقي مبالغته في قوله « خذوا شمس النهار له حليا » فإننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه تأويل .

وأما الموافقة لكل زمان فإننا نرى الرجل قد حسب أننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به في جميع العصور أن يتهيأ مكاننا ، وأن لا نبرح نشرع في التمهيد ، ونأخذ في الاستعداد ، ونبدأ برسم خطط الملك ، ونهم بتشييد الأركان . وما علمنا شاعراً قوميّاً يطلب اليه ان يكون فأل الأمة وهاتف مستقبلها ، فينعب فيها نعيب النحس ، وينذرها جموداً لا تتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقي بالمواقف من قصائده الآنفة ، وأجهل ما يكون إذا وقف موقفاً وطنيّاً أو قومياً . فمن دلائل غفلة الذهن وعشا البصيرة أن يكلف « ابن بجدتها » إنشاء دعاء قومي ، أي دعاء لا يعوقك دين من الأديان أن ترتله في البيعة ، أو تشدو به في الكنيسة . أو تصلي به في المسجد ، فيخيل اليه أنه إذا جمع فروق الأديان كلها في جملة واحدة فقد أتيح له هذا الغرض . فيستشفع في دعائه المعروف « بموسى الهارب من

الرق » ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبي الحق » فيكون ماذا ؟؟

يكون أن الاسرائيلي يحرم هذه الصلاة في بيعته ، لأنه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد ، وأن المسيحي لا يدعو الله به في كنيسته ، لأنه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الإسلامية ، ولأنه يدين بربوبية المسيح لا برسالته فحسب ، وأن المسلم يصلي به وحده ، فكأنه لم يشر فيه الى دين غير دينه ، وأن الدعاء القومي لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو أن طاهياً صناعته تجهيز الموائد قيل له : إن ثلاثة من المدعوين في الدار ليس يشتهي احدهم طعام الآخر ، فعمل على إطعامهم جميعاً بمزج اطعمتهم كلها في صحفة واحدة لطرد من فوره ، فأعجب لشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهاة ، ويغرق في غفلة الذهن حتى أحسبه أحياناً يتعمد الإمعان فيها ويطرقها من الباب الذي يفضي به الى نهاياتها ، كمن يعثر بمعنى بديع ، فيتخلله ويتقصاه ، ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد أن خطر له أن يجمع شفاعات الأديان أجمع كي تكون شفاعه لكل دين ، عمد إلى ألصق الأنبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذي لا يناسب هذا المقام ، والذي لو كان هو وصفه الفذ لا سواه لوجب السكوت عنه هنا : وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدري شاعر مصر مِن رق مَن هرب موسى ؟؟ إنه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد في خفراء الريف كياسة تمنعهم أن يطلبوا الإقالة بما يذكر بالذنب ، أو يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقي ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية ،

فلا هو في الشعر ولا في النثر شاعر قومي موفق العبارة ، وقد قرناهما لتشابه الخطأ فيهما ، وربما كان خطؤه في النشيد أخف وأهون ، من حيث ان الأناشيد لا يصلى بها في المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد أننا لا نرى معنى لزج الأديان في الأناشيد الوطنية ، فقد كان يكون أدل على الوفاق ألا نجعل وفاق الأديان مباهاة ومأثرة ، لأن المرء يباهي بالشيء النادر أو غير المنتظر ، وهذه الأمم المتحضرة والمتبدية : أليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت اناشيدها من ذكر الدين ؟؟ أتراها لا تحب ان يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا أننا لا نقصد الى الإفاضة في نقد النشيد ، فكنا نقارنه بما نعلمه من الأناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما وقد أخذنا من مساوئه ما أخذنا فليس يسعنا أن نهمل مأخذاً سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهي هذه :

تطاول عهدهم عزّاً وفخرا فلما آل للتاريخ ذخرا
نشأنا نشأة في المجد أخرى إلـخ . . . . إلـخ

ويقولون إن التنوين لا بد أن يسقط في الإنشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت فاذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « فخرا » ومد بها صوته ورجعه فأي رائحة تفوح منها ؟؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟؟ ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد في موقفه والملحن في صنعته .

نقول : هذا هو النشيد الذي « يبقى لحركة هذه الأمة شعاراً ،

ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان مناراً كما تقول اللجنة ـ نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقي ولا المتغني ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا إلا عجب من تفضيله على النشيد الثاني ، ومن اجتراء اللجنة على تقديمهما معاً إلى الصحف غلوّاً منها في استجهان الناس ومبالغة في احتقار رأيهم . ولا أخفي عن القارىء أنني ما كنت أظن في جمهور قراء الأدب استقلالاً يقاوم تأمر المحكمين والصحافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك في حكم اللجنة ، ونزوعاً إلى إحلال نشيدها المختار في المحل الثاني من النشيدين المنشورين ، وفي هذا الاستغلال أمل نغتبط به ونحمد بشائره .

شوقي في الميزان (٢)

عرضنا (شوقي) في الميزان لأول مرة ، فارتج به ارتجاجاً عنيفاً ، وأيقظه من غفلة كان فيها سادراً ، وما هو إلا أن حط به ثم شال حتى تمنى أن يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ، ويقول لخلطائه وسمارته : « هبوني لست بالشاعر ، أليس لي فخر آخر أدل به ؟؟ »

نقول : أجل ، ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول .

أما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لأربعة أجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلاً على ظهوره في أوانه : أسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه في أسبوع أو أقل ، ونادراً ما كانت تقصر النسخة منه على قارىء واحد ، وتوالى الطلب له في المدينة والأقاليم ، فلم نر بدّاً من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الأدب ، فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضي ذوي العقول المتزنة ، والفطر المستقيمة ، والاطلاع المجدي ، وموافقتهم عليه مرضية ؛ ورأيهم فيه جميل ، ومنهم أذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة ، وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون . وطائفة أخرى حظها من السماع أكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة

المشفوعة بالدهش أميل منها الى المنافرة والعنت . وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطأ ، ويتهم ناقدته بالانحراف ، فهو يتلمس المعاذير ، ويدرب لسانه على التغيير ، وفي هؤلاء أمل لا يضيع ، ولا سيما بعد هدأة الدهشة ، وتطامن المفاجأة ، لأن نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة . ويقال على الجملة : إن أثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته أو يعسر عند اليأس منه نبذه . وأما التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ، ونعني فريقي القراء ـ وبالحري المتحدثين ـ الذين لم نوجه اليهم خطاباً ، وهما فريق المعجبين على الإشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فراراً من تهمة الجهل والغرارة ، ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربية الديكة ، ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التي فتن بها ، ومن أظرف ما يروى عن أحدهم أنه سمع جملة في نقد رثاء شوقي لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة-التي أقام لها الأزهار والرياحين ، وسؤال عما كان من القطن بأصنافه في تلك المناحة ، فظن ـ صان اللّه لشوقي إعجابه ـ أننا إنما أنكرنا سكوته عن القطن وأردنا منه أن يذكره فقال متعجباً : « وهل كان القطن (طالعاً) وقتئذ فيذكره في القصيدة ؟ » .

والفريق الآخر من الساخطين هم أولئك الذين عرفوا بأنهم شركاء شوقي في (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فما رأينا أحر من سخطهم ، ولا أكثر تصنعاً لأسبابه ، وتمحلاً لعلله ، وهذه آخر اشارة نلمح اليهم بها .

ولا نحب ان نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد

ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضح له وجهه : أول الانتقادين وأشبههما بالحق أننا اخترنا أوهن قصائد شوقي وأكثرها مغامز . وليس هذا صحيحاً ، فإننا إنما راعينا الحداثة فيما اخترنا من قصائده ، وهي لا تقل - في اعتقادنا واعتقاده - عن أجود شعره صياغة ومعنى ، ولكن الحقيقة - كما قلنا في الجزء الأول - هي أن قراء اليوم غيرهم بالأمس ، فليس يرضيهم ما كان فوق الرضا قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هذا القول بأننا انما كنا نصوب الانتقاد الى شاعرية شوقي وذوقه ، وروح قصائده ومنهج أدبه ، متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأني ، وإذا كان الطعن في الشاعرية ، والعاهة في الذوق والروح ، والاعوجاج في المنهج - فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والأسلوب لا يقدم ولا يؤخر في الحكم على الشاعر ، لعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون ان القديم والحديث في شعر شوقي سواسية .

أما ثاني الانتقادين فهو أننا أغلظنا العصا لشوقي وشددنا عليه النكير . ولهؤلاء نقول : إننا لا نهدم خطأ مؤسساً على البرهان فننقده بالبرهان وحده ، ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة ، وما أحوج البرهان في هذه الى الشدة وما أقل ما يغني فيها اللين والهوادة .

ومما استصعبوه أننا قرّنا معانيه بمعاني الشحاذين . فيا عجباً !! كأننا نحن نهينه إذا قابلنا أدعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها ، وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة في أشنع ضروبها !! وأي حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقاً ؟؟ فنحن لا نرى للرجل في أنفسنا قدراً يتجافى به عن أخشن

عبارات الزجر والتقريع ، وهذا ما أعلناه في توطئة الجزء الأول ولا نريد العدول عنه في هذا الجزء ولا في الأجزاء التالية . فمن كان يفقه ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هواناً ، ولضمير الأمة يلطم على وجهه عياناً فليغضب علينا ما شاء ، فإنه لا يعرف كيف يغضب .

وكأننا بزمرة شوقي يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التي يغضب لها الناس في آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ، ولكننا نؤكد لهم أنها حقيقة تحس وتلمس وإن كانت لا تؤكل ، وأنها حق بيّن يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الأول عسى أن يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الأديب الجدير بشرف الأدب ، وما ترخص له المحاكم في التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنون عليه .

كان ولا يزال في حاضر الزمان لا في سالف العصر والأوان ، وفي الجزر البريطانية لا في جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ـ إنسي يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص ، ولهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « إذا » يحض بها الهمم ، ويذكي في النفوس الضرم ، شاءت « شركة جنا توزان » أن تقتبس منها أبياتاً لترويج غذاء مشهور من أغذيتها التي تجهزها لمداواة الأعصاب ، فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من أمر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذي قلنا إنه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا أنه قاضاها الى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله ـ ويدعى المسترهيوز ـ وقف فطلب الى القضاء منع الشركة من امتهان الأبيات بهذا

الاستعمال ، وقال فيما قال : « إنه لمن أصعب الأشياء أن يتخيل الانسان أمراً أشد ايذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة في صياح الباعة على سلعهم ، إنها لإهانة لا تقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه أقل مسحة من الكرامة الأدبية » .

قالوا : فلما نطق القاضي بحكمه عذر الشاعر ، وقال : « لا عجب أن ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة - وعندي أن هذا الاقتباس لا يدخل في حق الاستشهاد الذي يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١ » وحكم بتغريم الشركة اربعين شلناً تعويضاً للاهانة التي ألحقتها بالشاعر .

فهذه أسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التي يسمونها الكرامة الأدبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الأساطير في غير قصور الف ليلة حريون ألا يقفوا بها عند حد التفكه .

لمثل ذلك الابتذال يغضب أديب الغربيين ويقول محاميهم : إنه أشد ما يتخيل إيذاء لنفس المؤلف ، ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف ان يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كان دواء نافعاً وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، إن صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لأن أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الأدبية وأريحية الفنون أقل معنى ، ولا يفهمون من جمال الشعر إلا أنه « أسرى مروءة الدني ، وأدنى مروءة السري » كما كان يقال في عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لولا القضاء - وفيه مقنع لهم - لما عدوا

شكوى كبلنج من تصرف الشركة إلا أعجوبة مبهمة ولغزاً مغلقاً . لأن هذا الذي أنف كبلنج أن يصنع بشعره على غير علم منه قد صنعه شوقي مختاراً ، وتعمد أن يكون اعلاناً لسلعة معروضة !! ألم ينظم أبياتاً يروج بها « ريشة صادق » ونشرها في الصحف ؟ بلى ، فقد قال أدامه الله للدكاكين والمآتم والأفراح والسهرات :

لله ريشة صادق من ريشة ... تزري طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة في المشارق كلها ... حسناً ، وفكتها من التقييد
تهدي لحسن الخط كل مقصر ... وتمد في الاحسان كل مجيد
أغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها ... من ريشة الألماس عند الغيد
وألذ فوق الطرس إن خطرت به ... من ريشة « الليثي » فوق العود
وتكاد تحيي مؤنساً بصريرها ... وتقول : أيام ابن مقلة عودي
لولم يكن في الأمر إلا أنها ... مصرية لاستوجبت تمجيدي

وفي هذه الأبيات أوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة ـ شعر لا يتأبه صاحبه أن ينزل به منزلة الإعلانات التجارية ، وعبقرية دارجة أبانت أن أخيلته وابتكاراته هي ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء. وإن من يروج ريشة كتابة بأنها « أغلى من ريشة الألماس » لقريب نسب ممن ينادي في قوارع الطرقات « يا جواهر يا عنب » والذي يدلل على ريشة عربية بأنها « حسنت الكتابة في المشارق كلها » إنما يرشف من البحر الذي تغرف منه « الفرص الحقيقية وأحسن بضاعة في العالم كله » . و« لو لم يكن في الأمر الا أنها مصرية » شبيه بكل ما ينسب الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى ان الباعة لا يغلطون غلطة شوقي فيقولون وهم يعرضون الريشة ويمدحونها بالجدة والسلاسة : إن لها صريراً يكاد يحيي الأموات !!

وبعد فإن المرء ليزدري بالعقل الانساني نفسه اذا قبل : إن هؤلاء الصعاليك الفكريين الذين تقوم عليهم الإمارة الشوقية من ذوي مزاياه وحملة أمانته في الأرض ، فالأدباء في الأمم هم عنوان حياتيها الروحية والفكرية ، ومعيار ما تحسه من مفاخر الحياة وقوى الطبيعة ومعاني الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور السماوي الذي يفيضه الله من الآيات والفنون جمالاً ونبلاً ، ويوحيه كمالاً وفضلاً ، وهم - إذا ذكرت الفصاحة في الأمم - صفحتها الواضحة وطبقتها الممتازة الراجحة ، فقل لي - رعاك الله - أي هذه الطغمة أميراً كان أو مأموراً تفخر الأمة الحية بأنه صورة ما في نفوسها من زينة وجمال ، ومظهر ما في رؤوسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط في الوجود وتراث مقسم بين أبناء آدم ، وإن المرء ليزهى بآدميته حين يلقي بنفسه في غمار الآداب الغربية ، وتجيش أعماق ضميره بتدافع تياراتها وتعارض مذاهبها ومتجهاتها ، وتجاوب أصدائها وأصواتها - أبواب للكتابة منوعة ، ومهايع متسعة ، وفنون مبتدعة ، ونحل ومذاهب ، ومدارس ومشارب . والحياة بين هذه الأفكار المشرقة معروضة للنظر في كل شية من شياتها ، محسوسة في كل خطرة من خطراتها ، متكررة متضاعفة ، شاكة موقنة ، جادة ساخرة، ناقمة راضية ، شهوانية متنطسة ، فياضة غير بكية ،موصولة بينابيعها مروية . والنفس تحس من احدى نواحي ذلك العالم الرحيب مالا تحسه من سواها فكأنها نفوس متفرقة لا نفس واحدة جائمة كذلك عالمهم .

ثم تلتفت الى الأدب الذي يدعيه أولئك الأميون العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة ، العامة المتطفلون على موائد الخاصة - فترى عجباً : ترى هذا عاكفاً على رقميته ولعلعه ،وذاك مدبراً

الى ربربه وسربه ، ومادحاً وهاجياً ، ومحسوباً على آل فلان ، ومتمسحا بآل عمران . نفوس ضارية ، وعقول خاوية ، وأخيلة في التراب ثاوية ، أو كأنما هي الأثقال الى القرار هاوية . فصدق إحدى اثنتين : إما أن أدباً تسمعه من هؤلاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو الى أسمى معارج الإنسانية ، وإمّا أنهم ليسوا من ذاك وإنما هم محترفون حرفة ليس من آلاتها نباغة الطباع ، وامتياز المدارك ، ووفور الشعور .

وإن من الجناية على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء النفر بعد اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له ان يسخرهم لقضاء غرض من أغراضه ، أو يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات أرزاقهم بعرض ثعابينهم وخيولهم ؟ ووارحمتاه « للكلتور المصري » يساق دعائمه لتمثيل الروايات وانشاد الأشعار بأيسر مما يساق « المولوية » لتشييع الجنائز وتلاوة الأذكار !!.

ولقد كان مما قيل في المدنية الحديثة : إن أقلام أدبائها إحدى الحواجز التي تصونها أن ترتد الى العصور المظلمة . وإنها عصمة لها من أن تستبد بعقولها عادة ، أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وإنها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ، ويحسب حسابه كل طاغية ـ فأي عصمة لمصر في أقلام هؤلاء المخططين والنظامين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟؟ إن العصا في يد الأكار لأنفع لمدنية مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون أنفسهم من الكرامة فلا إجحاف

بهم ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصبّ عليهم . ولقد وجب ، بل آن أن يفهم الأدب على غير ما يفهمونه ، وأن ينحّوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

وكأنما شاء القدر أن يبدد حبائل شوقي وطلاسمه كلها في بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم في مصر علية القوم يثنون عليه فيغترون بتشيعهم له ويروعهم اعجابه به ، ويحسبون ان لرأيهم فيه شأناً وخطراً حتى جاءت لجنة الأغاني فأماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة اعجاب هؤلاء العلية اذا اعجبوا ، وقيمة استحسانهم اذا استحسنوا ، وإنها إن هي الا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة .

شمرت اللجنة عن ساعديها ، وأغمضت أمام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندي اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها في الجراب فأخرجت نشيد شوقي وهي تقسم أنها لا تعرفه ، وجعلت تلوح به للملأ كي يشاركها في الابتهاج به . فيا للمهارة !! ولكنها ـ لسوء حظ شوقي ـ كانت تنقصها خفة اليد !

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث في الجلسة مما أظهر اطلاع الأعضاء على النشيد قبل التئامها ، اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الأول . فالقراء يذكرون ان اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين ـ وهم اعضاؤها الأخصائيون ـ اختارت نشيد شوقي وأعلنت أسباب اختيارها له في منشورها ، وهي أنها « انتهت في مناقشتها الى أنه اكفاها وأوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التي ينبغي ان تتسق لنشيد قومي » . وكذلك علمنا ان حكمها لم يصدر اعتباطاً ولا كان عن جهل

بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء أن الأستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في الصحف ينقد النشيد ويقرر أنه لا يصلح للتلحين بأنغام الأناشيد القومية ، ثم إنهم يذكرون أن فريقاً من أعضاء نادي الموسيقى من الذين كانوا في لجنة الأغاني اذاعوا بعقب ذلك في الصحف ان الأستاذ انما يتكلم برأيه ، ومعنى هذا أنهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة ، مجدين في ابعاد كل مظنة في صلاحية « النشيد الوطني المختار » للتلحين فما جرى بعد ذلك الحكم المبني على المناقشة ، وهذا الإصرار الصادر عن روية ؟

لم يصفق جمهور الناس مع اللجنة ، وقد بدأت هي أمامهم ، وأقبلوا يسألونها وهي محتدمة تصفيقاً : ما هو الذي تصفقين له ؟ نعم لم يعد يكفي في هذه الأمور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون وراءه وكثر اللغط بتحيزها ، واجترأ الموسيقيون على الافضاء بآرائهم في تلحين النشيد فسقط سقوطاً تامّاً ، وكان صاحبه أول المنهزمين فقد أخذ يزعم أنه إنما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة في مسرحهم . . . كأنما النشيد مشى بقدمين الى ديوان لجنة الأغاني ، وخشيت اللجنة ان يكون حكم الأمة عليها حكماً قاضياً على معرفتها وإنصافها وإخلاصها ، فبادر اعضاؤها الأخصائيون يبلغون الصحف ان النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومي ! وقيل بلسان رئيسها : إنهم لم يشترطوا ذلك في تلحينه ، إذن فماذا اشترطتم ؟ أتراكم كنتم تقدمون للأمة « طقطوقة » تغنيها على المعازف والآلات ؟ وأين ذهبت تلك المزايا التي اتسقت « للنشيد الوطني المختار » ؟

كذلك تهافت حكم لجنة الأغاني بيدها ، وانكشف طلسم كان من أبهر طلاسم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعني به طلسم الأسماء الخلابة ووهم الألقاب الجذابة . وعندنا أن لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرجى منها صلاح للأغاني ولا لسواها . ولكنها اذا كانت تخرج من العدم لتؤوب اليه بعد ان تكون قد أبطلت وهم العامة في امثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من اجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على أنها مهمة ننفسها على هذه اللجنة ، فقد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضلاً كبيراً فلو لم تقيضها الحوادث لإظهار قيمة التحبيذ والإطراء من ذوي الألقاب والأسماء لتكفل بذلك محفل آخر أقيم في شهر ديسمبر الماضي ، وهذه حكاية نرويها ولا نعقب عليها .

قال المقطم في عدد يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذلك الشهر :
« قد كان يوم الجمعة الماضي ميعاد إلقاء القصيدة الحسينية التي نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القصري في الحفلة التي أقيمت تكريماً له برئاسة حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون بدار الجمعية الإسلامية بقصر النزهة بشبرا ، فلما وافت الساعة التاسعة صباحاً حتى أقبل المدعوون من علماء وكبراء وأدباء وأعيان ، فازدحم بهم المكان ، ثم أقبل نائب الأمير : محمد بك جلبي باشمعاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام ، وكذلك فرق الكشافة للكشاف الأعظم ، ثم ابتدأت الحفلة بالذكر الحكيم ، فنشيد شوقي بك فنشيد الكشافة ، فمقطوعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ، ثم وقف نائب الأمير ، واعتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة ، وألقاها بين الإعجاب والتصفيق الشديد ، وبعد انتهائه قدم

له نائب الأمير ساعة ذهبية اثرية ثمينة ، وتبرع حضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محمد السعدي بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية . ثم وقف حضرة الشاعر الغربي عمر بك السعدي وألقى قصيدة عامرة اثنى فيها على سمو الأمير لتعضيده العلم ، وامتدح بها الشاعر ، ثم نزع من إصبعه خاتماً من الماس ، ووضعه في اصبع الأستاذ القصري ، وقدم له سيادة السيد محمد أبو بكر مرغني شيخ السادة المرغنية بمصر خاتماً من الماس . وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندي عليش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل ، وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية : أنشده بعض التلاميذ والتلميذات ، ثم بالقرآن الكريم ، وأقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر » .

انتهى ما نقلناه من المقطم فليتأمله القارىء ، وليتصور اسم شوقي مجرداً من مثل هذه الطنطنة ، بل ليتصوره محلى بها . وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر . أو شهادة تقدر . . .

وثم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ، ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها في إنصافها ، وفي الإخلاص للفن الذي تخدمه ، وتنشيط المواهب الفنية التي تنهض اليه ، لولا انها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففي فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات « اكاديمية كونكور » يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثنا عشر ألف فرنك للسابق من الأدباء في باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة المنصرمة فتى اسمه ارنست بيروشون

لرواية قصصية الفها . أفيدري القارىء من هذا أرنست بيروشون ؟؟ .

نقلت البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسي يسأل عن شأنه ، فإذا المسؤول والسائل في العلم به سواء . راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فألفوها خلواً من كل اشارة اليه أو الى اسم قريب منه. فترجموا النبأ متبوعاً فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الأيام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظري عنوان في احدى صحفه هذه ترجمته : « خير روايات العام يؤلفها ابن فلاح يربح جائزة الأكاديمية الفرنسية » فتصفحت المجلة فاذا به صاحبنا بيروشون . وإذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلي كرونيكل في باريس « وكان بيروشون ـ وهو في الخامسة والثلاثين ـ مجهولاً الى يوم امس جهلاً تاماً ، وإن كان قد طبع في الأقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص . . . ولم يكن أحد من اعضاء المجمع يعرفه ، إلا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقاً ، فأعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثيرمن الأدباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم أمس ، ولكن فاز استاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر . » .

فيا قوم ، إذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب . تلك لجانهم تعدل في أحكامها هذا العدل ، وتحيي كل ملكة صالحة للحياة ، وهم لا يأتمون بها مغمضين ، ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لا تحسن غير المجاملة ولا تحسن ان تجامل الا بأن ترضي فرداً لتقضي على أمة كاملة بالعقم والاقفار ؟ إن في ذلك لموعظة .

***

وخلاصة القول اننا عرفنا رأي القراء في عملنا فقسمناهم الى فريقين : فأما الذين يعجبون بشوقي لغير سبب معقول يفيء الى شعره ، فقد اسخطناهم ولا نسأل الله ان يخفف سخطهم ، وأما الذين يرجعون الى الأسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة ، وكان أقلهم موافقة من ارجأ الحكم لنفسه حتى يرى ، وإننا لنعلم أنه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : إن رأي الأولين يمثله كتاب ورد الينا غفلاً من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته : « خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة إليه » ونجوابنا لهذا وأمثاله : « صدقتم ، ولا هو بحاجة اليكم » . .

ويمثل رأي الآخرين بيت لقينا به أديب مشهور ، فقال : « إيه يا فلان ، إليك بيتاً يسير مسير الأمثال :

شوقي تولاه عباس فأظهره والبوم يخمله في الناس عباس»

وجوابنا له : بل إنه عصر يخمل عصراً ، ولاغية وهم تخفتها صيحة حق ، وإنا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسرة شوقي « ما ترى في رثائه لمصطفى كامل ؟ أتنقده ؟ » قلت « وماذا عساي أن أنتقد إن لم أنتقد الهراء والزيف والشتات ؟ » قال : إن القصيدة آيته » . قلت « لقد هديتني هداك الله ، فما كنت أظنها آية لأحد من العالمين ، وما حسبتها الا زلة اسقطته فيها (مغالبة الشجون لخاطره) ، أو داهية خانه فيها إمكانه الذي ما فتىء يخونه ، كما قال منها :

مـاذا دهانــي يوم بنــت فعقني فيك القريض، وخانــي إمكاني»

وما دهاه الا العجـز والفهاهـة والحـرج ، دهتـه أولاً ، فأجفـل وحسر ، واستعصى عليه النظم ، فصنعها في أربعين يوماً ، ثم زاد كثيراً من أبياتها وغير وبدل فيهـا ، ثم دهتـه ثانياً ، فجـرى على عادتـه من التلفيق والعقم والزغل المموه . فأما وقد علمت أنها الآية التي بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده؛ والمعجزة التـي يسـتنصر بهـا دعاتـه ، فبآيته فلندحض رسالته ، وفي معقله الحصين فلنكشف وهنه ونفضح مطاعنه ، وإنهـا-لآية ومعجـزة والحـق يقـال ، ومعقـل أي معقـل ، ولكنهـا آية السيمياء ، ومعجزة الشعوذة ، ومعقـل الرمـل ، بل أخـوى من ذلك وأضعف ؛ وأضأل في الضؤولة وأسخف ؛ أراحه الله من شعره بما أراح من أقلام نقاده : فإنه ـ علم اللّه ـ لم يزعج لهم بديهة ؛ وإن كان يزعج بديهته في كل صباح ومساء ؛ ولا كد لهم خاطراً وإن كان خاطره منه في وصب وشقاء .

ولقد فات أصحابنا سما سرة شوقي ان خلافنا معهم لم يـكن خلافاً على درجات الإجادة وخطوات السبق فنتقـارب كلما أجـاد شاعرهـم في رأيهم ، أو خيب آمالهم وأخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ، ثم على أدائه وطبقته ، فربما كانت أرفع القصائد عندهم درجة أخسها عندنا معدناً ، وربمـا طربـوا كل الطـرب من حيث نعـزف كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحساناً لما هو فيه كان أبعد عن حالة الصحو والصواب ، وكالأعجمي كلما أمعن في فصاحته وبيانه استغلق على مسامع الأعراب ، وهذا هو الواقع فيما أخذنـاه وتأخـذه على شعـر شوقي ، وهو بخاصة شأننا في الحكم على قصيدته هذه التي رأينا بعض

المفتونين يجلها عن الانتقاد ويعجب من أن تعاب ، وهي ـ لويفقه ـ من القصائد التي يصاب منها المذهب العتيق في مقاتله ، والشواهد التي يبحث عنها لإبراز مآخذه . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها ، حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأي غير رأيه الأول فيها .

فالعيوب المعنوية التي يكثر وقوع شوقي وأضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن أشهرها وأقربها الى الظهور وأجمعها لأغلاطهم عيوب أربعة . وهي بالإيجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالأعراض دون الجواهر ـ وهذه العيوب هي التي صيرتهم أبعد عن الشعر الحقيقي الرفيع المترجم عن النفس الانسانية في أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود ـ من الزنجي عن المدنية ، ومن صور الأبسطة والسجاجيد ـ كما يقول ما كولي ـ عن نفائس الصور الفنية . ولكل من العيوب الآنفة أثر ظاهر في هذه القصيدة قد لا تجده في غيرها من القصائد الا مزوياً أو دقيقاً عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر القصيدة بهذا المسبار ان من نقائص الشعر مالا يمنع أن يلمح له رواء معجب يستهوي البسطاء ، بل ربما زادته جمالاً في الظاهر كالحلى المزيفة فانها في الغالب اجمل من كريم الحلى والجواهر . ولكنها تمنع ان يكون للشعر قيمة غالية .

(١) التفكك :

فأما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعاً مبدداً من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة ، إذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافي المتشابهة

أكثر من أن تحصى فإذا اعتبر التشابه في الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز إذن أن ننقل البيت من قصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز . ولتوفية البيان نقول إن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنياً تاماً يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصور بأجزائها ، واللحن الموسيقي بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغني عنه غيره في موضعه إلا كما تغني الأذن عن العين ، أو القدم عن الكف ، أو القلب عن المعدة . أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين : فإنك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأقداره في تنسيق عقودهم وحليهم ؛ ولا ينظمونه جزافاً إلا حيث تنزل بهم عماية الوحشية الى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية في الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها فاعلم انه ألفاظ لا تنطوي على خاطر مطرد ، أو شعور كامل الحياة ، بل هو كأمشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض ، أو كأجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف وأجهزة ، وكلما استقل الشيء في مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه ، فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها في اللون والتركيب ، صالحة لأن تحل في أي مكان من البنية التي هي فيها . فإذا ارتقيت الى النبات ألفيت للورق شكلاً خلاف شكل الجذوع ، وللألياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه في أشرف المخلوقات وأحسنها تركيباً وتقويماً . وهي سنة تتمشى في أجناس الناس كما تتمشى في أنواع

المخلوقات ومصداق ذلك ما نشاهده من تقارب الأقوام المتأخرة في السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعاً على الناظر ، وهي حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ، ولمسها البحتري في هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجين قبيلة منحوسة حصّ اللحى متشابهو الأوزان
لو يسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة في الحضارة : تراها تتفاوت أقداراً وملامح وبدوات وأطواراً ، حتى ليوشك أن يكون من المستحيل اتفاق اثنين في هندام الجسم وهيئته ، وفي مواهب الذهن ونزعته . ونقترب مما نحن بصدده فنقول إنك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال في الأدب ألفيت تشابهاً في الأسلوب والموضوع والمشرب ، وتماثلاً في روح الشعر وصياغته ، فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين وأسماء ترتبط بمعناها وجوهرها ، لما هو معروف من أن الأسماء تتبع السمات ، والعناوين تلصق بالموضوعات ، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءاً قائماً بنفسه لا عضواً متصلاً بسائر أعضائها ، فيقولون : أفخر بيت ، وأغزل بيت ، وأشجع بيت ، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد ، كأن الأبيات في القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها ، وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة ، وتقطع النفس فيها ، وقصر الفكرة ، وجفاف السليقة ، فكأنما القريحة التي تنظم هذا النظم وبصات نورٍ متقطعة ، لا كوكب صامد متصل الأشعة يريك كل جانب ، وينير لك كل شعبة وزاوية ، أو

كأنما هي ميدان قتال : فيه ألف عين ، وألف ذراع ، وألف جمجمة ، ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيراً من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسري فيها حياة .

وإذا كان ذلك كذلك فلا عجب ان ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل ، لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله ، أو وسطه في قمته ، لا كالبناء المقسم الذي ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزاياه .

وهذه كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى كامل ، تسأل من يشاء أن يضعها على أي وضع فهل يراها تعود الا كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء إلا أحقاف خلت من هندسة تختل ، ومن مزايا تنتسخ ، ومن بناء ينقض ، ومن روح سارية ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها . وتقريراً لذلك نأتي هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ، ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الأول ، ليقرأها القارىء المرتاب ، ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها .

ونحن نأسف على فضاء نضيعه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا انها ـ كما نرجو ـ لا تضيع عبثاً .

قال شوقي اصلحه اللّه :

١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والداني
٢ يا خادم الاسلام أجر مجاهد في اللّه من خلد ومن رضوان
٣ لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى في الزائرين وروع الحرمان

٤ السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الأعلام والقضبان
٥ لم تألها عند الشدائد خدمة في اللّه والمختار والسلطان
٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا في المحفلين بصوتك الرنان
٧ ليرى الأواخر يومذاك ويسمعوا ما غاب عن قس وعن سحبان

٨ جار التراب وأنت أكرم راحل ماذا لقيت من الوجود الفاني ؟
٩ أبكي صباك ولا أعاتب من جنى هذا عليه ، كرامة للجاني
١٠ يتساءلون أبالسلال قضيت أم بالقلب أم هل مت بالسرطان؟
١١ اللّه يشهد أن موتك بالحجا والجد والإقدام والعرفان
١٢ إن كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فأنت الباني
١٣ باللّه فتش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمال لنا وأماني
١٤ وجدانك الحي المقيم على المدى ولرب حي ميت الوجدان
١٥ الناس جارٍ في الحياة لغاية ومضلل يجري بغير عنان
١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين عليا المناصب لم تتح لجبان
١٧ فلو ان رسل الله قد جبنوا لما ماتوا على دين ولا إيمان
١٨ المجد والشرف الرفيع صحيفة جعلت لها الأخلاق كالعنوان
١٩ وأحب من طول الحياة بذلة قصر يريك تقاصر الأقران
٢٠ دقات قلب المرء قائلة له : إن الحياة دقائق وثواني
٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثاني
٢٢ للمرء في الدنيا وجم شؤونها ما شاء من ربح ومن خسران
٢٣ فهي الفضاء لراغب متطلع وهي المضيق لمؤثر السلوان
٢٤ الناس غاد في الشقاء ، ورائح يشقى له الرحماء وهو الهاني

٢٥ ومنعّم لم يلق الا لذة ... في طيها شجن من الأشجان
٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها ... نعمى الحياة وبؤسها سيان
٢٧ ياطاهر الغدوات والروحات ... والخطرات والاسرار والإعلان
٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحاً ... غاز بغير مهند وسنان ؟
٢٩ يدعوا إلى العلم الشريف وعنده ... أن العلوم دعائم العمران
٣٠ لفوك في علم البلاد منكساً ... جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة ... لكنما يبكي بدمع قاني
٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكأنما في نعشك القمران
٣٣ وكأنه نعش الحسين بكربلا ... يختال بين بكى وبين حنان
٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ... ما ضم من عرف ومن إحسان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة ... وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل ... وبكتك بالدمع الهتون غواني
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم
إذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون : بأي قلب ترتقي ... بعد المنابر أم بأي لسان ؟
٣٩ فلو ان أوطاناً تصور هيكلاً ... دفنوك بين جوانح الأوطان
٤٠ أو كان يحمل في الجوانح ميت ... حملوك في الأسماع والأجفان
٤١ أوصيغ من غرر الفضائل والعلا ... كفن لبست أحاسن الأكفان
٤٢ أو كان للذكر الحكيم بقية ... لم تأت بعد ، رثيت في القرآن
٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محدق ... والداء ملء معالم الجثمان
٤٤ يبغي ويطغى والطبيب مضلل ... قنط ، وساعات الرحيل دواني
٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها ... دمع تُعالج كتمه وتعاني

٤٦ تملي وتكتب ، والمشاغل جمة ويداك في القرطاس ترتجفان
٤٧ فهششت لي حتى كأنك عائدي وأنا الذي هدم السقام كياني
٤٨ ورأيت كيف تموت آساد الشرى وعرفت كيف مصارع الشجعان
٤٩ ووجدت في ذاك الخيال عزائماً ما للمنون بدكّهن يدان
٥٠ وجعلت تسألني الرثاء ، فهاكه من أدمعي وسرائري وجناني
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطري لنظمت فيك يتيمة الأزمان
٥٢ وأنا الذي أرثي الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف في الورى **بقصائدي**
وتجل فوق النيرات مكاني
٥٤ ماذا دهاني يوم بنت فعقني فيك القريض وخانني امكاني
٥٥ هون عليك ، فلا شبات بميت إن المنية غاية الانسان
٥٦ من للحسود بميتة بلغتها عزت على كسرى أنو شروان
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها فهل استرحت أم استراح الشاني؟

***

٥٨ ياصب مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر ، فنم بأمان
٥٩ إخلع على مصر شبابك عاليا والبس شباب الحور والولدان
٦٠ فلعل مصرا من شبابك ترتدي مجدا تتيه به على البلدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته بعضَ المضاء تحرك الهرمان
٦٢ علّمت شبان المدائن والقرى كيف الحياة تكون في الشبان
٦٣ مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حاني
٦٤ أقسمت أنك في التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملكان

كذلك انتظمت لشوقي مرثاة في مصطفى كامل ، وسماها قصيدة ، لأنها لم تأب أن تستقر في قرطاس واحد ، ولقد كان أحرى بها أن تسمى أربعة وستين بيتاً منظومة في كل شيء أو في لا شيء . فاعتبرها أيها القارىء على هذا الترتيب ، ثم خذها على ترتيب آخر أربعة وستين بيتاً لم تزد ولم تنقص ، ولم تخسر حسنة كانت لها ، بل لعلها رحبت وعادت أحسن نسقاً وأقرب نظماً .

قال شوقي أيضاً :

١ المشرقان عليك ينتحبان   قاصيهما في مأتم والداني
١٤ وجدانك الحي المقيم على المدى   ولرب حي ميت الوجدان
٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها   فالذكر للانسان عمر ثاني
٦٤ أقسمت أنك في التراب طهارة   ملك يهاب سؤاله الملكان
٢٧ يا طاهر الغدوات والروحات والخطرات والاسرار والاعلان
٩ أبكي صباك ولا أعاتب من جنى   هذا عليك ، كرامة للجاني
١٩ وأحب من طول الحياة بذلة   قصر يريك تقاصر الأقران
٥٦ من للحسود بميتة بلغتها   عزت على كسرى أنوشروان
٣٦ شقت لمنظرك الجيوب عقائل   وبكتك بالدمع الهتون غواني
٥٥ هون عليك ، فلا شمات بميت   إن المنية غاية الانسان
٢٠ دقات قلب المرء قائلة له :   إن الحياة دقائق وثوان
١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى   هل فيه آمال لنا وأماني
٦٠ فلعل مصراً من شبابك ترتدي   مجداً تتيه به على البلدان
٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محدق   والداء ملء معالم الجثمان
٤٤ يبغي ويطغى والطبيب مضلل   قنط ، وساعات الرحيل دواني

٤٩ ووجدت في ذاك الخيال عزائماً ما للمنون بدكهن يدان
٦١ فلو أن بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان
٤٦ تملي وتكتب ، والمشاغل جمة ويداك في القرطاس ترتجفان
٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها دمع تُعالج كتمه وتعاني
٤٧ فهششت لي ، حتى كأنك عائدي وأنا الذي هدّ السقام كياني
٥٠ وجعلت تسالني الرثاء ، فهاكه
من أدمعي وسرائري وجناني
٤٨ ورأيت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
٥٤ ماذا دهاني يوم بنت ، فعقني فيك القريض ، وخانني إمكاني
٥٢ وأنا الذي أرثي الشموس اذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف في الورى بقصائدي
وتجل فوق النيرات مكاني
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطري لنظمت فيك يتيمة الأزمان

***

٥٨ يا صب مصر وياشهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان
٦٣ مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حان
٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن إحسان
٤١ لو صيغ من غرر الفضائل والعلا
كفن لبست احاسن الاكفان

٤٠ أو كان يحمل في الجوانح ميت	حملـوك في الأسماع والأجفان
٣٩ ولو ان أوطانـاً تصـور هيكلا	دفنـوك بـين جوانـح الأوطان
٤٢ أو كان للـذكر الحـكيم بقية	لم تأت بعـد ، رثيت في القرآن
٢ يا خادم الاسلام ، أجر مجاهد	في اللـه من خلـد ومـن رضوان
٦ يا ليت مكـة والمدينـة فازتا	في المحفلـين بصوتـك الرنان
٧ ليرى الأواخر يومذاك و يسمعوا	ما غاب عن قس وعـن سحبان
٣ لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى	في الزائـرين وروع الحرمان
٤ السـكة الكبـرى حيال رباهما	منكوسـة الأعـلام والقضبان

***

٨ جار التراب وأنت أكرم راحل	ماذا لقيت من الوجـود الفاني
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها	فهـل استرحـت أم استراح الشاني
١٠ يتساءلون : **أبالسلال** قضيت ،أم	بالقلب أم هل مت بالسرطان ؟
١١ اللّـه يشهـد أن موتـك بالحجا	والجـد والإقـدام والعرفان
١٨ المجـد والشرف الرفيع صحيفة	جعلـت لهـا الأخـلاق كالعنوان
١٢ إن كان للأخـلاق ركن قائم	في هذه الـدنيا فأنـت الباني
٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحاً	غاز بغـير مهـنّـد وسِنان
٢٠ يدعو الى العلم الشريف ، وعنده	أن العلـوم دعائـم العمران
٢٢ علمت شبان المدائـن والقرى	كيف الحياة تكون في الشبان
١٦ والخلد في الـدنيا وليس بهيّـن	عليا المناصـب لم تتـح لجبان
٢٣ فهي الفضـاء لراغـب متطلع	وهـي المضيق لمؤثـر السلوان
١٧ ولو ان رسل الله قد جبنوا لما	ماتـوا على دين ولا إيمان

٣٠ لفوك في علم البلاد منكساً   جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة   لكنما يبكي بدمع قاني
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة   وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكأنما في نعشك القمران
٣٣ وكأنه نعش الحسين بكربلا   يختال بين بكى وبين حنان
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم
إذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون : بأي قلب ترتقى   بعد المنابر أم بأي لسان ؟
٥٩ اخلع على مصر شبابك حالياً   والْبس شباب الحور والولدان
٥ لم تألها عند الشدائد خدمة   في اللّه والمختار والسلطان
١٥ الناس جارٍ في الحياة لغاية   ومضلل يجري بغير عنان
٢٥ ومنعم لم يلق إلا لذة   في طيها شجن من الأشجان
٢٢ للمرء في الدنيا وجم شؤونها   ما شاء من ربح ومن خسران
٢٤ والناس غاد في الشقاء ، ورائح   يشقى له الرحماء ، وهو الهاني
٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها   نعمى الحياة وبؤسها سيان

***

فانظر أيها القارىء : إلى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت ؟ على أننا قد تناولنا الأبيات ، عفواً كما بدرت لنا ، ولم نتحر الإقصاء في الترتيب . ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التي تعلق الاسم على الاسم ، ولا رابطة بينهما ، وصحفنا حروف العطف التي تصل الجملة بالجملة ، ولا تناسب بين معناهما ـ لم يكد يجتمع بيت من القصيدة على بيت ، وإنما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارىء نفسه : هل

قرأ في الشعر أشد تفككاً منها ؟؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي . وهل هي نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه ، فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد ، أم تقطرت من عقل ناضب يبض بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس ، وبخع النفس ، فتأتي كالرشاش : لا يتولد منه الا الوحل واليبس ؟؟

وقبل أن نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية ـ نبنه من يستبهم عليه الأمر الى أننا لا نريد تعقيباً كتعقيب الأقيسة المنطقية ، **ولا تقسيماً** كتقسيم المسائل الرياضية ، وإنما نريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر ، فتكون كما أسلفنا بالأشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا في هذه القصيدة .

(٢) الإحالة

أما الإحالة فهي فساد المعنى ، وهي ضروب : فمنها الاعتساف والشطط ، ومنها المبالغة ، ومخالفة الحقائق ، ومنها الخروج بالفكر عن المعقول او قلة جدواه ، وخلو مغزاه ، وشواهدها كثيرة في هذه القصيدة خاصة ، فمن ذلك قوله :

« السكة الكبرى حيال رباها   منكوسة الاعلام والقضبان »

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس ، لأنها لا تقام على أرجل ، وإنما تطرح على الأرض كما يعلم شوقي ، أللهم الا إذا ظن أنها أعمدة تلغراف . على أنها لو كانت مما يقف أو أن ينكس لما كان في المعنى طائل ، إذ ما غناء قول القائل في رثاء العظماء : إن الجدران أو العمد مثلا نكست رؤوسها لأجله ؟ ومنه قوله :

« إن كان للأخـلاق ركن قائـم (فيهذه الـدنيا)فأنـت الباني» .

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه ، وانتظم النطـق والأداء أجمعه على طريقته ونمطه ـ لما فهم الناس من الكلام شيئاً ، ولما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ، ضير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام في كل لغة ولأي قصد ـ إنما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين ، أو وصف يطابق موصوفه ، فإن لـم يكن كذلك فهو وبحـران المحمـوم وهذيان المجنون سواء ، والشعر إذا لـم يصح أن يقال في إنسان معلوم ، أو صح أن يقال في كل إنسان : في السياسي والعالـم والأديب والواعـظ والصانع ـ فهو الهذيان بعينه . فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ أيفهم أنه وحده هو الباني لكل ركن للأخلاق في هذه الدنيا ؟ إذن فماذا يقال عن النبي ان قيل هذا عن الزعيم السياسي ؟ وهل لا يصح حينئذ أن يقال هذا القول في قائد الحرب وفي جـوّابة الآفاق ، وفي خطيب المحافل ، وفي التاجر السري ، والوزير المحنك ، والمربي المرشد ، والمخترع الحاذق ، بل في كل إنسان بل في الناس جميعاً ، بل في مخلوقات الله وكائناته طرّاً من حي ونابت وجامد ؟ فإنه ـ على كل وجه صَرفته ـ قول خلا من الصدق والمدلول ، سواء أرثيت به حجـراً ، أم رثيت به كنفوشيوس الذي دان بمذهبه ألوف الملايين منذ ألوف السنين . ولا جرم ان كنفوشيوس ان كان سن للناس شريعة فما كل الأخـلاق في الشرائع ، وهب الشرائع مصدر الأخلاق كافة فليس كنفوشيوس وحده صاحب شريعة في قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالـم ، وهبها كل العالـم فما تاريخ (هـذه الـدنيا) تاريخ جيل واحـد . ولقـد كان مصطفى زعيماً سياسيّـاً يوقظ هذه الأمة ، فلو قيل فيه : إنه موقظ كل نفس

بمصر في عصره لما كان هذا حقا ؛اذ كم في مصر من رجل أيقظه ما أيقظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف ، وكم فيها من أناس لم يطرق صوته لهم سمعاً ولا قلباً ؟ فاذا زيد على ذلك « انه موقظ كل نفس بمصر في كل عصر » فقد صار الكلام لغواً وسفهاً . فاذا لم يكتف بهذا ، وقيل عنه : إنه « موقظ كل الناس من جميع الأمم في جميع العصور » فالأمر شر من اللغو ، وأقبح من السفه ـ هذا ومنا تجاوزنا دائرته من النهضات السياسية ، فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الإصلاح الأخلاقي ، فزعم أن ليس للأخلاق ركن قام في « هذه الدنيا » إلا وهو من بناء رجل ولد في أواخر القرن التاسع عشر ، وأنها من بنائه قبل مولده ، وحيث لم تخطر له قدم ، ولم يسمع لاسمه صدى ؟ إذن يكون بكم العجماوات خيراً من شعر الآدميين كما قلنا في فصل مضى .

ومن الإحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك في الثرى   هل فيه آمال لنا وأماني

لو سأل : هل في قلبك المدفون في الثرى آمال لنا وأمان لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . أما الذي يسأل ان يفتش فلا يصح أن يسأل : هل في قلبك آمال وأمان ، إلا في معرض التبكيت والتأنيب ، كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعي : يا هذا الذي يمشي ، هل أنت حي ؟ ولقد قال حكيم :

« تموت مع المرء حاجاته   وتبقى له حاجة ما بقي » .

فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله كبار

النفوس وبعيدي الهمم .

ومنها :

فلو ان رسل اللّـه قد جبنوا لَـما ماتــوا على دين ولا إيــمان

الصواب في اظهار فضل الشجاعة ان يقال : إنها لازمة في أصغر المطالب وأقرب الغايات كما يقال في إظهار فضل المال : إن الإنسان لا يقدر على أن يشتري إبرة بغيره ، ولا يقال في الدلالة على شدة لزومه ، وبيان الحاجة اليه ، إنه لا يقدر على شراء مدينة بدونه . ولو قال شاعرنا : إن أحقر الناس خليق ان لا يكسب قوته القفار بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، أما الاستشهاد على قدرها واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولاً ـ ففي وسع الناس قاطبة ان يقنعوا بما دون الرسالة ، فلا يحتاجوا الى الشجاعة اما إن قيل : إن الشاعر يعني أن الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم روح الله لا بد ان يكونوا شجعاناً حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو أفرغ منه . . وهل اذاً سمعت أيها القارىء رجلاً يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومتانة الخلق لو لم يكن قويّاً لما كان قويّاً ـ أكنت تظنه يخبرك بشيء يستحق ان ينظم في بيت شعر ؟؟ فهذا الذي يخبرنا به شوقي ، إن صح أنه يعني ما افترضناه .

ومن إحالاته :

فهي الفضاء لراغب متطلع وهي المضيق لمؤثر السلوان

والذي يقوله الناس ـ وشوقي منهم اذا شاء ـ إن فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وإن سعة الرحب تأزم بالطامح المتدفع ، لبعد آماد همته

وتطاول آناء طماعيته ، وقد يقولون : إن القانع السالي ينفسح له سم الخياط ، ويرحب به جحر الضب !! فأما القول بأن المطامع تفسح الدنيا ، والسلوان يحرجها ، فرأي لا يخطر الا على فكر كفكر شوقي المقلوب .

ومن هذه الإحالات هذه الفهاهة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف ، أما الصبر على نعماها فماذا هو ؟؟ ولكن ويحنا ! فقد نسينا أن المصائب والخيرات سيان ، فلا غرابة في أن يصبر الانسان على النعمة وان تبطره المحنة . هكذا يقول شوقي وما أصدقه ، فإننا لا نرى منحة هي أشبه بالمحنة من هذا الشعر الذي أنعم الله به عليه ، ولله في خلقه **شؤون** . ويقول :

يزجون نعشك في السناء وفي السنى فكأنما في نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فرداً ، والقمران اثنان ، فمن كان الثاني في ذاك النعش ؟ ولا يقال : إن صاحبنا أراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين ، لأن السناء هو الرفعة ، والسنى النور ، والشمس والقمر كلاهما رفيع منير ، فلو أنه قال : « كأنما في نعشك القمر » أو « كأنما في نعشك الشمس » لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين ، ولعمري كيف يكون النعش في السناء والسنى ، ثم يكون السناء والسنى في النعش ؟! وما هذا الرثاء الذي لا يتم الا بإلقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التي تزلزل الأفلاك ، فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم في كل حالة بأنه

كالشمس والقمر ، وبين الطفل الذي يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر : فالمدرسة سكر ، والكتاب سكر ، وأبوه سكر ، وبيته سكر . وكذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر ، وممدوحهم شمس وقمر ، ومعشوقهم شمس وقمر ، وأولادهم شمس وقمر ، ولا اختلاف بين امرىء وامرىء ، ولا بين حالة وحالة في جميع هذه الأوصاف .

ويقول عافاه اللّه :

وأنا الذي أرثي الشموس اذا هوت فتعود سيرتها من الدوران

إي والله ظاهر . لكن الشموس والأقمار والنجوم التي تباع الحزمة منها بخمسة مليمات ، وفي هذه نظر .

ويقول :

يا صب مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان

ونقول : إنما يرثى بهذا البيت غريب جاهد في سبيل مصر وهو بعيد عنها، فإذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء أن نتعلل بأنه سينام في ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات في وطنه : أحببت بلدك فنم في ثراه ، إذا كان لا يدور بخلد احد أنه سيدفن في غيره .

ومن مبالغته التي تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو ان بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله أراد المقابلة بين الشباب في البيت المتقدم والهرمين في هذا البيت ، ونحن ننعى على هذه المبالغة دائماً أنها لا تدل على شيء . فهب أنه قال :

فلو أن بالقطبين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان

أو قال :

فلو أن بالشطين من عزماته بعض المضاء تحرك الشطان

إلى آخر المثنيات التي تسكن ولا تتحرك ! ثم هب أنه قال البيت في رثاء مصطفى ، أو في رثاء باستور ، أو رثاء ابن زريق ، أو مشهور كائناً من كان ـ فماذا يختلف من المعنى ؟! ومتى كانت الأوصاف لا تتغير بتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟! .

ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبر أبر على عظامك حان

مصر أيها القارىء ـ ولا تخطىء فتحسبها القاهرة المعزية فانها مصر بريفها وصعيدها ـ مصر كلها ما هي الا قبر واحد . فلله در شاعرها يرثي رجلاً أحيا نهضة في بلاده فيجعلها قبراً ، ولأي ضرورة ؟ وليدل على ماذا ؟ لا شيء .

وقد اجتزأنا بهذه الأبيات ، لا لأنها كل ما في القصيدة من شواهد الاحالة ، واعوحاج الطبع ، بل لأنها ذات طعم وإن كان رديئاً ممجوجاً ، وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة ان القصيدة بجملتها بنت الإحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فإنما أكثر سلامته من الخلو لا من الإتقان .

(٣) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني ،

وأيسره على المقلد الأقتباس المقيد والسرقة ، وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة . فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها   فالذكر للإنسان عمر ثاني

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني ،وحاجته   ما قاته ،وفضول العيش أشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم   إذ ينصتون لخطبةوبيان

شوّه فيه معنى أبي الحسن الأنباري فوق تشويهه ، وذاك حين يقول في رثاء الوزير أبي طاهر الذي صلبه عضد الدولة :

كأنك قائم فيهم خطيباً   وكلهم قيام للصلاة

ونقول شوهه لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به ، وإنما يفعل ذلك اللاعبون في المعارض المتنقلة ، وقوله :

أو كان يحمل في الجوانح ميت   حملوك في الأسماع والأجفان

مأخوذ من بيت ابن النبيه في قصيدته التي لم تبق صحيفة لم تستشهد بمطلعها :

الناس للموت كخيل الطراد   فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت في الترب ، ولو انصفوا   ما كنت الا في صميم الفؤاد

على أن المعنى مرذول بلغ من ابتذاله وسخفه ان تنظمه « عوالم » الأفراح في أغانيها ، وحسب الشاعر ألا يكون أبلغ ولا أرفع من القائلات

« أحطك في عيني يا سيدي واتكحّل عليك » وإنه ليقول كما قلن :

ولـو ان لي علـم ما في غد خبأتـك في مقلتي من حذر

وقوله :

أو كان للـذكر الحـكيم بقية لم تأت بعد ، رثيت في القرآن

منظور فيه الى بيت المعري :

ولو تقـدم في عصر مضى نزلت في وصفـه معجـزات الآي والسور

وهذا البيت :

أو صيغ من غرر الفضائل والعلا كفـن لبسـت أحاسـن الأكفان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسـك ريّـا حنوطه ولـكنـه ذاك الثنـاء المخلف .

فما أضاف شوقي الى هذه المعاني سوى أنه جعل الأكفان تصاغ ، وأنه تحذلق ، فقال :

فلـو ان أوطانـاً تصـور هيكلاً دفنوك بين جوانـح الأوطان

يريد جسداً ، كأنه يحسب أن الأوطان إن لم تصور جسداً لم يدفن الفقيد النابه فيها !

وربما سرق شوقي ما لا يستحـق ان يسرق فهـذه شطرتـه : « لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى » أليسـت هي شطـرة الشريف الـرضي في إحدى همزياته : « لما نعاك الناعيان مشى الجوى » .؟!

وكذلك هذه الشطـرة « إن المنية غاية الانســان » هي من قول الشريف أيضاً : « إن المنية غاية الإبعاد » . وكأن القـافية صدتـه عن انتهاب الشطرة كلها فعاد اليها في رثاء فريد إذ قال :

مـن دنـا أو نأى فإن المنايا غاية القرب أو قصـارى البعاد

فأتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته في فصل على حدة .

(٤) الولع بالأعراض دون الجواهر

ويشبـه الإحالـة من عيوب المقلـدين ولعهــم بالأعــراض دون الجواهر ، وهو العيب الرابع الذي اخترنـا الـكلام عليه من عيوب هذه القصيدة الدالة على أنماط التقليد ومذاهبه . بيد أن الفرق بينهما كالفرق بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ، ولـكل منهما سبـب يمـت به الى الآخر ، إذا تشابها في الصدور عن طبع أعوج وعقل فارغ ، وقد يسهل التفطن الى الإحالة ، ولكن التفطن الى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة ، كما يعسر على الأطفال ادراك رزانة الرجـال . انظر أيها القارىء الى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائلة له : إن الحياة دقائــق وثواني

فإنـه بيت القصيد في رأي عشـاق شوقـي ، فعلى أي معنـى تراه يشتمل ؟ معناه أن السنة أو مئة السنة التي قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ،فهل إذا قال قائل : « إن اليوم أربع وعشرون ساعـة ، والساعـة ستـون دقيقـة » يكون في عرف قراء شوقي قد أتى بالحكمة الرائعة ؟! ولكنهم يقولون لك : « إنه قرن بين

دقات القلب ودقات الساعة ، وهذه هي البراعة التي تعجبنا ، وبها هدانا الى واجب الضن بالحياة » ـ وهنا يبدو للنظر قصر المسافة التي يذهبون اليها في إعجابهم ، وأن بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعاني النفسية ، بل بمشابهات الحس العارضة ، وإلا فلو قورن بين الساعة والقلب أيام كان يقاس الوقت بالساعات المائية أو الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى ؟ وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقة بدقات الدقائق والثواني يستنبط منها الإنسان سر الحياة ؟ أبهذه العوارض يقدر الأحياء نفاسة حياتهم ؟ وهل يتوقف المعنى الذي ينظم في الحياة الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارىء ؟ ولقد قلنا في نقدنا لرثاء فريد : إن الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها ، ونعيد هذه الكلمة هنا ، ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ، ولا تقوم على مشابهة زائلة . فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا أن أحدهم لو سمع ناصحاً يعظه في موقف جد ـ وأي موقف جد أجد من رثاء النابغين ـ فيناديه : « يا أخي صن وقتك ، لأن قلبك ينبض ، كما تنبض الساعة » لأغرب في الضحك ، ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك في عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعراً يطرب له ويكبر قائله وما ذاك الا لحسبانه أن الهزل جائز في الشعر فكاهة وحكمة ، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان :

لفوك في علم البلاد منكساً ... جزع الهلال على فتى الفتيان
ما احمر من خجل ولا من ريبة ... لكنما يبكي بدمع قاني

وللعلم جوهر وعرض ، فأما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد الأمة وحوزتها ، وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية ، وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة ، وليس لهما قيمة فيما ترفع الأعلام لأجله ، فشوقي يولع بهذا العرض اذا هو نظم في العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب أنه ما كان يذكر لف نعش المرثي بالراية المصرية لو لم تكن حمراء ، كي يكون لونها دمعاً ، ودمعها دماً منزوفاً . وليست هذه هفوة أو فلتة بدرت منه هنا ، بل هي دأبه كلما وصف علماً ، فقد قال في وصف الهلال الأحمر :

كأن ما احمرَّ منه حول غرته	دم البراءة زكّى شيب عثمانا
كأن ما أبيضّ في أثناء حمرته	نور الشهيد الذي قد مات ظمآنا
كأنه شفق تسمو العيون له	قد قلد الأفق ياقوتاً ومرجانا
كأنه من دم العشاق مختضب	يشير حيث بدا وجداً وأشجانا
كأنه من جمال رائع وهدى	خدود يوسف لما عف ولهانا
كأنه وردة حمراء زاهية	في الخلد قد فتحت في كف رضوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالياقوت والمرجان في لون الشفق ، حتى الدم اذا ذكره يكون خضاباً لشيبة ، أو دم عشاق . فيا للطافة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدوداً من حيث خلق الله له خدين ، ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها ، بل ليته طابق الواقع المحسوس اذ هو قد وصف هلالاً أبيض في أثناء حمرة ، والهلال الأحمر على عكس ذلك ، كما يدل اسمه عليه لو انه تنبه اليه ـ ومع هذا فاني لأقسم أن صاحبنا رص هذه (الكأنَّات) في أبياته الستة ويخيل اليه أنه لو تقدم به الزمن عهد عمر بن الخطاب لقال :

أشعركم من يقول : « كأن وكأن » لا من يقول : مَـن ومَـن .

ومن الغباء العجيب ان يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة على نعش بطـل من أبطـال الـوطنية ، فيسرع بنفـي الخجـل والريبـة عن احمرارها ، كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى أن يظن بها الناس الظنون وهي بريئة عفة ! اذ ما الذي يخطر على باله الخجل والريبة في هذا المقام ، وهو يرثي الرجل الذي يخاطبه قائلاً :

إن كان للأخـلاق ركن قائـم   (في هذه الدنيا) فأنت الباني

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت أين تنتهي بصاحبها !! وليت شعر شوقي اذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟ أكان لا يرى للف النعش بها أي معنى ، لأنها لا تبكي بدمع أحمر ؟؟

تلك آية شوقي ومعجزتـه : آية السيمياء ، معجـزة الشعـوذة . كومة الرمل كما قلنا في أول المقال . ولقد أتم فيها امتساخ الطبائع بمخالفة الواقع . فجاءت معرضاً مختاراً من الأغلاط ، وسملاً مرقعاً من النشوز والاختباط ، وما كان يسعه أن يخرج نفسه خلقاً آخر . فيأتي بالمستوي من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم في أغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه أن يعلم أن السكة الحجازية لم تصل الى مكة ، فلا يقول :

لما نعيت الى الحجـاز مشى الأسى   في الزائـرين وروع الحرمان

السـكة الكبـرى حيال رباهما   منكوسـة الأعـلام والقضبان

والحرَمان في الحجاز هما الحرَم المدني والحَرَم المكي ، وكل قارىء للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم أن ليس حيال ربا مكة سكة كبرى ولا صغرى وكذلك هي حتى الساعة .

وكان في مقدوره أن يعلم أن الحسين لم يشيع في موكب حاشد كما شيع مصطفى ، فلا يقول في وصف نعشه :

وكأنه نعش الحسين بكربلا   يختال بين بكى وبين حنان

وقد رأيناه يغير على قصائد الشريف ، أفتراه لم يفقه رائيته التي يقول منها فى مصرع الحسين :

وخر للموت لا كف تقلبه   إلا بوطء من الجرد المحاضير
كأن بيض المواضي وهي تنهبه   نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش أن تدنو لمصرعه   وقد أقام ثلاثاً غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة ، ومن العامة من يستظهر خبره ، ويعلم كيف أنه قاتل حتى أثخن بالجراح وأنه ـ لا حيا الله قاتليه ـ مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ، ثم ديس بالخيل ، ورض جسده واحتز رأسه ، وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم أرسله الى يزيد في خبر فاجع لا حاجة الى تفصيله . وأنى لمن يموت هذه الميتة أن تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه في المواكب ؟؟ ولا نقول يختال بين البكاء والحنان ، فما من أحد ينسب الاختيال الى النعوش الا من كان نعشاً مختالاً كهذا الذي لا يميز بين تشييع قتيل الى قبره وزف عروس الى خدرها ، فإن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذي يحتفل به الشيعة كل سنة تذكاراً لوفاة الحسين فالخطأ أعظم وأقبح ، لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب ، فما رأيناهم يحملون نعشاً ، وإنما يقتادون جواداً مسرجاً ملجماً ، لأنهم أزكن من شوقي وأدرى بما ينبغي ان يذكر به يوم الحسين . إذ كانوا يحتفلون بمصرعه في ميدان حرب لا بمدفنه في الثرى .

كان يسعه ألا يقول ذلك ، كما كان يسعه أن يسكت ، ولكن ألهم أن يستقصي عاهات الشعر ما يتداركه منها إذا شاء ، وما لا يتداركه ، وأن يجتهد في ذلك كأنه يكافأ على مجهوده ، وهو في الحقيقة يكافأ المكافأة التي يستحقها ، فإنه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ، ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع عنه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة ، أو يقال عنه : إنه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون . .

ولا ندع هذه القصيدة التي ملأها شوقي بما يسميه حكمة وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبي ومضارعة المعري ، قبل أن نكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم ، وأن نروز تلك البديهيات وأشباه البديهيات التي يتصنع شوقي بها الحكمة والرشد ، لعله يريحنا من هبنقياته ويريح نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة في الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهي من أصعب الشعر مراماً وأبعده مرتقًى ، لا يسلس قيادها لغير طائفة من الناس توحى إليهم الحقائق من أعماق الطبيعة ، فتجري بها ألسنتهم تنفح ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ، ويلقي أحدهم بالكلمة العابرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هي فصل الخطاب ومفرق الشبهات ، تستوعب في أحرف معدودات مالا تزيده الأسفار الضافية الا شرحاً وامتداداً . وتسمعها فتشع في ذهنك ضياءها ، وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ، ويأتلف القدم والجدة . . . قدم الحقيقة كأثبت ما تجلوها الحياة المتقلبة وجدة النظر الثاقب ، والنفس الحية التي تطبع كل مرئي

طابعها .

فهي تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الأزل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق : كبيتي المتنبي اللذين يعدد فيهما من تصفو له الحياة ، وهما :

تصفو الحياة لجاهل ، أو غافل عما مضى منها وما يتوقع ،
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

فالجاهل من لا يعي ، والغافل من يعي لو شاء ولكنه لا ينتبه ، والمغالط نفسه واعٍ منتبه يحجب بيده ما تبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذي قسم لهم من الشعور بها ، ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انساناً غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ، ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكأن قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها ، كقول طرفة بن العبد :

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى لكا لطِّوَل المرخَى وثنياه باليدِ

وهذا أجمل ما يقال في بحبوحة العمر المرتهنة بالأجل .

وطوراً تصل طرفي الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحتري :

متى أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

وطوراً نصدع برأي يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز تضرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل ، كقول المتنبي المأثور :

والظلم من شيم النفوس، فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

أو كقول أبي فراس :

ما كل ما فوق البسيطة كافياً فإذا قنعت فكل شيء كافِ

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع ، أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ، ومنها بيت العباس بن مرداس :

بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاة نزور

فليس الشأن كذلك في كرائم الطير فحسب ، بل هو مما يطرد كثيراً في كل نسل ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها وضوح المألوفات ، كما صنع الأفوه الأودي بهذا البيت الفذ :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الأقلام بحثاً وتنقيباً في علوم الاجتماع ، وكلت القرائح تدبراً وإنعاماً في شؤون الأمم ، وراقبت الدول على سنن شتى من الأنظمة والدساتير، فما خرجت كلها بزبدة أوجز ولا أصدق ولا أتم من هذه الحكمة التي اهتدى اليها هذا البدوي الناشىء في عصور الجهالة ، وإنك لا تزن أمة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والإصابة .

هذه هي الحكمة الصادقة ، وهي كما ترى غير مقصورة على إيراد الحقيقة المسلم بها ، وإنما هي الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصيبة والفطنة النافذة واللسان البليغ ، وبغير ذلك لا تكون الحكمة إلا ملكاً مشاعاً للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتذلة أو مغشوشة معتملة ، أشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ، ولا لسابق على ناقل ، إذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطىء النهر الغزير ، وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجير ، وأحمق ممن يحفر البئر على شاطىء النهر من يروح ويغدو ينظم من أشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التي حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية (كالعلم نافع ، والصدق منج ، والبركة في البكور ، واحترم الأستاذ تتقدم ، وفي العجلة الندامة وفي التأني السلامة) وما إلى هذه النصائح والأمثال والحكم ـ ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها :

لي دولـة الشعـر دون العصر وائلة مفاخـري حكمـي فيهـا وأمثالي ! !

فهل يدري القارىء من صاحب الحكم والأمثال الفخور ؟؟ إنه هو شوقي ، ثم هل يدري ما حكمه وأمثاله التي استتبت له بها دولة الشعر ؟؟ هذه هي :

عليكم لواء العلـم فالفوز تحته وليس إذا الأعـلام خانـت بخذال

***

والعلم في فضله أو في مفاخره ركن الممالك صدر الدولـة الحالي

***

يقل للعلـم عنـد العارفـين به ما تقـدر النفس من حب وإجلال

***

بالعلم (تمتلك) الـدنيا ونضرتها ولا نصيب من الـدنيا لجهال .

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الأول ،

نحـو (العلـم نور ، من عاشر العلماء وقـر ، تعلـم العلـم ، احفـظ الدرس ، حلي النساء الذهب وحلي الرجال الأدب) وليسأل نفسه : ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته ؟ وأي ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه ؟ وماذا فيها من وحي الشاعرية ، وإلهام البصيرة ، ونهية العبقرية وأصالتها ؟ أليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟

ومن أركان ملكه أعزه اللـه هذه الجمـل المركبـة من ست كلمات فأكثر ـ فليتلق الوحي أناس حجبوا عن صفاء الشاعرية ، وليستفيدوا :

المـحسـنـون هـم اللبا ب وسائـر النـاس النفاية

***

إن القضـاء إذا رمـى دك القواعـد من ثبير

***

والمـال لا تجنـى ثمار رؤوسه حتى يصيب من الرؤوس مدبرا

***

الجـد غاية كل لاو لاعب عنـد المنية يجـزع المفراح

***

سر في الهواء ولـذ بنـاصية السها ألموت لا يخفى عليه سبيل

***

فـلـم أر غـير حكم اللـه حكماً ولـم أر دون باب اللّه بابا
وإن البـر أبقـى في حياة وأبقى بعـد صاحبـه ثوابا
ومـن يعـدل بحـب اللـه شيئاً كحـب المال ضل هوًى وخابا.

***

ومـا الـرزق مجتنـب حرفة إذا الحظ لم يهجـر المحترف

***

ما الدين إلا تراث الناس قبلكم كل امرىء لأبيه تابع تالي

***

ومن العقول جداول وجلامد ومن النفوس حرائر وإماء

***

إرمِ النصيحة غير هائب وقعها ليس الشجاع الرأي مثل جبانه

***

ولعمري لقد كانوا يقصون علينا ونحن أطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمال وهي الحكاية التي يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة ، فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمي بحكمه الثلاث للحمال واحدة في إثر واحدة ، فيفهمه متئداً أنه « إن آل لك حد الراكب مثل الماشي أول له بتفشر وإن آل لك حد : الغني مثل الفقير ، أول له : بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوي أجرة « شيلة » حتى رأى شوقي أن يسمعنا نظماً « إن آل لك حد الشجاع مثل الجبان أول له بتفشر . » فآمنا بخرق ذلك الحمال الذي لم يقدّر ما قبضه من الأجرة الغالية !!

وهل علم أحد أن المسافر إذ آب فقد آب قبل أن يقول شوقي :

وكل مسافر سيؤوب يوماً إذا رزق السلامة والإيابا

أم علموا الحق حتى أخبرهم به مستغرباً جهلهم سائلاً إياهم :

أليس الحق أن العيش فان وأن الحي غايته الممات

أليس كذلك أم ماذا بالله ؟!

أم حكم أحد الأحلام الا حين علموا منه أن :

الحق أبلج كالصباح لناظر لو أن قوماً حكموا الأحلاما .

ومن أمثلة حكمته المغشوشة المعتملة قوله :

لئن تمشى البلى تحت التراب به   لا يؤكل الليث إلا وهـو أشلاء

والبيت من قصيدة شكسبير ، ومعناه أن جثة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها ، أي أنه لم يمزقها حتى مزقها ، ولم يبلها حتى أبلاها ، ولم يتلفها حتى أتلفها ، ولم تتفتت هي حتى تفتتت مهابة وإجلالاً !! . . وأنه لما أكلها أكلها ولكن بعد تقسيمها كما أن الأسد لا يؤكل إلا عضواً عضواً . .

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين ، والأرض والسماء ، المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والرثـاء ، المنعـم عليهـم بالـذكر والايماء ، تصفيق متواصل . . لا . بل ضحك تتجاوب به الأصداء ، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرسـاء . . فطـرة ملك الشعـر وأمير الشعراء .

فيا هذا ، إن جثة شكسبير ليست بموضع العظمة منه لأنها في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة أجساد كثيرة ، وهي في الموت رفات تبلى كما تبلى بقايا الأحياء من أكملها الى ادناها . ولـو جاز ان يعظـم أحـد بأن يقال : إن الموت يتهيب جسده ، لكان ذلك أليق بأبطال الحروب ، إذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على أقرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبي يقول في أبي شجاع :

« مـن لا تشابهـه الأحياء في شيم   أمسى تشابهه الأموات في الرمم »

وهو من نعلم مخضأ الحروب ، وابن الكريهة ، وحلس الخيل ، كانوا يلقبونه المجنون لإقدامه وتهجمه ! فما بال من كان اللب والحجى

فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟! وعلى أنه لا معنى لأن يقال : إن البلى تهيب ان يتمشى فيه إلا بعد تقسيمه ، لأن تمشيه فيه هو التقسيم ، ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل الا وهو أشلاء ، لأن الشأن كذلك في كل مأكول ، فالفأر أيضاً لا يؤكل الا وهو أشلاء ، والدجاجة لا تؤكل الا وهي أشلاء ، بل حتى الأرز لا يؤكل الا وهو أشلاء ممضوغة ، وما من شيء يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جميع الآكلين . وصاحبنا يرثي شاعراً فيخلط هذا الخلط ، فعافاه الله أي نوع من أنواع العظمة يفقه إن كان لا يفقه العظمة التي يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟؟ وأين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء إذا صح فيه فإنه يصح في كل حيوان ؟؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحكمة اليه فيلحقها بوظيفة كتاب الإعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمة إن كنت فهمْ	إن عزرائيل في حلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل	من توقاه اتقى نصف العلل
واتخذ سكناك في طلق الجواء	بين شمس ونبات وهواء
خيمة في البيد خير من قصور	تبخل الشمس عليها بالمرور

ونقول؛ إن كانت هذه حكمة وشعراً فلم لا يكون كاتب: « احترس من النشالين » و« إن أردت النزول اطلب من الكمساري توقيف القطر » ـ نابغة يستملي الحكمة ، ويستمد وحي الشعر ، ويرتجل البلاغة ؟؟

وتكميلاً للبيان المتقدم نورد هنا أبياتاً يجوز أن يكون معناها مطروقاً

شائعاً ويجوز أن يكون من جوامع الكلم ، ليتبين كيف يتناولها الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته ، وكيف تعن للنظام المقلد فتبقى كما هي .
ونختارها من معان ورد مثلها في شعر المتنبي الذي يقتفي شوقي أثره ويطمع أن يجاريه وهذا بعضها :

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتّال

***

إلف هذا الهواء أوقع في الأ   نفس أن الحمام مر المذاق

***

من أطاق التماس شيء غلاباً   واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

***

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

***

لا يعجبن مضيماً حسن بزته   وهل تروق دفيناً جودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع الدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهي قد كان يمكن أن تقع لشوقي من ذخيرة الأحاديث المشاعة فتسمعها منه كعادته في نقل هذه الأحاديث منظومة فاذا هي مثلاً :

« الجود مفقرة والإقدام مقتلة . الحمام مر المذاق . القوي مغتصب ، من هان سهل عليه الهوان . لا يزين الذليل حسن البزة » وهكذا عهدنا الأمثال العامة ، فإذا شئت أن تزن الحكمتين بميزان الصحة فكلاهما صحيح ، ولكن ليست الصحة الواقعية هي ما نطلب من النفس

الملهمة ، والطبيعة المشرقة ، والسريرة العميقة ، وإنما المصدر الذي تبجست منه ، والشخصية التي طبعتها ، بصورتها والقلب الذي خرجت من لدنه والحجة التي صيرتها مقنعة شافية ـ هي بغيتنا من نجوى الالهام ، وهي التي يرتوي منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبي « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ثم يتمم المعنى لأن هذه الشطرة التي لا تزيد البيت صحة تزيده حياة ، وتنبئنا وحدها بأن في البيت حقيقة أقرب الينا وحجة ألصق بنا ، وثمرة أجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التي تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بأنها « إلف هذا الهواء » فهل ترى أصدق من هذا التعبير ؟ أليس المتنبي قد لمس به سر كل تركيب في هذه الموجودات التي ليس كيانها الا عادة تألفها زمناً ثم تتبدلها ؟ ومثل ذلك يقال في بقية الأبيات .

وصفوة القول ان الحكمة المبتذلة أيسر ما يتعاطاه النظامون . لأنها صوغ متاع مشاع ، على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية مساساً ، ولن يقاربوها ولو اختلاساً لأنهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم ، ولن يحسنوا مضاهاته وإن اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس في بعض أقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية ، لما يبهرهم من رنين صياغتها ، وبريق طلائها ، فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين أن أرقى ما يرتقون اليه أن يأتوا بكلمة مقبولة في شؤون المعيشة ، وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية : فأما الأولى فبنت المران والمكابدة ، تقرأ آلافاً من أمثالها في كتب اللياقة ونصائح « إياك وحذار ، وعليك » وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة ، وثمرة التفوق في شمائلها المقدسة ، وضمائرها السرمدية ، كتابها صفحات

الأكوان وسريرة الإنسان ، ومن ينابيعها تتفجر العقائد والأديان ، وتنبثق روح الرشد والبيان . الأولى لون من ألوان البيئة المكتسبة ، والثانية قبس من نور الحياة الدائمة وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لا شك في غلبة الصناعة عليه ، كالحريري على ما أذكر حين يقول :

كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشباك مختلفات

ولكنها فلتات لا يقاس عليها . ولقد ذاع لشوقي بيت سوقي ، فظن أنه سقط على كنز وطار به كأنه لا يصدق أنه له ، أو كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به ، وهو :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرره فقال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تولت مضوا في إثرها قدما

ثم كرره أيضا في قوله :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول :

ملك على الأخلاق كان بناؤه من نحت أولكم ومن صوانه

وكرره في نشيده وفي قصائد أخرى ، وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل إن كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغي اليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الأمم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ،

ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف . فإنما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية او حقائق التمرينات الأولية .

ورحم اللّه القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس في بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشي ولها ذنب
لا تغضب يوماً إن شتمت والناس اذا شتموا غضبوا

إلى أن يقول :

الناقة لا منقار لها والوزة ليس لها قتب

وكثير في قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه أن يقال فيها : إنها سخيفة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الظرف ، ولكنه يطمع بالسخف البحت أن يستأثر بدولة الحكم والأمثال .

وقلنا : « إن كان للبيت مدلول » ، لأن البيت في الحقيقة لا مدلول له ، فلو أنك حذفت كلمة « الأخلاق » وجعلت مكانها أصفاراً ـ لما نقص من معناه شيء ، لأن هذه الكلمة لا تؤدي معنى محدوداً في الذهن ، فقد تكون بمعنى الآداب : كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطباع كالعناد والمراءاة والدهاء والبطش ، وهو ما يفهم أحيانا من كلام الإفرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوي الطبائع البارزة والحيوية المتينة ، فأي المعنيين يقصد شوقي ؟؟ إن من الأمم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى ، وقد تعد الكذب والسرقة فضلاً ، وهي مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها

الانقراض العاجل أو البوار . والتاريخ غاص بسير هذه الأمم ، وإن منها لما تحمد سجاياه ، ثم لا تلفيه من القوة على نصيب وافر . فليقل لنا شوقي : ما غناء بيته إن كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل ؟

ولقد أضحكنا مرة أحد الثراثرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون ، فقال لنا : إن البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس ، وإن في ذيوع بيت شوقي لدليلاً على قيمته . فقلت له : يا صاح ، أشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردي :

لا تقل أصلي وفصلي أبداً ‏ ‏ ‏ ‏ إنما أصل الفتى ما قد حصل

فإن كان لهذا الشعر قيمة فهنيئاً لنا ! ، إننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم ، بل هنيئاً للإنسانية ، فإن الشمس لا تطلع الا على الحكماء من أبنائها .

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الأستار ، وبقبر النبي المختار . أقسم بفاطمة الزهراء ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسيني والضريح الزيني ومقام السيد البدوي ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلي . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما ان دفنوا بالأمس إلاّ نيرة . .

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الأقسام استهل شوقي رثاءه للأميرة المحسنة فاطمة بنت إسماعيل ، وهي منثور قوله :

حلفت بالمسترة والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء في الحظائر المنورة
مراقد السلالة الطيبة المطهرة

ما أنزلـوا الى الثـرى بالأمس الا نيرة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج الى قسم لأقسمت له بكل قبلة ومقام ، وبكل نبي وإمام ـ انه لنسيج وحده في فكاهة الرثاء ، إن كان للرثاء فكاهة ، ولم ـ لعمر اللّـه ـ لا يكون له فكاهة وقد أرانا شوقي في مراثيه أجمع فنّاً مبتدعاً منه . وطفق يبكي من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزاح ، ويقترن العبث بالمدح ؟ أفرأيت أحداً قط يقسم لك على صدقه في تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى التكذيب أو يتقـي أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة ـ غير شوقي ؟ وإذا اطرد هذا في جميع شعره فلم لا نحسن الظن ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد في بابه ونتخذ له اسماً في أصول البلاغة مصطلحاً عليه : فكاهة الرثاء مثلاً كما قلنا . أو اسماً آخر مقبولاً لديه إن لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وإنها لكثيرة طويلـة بحمـد اللـه الـذي لا يحمـد على المكروه سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون في اختراع شوقي لهـذا البـاب واطـراده في قصائده جميعاً وفي أبيات القصيدة الواحدة ، نقول : سنريهم أنها ليست بفلتة نظم ، أو هفوة خاطر ، ولكنها أصول يرعاها ، ورسوم يعيها ولا ينساها ، وإلا فلو كان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمـة المداجـاة فلتـة سبقت بها قريحته في مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه الى أن يقول بعده :

دع الجنـود والبنو   دوالـوفـود المحضرة
وكل دمـع كذب   ولوعـة   مزورة

ألا إن الأمـر بيِّـن لمن ينصفـون . . فالشاعـر بدأ قصيدتـه بالقسم ، فأشعرنا الريب واتهم نفسه في ثنائـه ، ثم عاد فذكر الدمع

الكذب واللوعة المزورة ، فأرانا حكمة ذلك القسم ، وأنه لم يبدر منه جهلاً بفنون الرثاء وإنما تفنناً واختراعاً لم يسبق اليه ، ونرجو ألا يبارى فيه . . فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير أسمائها . فلا بد إذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف ، وعليه هو تحرير قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجه .

***

عجيب واللّه أمر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ أشبه بالتعمد ، ولا توقراً أقرب الى المجانة من هذائه في رثائه . وما التبس الهزل بالاجلال قط التباسهما في تأبينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف ، ومبرات الأميرة أشهر من أن يرتاب فيها أو يتنازع عليها !! وهبها لم تكن كذلك فهل جرت العادة ان تؤيد المآثر ـ إذا لم يصدقها الناس ـ بالايمان أو البراهين في قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز عن هذا ونسأله : ما باله يفترض أن الناس تبكي على الأميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضروري هذا ليقول بعده : إن الدموع الكاذبة لا تغني عنها ، وإنه :

لا ينفع الميت سوى صالحة مدخرة

أيقول ذاك لأن الدموع اذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت وأغنته عن الصالحة المدخرة ؟؟ فإذا كان التباكي كالبكاء في هذا المعنى فلم هذا السخف الذي يغض من المبكية والباكين وليس له من جدوى ؟؟

***

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلاًّ من النقد لولا اننا نريد أن

يلمس ضعف تمييز شوقي عن التفرقة بين حالات النفوس ضعفاً لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا أننا سمعنا بيتين منها يرددان في معرض الاستحسان فأحببنا أن نمسح الرغو عن محضهما لمن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الأول وهو :

فاطـم من يولـد يمت المهـد جسر المقبرة

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين اليه أبا العتاهية حيث يقول :

قد عبروا الـدنيا الى غيرها فإنما الـدنيا لهـم معبر

وفصله المعري وقسمه فقال :

حياة كجسر بـين موتـين: أول وثـان ، وفقـد المرء أن يُعبـر الجسر

وهو أوضح وأوجز في قول محمود الوراق :

اغتنـم غفلـة المنية ، واعلم أنمـا الشيب للمنية جسر

فالذي صنعه شوقي هو أنه سرقه وشوهه كعادته ؛ لأنه جعل المرء يخرج من المهد الى المقبرة ، وما نظن الناس يموتـون كلهـم أطفـالاً !! والصحيح أن المهد أول مراحل الجسر ، والحياة بمراحلها المتتالية بقيته .

والبيت الثاني أو هو بيت القصيد في رأيهم قوله :

يلفظهـا حنظلة كانـت بفيه سكرة

يعني الروح . وقد كان يخطر لنا أن نمتـدح كل بيت في القصيدة خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب في تضاد الأذواق وانتكاسها ، فقد

دل به شوقي على سقم تعبيره وأراد أن يقول : إن المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت ، فعكس المراد لأنه كنى على صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ، ولفظها محبوب يرتاح الانسان اليه لما فيه من إزالة المرارة عن فمه ، ولو أنه قال :

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب في تمثيل تأفف الانسان من الحياة ، حتى إذا أدركه الموت حلا مذاقها لديه وكره أن يلفظها كأنها « السكرة » !! ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشي على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوساً . .

ومن ترهات شوقي التي يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكل نفس في غد ميتة فمُنشرة

فالنفوس لا تموت في غد فحسب ، ولقد ماتت نفوس لا تحصى أمس وأول من أمس وقبل ذلك بآلاف السنين ، وهي تموت اليوم بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى ان يقول : إن كل نفس تموت منشرة غداً ـ فخانه الأداء وخذلته العبارة ، وهي لو استقامت له لما جاء بطائل .

وأما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين إثباتها وانتقادها ، وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقي فلا نضرب في الهواء ، ولا نطرح في البوتقة الحصباء ، والشعر إذا تساوى فيه النقد والإغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ما هذا يا أبا عمرو ؟؟

مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيق الفكر مدرع الوجه ، يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء أحياناً ، وكثيراً ما يخطئون السداد بتريثهم وطول اناتهم ، وطالما نفعه التطوح وأبلغه كل أربه أو جله ، إذ يدعي الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه ، فتجوز دعواه ، وينفق إلحافه عند من ليس يكرثهم ان يخدعوا به. بيد أن الاعتساف ـ إذا كان رائده الخرق في الرأي ـ وشيك أن يوقع صاحبه في الزلل إحدى المرار ، فيضيع عليه ما لو علم أنه مضيعه لفداه بكل ما في دماغه من هوس ، وما في لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعي ، فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه ، وأن قدميه أسلس مقاداً من رأسه ، لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقي .

وهو بعض ما ننظر اليه من شعره ، وجماع ما ينظر اليه الرافعي ، لأنه لا يبالي اذا سقط النشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقي جوهرة ، وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة !! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنده مصمية ولا مدمية ،

وسرق بل انتهب منا الكنانة والذخيرة ، فلم يدع في طبعة نشيده الثانية وجهاً من أوجه النقد التي أتينا بها الا انتزعه وسدده ، وفاته أن القذيفة لا يرمى بها مرتين ، ولا تصيب من منزعين . ولقد أحسن بنا الظن وأساءه ، فلم يستغن عنا ، ولم يقدر فينا التنبه الى صنيعه ، وما له ـ عافاه الله ـ يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ، ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على غير سياجنا ؟؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الاعذار ، ولكنه أذن لنفسه بغاية الإفراط ، ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط ، فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامي كما تكني نفسك أو يا أبا عمرو كما تقول للجنة الأغاني في خطابك ، فإن صاحب « المساكين » حري أن لا يغتصب بالسيف كما صنعت وفي رائعة النهار .

قلنا في نقد نشيد شوقي ، إن النشيد القومي يجب « أن لا يكون وعظاً بل حماسة ، ونخوة ، وأن يكون موضوعا على لسان الشعب » .

فرجع صاحبنا أبو عمرو الى نشيده فحوّر منه ما استطاع بضمير المتكلم فقال :

الى العلا في كل جيل وزمن فلن يموت مجدنا كلا ولن

وقد كان هذا البيت في الطبعة الأولى :

إلى العلا في كل عصر وزمن فلن يموت مجد مصر لا ولن

وما إن طوى هذا الضمير ، ووثق من مواراته ، ونفض عن يديه ترابه ، حتى وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئاً ، وصاح يؤنب شوقي لقوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا   إلــخ .... إلخ

ويسأله « وممن هذا الوعظ يا ترى ؟ أمن الشعب لنفسه أم من شوقي للشعب ؟ »

كما سألناه من قبل : « فمن الذي يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟ » وكما أخذنا عليه « أنه استوطأ مطية الفلسفة والمواعظ » .

وأنكرنا من نشيد شوقي أنه « قد حسب أننا سنظل طوال الدهر كدأبنا في يومنا هذا ، فنظم لنا نشيداً لا نتخطى به في جميع العصور أن يتهيأ مكاننا ، وأن لا نبرح نشرع في التمهيد ، ونأخذ في الاستعداد ، ونبدأ برسم خطط الملك ، ونهم بتشييد الأركان » .

فجاء أبو عمرو البيغاء فقال : « واذا قيل اليوم لبني مصر : هيا مهدوا للملك : ومكانكم تهيا . فهل يقال لهم هذا بعد مئة سنة وبعد ألف سنة وما شاء اللّه والى آخر الدنيا ، ولا يزالون الدهر كله في تمهيد ؟؟ » .

وعقبنا على قول شوقي عن الشمس « ألم تك تاج أوّلكم ملياً ؟؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج الفراعنة ، وإنما كانت معبوداً لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيغاء أيضاً « أن زعم شوقي أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين ، وإنما كانوا ينتسبون اليها ويعبدونها ؟؟ » .

فلله ما أعلم البيغاوات بالتاريخ إذا لقنته !!

وعبنا على شوقي تخفيف الهمزات وأنه صير « سئلت » سيلت و « وتهيأ » تهيا ، و « شيئاً » شيا . فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل في همزة سيلت لم يفهمه الا القليل ، وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه ، وأصل الكلمة سئلت » . فمذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

وروينا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين « تطاول عهدهم عزاً وفخراً » الخ الخ .

« لأن التنوين لا بد أنْ يسقط في الإنشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت » قالوا : « وإذا انتهى المنشد مثلاً الى كلمة « فخرا » ومد بها صوته ورجّعه فأي رائحة تفوح منها ؟؟ » ثم قلنا « ولسنا نحن ممن يبالي بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد » .

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين أنهم « تنادروا بقوله « فخرا » وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا : إنها مما لا يذوقه أحد الشعراء من طعم كلامه » ثم قال كما قلنا : « ولسنا بسبيل هذا السخف فلندعه » .

أتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذي صحب الزمانا ... ومن حدثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالي نمانا ... أوائل علموا الأمم الرقيا

لأن الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له

النفوس » فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد ، وتلفت متعجباً : « كيف غفل شوقي عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » .

فاسأله بالله ثم اسأله : كيف غفل ، أيها الراصد اليقظان . !!

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة أنه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادي النيل عدن إلخ .... إلخ

قال « إن البيت الثاني منبتر » ، وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادي النيل بعدن والكوثر ؟ » .

فترك هو القائل والراوي ، وزوى وجهه عنهما ، وصاح وحده : « كلام مقطوع عما قبله » وسأل من لدنه سؤاله « فإذا كان لهم بوادي النيل عدن وكوثرها فماذا ؟؟ » .

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذي الجلال وألفنا الصليب على الهلال

ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد سديد فإننا إن سمينا الوطن ملة ذي الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟ » فوضع أصابعه في أذنيه ـ أو لم يضعهما ـ وأصر وولى واستكبر استكباراً ، وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فإذا « زعم أنه يريد بملة ذي الجلال الدين مطلقاً قلنا له : فإن القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين ، وكل هذه الأديان ملة ذي الجلال » .

هذا كله ولا إشارة الى الديوان ، ولا كلمة يستشف منها أن أحداً تقدمه الى هذا النقد ، بل لعله قصد الى ادعائه عنوة ، فكتب على الرسالة أنها طبعت في نوفمبر سنة ١٩٢٠ ، ونسي لغفلة ذهنه أنه ضمنها في صفحة ٦٧ كتاباً للأستاذ منصور أفندي عوض مؤرخا في ١١ ديسمبر . . . .

فهذا الخلق البغيض ونظائر من جرثومته هي التي تملأ نفوسنا تقززاً وعزوفاً من أدب الجيل الماضي وأدبائه ، ومن صناعة ينتسبون اليها ، ولكن ليس لها ما لأحقر الصناعات من حرم يرعى ، ودستور يفاء إليه ، ووازع يوقف عند حده ـ أرجحهم منها سهماً أجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وأرفعهم فيها اسماً أطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعاً نقيضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولا حقوق لذويها ، ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ، وما على المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ، وإنما البأس عليه من المروءة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم في جلسة لجنة الأغاني فقيدناها لهم ، وأبينا لأنفسنا أن ندخلها في كلامنا مع أنها أهون وجوه النقد التي أخذناها على النشيد ، ومع أننا تحدثنا بها لأصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف ، وقبل أن نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحي ان يسِم نفسه على غلاف رسالته « بنابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها » يعمد الى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ، ولم ينقطع صاحبه عن إتمامه ، فينتحله جملة ، ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة ، حتى تسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالأصنام ،

ثم لا يرى أن عليه بعد ذلك أن يوحي بفرد كلمة اليه ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الأناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا في مصر كان هو يكتب رسالته في أقاصي الصين أو أطراف السويد ، ولا ندري وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة ـ من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة ؟؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه في وجه من أوجه النقد لم نذكره ، وظن أنه فاتنا ـ أبلغ في الفند والسخف ، فنعى على نشيد شوقي خلوه من لفظتي الحرية والاستقلال فمتى رأى هذا الأعمه أمة تتغنى بأنها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال ؟ وتتيه في مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه ؟

إيه يا خفافيش الأدب . أغثيتم نفوسنا اغشى اللّه نفوسكم الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم ، السوط في اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان ، فأكثروا من مساوئكم فإنكم بهذه المساوىء تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم إن كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة .

الفهرس

فهرس كتاب
خلاصة اليومية والشذور

الموضوع	الصفحة

فهرس كتاب
الفصول

فهرس كتاب
الديوان في النقد والادب

الموضوع	الصفحة
الديوان في النقد والأدب	٥١٣
مقدمة	٥١٥
شوقي في الميزان ـ توطئة	٥١٧
رثاء فريد	٥٢٤
رثاء عثمان غالب	٥٤٠
استقبال اعضاء الوفد	٥٤٩
النشيد	٥٥٩
شوقي في الميزان ـ ٢ ـ	٥٦٩
رثاء مصطفى كامل	٥٨٢
(١) التفكك	٥٨٤
(٢) الإحالة	٥٩٥

دار الكتب العلمية

طباعة . نشر . توزيع

[illegible]

[illegible]

[illegible]

TELEX No. DKL 23715 LE - ATT: MISS MAY. EL - ZEIN

FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON